محمد محمد علي

الشعر السوداني

في المعارك السياسية

١٨٢١ - ١٩٢٤م

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسن محمد امبابى الشاذلى
٩ شارع الصنادقية بالأزهر
٩٣١٢٩٦

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

الشعـــر السـوداني
في
المعـــارك السياسية

١٨٢١ — ١٩٢٤

رسالة ماجستير حازت تقدير
ممتـــاز

بإشراف : الدكتور أحمد هيكل
وعضوية : الدكتور أحمد محمد الحوفي
وعضوية : الدكتورة عائشة عبد الرحمن
« بنت الشاطىء »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في الصفحات التالية من هذه الرسالة حاولت أن أدرس الشعر السوداني الذي يتصل بالسياسة من قريب أو بعيد يؤثر فيهما ويتأثر بها ، من عام ١٨٢١م إلى عام ١٩٢٤م .

وقد كانت هذه الفكرة تراودني وتلح عليّ من زمن ليس بالقصير لأسباب عدة منها :

(١) أني أسمع من بعض السودانيين يقولون في حالة ضعف الحكومات الوطنية وتدهور الحالة الاقتصادية في البلد ، واشتداد تنازع الأحزاب على كراسي الحكم لوجه الحكم ، يقولون إن هذا الاستقلال الذي ظفرنا به جاءنا هبة من القدر ، ولم نبذل فيه ما يكافىء مهره من الدماء والعرق ، لهذا فنحن لم نقدره قدره ولم نحسن سياسته ، وربما امتد الشطط بنفر منهم فيثني على أيام الإنجليز وكان هذا القول يؤلمني ، لأنه بعيد كل البعد عن الحق ، ولأنه يهدر الدماء الزكية التي أراقها السودانيون والتي أراقها المصريون في كفاحهم المنفرد ، وفي كفاحهم المشترك على مذبح الحرية ، فلم يكن الإنجليز يخرجون من بلد احتلوه إذا كان يسمح لهم بالإقامة ، أو كانوا يستطيعون الإقامة فيه بالمكر أو القهر . فأردت أن أنفي هذا الزعم الباطل بدراسة يعانق فيها الشعر التاريخ الصحيح ويدعمه .

(٢) أنى رأيت بعض الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع لم يدركوا أبعاده فحصروه فى الشعر السياسى المباشر ، فى حين أن الأمر ليس كذلك ، فهناك أغراض كثيرة مظهرها إجتماعى ومخبرها سياسى كما سنرى .

(٣) أنى رأيت بعض الباحثين يغمط شعراءنا الكبار ، الذين أبلوا بلاء حسناً فى هذا المعترك حقهم ويجحد فضلهم ، ويحط من قيمة أشعارهم الفنية، ويعزلهم عزلا عن ظروف حياتهم وملابساتها ، فأردت أن أرفع عنهم هذا الحيف وأن أدفع عنهم هذا الظلم .

كانت تراودنى هذه الفكرة وتلح علىّ لهذه الأسباب ولغير هذه الأسباب ، ولكننى لم أجد من وقتى ما يمكننى من تنفيذها وتلبية إلحاحها ، حتى منحتنى وزارة التربية والتعليم السودانية مشكورة حيناً من الزمن أتفرغ فيه للبحث ، فحاولت أن أحقق ما كنت أصبوا إليه من زمن ليس بالقصير .

وكنت أظن بادىء ذى بدء أنى مستطيع فى هذا البحث أن أدرس الشعر السودانى السياسى منذ تجاربه الأولى الناضجة التى وقعت تحت يدى إلى يومنا هذا ، ولكنى بعد التجربة العملية اتضح لى أنى لم أكن أقدر هذه الدراسة قدرها ، فتراجعت ، وجعلت نهايتها عام ١٩٢٤م عام الثورة المشهورة بهذا التاريخ ، وتركت ما بقى من هذا الشعر وهو بحر طام إلى دراسة أخرى ستنجز قريباً إن شاء الله .

قدمت هذه الدراسة فى تمهيد وفصول أربعة وخاتمة ، وتحريت فيها بقدر المستطاع أن أكون موضوعياً ، أعطى كل ذى حق حقه وإن خالف مذهبه مذهبى ، ولكنى لم أستطع بحال من الأحوال أن أتوانى فى كشف القناع عن وجه الاستعمار البريطانى ، لا لكراهيتى للاستعمار وحدها ، ولا لما ألحقه بنا من اذى وعنت وإرهاق ، بل لجلاء الحقيقة التى تعامى عنها بعض

السياسيين وبعض المؤرخين وشرذمة ضئيلة من الشعراء ، فنسبوا للاستعمار البريطانى فى بلادنا فضلا يستحق عليه الثناء ! !

ولم يمنعنى حبى وتقديرى لرجال كبار تغيرت مواقفهم السياسية تغيراً جوهرياً أو تغيراً ما فيما بعد ، أن أسجل مواقفهم فى هذه الفترة ، ولم يمنعنى تمسكى بالحيدة أن أهتز لمواقف الأبطال من أمثال محمد أحمد المهدى وعلى عبداللطيف وعبيد حاج الأمين وعبدالفضيل ألماظ ورفاقه، كنت على مذهبهم أو على غيره .

وكنت فى أثناء هذه الدراسة أملأ الفجوات التى يفتحها صمت الشعر الفصيح بشىء من الشعر الشعبى . لأنى كنت حريصاً على أن أرصد كفاح الشعب السودانى ، ونضاله المرير فى سبيل حريته وكرامته ، ودفع الظلم والظالمين ، فلو اكتفيت بالفصيح وحده لاختفت جوانب كثيرة من هذا النضال ، ولأظلمت آفاق من التاريخ . مثلا موقف قبيلة الشايقية من الفتح التركى لم يقل فيه أصحاب الشعر الفصيح بيتاً واحداً ، وقال فيه أصحاب الشعر الشعبى أبياتاً ما تزال تهز مشاعر السودانيين حتى اليوم، ومظالم العهد التركى لم يقل فيها أصحاب الشعر الفصيح مما وصل إلينا إلا بضع أبيات ، وصورها ناظمو الشعر الشعبى تصويراً لابأس به ، والفترة التى حكم فيها الخليفة عبدالله التعايشى من المهدية كانت تبدو خيراً كلها لو اعتمدنا على الشعر الفصيح وحده ، وفى ثورة ١٩٢٤م صمت الشعر الفصيح إلا قليلا جداً ، وقد حداها الشعر الشعبى وخاض غمارها .

ولا أكتم القارىء أنى تعبت فى هذا البحث ، فقد فرض على أن أنجزه فى زمن قصير جداً ، أكل السقم الذى ينتابنى جزءاً كبيراً منه ، وأمضيت فى السودان أياماً وليال باحثاً عن المراجع السودانية التى لا وجود لها فى مصر ، وهى أيام وليال لم أتعلق فيها ببحث ولا درس ، وصادفتنى صعوبة

لم تصادف غيري ممن درسوا الشعر السوداني قبل هذه الدراسة التي أقدمها ، نشأت هذه الصعوبة من ظهور مخطوطة تحوي قدراً من الشعر الذي قيل في فترة المهدية ، وهي ناقصة مبهمة المعالم ذات خط لم يعتد قارىء اليوم قراءته ، فأخذت معالجتها من هذا الوقت المحدود ما أخذت ، لهذا كله فإني لا أزعم إطلاقاً أن هذه الرسالة جاءت على الصورة التي أريدها لها .

وإني لشاكر ومقدر لأستاذنا الدكتور أحمد محمد الحوفي حسن توجيهه إياي وإرشاده في الجزء الذي نظره من هذه الرسالة قبل أن ينتدب إلى العراق ، ويخلفه في الإشراف عليها أستاذنا الدكتور أحمد هيكل ، فكان خير خلف لخير سلف ، وإني لشاكر له ومقدر ما أسدى من إرشاد وتوجيه .



تمهيد

(أ) الشعر السوداني في المعارك السياسية

جرت عادة الباحثين أن يوضحوا المقصود من عنوان البحث، ويحددوا معالمه تحديدا دقيقا؛ ولعل السر في هذا أن يقف القارىء على صورة صغيرة مضبوطة للبحث قبل المضي في قراءته، وأن يحاسب الكاتب - إن أراد - حين يراه يخرج عما حدد أو قصر في الوفاء بما رسم، وللقدماء تعبير دقيق في هذا، فهم يقولون ترجم المؤلف لشيء ولم يذكره، وذكر شيئاً ولم يترجم له.

وجرياً على هذه السنة أقدم تعريفاً مختصراً لموضوع البحث فأقول :

المعارك جمع معركة والمعركة موضع القتال أو الخصام، وهي صيغة تصلح للزمان والحدث كما تصلح للمكان شأن المصدر الميمي، والمناسب هنا الحدث فيكون المعنى الشعر السوداني في الأحداث السياسية وهذا المعنى ليس مجازاً لأن المادة «عرك» تشمل أنواع القتال باليد أو باللسان أو بالكيد والتدبير.

وتدل كلمة سياسية كما وردت في المعاجم العربية على تدبير شئون الناس والرياسة عليهم ونفاذ الأمر فيهم[1].

وهذه المعاني هي ما تدل عليه الكلمة (Policy) في اللغة الانجليزية في فن التدبير وطريقة الحكم وأشكاله في قطر من الأقطار[2]. والرجل السياسي هو الذي يمارس أعمال الإدارة المدنية وهو أيضا الحاكم الرسمي والموجه الناصح[3].

---

(١) لسان العرب والقاموس في هذه المادة.

(٢) دائرة المعارف البريطانية في هذه المادة.

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٣ وآداب السياسة للدكتور الحوفي ص ٧.

وهي عند المسلمين الأولين كانت منوطة بالخلافة وقد عرفها الماوردى بقوله الامامة موضوعة لخلافة النبوة ، وحراسة الدين ، وسياسة الدنيا [١] وعرفها ابن خلدون بقوله حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية [٢] .

والسياسة عند إخوان الصفا خمسة أنواع [٣] :

١) السياسة النبوية القائمة على تهذيب النفوس ، ونقلها من الغى إلى الرشاد .

٢) السياسة الملوكية القائمة على نفاذ الأحكام التى رسمها صاحب الشريعة أمراً ونهياً .

٣) السياسة العامة التى هى رياسة الجماعات ، كرياسة الأمراء على البلدان والمدن ورياسة قواد الجيش على العساكر .

وهناك نوعان لا يدخلان فيما نحن فيه وهما : سياسة الأسرة وسياسة النفس .

فتعريف المسلمين الأولين وتعريف الغربيين يتفقان فى أن السياسة فن الحكم ، ويختلفان فى أن الغربيين يقصرون الحكم على شئون الدنيا ولا يدخلون الدين فى فن الحكم [٤] .

والمعنى الذى اتفق فيه تعريف المسلمين والغربيين هو المصطلح السائد اليوم ، لأن أغلب دول العالم بما فيها أكثر الدول الاسلامية قد اصطنعت هذا الأسلوب من فن الحكم .

أما دراسة هذا الأسلوب من نواحى شكله ونظامه ومزاياه وعيوبه ومن نواحيه فى داخل الدولة ، وفى خارجها ، وفى علاقتها بغيرها من الدول

---

(١) الأحكام السلطانية ص٣ وادب السياسة ص ٧ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠ .
(٣) اخوان الصفا جـ ١ ص ٢٠٧ طبعة مصر .
(٤) أدب السياسة ص٧ .

سواء كانت هذه الدراسة فى الزمن الحاضر أو فى الماضى ، فان هذا كله هو ما يطلق عليه علم السياسة[1] .

ويكون الشعر السياسى على هذا فناً من القول يتصل بنظام الدولة الداخلى أو بنفوذها الخارجى ومكانتها بين الدول [2] .

وأرى من الخير أن نزيد فى تعريف الشعر السياسى فى وقتنا الحاضر فنقول (وحركات الشعوب ونزعات الشعراء) لأن العالم قد تغيرت صورته منذ أن بسطت الدول المستعمرة نفوذها على آسيا وأفريقية بل وأمريكا فى يوم من الأيام ، ففقدت شعوب كثيرة دولها ، واستكانت حينا من الدهر ، ثم هبت تصارع لنيل حريتها واستقلالها ، فهذه الصورة لا تشبه ما يجرى داخل الدولة من نزاع حزبى أو وفاق ، ولا تشبه ما يكون من صلة الدولة بغيرها من الدول سلماً أو حرباً وما إلى ذلك من شئون. وبعض الشعراء قد تطور وعيهم السياسى وانقسمت آفاقهم وارتبطوا بمذاهب واتجاهات جعلتهم لا يقفون عند نطاق الدولة يدورون معه فى الداخل والخارج، وبالاختصار فقد أصبحت لهم رسالة تتناول العالم كله كالغناء للسلام والاشتراكية ومحاربة الاستعمار فى ثوبه القديم والجديد ، وإن لم يكن بين دولهم والأمم التى نزل بها هذا الشعر صلة وارتباط .

والشعر الذى يتناول السياسة له طبيعة خاصة فى تناول موضوعاته ، فهناك فرق أصيل بينه وبين النثر فى هذا المجال ، فالنثر يتناول الموضوعات السياسية محللا ومقرراً ومبرهناً كما نرى فيما تكتبه الصحف السياسية وغيرها من وسائل النشر كالكتب والمحاضرات ، أما الشعر فيسير مع طبيعته الفنية فيلجأ إلى العاطفة ويعرضها فى صور فنية جذابة ، فهو

(١) المصدر نفسه ص ٧ . الشايب — تاريخ الشعر السياسى ص ٤ .
(٢) الشايب — تاريخ الشعر السياسى — ص ٤ .

يخاطب الشعور ويستثير العاطفة ، ويكتفى باللمحة المضيئة والاشارة الدالة .

هذا هو الأصل لكل من الفنيين ، وقد يتعدى كل منهما دائرته ويتجاوز طبيعته فينتحل النثر أسلوب الشعر وينتحل الشعر أسلوب النثر فيقرر ويسوق البراهين المنطقية (١) كقول الكميت :

يقولون لم يورث ولولا تراثــه   لقد شركت فيه بكيــل وأرحب
ولا انتشلت عضــوين منه يحابر   وكان لعبد القيس عضــو مؤرب
فإن لم تكن تصلح لحى سواهم   إذا فذوو القربى أحق وأقرب (٢)

وقد تجمع القصيدة بين الأسلوبين ومن أمثلة ذلك قصيدة أبى تمام المشهورة فى فتح عمورية .

السيف أصدق أنبـاء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

والشعر الذى يتصل بالسياسة ليس جديدا فى لغتنا العربية ، بل هو فن قديم عرفه العرب منذ جاهليتهم ، هتف به شعراء القبائل . واتخذوه سلاحا بجانب السيف والرمح . « وجرح اللسان كجرح اليد » وانبرى كل شاعر منهم ينافح عن قبيلته ، يخايل بانتصارها ويشدو بأيامها الغر الطوال . ويعتذر عن هزيمتها . . الخ .

ولما تبلج فجر الاسلام بينهم أصبح الشاعر يدافع عن عقيدة ومبدأ ، وانقسم الشعراء إلى فريقين ، فريق ينصر الاسلام ويذود عن حوضه ، وفريق يناضل عن سيادة رؤسائه وموروث آبائه . وصحب هذا الشعر الفتوحات الإسلامية ونفخ الحماسة فى صدور الأبطال وصور المعارك ، ثم قاد حركة الصراع بين على ومعاوية ، وبينهما وبين الخوارج .

---

(١) الشايب — تاريخ الشعر السياسى — ص ٥
(٢) الهاشميات ص ٤٢ .

ولما تم النصر لبنى أمية وقبضوا على ازمة الحكم ، وصيروا الخلافة ملكا عضوضاً ، كانت بجانبهم أحزاب تناوئهم ، وتبسط لسانها فيهم ، وكان لهم شعراء ينشرون محامدهم ويردون على خصومهم . وأطلت القبلية بوجهها العبوس بعد أن خضد الإسلام شوكتها وقلم أظافرها ، فاستأنفت ما كانت فيه ، ودارت معارك بين هذه العناصر حمل الشعر رايتها وخاض غمارها وشرى وباع . وهكذا فعل بنو العباس فكان لهم شعراء ولخصومهم شعراء واذا تنحى عن الميدان حزب ابن الزبير ، وغاض تيار الأمويين فقد فاض فى أيامهم تيار كان يسيل فى حياء . شعاره تحقير العرب والعمل على إزالة دولتهم ، ذلك الاتجاه الشعوبى الذى سارت فيه جماعة كبيرة من الموالى .

وظل الملوك فى عهد الدويلات ، وفى المغرب والأندلس يعتمدون على الشعر بجانب وسائل اخرى فى تأييد ملكهم وتثبيت أركانه . ولم يهبط الشعر من قمته الشامخة ويفقد سلطانه الا فى عهود الاتراك الذين لا حظ لهم من تذوقه وتقدير اثره الجليل [١] .

ثم وثب هذا الشعر من مرقده صاخباً مجلجلا حين ابتلى الوطن العربى بالإستعمار الغربى ، ومس العرب شواظ من الوعى السياسى ، فهبوا للدفاع عن أرضهم وعن شرفهم وميراثهم الثقافى والحضارى ، هدر هذا الشعر فى مصر وسورية ، والعراق وفلسطين (ردها الله من غربتها) وتونس والسودان وحدا به المهاجرون أوطانهم وهم فى مهاجرهم .

والشعر المتصل بالسياسة أثير عند أهل السودان ، وكانوا إلى عهد قريب لا يستمعون إلى غيره من ألوان الشعر إلا بشىء من التسامح وسعة

---

(١) هذا خلاصة القراءة بعض الكتب — أدب السياسة للحوفى، تاريخ الشعر السياسى للشايب، طائفة من كتب تاريخ الأدب ، وطائفة أخرى من الجمهرة الشعرية والدواوين .

الصدر ، لأنهم يريدون من الشعر أن يكون دائماً فى المعركة بصورة مباشرة، يريدون منه أن يستحث عزائمهم ، ويسجل أمجادهم ، ويباهى بشهدائهم ، ويتغنى بتاريخهم ، ويلعن أعدائهم ، ويدمغ الخونة بميسم لا يمحوه الدهر . لذلك كانوا يتدافعون بالمناكب لسماعه ، وتضيق بهم المنتديات فى حفلات الأعياد الدينية السياسية[1] ، ثم فى حفلات الأعياد الوطنية بعد أن طرد الوطن غاصبيه وظفر باستقلاله والتحم بإخوانه العرب فى كل وطن عربى .

وقد تطور هذا اللون من الشعر فى السودان ، واتسع نطاقه وتنوعت موضوعاته ، فلم يصبح محصورا فى مدح حاكم من الحكام أو فى تأييد زعيم معين أو معارضته ، أو تأييد حركة مما يجرى داخل السودان أو منا وأتها . ولكنه بسط جناحيه ورمى بنفسه فى الآفاق القريبة والبعيـــدة ، تناول الأحداث التى جرت فى داخل السودان فأيد وعارض ، وصال وجال ، وواكب ركب الكفاح المشترك بين مصر والسودان ، وأشبع الانجليز ذماً وتفنيداً ، ولعن وسائلهم المضللة لعنة الكاهن وضربها ضربة الثائر ، ورمى تماثيلهم بحجارة من سجيل . وعانق الشئون العربية فى مصر وفلسطين والشام والعراق والجزائر واليمن ، وارتبط بحركة النضال فى إفريقية ، فخاض معركة الأحرار فى الكونغو ، ووضع على قبر لوممبا طاقات من الشعور الفياض ، وصرخ فى وجه أعدائه وتوعدهم بسوء المصير وخيبة المنقلب . وامتد فيضه أكثر فأكثر حتى ساند أمماً لم تربطه بها رابطة سوى بغض الظلم والظالمين ، فطارد الاستعمار فى كل ركن من الأرض ، ووقف من الحرب موقف الذين أحبوا السلام حقاً وصدقاً ، السلام القائم على أعطاء كل ذى حق حقه ، لا سلام تجار السلاح وشاربى دماء الشعوب ، فكشف القناع عن وجهها الكريه ومخبرها البشع .

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى لحسن نجيله ص ٥٩ — ٦٢ .

وهذا الشعر قد تمثل فى معارض ، تمثل فى المدح والهجاء والرثاء والفخر الجماعى بحاضر الأمة وماضيها ، والإشادة بالمؤسسات التى أقامها الشعب وأنف الاستعمار راغم ، وقد يظهر فى ثوب[1] دينى ، فيكون ظاهره تمجيد مناسبة دينية وباطنه دعوة سياسية ، وقد يتوارى خلف أسطورة سودانية مشهورة وهو يعنى الحكومة القائمة ، وتجلى هذا كله فى شكل مقطوعة أو قصيدة أو ماهو قريب من الملحمة كما سنرى أن شاء الله ، فى هذا الجزء والجزء الذى يليه من البحث .

---

(١) ملاحظ ص ٥٧ .

(ب) التجمع العربي فى السودان

من عهود قديمة جداً عرف السودان العرب والهجرات العربية، عرفهم رعاة ينشدون الماء والكلاء ، وعرفهم تجاراً يعطونه ويأخذون منه، وعرفهم باحثين عن الذهب فى مناجمه .

عبروا إليه البحر الأحمر من جانب ضيق هو باب المندب ، قوافل فى إثر قوافل ، منها مايجيء ويذهب ، ومنها مايستبدل وطنه الجديد بوطنه القـــديم .

من هذا الطريق اختلطوا بالحاميين والزنوج من السكان الأول، فزجوا دماءهم بدمائهم وثقافتهم بثقافتهم، فكانوا نواة لشجرة العروبة فى السودان .

ومن مصر على شاطىء النيل وعبر صحراء العتمور ظل الطريق مأهولا بالقادمين إلى أرض النوبة منها ، والذاهبين من أرض النوبة إليها منذ أن جرى النيل ، فأزدهرت التجارة والحضـــارة والدين الوثنى ، ثم رتلت الكنائس ترانيم النصرانية ، فقامت فى السودان دولتان نصرانيتان عاصمة أحداهما دنقلا العجوز ، وعاصمة الثانية (سوبا) ، ومن هذا الطريق تدفق العرب المسلمون حين بسط الإسلام جناحيه على مصر ، ويواكبه طريق آخر يربط مصر بكردفان ودارفور .

ومنذ قديم ارتبط غربى السودان بشمالى إفريقية ، فقدم المهاجرون إلى السودان من ليبيا وتونس وطرابلس ومراكش ، ومن الأندلس لما غربت شمسها . فكانت الاستثناء الفريد فى القاعدة التى تقول إذا غرست الثقافة العربية الإسلامية فى مكان مكثت فيه جذورها إلى الأبد .

وشأن الإســـلام فى السودان لم يكن كشأنه فى الشام والعراق ومصر والمغرب والأندلس .. الخ ، فلم تفتحه الدولة فتحا ، وإنما كانت تحمل على أطرافه من الشمال ومن الشرق فتنتهى حملاتها بصلح ومعاهدة تنفذ حينا وتنقض أحيانا .

من ذلك أنه لما تم فتح مصر كان لابد للجيش الإسلامى من دخول بلاد النوبة ليحقق غرضين ، كان لزاما عليه أن يؤمن حدوده الجنوبية من غارات النوبة ، وكان لزاماً عليه أن يؤمن الطريق التجارى الذى يربط هذه البلاد بمصر[١] . فبعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع عام ٦٤١ م على رأس جيش إلى بلاد النوبة (رجع بالجراحات وذهاب الحدق ، لجودة رميهم فسموا برماه الحـــدق) كما يقول أحد القدماء[٢] . وفى عام ٦٥٢م غزاهم عبد الله بن أبى السرح بجيش كثيف فرماهم بالمنجنيق وكان غير مألوف لديهم، فسلموا وقرر عليهم شيئا معلوماً من المال وعاهدهم، وكان من شروط المعاهدة (عليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، لاتمنعوا منه مصليا ، وعليكم كنسه واسراجه وتكريمه)[٣] .

من هذا نرى أن الإسلام مهد طريقه فى هذه البقعة النصرانية قبل أن تنتصر الدولة الإسلامية على مملكة النوبة الشمالية نصراً مبينا .

واكتفى المسلمون بهذه المعاهدة التى أمنت حدودهم الجنوبية ، وضمنت سلامة الطريق للتجار المسلمين داخل بلاد النوبة . ولم يروا ضمها إلى الرقعة الإسلامية لفقرها وعدم جدواها ، ولأنهم كانوا يعدون حملات على أرض

---

(١) السودان عبر القرون — لمكى شبيكة ص ٢٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٩٧ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٨٩ — طبعة بيروت

(٣) البلاذرى ص ٣٢٢ طبعة بيروت .

غنية فى شمالى إفريقية ، ثم إنهم يريدون تثبيت أقدامهم فى الأرض التى فتحوها[١] .

واستمرت علاقة الدول الإسلامية المتعاقبة على مصر بمملكة النوبة الشمالية نحو ستة قرون على أساس هذه المعاهدة .

أما البجة فى شرقى السودان فصالحهم ابن الحباب بعد نضال عنيف إثر غارة قاموا بها على جنوبى مصر وعقد معهم معاهدة ، ولكن البجة جددوا غارتهم على أسوان أيام الخليفة المأمون ، فجرد عليهم حملة على رأسها عبد الله بن الجهم ، وبعد صراع كسرهم وأملى عليهم معاهدة صارمة ، تجعل بلادهم من أسوان إلى جزيرة الريح ملكاً للخليفة ، وتجعلهم هم جميعا عبيداً له ، ويجب عليهم أن يحافظوا على حياة المسلمين الذين يدخلون بلادهم للتجارة أو الإقامة ، وتلزمهم ألا يهدموا المساجد التى أقامها المسلمون بصيحة وهجر ، وعلى ملكهم أن يدخل عمال أمير المؤمنين لقبض الصدقات ممن أسلم منهم .

وواضح من هذه المعاهدة أن الإسلام قد توطن هذه الديار قبل عقدها، فهنا مساجد وهنا مسلمون تؤخذ ممن أسلم منهم الصدقات .

وتتابعت الأحداث ، بعضها سياسى وبعضها إقتصادى فتدفقت الهجرات العربية إلى أرض السودان ، ونزلت على الرحب والسعة ، واختلط العرب بأهل البلاد ، وبأوائلهم الذين قدموا إليها منذ العصر الجاهلى ، فأصبح العرب هم الفريق ذا الشوكة فتجمعوا وأقاموا دولاً أسلامية عربية على أنقاض الدولتين المسيحيتين وفى أجزاء أخرى من السودان لم تعرف المسيحية[٢] .

---

(١) السودان عبر القرون الدكتور مكى شبيكة ص ٢٦ .

(٢) انظر فى هذا كله نعوم شقير ج ٢ ص ٣٩ــ١١٠ والسودان عبرالقرون ص١٨ــ٥١ .

(ج) ثمرات التجمع

وأول انتصارهم أن اختطوا مدينة أربجى اختطها حجارى بن معين[1] فهى النواة التى خرج من جوفها السودان العربى المسلم ، ومنها ومن مناطق أخرى تجمعوا ووثبوا على (سُوبَا) عاصمة الدولة النصرانية الثانية وعلى (كَرِّى) يقول المؤرخ نعوم شقير نقلا عن مخطوطة الشيخ عبد الدافع . وانتقل الفونج من الجنوب إلى جبل مُويَة المجاور لجبل سَقَدِى على مقربة من سِنَّار ؛ وكان كبيرهم عُمَارة دُنْقُسْ ، وفى جوارهم قبيلة من جهينه تعرف بالقواسمة وعليها شيخ شديد البأس يقال له عبد الله جَمَّاع، فاتحد عمارة وعبد الله على ضم كلمة المسلمين ومحاربة النوبة ، ونزع الملك من أيدى العنج فحشدا الجيوش وهاجما العنج فى سوبا وقتلوهم شر قتلة، وأخربا سوبا ، ثم سارا إلى كَرِّى فقتلا ملكها واستوليا عليها عام ٩١٠ هـ — ١٥٠٥م[2] .

وقامت دولة سنار العظيمة فى هذا العام نفسه ، وظهرت بجانبها سلطنة الفور فى غربى السودان عام ١٦٣٧م ، ومملكة تقلى فى منطقة جبال النوبة حوالى عام ١٥٣٠م[3] .

وامتدت رقعة مملكة الفونج[4] فى أيامها الزاهرة إلى الجندل الثالث شمالا فقضت على الدولة المسيحية السفلى ، وامتدت إلى فازوغلى جنوبا ، وإلى

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة — ص ٤ — ٥ .

(٢) نعوم شقير ج٣ ص ٣٧ — طبعة مصر .

(٣) يقظة السودان ص ١١ .

(٤) هذا هو اللقب الذى أطلقه عليها المؤرخون وهى فى الحقيقة عبدلاب، والعبدلاب قد ظلمهم معظم المؤرخين .

حدود سلطنة دارفور غربا وإلى البحر الأحمر شرقاً ، ما عدا سواكن التى إستولى عليها الأتراك العثمانيون[١] .

وكان الحكم فى سنار إستبداديا ، وبربط أجزاء الدولة تحالف ، (confebral) فهى تتكون من عدد القبائل المتحالفة، ولكن هذا التحالف لم يكن دائماً وثيقاً ، فهذا الشيخ ود ضيف الله يذكر فى مواطن من كتابه نشوب حروب بين العبد لاب والفونج[٢] . وفى مستهل القرن الثامن عشر انفصل الشايقية عن الحلف[٣] .

ولم تكن سنار على وفاق مع سلطنة دارفور ومملكة تقلى بل دخلت الممالك الثلاث فى نزاع شديد ، بحركة التنافس للاستيلاء على أرض السودان كلها ، أو السيطرة على بعض الجهات الهامة ، فحارب الفونج حكام مملكة تقلى ، ولكن هذه المملكة استطاعت أن تحافظ على إستقلالها إلى مطلع القرن التاسع عشر ، ونشبت حرب ضروس بين مملكة الفونج وسلطنة الفور أثارها النزاع على اقليم كردفان الواقع بينهما، وتكرر الصدام بينهما ولكنه لم يحقق مطامع الفونج فى امتلاك الإقليم، وتحطمت قوى الفريقين المتناضلين من جرائه[٤] .

وفى عهد ياسوس « yasous » الثانى إمبراطور الحبشة بدأ الأحباش يغيرون على حدود مملكة سنار ، ثم التحموا بالسودانيين فى معركة رهيبة كان النصر المؤزر فيها لمملكة سنار ، وكان المسلمون يرقبون هذه الحرب باهتمام شديد فلما انتصرت طار صيتها فى الأرض وسمع به الخليفة العثمانى

---

(١) يقظة السودان الدكتور ابراهيم احمد العدوى ص ١١ .

(٢) مثلا انظر الطبقات ص ١١٤ .

(٣) الشايقية — ترجمة الدكتور عبد المجيد عابدين — ص ٢١ .

(٤) يقظة السودان ص ١١ .

ففرح فرحا شديدا[1] . يقول المؤرخ محمد عبد الرحيم « كتب الدكتور نيازى فى العدد ١٤٩٥ من جريدة الوقائع المصرية معلقاً على انتصار مملكة سنار على الحبشة وهزيمة « باسوس » الذى أغار عليها فى ألف مقاتل سنة ١٤٩٥هـ « بهذه الواقعة إزدادت شهرة سنار فى الأقطار الإسلامية ، إلى أن وصلت أخبارها إلى السلطان الأعظم والخاقان الأكرم ملك القسطنطينية فسر بذلك سرورا عظيما ، وبعدها وفدت على سنار وفود الحجاز والهند والسند وصعيد مصر والمغرب .... الخ[2]» .

ذاع صيت سنار فى الآفاق فشخص إليها العلماء ورجال التصوف من أنحاء العالم الإسلامى ، من اليمن والحجاز والعراق ومصر والمغرب والأندلس[3] .

وقد كان لملوك هذه الدولة اهتمام خاص بنشر العلم وإكرام العلماء ، وخصوصاً الشيخ عجيب الحاج[4] ملك قرّى وكان وثيق الصلة بالحجاز ، وكان الملك بادى أبو دقن كما وصفه الشيخ أحمد كاتب الشونة « جلدا كريماً معظماً لأهل العلم والدين ، وكان يرسل الهدايا مع خبرائه إلى العلماء بمصر وغيرها ، وهو الذى مدحه الشيخ عمر المغربى مفتى الجامع الأزهر وغيره من العلماء ، لما وصلهم بعطاياه الجزيلة مع خبيره ود عدلان .... كانت مكارمه كثيرة ومحاسنه شهيرة ، ويكفى فى ذلك مدح علماء الأزهر له بالقصائد العجيبة والبلاغة الغريبة ، منها قصيدة الشيخ عمر المغربى المذكور[5]» وهذه أبيات منها :

---

(١) السودان عبر القرون — الدكتور مكى شبيكة ص ٧٤ .
(٢) مجلة ام درمان — المجلد الأول — العدد السادس ص ١٦٢ .
(٣) الطبقات ص ٥ ، ٤٧ ، ٥٤ .
(٤) الطبقات ص ٥ .
(٥) مخطوطة كاتب الشونة ص ١٠ ، ١١ .

أيا راكبا يسرى على متن ضامر ... إلى الغرب يهوى نحو طيب الذكر[1]
ويطوى إليه شقة البعد والنوى ... ويقتحم الأوعار فى المهمة القفر
وينهض من مصر وشاطىء نيلها ... وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير إن وافيت سنار قف بها ... وقوف محب وانتهز فرصة الدهر
وألق عصا التسيار فى سوح أنسها ... تجد كل ماتهوى النفوس من الأمر
وأهد سلاماً عطر الكون نشره ... ألذ من الماء الزلال أو القطر
وأحلى وأهنى من وصال بلا جفا ... وأغلى وأعلى من عقود من الدر
إلى حضرة السلطان والملك الذى ... حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور « بادى » الذى له ... مناقب قد جلت عن العد والحصر

ومدحه بقصيدة أخرى فى البحر نفسه كأنه يجاريها ، منها :

أيا راكبا قد جد فى السير قاصدا ... مواطن أحباب هناك أعزة
ويقتحم الأوعار بالجد فى السير[2] ... إليها بإقدام وأقوى عزيمة
وينهض مصر وشاطىء نيلها ... كنهضة مشتاق للقيا الأحبة
ويطوى إليها شقة البعد قاصداً ... دياراً بها أحباب قلبى وبغيتى
لك الخير إن وافيت سنار قف بها ... وقوف محب ذى وفاء وذمة

---

(١) فى رواية نعوم شقير فى كتابه تاريخ السودان ج٣ ص ٧٧ .

أيا راكبا يسرى على متن ضامر ... إلى صاحب العلياء والجود والبر

وهى رواية متأخرة ، ولعله أراد أن يحسن الشطر الثانى من البيت لأنه يشتمل على غموض ، وضعف فى التركيب ، فالذاهب إلى السودان من مصر لا يهوى إلى الغرب ولكنه يذهب جنوباً . أما الضعف فى نحوه طيب الذكر ، فقد رجع الضمير فيه إلى متأخر لفظا ورتبة وهو عيب عند علماء البلاغة :

(٢) لعلها السرى .

وألق عصا التسيار في سوح أرضها | تجد راحة فيها وأوفر حرمة
وعرج على قصر العزيز مليكها | جميل المحيا زين كل قبيلة
وعول عليه في أمورك كلها | بود وإخلاص وصدق طوية
تجد عزة عظمى وتظفر بالمنى | وتصبح في عز منيع ورفعة

وهو في هذه القصيدة يعرف الملك بنفسه فيقول :

حنانيك يافخر السلاطين إنني | بمصر غريب والفضائل حرفتي
ولي سند عال بساحة أزهر | ومشتهر فيه بعلم وحكمة
وإني لقاض في رباها وسوحها | بغاية إتقان وأكمل عفة
وفتواي قد شاعت بشرق ومغرب | على النمط المعروف عند الأئمة
وهاك رعاك الله مني قصيدة | منظمة كالدر أو كالسبيكة
وإني أنا العبد الفقير محبكم | سمي ابن خطاب جليل الأئمة[1]

وهذا يرجح أنها كانت قبل الرائية ، لأن الرائية لو كانت سابقة فهذا التعريف يكون فضولا ، ومعنى هذا أن الشيخ عمر المغربي مدح الملك بادي أولا بقصيدته هذه ثم بالرائية .

تداول المؤرخون القصيدة التي مطلعها :

أيا راكبا يسري على متن ضامر
إلى الغرب يهوى نحوه طيب الذكر

تداولوها مطمئنين إلى أنها من نظم الشيخ عمر المغربي في مدح الملك

(١) كاتب الشونة ص ١٤ — ١٥ .

بادى، ولكن الأستاذ الشاطر بصيلى أثبت فى تحقيقه مخطوطة الشيخ أحمد كاتب الشونة وتعليقه عليها أنها منحولة ؛ لأنها فى مدح السلطان بايزيد الذى حكم بلاده من عام ١٤٨١ م — ١٥١٢ م وهو تاريخ سابق لتاريخ الملك بادى الذى كانت نهاية حكمه سنة ١٦٧٧ م ويقول إن القصيدة نقلت من كتاب «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» لمؤلفه قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى ص ٢٦١ — ٢٦٢ وقد عاش المؤلف من سنة ١٥١٤ — ١٥٨٢ م، أخذت القصيدة من هذا الكتاب بطريق مباشر أو غير مباشر مع كثير من التحريف اللفظى والحذف والإضافة لتصبح مناسبة لسنار وملكها السلطان بادى أبى دقن[1] » .

وهذا حق لا ريب فيه ، ولكن المؤرخين لا تثريب عليهم فى الاستشهاد بها، فهى مازالت بعد تحقيق الأستاذ الشاطر بصيلى صالحة للاستشهاد بها على أن السلطان بادى قد مدحه علماء الأزهر ، فالقصيدة سواء أكانت من نظم الشيخ عمر المغربى أم من انتحاله سائرة فى طريقها وافية بغرضها. وهى ناطقة سواء أكانت من نظم الشيخ أم انتحاله بعلاقة السلطان بعلماء الأزهر .

غير أن الأستاذ الشاطر بصيلى شفع هذا التحقيق الذى يشكر عليه ، بأمرين : أولهما قوله « ومن المحتمل أن تكون هذه القصيدة قد أدخلت على الشيخ المغربى[2] » ، ولم يقدم دليلا يجعلنا نشاطره هـــذه الشبهة ، ولم يذكر الباعث على إدخالها على الشيخ المغربى ، ولم يذكر السبب الذى بعث فى نفسه هذا الشك ، من الذى أدخلها على الشيخ المغربى ؟ ! ولماذا دست على الشيخ المغربى ؟ لا أظن أحداً يقدم على هـذا إلا السلطان نفسه أو أحد أعوانه ؛ أما أى شخص آخر فمن مصلحته أن ينسبها

---

(١) كاتب الشونة ص ١١ (٢) كاتب الشونة ص ١١ .

إلى نفسه ويقبض جائزتها السنية من السلطان ، هذا هو المنطق . وعلى هداه يكون الاستاذ الشاطر بصيلي أتهم الملك بادى تهمة خطيرة بلا برهان أو مايشبه البرهان .

وعندى أن الشيخ المغربي لا يرى فى هذا بأسا ، ولا يراه من الكذب الحرام ، إنها قصيدة ترضى الملك وتدفعه إلى المزيد من عمل البر .

ولعل الأمر كان يسير على هذه الصورة :

وفد خبير السلطان إلى مصر لشئون كثيرة ، منها بر العلماء وطلب الدعاء منهم ، فاتحف الشيخ بهدية سرته ، وهو لابد أن يكون شكوراً ، وأن يبلغ شكره السلطان فى صورة رائعة تشرح صدره وتذيع فضله ، ولعل الخبير كان عجلا يريد الأوبة ، وكان وقت الشيخ لايتسع إلى قرض قصيدة ترضى السلطان ، والشعر — كما هو معلوم — نكد لا يجود فى كل آن ، فعمد إلى قصيدة خاملة الذكر وأعمل فيها قلمه لتناسب سنار وملك سنار .

والأمر الثانى هو أنه أخذ يشككنا فى نسبة القصيدة الثانية إلى الشيخ عمر المغربي :

أيا راكبا قد جد فى السير قاصدا مواطن أحباب هناك أعـــزة

ولم يقل أحد إنها معزوة إلى غيره كما حدث فى القصيدة الأولى ، وكان الأحرى أن تكون صحة نسبة هذه إليه ، دليلا على تصرفه فى تلك .

إن الاستاذ الشاطر بصيلي هنا عمد إلى شيء يأباه التاريخ ويأباه العلم على إطلاقه ، فهو بعد أن قال « هى كذلك فيما يبدو منقولة من مرجع لا علاقة له بتاريخ سنار[1] » أحالنا إلى الحاشية (ص ١١) فرجعت إلى

---

(١) كاتب الشونة ص ١٤ هامش .

الحاشية المذكورة فلم أجد فيها شيئاً يتعلق بهذه القصيدة إطلاقا .

وأنا لا أدرى الباعث الذى جعل الأستاذ الشاطر يلح على تزييف هذا الشعر بالحق وبالباطل !

ما الغرض من هذا ؟ !

أهو تنزيه الشيخ المغربى عن قرض الشعر أم تنزيهه عن مدح الملوك ، أم هو نفى العلاقة بين علماء الأزهر وملوك سنار ؟ !

إذا كان الغرض تنزيه الشيخ المغربى عن نظم الشعر ، أو نظمه فى مدح الملوك ، فأن الناس فى ذلك الزمان لم يذهبوا إلى ماذهب إليه الإمام الشافعى من أن الشعر يزرى بالعلماء :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى   لكنت اليوم أشعر من لبيد

ولم يكونوا ينظرون إلى شعر المدح كما ننظر إليه اليوم ، وليسوا كلهم قد استجابوا الى دعوة الشيخ فرح بن تكتوك :

يا واقفاً عند أبواب السلاطين   ارفق بنفسك من هم وتحزين
إن كنت تطلب عزاً لافناء له   فلا تقف عند أبواب السلاطين

أما عمق الصلة بين سنار وعلماء الأزهر فأمر لاسبيل إلى الجدل فيه . فإن أعظم علماء سنار تخرج فى الأزهر الشريف ، أذكر منهم على سبيل المثال : الشيخ إبراهيم البولاد ، والشيخ عمار بن عبد الحفيظ ، والشيخ محمود العركى راجل القصير[1] .

وكان علماء سنار يحتكمون فيما شجر بينهم من خلاف إلى علماء الأزهر[2] ، وكانت بين علماء سنار وعلماء الأزهر مودة ومهاداة من ذلك أن الشيخ إبراهيم صغيرون ، أرسل إلى الشيخ محمد الخرشى جارية على سبيل

---

(١) الطبقات ص ٦، ١١٧، ١٦٢ .   (٢) الطبقات ص ١١٤ و ٩ـ١٠ .

المدية ، فكافأة الشيخ الخرشي بنسخة من شرحه الكبير على مختصر خليل في مذهب مالك الذي عم النفع به شرقاً وغرباً كما يقول صاحب الطبقات[1].

فإذا كان هذا هو شأن العلماء وهم فقراء ، فما بالنا ننكر صلات الملوك لعلماء الأزهر ، وشكر العلماء هذه الأيادي وقد اشتهر ملوك سنار بحب العلم والعلماء ؟ !

على أن الأستاذ نفسه لاينكر هذه الصلة ، أليس هو القائل في كتابه سودان وادي النيل « يتميز عهد السلطان بادي أبي دقن بعلاقة طيبة مع علماء الأزهر ، لما كان يرسل إليهم من عطاياه فنظموا القصائد في مدحه ، ومنها قصيدة الشيخ عمر المغربي ، الذي بعث بقصيدة للسلطان بادي مع خبيره أحمد واستهلها بقوله :

أيا راكبا يسرى على متن ضامر إلى الغرب يهوى نحوه طيب الذكر[2] »

إذن ما الغرض الذي جعله يلح في تزييف هذا الشعر بالحق وبالباطل ؟ !

ازدهرت سنار وفرح بها المسلمون ، ورأوا فيها عوضاً عن الأندلس التي غربت شمسها بعد اشراق جهير ، وكانت الاستثناء الوحيد في القاعدة التي تقول : إذا غرست الثقافة العربية الإسلامية في مكان تعمقت جذورها في الأرض إلى الأبد .

وفي أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر كانت سنار معبرا لطائفة من المبشرين الكاثوليك الذين بعثهم قنصل فرنسا العام في القاهرة إلى الحبشة ، لتحويل كنيستها من المذهب اليعقوبي إلى المذهب الكاثوليكي وكانت معبرا أيضا لسفراء مبعوثين لأغراض سياسيـــة . وقد اهتمت البطريركية القبطية بهذا الأمر اهتماماً كبيراً ، ونبهت ملك سنار وأمبراطور

(١) الطبقات ص ٢٠   (٢) سودان وادي النيل ص ٨١ ــ ٨٢ .

الحبشة إلى ذلك ، ففهم ملك سنار أن « دي رول » جاء ليتفق مع أمبراطور الحبشة لتحويل مجرى النيل الأزرق فقتله ، وكانت الخطة التي نوى قنصل فرنسا تنفيذها وضع الحبشة تحت الحماية الفرنسية ، ومعاونتها على حرب سنار واجلاء الأتراك من موانئهم في مصوع وسواكن ، ولكن بمقتل « دي رول » انهارت الخطة[١] .

ولما أخلد ملوك سنار إلى الراحة وشيء من اللهو ضاعت هيبتهم ، فقبض وزراؤهم على زمام الحكم كما حدث في بغداد عندما ضعف الخلفاء ، ولكن الانحلال بدأ يدب في أوصال الدولة لما جرته عليها الحروب ، ولحدة النزاع في داخلها ، فلم تلبث أن تمزقت إربا إربا ، فخرجت قبائل الشايقية عن طاعة الفونج وأخذت تهاجم القوافل التي تمر بالقرب من مواطنها ، ثم أعلنت الدامر استقلالها عن الفونج ورفضت أن تدفع لهم الضرائب وكذلك فعلت مدينة شندي[٢] .

---

(١) مختصر تاريخ السودان للدكتور مكي شبيكة ص ٧ .
(٢) يقظة السودان ص ١٢ .

(د) ملامح من سنار

كان الرعي من أهم مصادر الرزق وبخاصة في المناطق الصحراوية من شرق السودان[١] وتليه الزراعة وهي تعتمد في أغلب مناطق السودان على على المطر وهو يجود عاماً ويخلف أعواماً . وبعض المناطق الواقعة على شاطىء النيل ونهر العطبرة تستغل الفيضان وهو ليس أكثر وفاء من المطر . ويبدو أن الساقية كانت معروفة لديهم بدليل أن أكثر أسماء أجزائها نوبية .

وكانت سنار مركزاً تجارياً هاماً ، ترددت القوافل بينها وبين القاهرة والهند ، وأثيوبيا ودارفور وبرنو وفزان وغيرها من الأقطار[٢] وسوقها منظمة كل سلعة لها مكان خاص تعرض فيه ، ومن السلع المعروضة الرقيق[٣] ، وكان السلاطين والمشايخ يحتكرون التجارة الخارجية ،فيجنون منها أرباحاً طائلة هي « ميزانية » الدولة باضافة الضرائب التي يجنونها من المشيخات التابعة لهم[٤] ، وكانت الضرائب قليلة جداً لذلك لم يتذمر الناس منها[٥] .

وفي أواخر عهد الدولة ، وبعد أن تمزقت أصبحت الطرق التجارية غير آمنة كما أشرت إلى ذلك من قبل ، وأصبحت الضرائب والمكوث التي يفرضها المشايخ على التجار والرحالة باهظة ، ولذلك أتى بوركهارت في

---

(١) السودان الشمالي سكانه وقبائله ـ محمد عوض ـ ص ١٩ .

(٢) السودان المعاصر ـ للدكتور زاهر رياض ص ٢٠ .

(٣) السودان عبر القرون ـ للدكتور مكي شبيكة ص ٧١ .

(٤) السودان المعاصر ـ للدكتور زاهر رياض ص ٢٠ .

(٥) مختصر تاريخ السودان للدكتور مكي شبيكة ص ١١ .

« رحلاته » على أهل الدامر لرفقهم بالمسافرين والتجار ، ولحمايتهم الطريق بين بلدهم وبين شندى من هجمات اللصوص، فقال « بكرنا فى الرحيل بصحبة فقيهين يحرساننا حتى حدود إقليم شندى ، وهذا طريق خطر أهله لصوص، ولكن خوف الفقهاء تغلغل فى قلوبهم ، بحيث أن مجرد رؤية فقيهين يسيران أعزلين على رأس القافلة كاف لبث الرهبة فى قلوبهم[١] .

وهذا النص يفصح بجانب ماسيق من أجله ، عن مدى نفوذ مشايخ الطريق .

وإذا حدثنا المؤرخون عن ثروة سنار وماءلأ أسواقها من السلع وخزائن ملوكها من الذهب[٢] ، وأطنبوا فى هذا الحديث ، وإذا حدثونا بغنى بعض السادة كالشيخ حسن ود حسونة[٣] ، فإن مظاهر الفقر كانت بادية على الناس بصفة عامة ، وأن الحصول على الطعام لم يكن سهلا ميسوراً ، فالذى يقرأ طبقات ود ضيف الله ويرى احتفاءه بالكسرة « خبز من الذرة » التى يقدمها المشايخ إلى التلاميذ والمريدين والضيفان وكان إدامها ـ فى معظم الأحوال ـ الماء القراح ، الذى يرى احتفاءه بوصفها ووصف الماء عليها يعلم أنها كانت شيئاً عزيزاً ، ولذلك كانت صفة الكرم من أرفع الصفات وأعظمها .

كانت المجاعات تجتاح البلاد أحيانا ، فيأكل الناس كل ماتعافه النفس فى الرخاء ويموتون بالألوف ، وأشهر هذه المجاعات ماتسمى « أم لحم » حدثت عام ١٠٩٥ هـ . وهناك جواب أرسله الملك عمارة دنقس رداً على خطاب

---

(١) رحلات بوركهارت ترجمة فؤاد اندراوس .

(٢) نعوم شقير جـ ٢ ص ٩٨ .

(٣) الطبقات ص ٤٩ .

السلطان سليم العثمانى الذى بعثه إليه طالباً منه التسليم والدخول فى طاعته ، جاء فيه « إنى لا أعلم ما الذى يحملك على حربى وامتلاك بلادى ، فإن كان لتأييد دين الإسلام فإن أهل مملكتى عرب مسلمون ، تدين بدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان لغرض مادى فاعلم أن أكثر أهل مملكتى عرب بادية هاجروا إلى هذه البلاد فى طلب الرزق ، ولا شىء لديهم تجمع منه جزية سنوية(١) » .

هذا الخطاب يؤيد ما أقول ، ولا يظن ظان أن الملك عمارة يريد أن يدفع عن أرضه بحجة مهما تكن ويكن نصيبها من الصدق ، فلولا أن السلطان قد اقتنع بصحة ماورد فى الجواب بعد أن تحرى ، لما أحجم عن فتح السودان وكان قد استولى على مصوع وسواكن .

وكانوا كذلك عرضة لأوبئة كاسحة حاصدة ، كالجدرى(٢) .

وكانت الحروب لاتكاد تنقطع بين القبائل فى داخل الدولة وبين سنار وجارتيهما دارفور(٣) وتقلى ، وبينها وبين أثيوبيا(٤) ، كما أسلفت القول وكان الشلك يغيرون على ديارها ناهبين ومخربين(٥) .

كل هذا أضعف قدرتهم على العمل المثمر ، وزادهم فقراً على فقر ، وطبع حياتهم بطابع صارم وحببهم فى الزهد والانصراف عن الدنيا .

أما تحصيل العلوم العربية الإسلامية المعروفة فى زمانهم ، وبالصورة التى آلت إليها فى عصور الضعف، فقد أبلوا فيه بلاء حسناً ، سعى إليهم العلم والتصوف أول أمرهم من اليمن والحجاز ومصر والمغرب والأندلس كما

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ٤٧ .
(٢) الطبقات ص ١٠٤ و ١٢٣ .
(٣) نعوم شقير ج ٣ ص ٥٧ .
(٤) السودان عبر القرون .
(٥) الطبقات ص ٢٩ .

أسلفت القول فى ذلك ، ثم سعوا إليه هم فى مصر والحجاز(١) .

عرفوا علم الكلام والمنطق . وأصول الفقه والفقه على مذهبى مالك والشافعى(٢) وغلب عليهم مذهب مالك ، والسبب قوة تأثير المغرب والأندلس(٣) وعرفوا النحو والعروض وعلوم القرآن والسيرة والتفسير والتصوف(٤) .

وعرفوا الكتب المتداولة بين أيدى علماء زمانهم ، وكان منهم جماعون لنوادر الكتب(٥) ، ومع ذلك لم أعثر على اسم كتاب أدب أو فلسفة فى قائمة الكتب التى عرفوها ، وذكرها الشيخ ود ضيف الله فى طبقاته . ولكن ترجمته للشيخ حجازى دلتنا — من غير أن يقصد — على سعة معارفهم ، وعلى أنها كانت أعرض مما ذكر فى كتابه العظيم ، يقول الشيخ ود ضيف الله عن هذا العالم « فقد كان طبيباً ماهراً كأنه ابن سينا فى حكمته ، وشاعراً حاذقاً كأنه كعب بن زهير فى شعره ، وله معرفة بالخط الحسن كأنه ابن مقلة فى خطه ، ويعرف جميـــع الأقلام العبرانية والسريانية واليونانية ، وله معرفة بصناعة الكيمياء وكأنه جابر فى صنعته ، وله معرفة بعـــلم الحروف .. الخ(٦) » .

---

(١) الطبقات ص ٥ — ٦ مثلا .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٧ .

(٣) للأندلس فى السودان تأثير يستحق الدراسة ، أثر فى ثقافته وفى عاداته وهذا مثال : هو أن اللون الشائع فى الحداد هو اللون الأسود ، ولكن الأندلسيين كانوا يتخذون البياض لونا للحداد ، ويشير إلى هذه العادة عندهم قول أبى الحسن الحصرى :

إذا كان البياض لباس حزن ... بأندلس فذاك من الصواب

ألم ترنى لبست بياض شيبى ... لأنى قد حزنت على شبابى

وأهل السودان حتى اليوم يتخذون البياض لونا للحداد . الأدب الأندلسى — د . أحمد هيكل ص ٦٢ .

(٤) أنظر الطبقات من ص ٦ — ١٧٣ . (٥) الطبقات ص ١٣٥ .

(٦) الطبقات ص ٣٤ — ٣٥ .

ولا تهمنى سعة معرفة هذا الرجل إن صح أنه يعرف هذا كله ، فقد يكون مثالا نادراً ، ولكن الذى أريد أن نقف عنده هو أن الشيخ ود ضيف لم يشبه حجازى بهؤلاء الأعلام لو لم يكونوا معروفين لقراء كتابه فى ذلك الحين ، وقد رأيت فقهاء معاصرين لا يعرفون عن ابن سينا وابن مقلة شيئاً .

ولم تقف بهم همتهم عند قراءة الكتب وفهمها وتدريسها ، بل شاركوا فى التأليف على طريقة زمانهم من الشرح أو الاختصار أو نظم المتون ، فألفوا فى كل الفنون المألوفة حينذاك(١) ، ويسروا التفسير ، ويسروا سيرة النبى كما فعل السيد محمد عثمان فى كتابه « تاج التفاسير » ومولده وكما فعل السادة المجاذيب فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . ومع ذلك غلب التصوف عليهم وانتشرت الطرق الصوفية ، كل الطرق التى عرفها العالم الإسلامى تقريباً . وأصبحت لها فروع ، واندمج بعضها فى بعض فنتجت طرق جديدة(٢) ، وتجاوبت أنحاء السودان المسلم بأصوات الطبول وصيحات الدراويش وشطحاتهم .

أقبل المشايخ على العبادة والمجاهدة ، وانقطعوا عن الدنيا وما بها من بر وإثم ونعيم وشقاء ، ودخلوا الغيران الموحشة وحبسوا أنفسهم فى حجر مغلقة أبوابها ، لا يربطها بعالم الناس سوى كوى ضيقة لا تفى بحاجتهم إلى النور والهواء ، يمكثون الشهور الطوال بلا زاد أو بزاد لا يمسك حياة أو يقيم بنية .

وهذا مثال مما أورد صاحب الطبقات من أمثلة : وليكن الشيخ حمد

---

(١) الطبقات ص ٢٧ و٣١ و٣٣ و٤٣ و١١٢ و١١٢ و١٣٨ و١٤٦ .

(٢) السودان عبر القرون — للدكتور مكى شبيكة — ص ٣٤ — ٣٥ .

النحلان ، دخل حجرة بابها مغلق باللبن ، وليس بها نافذة سوى كوة ضيقة يعطونه منها كل يوم الماء وقبضة من قرظ وسبع تمرات وقطعة من خبز فى حجم عين البعير ، مكث على هذه الحال كما يزعمون اثنين وثلاثين شهراً ، فلما خرج من محبسه وجدوا ـ كما زعموا ـ القرظ والتمر والخبز كما هو لم ينقص منه شيء .

ومهما يكن رأى العلماء اليوم ، فإن الشيخ النحلان فى رأى أسلافنا قد عاش اثنين وثلاثين شهراً بلا طعام(١) !

لهذا أو لغيره مما سيأتى فتن الناس بهؤلاء الأشياخ والتفوا حولهم ، ورفعوهم إلى مكانة فوق مكانة الأنبياء ، وصار لهم مناخ فكرى عجيب.

نسبوا إليهم من خوارق العادات ماشاءت الفتنة العارمة والخيال الجامح ، حتى يخيل إلى من يسمع قصاصهم يقصون ، أو يقرأ ماسطره صاحب الطبقات وكاتب الشونة أنه يساير أساطير اليونان فى الياذة هومر .

من هؤلاء الأشياخ من أخذ الطريقة من النبي مباشرة(٢) ومنهم من أجازه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتجاوز الحد الشرعي فى عدد الزوجات ، والجمع بين الأختين(٣) ، ومنهم من ردت لأجله الشمس وقد جنحت إلى الغروب(٤) ، ومنهم من حج طائراً(٥) ، بل منهم من عرج إلى السماء بروحه(٦) ، ومن ملك ملوك الجان(٧) ، ومن صارع ملك الموت فصرعه(٨) ، ومنهم من كان يحيي الموتى(٩) ومنهم من تكلم فى المهد(١٠) ، ومنهم من ادعى أنه المهدى

---

(١) الطبقات ص ٦٠ . (٢) الطبقات ص ٢ . (٣) الطبقات ص ١٠٠ .
(٤) الطبقات ص ٥٤ . (٥) المصدر نفسه ص ١٣٣ (٦) المصدر نفسه ص ١٩٥
(٧) المصدر نفسه ص ١٦٥ . (٨) المصدر نفسه ص ٧٦ . (٩) المصدر نفسه ص ٥١
(١٠) المصدر نفسه ص ٢٧ .

المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً[١] ، بل منهم من بلغ درجة من يقول للشىء كن فيكون(٢) !! والخضر لايكاد يفارقهم(٣) . وكانوا ينظرون فى اللوح المحفوظ ، ويخبرون عما استأثر الله بعلمه فى زعمهم وزعم أتباعهم ، ويقول فى ذلك الشيخ موسى بن يعقوب فى إحدى شطحاته :

سلام على قوم إذا ذكر اسمهم   تهتك أستارى إليهم برجفة
تلألأت الأنوار من نحـــو خالقى   بوقت قيامى أو جلوسى بخلوة
نظرت إلى المحفوظ فى كل ساعة   تناهيت عن إظهار حكم الدهية
أمر على الآفاق أنظر مابدا   فأخبر عن ذكر النواحى الخفية(٤)

فإذا لم يقع ما أخبروا به (من ذكر النواحى الخفية) فلا سبيل إلى تكذيبهم ، وكيف يكذبون ولهم من الحجج الميتافيزيقية مايفوق الخيال ، من التى لا تخضع لمنطق البشر بحال من الأحوال . فإن كشف الأولياء فى رأيهم على قسمين : منهم من ينظر فى اللوح المحفوظ، وما كتب فيه لايتبدل ومنهم من ينظر فى الواح المحو والإثبات ، وهذه تتغير ، فاذا أخبر الولى بشىء ولم يقع فينبغى أن يحمل على أنه نظر فى الواح المحو والإثبات(٥)!!

فى هذا الجو الغريب أصبح المنطق لاقيمة له فرد كل شىء إلى الغيب ، وهؤلاء الأولياء هم مفاتح الغيب ، بل هم الذين يصنعون مصائر الناس فى حضراتهم . لذلك تعلق الناس بهم وكادوا يعبدونهم من دون الله ، ولذلك غضوا من قيمة العلماء الذين ليست لهم كرامات وخوارق عادات ، وسموهم علماء الظاهر تهويناً لشأنهم . ومن ثم رأينا بعض العلماء الأعلام يتحولون

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٧   (٣) المصدر نفسه ص ٨٦ .
(٢) المرجع نفسه ص ٩٥ ، ١٥١ مثلا .
(٤) المرجع نفسه ص ١٥٤ .
(٥) المرجع ص١٣ .

إلى رهبان، كما فعل الشيخ حمد النحلان الذى انصرف عن التعليم إلى العبادة وقال لتلاميذه « أنا وخليل افترقنا إلى يوم القيامة[١] »، ورأينا من يسخرون بالفقهاء الذين لم تكن لهم كرامات كما فعلت بنت للشيخ دفع الله العركى ، فقالت لأبيها فى لهجة ساخرة : الولى الفلانى صنع كذا وكذا من الكرامات أما أنت ومحمد أخى فلم نسمع عنكما شيئاً سوى «قال المصنف قال المصنف[٢]».

وفى كل موقف يختلف فيه فقيه ومتصوف ينتصر المتصوف ، لأنه لا يأبه بأحكام الفقه ، بل يرجع إلى النبى (ص) مباشرة ويأخذ عنه الحكم وقد يكون مخالفاً لأحكام الشريعة(٣) . فهم ليسوا مقيدين بالشريعة دائماً وفى ذلك يقول الشيخ محمد الهميم مخاطباً القاضى دشين الذى فسخ أنكحته وكان قد جاوز الحد الشرعى وجمع بين الأختين :

فإن كنت ياقاضى قرأت مذاهباً　　فلم تدر ياقاضى رموز مذاهبنا(٤)
فمذهبكم تصلحْ به بعض ديننا　　ومذهبُنا يهجمْ عليكم إذا قلنا
قطعنا البحار الزاخرات وراءنا　　فلم يعلم الفقهاء أين توجهنا
حللنا بواد عندنا اسمه القضا　　فضاق بنا الوادى ونحن فما ضقنا
حللنا بقرب الغاب روحا من الدنا　　عرجنا شموساً أخجلت شمس نورنا
الحنا على العرش والكرسى المعلى ولوحها
لبسنا ثياب النور بحسن جمالنا(٥)

هذا المناخ الفكرى يجب أن أحرص على تذكره فى مسيرى فى هذه الرسالة ، فقد كانت له آثار خطيرة جداً فى تاريخ السودان ، فهو المدخل

(١) المصدر نفسه ص ٩٠ .　　(٢) الطبقات ص ١٤٩ .
(٣) المرجع نفسه ص ٩٠٢ - ١٥٠ .　　(٤) المرجع نفسه ص ٥٥ ، ١٥١١ ، ١٥١
(٥) القارىء لاشك يلاحظ فى هذه الأبيات فساد نحوها بجزم المضارع من غير جازم « تصلح ويهجم » واختلاف قوافيها « نورنا ، جمالنا ، مذهبنا » واختلال الوزن فى « لابسنا ثياب النور بحسن جمالنا ».

الكبير لفهم حقائق الثورة المهدية وما تلاها من أحداث، هذا المناخ الفكرى هو أكبر محرك لتاريخ السودان .

ولنا بعد ذلك أن نسأل لماذا كانت الحياة الفكرية والعاطفية بهذه الصورة الفريدة ، لماذا لم تصنع الطرق الصوفية فى البقاع التى أتتنا منها هذا الصنيع ؟ !

يجيبنا الدكتور محمد عوض بأن مصدر هذه الظاهرة « إحساس داخلى يدفع الناس إلى الانتظام فى سلك العبادة المنظمة ، إحساس وليد أجيال وقرون ، ولعله إحساس يرجع إلى ما قبل الإسلام نفسه[1] » .

هذه الإجابة لا تقنع لأنها تفسير لسبب انتشار الطرق الصوفية فى السودان وفى غيره من البلاد الإسلامية ، وليست تفسيراً لغلبة التصوف على السودان ، وقد أحس الدكتور محمد عوض بهذا فقال : « وليس نظام الطرق مقصوراً على السودان ، ولكنه نجح فيه نجاحاً ممتازاً (٢) » . لماذا ؟ يقول : « فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وصلت إلى السودان آثار المتصوفة ، وكثير منهم جاء من المغرب ، ونحن نعرف أن فى المغرب عادة تمجيد القديسين الأحياء والاهتداء بهداهم(٣) » .

هذا كلام جيد ولكنه لا يفسر كل شىء ، قد تكون هذه العادة قد انتقلت إلى السودان من المغرب ، ولكن تقديس المشايخ ليس هو كل شىء فى هذه الصورة الفريدة ، فمن أين جاءنا هذا النزوع إلى الغيب حتى قيل فى بعض الأولياء إنه أعرف بطرق السماء من طرق الأرض(٤) ؟ ! ولماذا لم يفعل التصوف فى نفوس أهل المغرب ما فعله فى نفوس أهل السودان ؟ !

---

(١) السودان الشمالى سكانه وقبائله ص ١٨ . (٢) المصدر السابق ص ١٨ .
(٣) المصدر السابق ص ١٩ . (٤) الطبقات ص ٨ .

في الحقيقة أن الأمر يرجع إلى أسباب منها ما ذكره الدكتور محمد عوض ومنها :

١) إنتشار النصرانية في السودان وقد غلبها الإسلام ، غير أنه لم يقتلع جذورها الدفينة في النفوس على الأقل في ذلك الحين . فهذه الرواسب جعلتهم يميلون إلى الرهبنة ، وكانوا قبل ذلك متدينين بالوثنية الفرعونية ، وهي ذات نزوع غيبي نتجت منه المعابد الفخمة والأهرامات .

٢) الفقر وانتشار المجاعات والأوبئة مما أسلفت ، جعلهم يتملقون بهؤلاء المشايخ ، لأنهم كانوا ملجأهم ، يطعمونهم من جوع ، ويشفعون لهم عند الحكام ، ويشفونهم من مرض كما يعتقدون(١) .

٣) أغلب هؤلاء المشايخ قد تحلى بصفات باهرة كالزهد وصفاء السريرة والقدرة على التوجيه والإرشاد ، مما جعلهم قدوة حسنة ورفعهم إلى مكان الإجلال والتقديس(٢) .

٤) امتزاج النزعات الصوفية بأساطيرهم المحلية ، فقد كانت لأبطال الأساطير من أمثال « ود النمير » و « ود السراري السبع » قدرة لا تحد . وقد يكون لشخصيات مثل « الغول » و « السّعلوة » « السعلاة » و « الصقر » مما حفلت به القصص الشعبية دخل في هذا الأمر .

وبهذا تحلى التصوف في السودان بشخصية متميزة ، فللولي عندهم قدرة خارقة كما رأينا ، وقد يستعملها في الضرر أحياناً ، وفي طبقات ود ضيف الله نماذج من هذا النوع ، من ذلك أن الشيخ محمد النقر كان يطلق ماشيته في زروع الناس ؛ فإن نفروها أو ضربوها عطبهم(٣) ، ومنهم من يصير

---

(١) تاريخ الثقافة العربية في السودان . (٢) نفس المرجع ص ٦٢ .
(٣) الطبقات ص ١٧٠ .

تمساحاً(١) أو أسداً(٢) للفتك بأعدائه . وكان من الشائع أن بعض القبائل تتشكل بأشكال الحيوانات(٣) .

٥) وكان لحياة السلب والنهب والجو المشحون بالعداوات بين القبائل وبين الأفراد المتنافسين على زعامة القبائل ، أثر فى تلوين حياة هؤلاء الأبطال الروحيين ، فشاع بينهم ما يسمى « الغارات » وبات كل واحد منهم وجلا من أن يسلبه واحد من الأولياء علمه وصلاحه ! فمن الأساطير التى سمعناها ونحن صغار ، وما تزال شائعة بين العامة ، أن الشيخ إبراهيم الكباشى نزل به جماعة من العلماء ضيوفاً ، ولم يأتهم الطعام فى وقته ، فاغتابوه ورموه بالبخل ، فعلم ذلك عن طريق الغيب وغضب عليهم غضباً شديدا ، ثم عمد إلى أكبرهم فأهانه وحقر من شأنه ، وأخذ كل ما حوى صدره من القرآن والعلم وعزله عن طريق القوم ، وفى ذلك يقول شاعره :

حكايَةَ العلما العندَهُ(٤) نزلوا   إتقاطعوا(٥)وقالوا مالُ مابذلوا(٦)
الكبير فيهم نترُ(٧) وهزَلوُ(٨)   عدمُ الصُّورَه(٩)من الطريق عزلو

هاك حكاية العلماء الذين نزلوا عنده واغتابوه فقالوا لم يبذل ماله فى سبيل الله .

فعلم ذلك وأقبل على كبيرهم بالسب والإهانه وجرده من كل شىء ولم يترك فى صدره سورة من سور القرآن ثم عزله عن الطريق .

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٦ .   (٢) المرجع السابق ص ١٩ .
(٣) التونسى تشحيذ الأذهان ص ٢٣٨ .   (٤) العنده : الذين عنده .
(٥) اتقاطعوا : اغتابوه . والقطيعة فى لهجة أهل السودان الغيبة . والعامة سموها بذلك لأنها تؤدى إلى التقاطع .
(٦) مال : ماله .   (٧) نترو : انتهره وأغلظ إليه القول .
(٨) هزلوا : أهانه .   (٩) عدم الصورة : لم يترك له شيئاً من سور القرآن .

وحلقة الذكر نفسها لم تكن آمنة ، والقلوب فيها غير مطمئنة ، فهى وقف على تلاميذ صاحبها ، فإذا دخلها مريد ينتسب إلى شيخ آخر ، فإنه لاينجو من العطب الروحى، مالم يكن شيخه قوياً قادراً على حمايته . فقد روى التونسى فى كتابه تشحيذ الأذهان[١] أن أحد تلاميذ الشيخ دفع الله حضر حلقة تلاميذ الشيخ يعقوب فلما حمى الذكر قال أحد تلاميذ الشيخ يعقوب :

أَلْما عِنْده[٢] شيخاً قَرَجا بَه[٣]   لاَ يَدْخلْ دَرَقه[٤] ونشَّابا

ألما عِنْدهُ شيخاً مَهيوُبْ   لا يدْخلْ حلقة يعقـــوب

الذى ليس له شيخ مبارك قادر على حمايته لايدخل هذه الحلقة التى تشبه ساحة الحرب .

الذى ليس له شيخ مهيب فليبتعد عن حلقة يعقوب فإنها خطرة . فأجابه تلميذ الشيخ دفع الله :

بَدْخـــلْ[٥] نَمـــرُقْ[٦] متعـافى
بالنيـــة وبالعمـــل الصــافى
دفع الله فُوقى طــوّافى

أدخـــل وأخرج وأنا فى عافيـة
بالنية الصادقة والعمل الخالص لوجه الله
وشيخى دفع الله يطوّف فوق حارساً

ولعل الدكتور محمد عوض كان يشير إلى هذا كله فى كلمته الجامعة، حيث

---

(١) تشحيذ الأذهان ص ٢٤٦
(٢) الماعنده . الذى ليس عنده .
(٣) قرجابه : مبارك يحمى أتباعه .
(٤) درقة : ترس .
(٥) مهيوب : مهيب .
(٦) بدخل : أدخل .
(٧) نمرق : أخرج .

قال « من الممكن أن ننظر إلى ظاهرة الطرق الصوفية على أنها ظاهرة إنثربولوجية ، أو اجتماعية لها مميزاتها ، وقد يكون للعقائد السابقة للإسلام أثر في قوة انتشارها(١) .

٦) تشجيع(٢) ملوك الفونج وملوك العبدلاب مشايخ الطرق ، وجلبهم من الأقطار العربية وإسباغ العطاء عليهم ، وإقطاعهم الأرض ، وقبول شفاعتهم والانصياع لأمرهم ، كل ذلك رفع مكانتهم عند الناس ويسر عليهم الإنفاق على تلامذتهم ومريديهم .

٧) أن البلاد الإسلامية الأخرى في الغالب تأصلت فيها دراسة العلوم العربية الإسلامية والفلسفية قبل أن تعرف التصوف ، أما السودان فقد دخلته هذه العلوم مصحوبة بالتصوف أو دخله التصوف مصحوباً بشيء من هذه العلوم ، ولذلك كان له شأن فيه غير شأنه في البلدان الإسلامية الأخرى .

هذه هي أهم الأسباب التي أنتجت هذه الصورة الفريدة من الحياة العقلية والعاطفية في السودان ، أقول هذا وأنا أعلم أن بعض ما قاله المتصوفة عندنا أو بعض ما فعلوه من الخروج على الشريعة وتقديس الأولياء والسمو بهم إلى مكانة تفوق مكانة الأنبياء كل هذا قد سبقهم إليه بعض المتصوفة ونقل إليهم فيما نقل ،(٣) غير أن الأمر هنا تشكل بالألوان المحلية كما رأينا ثم إن إقبال الناس هنا على التصوف والتفافهم حول المتصوفة وتصديقهم كل ما يقولونه شيء لا نظير له فيما أعلم .

---

(١) محمد عوض السودان الشمالي ص ١٧ .

(٢) نعوم شقير ج ٢ ص ٧٧ .

(٣) أنظر « أبو حيان التوحيدي » للدكتور الحوفي ص ١٨٤ .

وارانى أوافق الدكتور عبد المجيد عابدين على أن الثقافة الصوفية فى السودان لم تكن واسعة النطاق ، فقد آثروا الجانب العملى ، هذا صحيح وإن كانوا قد قرأوا طائفة من كتب المتصوفة وتداولوا مصطلحاتهم بل وألفوا فى التصوف(١) . ولكن استشهاده على ذلك بكلام المرحوم أحمد يوسف هاشم يجعل جهل هؤلاء القوم أوسع مما أراد ، يقول الأستاذ أحمد يوسف « إن طرق المواصلات إلى جانب انحيازهم — العلماء — جميعاً فى مكان واحد هو مقر الملك « سنار » سبب فشلا فى انتشار العلم ، فنسمع بأن عالماً فى المسيد ، وآخر فى بربر . . . ولذلك أقرر فى غير هوادة أن العلم قد استمر فردياً منحصراً فى جهات معينة قليلة ، وما بين البلدة والأخرى فراغ غير محدود مغمور بجيوش الجهل »(٢) .

هذا الكلام يبدو متناقضاً ، فالعلماء تارة منحازون فى مكان واحد هو مقر الملك ، وتارة أخرى متفرقون فى أنحاء القطر ، عالم فى المسيد وآخر فى بربر ! ! .

ولعله أراد بقوله « إن العلم قد استمر فردياً » أنه لم تكن هناك مدارس كالأزهر الشريف مثلا ، وهذا أن صح فانه لا يمنع من نشر العلم ، على أن المدارس كانت موجودة ، ذكر الشيخ خوجلى أن بين الخرطوم واليس كانت سبع عشرة مدرسة خربها الشلك والجماعة المسماة ام لحم(٣) .

وصعوبة المواصلات لم تكن تثنى عزائم طلاب العلم فى ذلك الحين ، فقد كان منهم من يطلب العلم فى الأزهر(٤) ومن يطلبه

---

(١) أنظر مثلا الطبقات ص ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٩ .
(٢) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٣٧ .
(٣) الطبقات ص ١٦٣ .
(٤) الطبقات ص ٦ مثلا .

فى الحجاز[1] وكانت حلقات العلماء عامرة بالتكارير[2] ، مما يدل على شهرتها وإقبال الناس عليها .

وهذه شواهد قليلة من كثير تدل على ما بذله هؤلاء العلماء فى نشر العلم وإذاعته بين الناس :

(١) الشيخ الزين صغيرون بلغ عدد تلاميذه ألف طالب ، وتلاميذه وتلاميذهم صاروا شيوخ الإسلام . فالبلاد كلها إلى دار صليح[3] تلاميذه كما يقول صاحب الطبقات[4] .

(٢) الشيخ القدّال بن إبراهيم بلغ عدد طلبته ألفاً[5] .

(٣) الشيخ أرباب بن علي بن عون الخشن كان عدد تلاميذه نيفاً ألفاً[6] .

(٤) الشيخ باسبار السكرى كان عدد تلاميذه ألفاً[7] .

هذا ، وكان العلم يبذل لكل من أراد ، ويحدثنا صاحب الطبقات عن عبد مملوك لامرأة ، هو الشيخ عبد الله بن صابونا ، حديث المعجب بأنه حفظ القرآن ، ولازم الفقيه عمّار وأخذ عنه أكثر فنونه ، فبرع فى النحو والصرف واللغة ، والمعانى والبيان والبديع ، وعلم العروض ؛ وكان شاعراً ماهراً ... وله معرفة بالخط الذى لا يصنع مثله إلا الأروام ... ولم يتزوج فأعطاه شيخه بنته فامتنع[8] .

هذا المثال مع دلالته على أن العلم للجميع ، يدلنا على أمر آخر هام

---

(١) المرجع السابق ص ١١٦ مثلا .

(٢) لقب أطلقه السودانيون على أهل مملكة برنو وغيرهم من ممالك كثيرة فى غرب السودان — تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٩٥ هامش .

(٣) دار صليح : بلاد بغربى السودان .

(٤) الطبقات ص ١٨ .

(٥) الطبقات ص ٢٢ .

(٦) الطبقات ص ٣١ .

(٧) الطبقات ص ٣٦ .

(٨) الطبقات ص ١٣٦ .

هو مكانة العلم والعلماء فى ذلك الحين ، فقد رفع العلم هذا العبد المملوك لامرأة إلى مرتبة أهل الشرف ، فعرض عليه شيخه بنته ليتزوجها ، وما كانوا يعرضون بناتهم إلا على العظماء .

ويجمل القول أن المجتمع السودانى قام على دعامتين ، الشعور القبلى ، فقد امتزج الدم العربى بالدم الحامى أو الزنجى ولكن الإحساس العربى طغى على كل شىء . والشعور الدينى الطاغى والمسرف فى الولاء للشيخ والتعلق بالغيب ، وكان من حقه أن يمحو الشعور القبلى لاجتماع الناس على أسس جديدة والتفافهم حول زعماء جدد ، ولكنه لم يستطع أن يقضى على هذا الشعور وإن كان قد كسر من حدته شيئاً ما . ولا أحب أن يفهم من قولى إن الناس كانوا مولعين بمشايخ الطرق أنهم قد أصبحوا جميعاً أتقياء وبررة ، فالإيمان بالشيخ وكراماته والالتجاء إليه لا يحول بين بعضهم وبين ارتكاب المعصية واقتراف الإثم . وفيما أسلفت رأينا أن اللصوص كانوا يهابون المشايخ ويرهبونهم وهم يسيرون أمام القافلة عزلا .

ومهما يكن من شىء فان أدب المتصوفة وتوجيهاتهم طبعت معظم السودانيين بطابع خاص وأعطتهم سلوكا مثالياً عصمهم من الضعف ، وسما بهم إلى درجة رفيعة من قوة النفس والترفع والتهوين من شأن الدنيا ، وصار شعارهم قول شاعرهم الشيخ فرح ود تكتوك :

من باع ديناً بدنيا يستعز بها ... كأنما باع فردوساً بسجين
فلقمة من طعام البر تشبعنى ... وجرعة من قليل الماء تروينى[1]

ولم أتعرض إلى تفصيل القول فى سلطنة دارفور لأنها ظلت عالة على سنار فى طلب العلم ، وقد عبر عن ذلك التونسى فقال « أما قراءة العلم — فى دارفور — فمتأخرة لعدم العلماء وأكثر قراءتهم للفقه والتوحيد[2] .

أما تقلى فليس لها ذكر فى هذا الصدد .

---

(١) شعراء السودان ص ٢٦١ .

(٢) تشحيذ الأذهان ص ٢٨٠ .

(هـ) بداية الطريق

والآن بعد أن جذبت خيطاً نحيلاً من هنا وخيطاً نحيلاً من هناك ، آملا أن أرسم صورة لطريق واضح الصوى ، يفضي بنا إلى أولى مراحل الدراسة فى كلمات قصار ، وأرجو أن أكون قد وفقت إلى شيء يحسن السكون عنده، فإنى لا أحب أن أغادر هذه الحقبة إلى التى تليها قبل أن أسأل المراجع التى تحت يدى عما إذا كانت تحوى شيئاً من الشعر السياسى ، نتبين منه بداية طريق هذا الفن ، كيف كان ثم كيف تطور على أيدى الشعراء .

الناظر إلى طبقات[1] ود ضيف الله لا يتردد فى أن يقول « لا » والذى ينظر فى مخطوطة[2] الشيخ أحمد كاتب الشونة لا يسرع إلى « نعم » .

فى طبقات ود ضيف الله شعر دينى[3] فى رثاء الأشياخ ومدحهم ، وفيه شيء من شطحاتهم ، كما رأينا مثالاً منها فى شحطة الشيخ محمد الهميم

(١ ، ٢) « الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان » هذا هو عنوان الكتاب المشهور بطبقات ود ضيف الله ، ومؤلفه هو الفقيه محمد بن ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى ، ولد بحلفاية الملوك عام ١١٣٩هـ وتوفى عام ١٢٢٤هـ . وكتابه أول كتاب ألفه سودانى وصل إلينا ، وهو مجموعة تراجم للمتصوفة والعلماء والشعراء منهم ، وقد صور الحالة الفكرية والعاطفية فى عهد « سنار » تصويراً حسناً ، والباحث قد يستفيد منه فى جوانب أخرى من المجتمع . وأسلوبه مزيج من اللغة الفصيحة واللهجة السودانية . وجاء بعد صاحب الطبقات الشيخ أحمد بن الحاج أبى على المشهور بكاتب الشونة . فألف كتاباً سماه « تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية » أرخ فيه الملوك الفونج وبعض حكام العهد التركى فى السودان حتى عام ١٢٥٤هـ ، وتعرض لذكر بعض العلماء والمتصوفة والشعراء أيضاً فهو مفيد فى الفترة التى لم يؤرخها ود ضيف الله . وأسلوبه أدنى إلى اللغة الفصيحة من أسلوب صاحب الطبقات .

(٣) الطبقات ص ١٦ و ١٩ ـ ٢٠ و ٦٥ و ٨٠ ـ ٨٣ و ٨٨ و ١١١ و ١١٣ و ١١٥ و ١١٨ و ١٤٠ و ١٤٩ .

التى يتعالى فيها على الفقهاء[1] ، وهى فاسدة الوزن والقافية ، وليس فيها من عناصر الشعر سوى الخيال الغامض .

وأجمل قصيدة فى رأى صاحب الطبقات القصيدة التى رثى بها السيد ود عبد الهادى الشيخ خوجلى ، رواها كاملة وأثنى عليها، وعدد أبياتها سبعة وثمانون بيتاً ، ويندر أن ترى فيها بيتاً يخلو من عيب . فأنا أذكر منها ما يدل عليها :

الحمـــد لله حكم الله أمضاه　　العمر تم وما قد شاء يقضاه
العمر تم ووعد الله فى الأزل　　حقاً يقيناً فلا يخلفه مولاه
الموت حقاً يقيناً ذاقه الرسل　　الصبر شأنك يا نفسى على ما،[2]

وهكذا خطأ فى الوزن ،وفى النحو والصرف والقافية فى « يقضاه » استعمال عامى للفعل « يقضى » و « الأزل » لا يستقيم معها البيت، ولو قال فى أزل لاستوى وزنه ، والرسل كذلك لو ترك (ال) لسلم البيت من الكسر مع وهن التركيب ، أما اللحن فحدث عنه ولا حرج ، فخبر وعد الله وخبر الموت منصوبان « حقا يقينا » والفعل « يخلفه » مجزوم بلا جازم . أما القافية « ماه » فالظاهر أنه يريد أن يقول « على ماهو » والتركيب واه متداع، والمعانى مبتذلة فهى لا تخرج عما يردده العامة فى مثل هذه المناسبة .

وفى مخطوطه الشيخ أحمد كاتب الشونة شعر[3] وأغلبه مرثيات لبعض العلماء ومشايخ الطرق ، وهو وإن كان فى الجملة أقرب إلى الشعر مما رواه

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٢ .

(٢) الطبقات ص ٨٠ .

(٣) كاتب الشونة ص ٤٦ — ٤٧ ، ٥٣ — ٥٥ ، ٦٧ ، ٧٦ — ٧٧ ، ٨٠ — ٨١ .

صاحب الطبقات ، إلا أنه أيضاً ضعيف حافل بالعيوب والمآخر ، وهذا نموذج من أول قصيدة رواها كاتب الشونة ولعلها أكثر الأشعار الدينية تماسكا فيما روى ، رثى بها الفقيه أحمد الحاج الطيب الشيخ يوسف الطريق :

بدأت بحمـــد الله ثم صلاته　　على خير مبعوث وأكرم من هدى[1]
وبعد فقصدى ذكر مثقال ذرة　　من اوصاف من نالت به الأرض سؤددا
أيا رمسه نلت المكارم والعلى　　لكونك باشرت الإمام المجدا
وحزت به فضلا وفخرا ومنزلا　　وصرت به بين المقـابر أوحدا
هو الحبر عند المعضلات إذا أتت　　يحلّ ويكشفْ كل ماكان مُعْقَدا

واضح أن سمات الخطبة هنا أوضح من سمات القصيدة «وبعد فقصدى» ولغتها لغة فقهاء لا لغة شعراء «ذكر مثقال ذرة» «لكونك» وفيها حشو لإقامة الوزن «منزلاً» في الشطر الأول من البيت الثالث لا فائدة منها على هذه الصورة ، لأن المنزل يكون رفيعاً ويكون وضيعاً ، فهو محتاج إلى وصف يرفع سمكه ، ولعله اعتمد على قرينة المدح ، ولكن ماحاجتنا إلى هذا بعد الفضل والفخر ، و «إذا أتت» أيضا حشو ، لإنها إذا لم تأتت فقد أراحنا الله منها ، وأراح هذا الرجل الذى لا يكون حبرا إلاّ إذا أتت . والفعل «يكشف» مجزوم بلا جازم لأن سلامة الوزن رهينة بجزمه وقافية البيت الأخير مرغمة على أن تجلس فى مكانها ، ولا أدرى من أين أشتق «معقد» فاسم مفعول عقد معقود ، واسم مفعول المضعف مُعَقَّد ، ولعله أراد هذا ولكن الضرورة صيرته «مُعْقَدا» وهمزة القطع «أوصاف» صارت همزة وصل للضرورة أيضا . والمعانى ضعيفة وليس فى الأبيات مايقربها من الشعر الا قوله «وصرت به بين المقابر أوحدا» وإن كان معنى مطروقاً ، ومخاطبة القبر فيها أثارة من خيال .

(٣) كاتب الشونة ص ٤٦ .

رويت هذين النموذجين لا لأنهما داخلان فيما أنا فيه ، ولكن لأمر أردت بيانه وهأنذا آخذ فيه .

أكاد أجزم أن خلو طبقات ود ضيف الله من الشعر الذى يذهب فيه الشعراء كل مذهب ، يتغزلون ويمدحون ويفخرون ... الخ واقتصاره على رواية الشعر الدينى ، هو السبب الذى دعا الدكتور عبد المجيد عابدين أن يقول فى كتابه القيم « تاريخ الثقافة العربية فى السودان » إن الشعر العربى فى السودان سلك أربعة اتجاهات رئيسية متدرجة :

(١) إتجاه الشعر الشعبى الدارج ، وهذا يبدأ بدخول العرب ومعهم لهجاتهم الدارجة .

(٢) إتجاه الشعر الدينى الصوفى الفصيح ، ويبدأ على وجه التقريب مع عصر الفونج .

(٣) إتجاه الشعر التقليدى الفصيح ويبدأ مع العصر التركى على وجه التقريب .

(٤) اتجاه الشعر التجديدى ، ويبدأ مع انتشار الثقافة الجديدة فى مطلع القرن العشرين (١) .

والدكتور عبد المجيد عابدين رائد عظيم ، فهو أول من درس تاريخ الأدب السودانى دراسة جادة ، وعبد طرقاً لم تطأها الأقدام من قبل ، فمن حقه أن يفرض هذا الفرض ، إذ لم ير أمامه ما يدل على غير ذلك ، والظاهر أنه لم يمعن النظر فى مخطوطة كاتب الشونة ، وقد احتاط كشأن العلماء بقوله فى موطنين « على وجه التقريب » .

أما من كتبوا بعده فى تاريخ الأدب السودانى فلم يعن لهم ان يمتحنوا هذا الفرض ، أو يناقشوه بل تبعوه فيه وكأنه حقيقة لا تقبل الجدل ،

---

(١) الثقافة العربية فى السودان ص ١٧٣ — ١٧٤ .

تبعه فيه الأستاذ عبده بدوى فى كتابه « الشعر الحديث فى السودان [١] » وتبعه فيه الدكتور محمد ابراهيم الشوش فى كتابه « الشعر الحديث فى السودان[٢] » ومثل ذلك فعل الاستاذ هنرى رياض فى كتابه « التجانى يوسف بشير شاعرا وناثرا[٣] » وسار على هذا المنهاج الشاعر محمد المهدى مجذوب فى مقدمته على الحان واشجان »[٤] ديوان لكاتب هذه السطور . وبطريقة لا تخلو من التواء تبعه الأستاذ أحمد أبو سعد فى كتابه « الشعر والشعراء فى السودان [٥] » .

يرى الدكتور عبد المجيد عابدين أن الشعر الدارج بدأ بدخول العرب فى السودان ومعهم لهجاتهم فصاغوا فى هذه اللهجات آدابهم ، ونظموا شعرهم المعبر عن مثلهم ، وظل هذا الشعر خلال العصور هكذا ، محتفظا بجوهره وميزانه العامة ، حتى نادى المجددون بهجر موضوعات الشعر القديمة وأسلوبه القديم .

وبعد ان عقد صلات عدة بين هذا الشعر الشعبي والشعر الجاهلى والإسلامى ، وتحدث عن أغراضه ومثله ، أخذ يقدم إلينا أمثلة منه .

وأ كتفى هنا بمثالين مما أورد أحدهما دينى صوفى ، والثانى حماسى ، وكلاهما من أقدم النصوص التى وصلت إلينا .

(١) قالت امرأة تمدح الشيخ شرف الدين العركى من مشايخ عصر الفونج :

---

(١) الشعر الحديث فى السودان — عبده بدوى . ص ٩٦
(٢) الشعر الحديث فى السودان — الدكتور محمد ابراهيم الشوش ص ٢
(٣) هنرى رياض ص ٣ .
(٤) الحان وأشجان ص ٤ — ١٦ .
(٥) الشعر والشعراء فى السودان ص ٥

شرف الدين أنا بالله وَبيك (١)
بالأمس الشباك بيدَيك (٢)
مَن خلاني (٣) نعالا في رجليك
كُل يوماً (٤) أتبرك بيك (٥)
باشدره (٦) وقت (٧) الله اداك (٨)
لا النيل سقاك لا مطر جاك (٩)
وذعري كُل يوم يغشاك
سوالك (١٠) ورقاً ضلاك (١١)

والمعنى :

شرف الدين يا أيها الولى العظيم أنا فى حماية الله وحمايتك .

يا من زرت قبة النبي صلى الله عليه وسلم ووضعت يديك على شباكها .

ياليتنى كنت نعلين فى رجليك .

ياليتنى أتبرك بهما كل يوم .

---

(١) وبيك : وبك
(٢) بيديك : بيديك .
(٣) من خلاني . ياليتني .
(٤) كل يوما . كل يوم .
(٥) بيك . بسك .
(٦) شدرة . شجرة وكتبها الدكتور شدرة ، والسودانيون لا ينطقونها هكذا .
(٧) وقت . حين .
(٨) اداك . أعطاك .
(٩) جاك . جاءك
(١٠) سوالك . جعلك .
(١١) ضلاك . ظللك والدكتور كتبها ظلاك والسودانيون لا ينطقون الا كما رسمت .

وتلتفت الشاعرة إلى شجرة كان الشيخ يأوى إلى ظلها كل يوم فتخاطبها قائلة :

يا أيتها الشجرة المباركة لقد أنعم الله عليك .

نت محرومة مما يوفر الخصب والنماء ، لا النيل فاض عليك ولا جادك الغيث . ولكن بركة الشيخ الذى يغشاك كل يوم ، جعلتك يانعة الأغصان ومظللة بالورق الناضر .

(٢) فى هذا المثال شعر امرأة أخرى تحث ابنها على ترك الدرس وحفظ القرآن ليشارك قبيلته فى حروبها ، ويصبح بطلاً من أبطالها :

ياحسين أنا مَانى(١) أمكْ وانْتَ ماكْ(٢) وَلَدِى
بَطنــــكْ(٣) كَرَّشَتْ وغَىْ(٤) البنات ناسى
دِقْنكْ(٥) مَسَّتْ جِلْدَكْ(٦) خرشْ مُــــوِ فى
وَلاكْ(٧) مَضرَّبْ بالسيف نكّــــدْ(٨) فى
متين(٩) ياحسين أُشوف(١٠) لوُحكْ(١١) مَعلَّقْ ؟ !
لا حســــين كِتلْ(١٢) لا حســــين مَفلَّقْ(١٣)

---

(١) أنا مانى أمك : أنا لست أمك

(٢) وأنت ماك ولدى : وأنت لست ولدى

(٣) بطنك كرشت : صرت بطيناً أجوف ، عندك كرش كبيرة أوى ،

(٤) وغى البنات ناسى : وحب الفتيات استعلى ذكرته ، متلهياً بالدرس والتحصيل

(٥) دقنك مست : لحيتك نبتت أو كادت

(٦) جلدك خرش موفى : ليس فى جلدك خدش أو أثر جرح .

(٧) ولاك مضرب : ولست مضروباً .

(٨) نكد فى : نضد .

(٩) متين : متى (١٠) أشوف : أرى .

(١١) لوحك : اللوح هو قطعة من الخشب يكتبون فيها جزءاً من القرآن لحفظه .

(١٢) كتل : قتل . (١٣) مفلق : مشجج الرأس .

والمعنى :

لا أنا أمك ولا أنت ابنى .

لأنك صرت بديناً عظيم البطن ، منهمكا فى الدرس ناسياً حب الغوانى الذى يدفع إلى البطولة والإقدام ، أصبحت « فكى » « فقيه » .

ولأنك صرت ناعماً أملس ، ليس فى جسمك آثار جروح ، وقد نبتت لحيتك وبلغت مبلغ الرجال ! .

فمتى أسمع بأنك قد ضربك سيف لأغفر فى الحى بتضميد جروحك ؟ !
ومتى أرى لوحك الذى تدرس فيه مهجورا معلقاً على الحائط ؟!
ومتى أسمع أن حسيناً قد قتل أو أن رأسه قد تشقق من الضرب ؟ !
ما أعجب أمرك بين الفتيان ! !

وهذان المثالان وأمثالها — وللقارىء أن ينظر فى جميع الأمثلة التى أوردها الدكتور عبد المجيد — لا تدل على ما أراد ، فهى قطعاً لم تنظم فى لهجة عربية قديمة ، من تلك اللهجات التى اصطحبها العرب معهم حين دخلوا السودان ، لا فى الجاهلية ولا فى الاسلام .

ومهما تكن صلة هذا الشعر بالأغراض الجاهلية والمثل الجاهلية ، ومهما تكن صلة هذا الشعر بالأغراض الإسلامية والمثل الإسلامية ، فانه من غير أدنى شك قد نظم فى لهجة حديثة ، فى لهجة عربية سودانية لم يعرفها السودان ولم تستقم على ألسنة السودانيين إلا بعد أن تعرب السودان وتسودن العرب .

ولكي أوضح هذا الأمر ، وأبعد عنه كل لبس وغموض ، أرى أنه من الخير أن أنظر فى نشوء اللهجات العربية الحديثة ، وعندى أن أتم بحث فى هذا الشأن ، هو ذلك البحث المؤيد بالقوانين اللغوية الحديثة ، الذى قدمه إلينا استاذنا الفاضل الدكتور أنيس فى كتابه : « فى اللهجات العربية » .

فهو يقول بعد كلام لا يهمنا هنا كثيراً . . فهنا لهجات مصرية ، وأخرى عراقية ، وثالثة شامية ، ورابعة مغربية ، وأخيراً لهجة الجزيرة فى عصرنا الحالى . فى كل هذه البيئات لهجات حديثة يتكلم بها الناس ،وهى تشترك فى بعض الصفات ، وتختلف فى أمور هامة تميز لهجة كل بيئة عن الأخرى » .

ويعلل أسباب هذا الاختلاف باختلاف المنبع ، وذلك أن القبائل التى احتلت هذه المناطق لم تكن لها لهجة واحدة ، بل هى ذوات لهجات عدة » . ومصداق ذلك عندنا فى لهجات السودان العربى أنها مختلفة فى المجموعات المتجانسة أو التى اعتبرها علماء الأجناس متحددة فى أصل واحد ، فلهجة الشايقية مثلا مختلفة عن لهجة الجعليين .

« وفدت القبائل العربية إلى هذه البيئات فى عهود الغزو الإسلامى وبعده — ومن المؤكد أن بعض القبائل العربية وفدت إلى السودان قبل الإسلام بعهد سحيق كما أشرت إلى ذلك سلفاً — وفدت ومعها لهجاتها المختلفة وأقامت بها ، وكل منها يحتفظ بخصائصه ومميزاته فى لهجات التخاطب التى تأثر بها أهل البلاد المفتوحة ، وبدأوا يحذون حذوها فى لهجات كلامهم » .

وهذا يعنى أن السكان الأصليين قد تعربوا حيث هجروا لغاتهم وتكلموا باللهجات الوافدة عليهم .

« .. وتلك القبائل قد احتفظت جميعها باللغة النموذجية لغة الأدب والدين والقرآن الكريم ، فكانوا بها يكتبون ويقرأون وينظمون الشعر ويخطبون ، فاذا خلوا إلى أنفسهم أو عن لهم أمر من أمور حياتهم مما ليس ذا بال ، عبروا عنه بلهجاتهم الخاصة دون حرج أو تردد ، فكلامهم فى حياتهم العادية كان يخالف إلى حد كبير لغة الكتابة والأدب فى المجال الجدى من القول » .

ويدل على صحة هذا القول ما نصنعه اليوم ، نتكلم لهجاتنا الخاصة فى حياتنا العادية ، فاذا طرأ أمر هام لجأنا إلى اللغة الفصحى ، نخطب بها ونكتب وننظم الشعر ، ومن المؤكد أننا لم نبتدع هذا النهج ولكننا ورثناه من آبائنا الأولين .

« وتلك اللهجات المتباينة التى وفدت من شبه جزيرة العرب ، قد غزت بيئات معمورة يتكلم أهلها لغات غير عربية ، وهنا لابد من صراع بين اللهجات الغازية واللغات المغزوة ، أدى فى معظم الحالات إلى انزواء اللغات المغزوة والقضاء عليها قضاء تاماً ، ولكنها لم تنزو أو يقض عليها إلا بعد أن تركت بعض الآثار فى اللهجات الغازية ، من الناحية الصوتية على الأقل[1] » .

واضح من هذا الكلام الواضح أن العرب قد دخلوا السودان وهم يصطحبون معهم لغتين ، لغة راقية هى لغة الدين والأدب ، لغات دارجة هى لهجات التخاطب والحديث العادى ، وهذا الفهم يقودنا إلى استنتاج أمرين لا محيص من استنتاجهما هما :

(١) أن صراعا قد نشب بين لهجات القبائل العربية التى دخلت

(١) الدكتور أنيس ص ١٠ — ١١ .

السودان وبين اللغات المحلية ، وفى بعض المناطق تم النصر للهجات العربية وخاصة منطقة وسط السودان ، وهزمت فى بعض المناطق ، وفى مواطن نصرها لم تخرج نقية كما دخلت ، بل أصابها تحوير وتغيير ، كما رأينا فى الأبيات التى تقدم ذكرها ، وهذه العملية لم تتم فى عشية أو ضحاها ، بل هى وليدة زمن طويل وصراع مرير .

فمن الصعب إن لم أقل من المستحيل أن ينظم فى هذه اللهجات شعر قبل أن يتم تكوينها ويصلب عودها ، فهذا الشعر الذى أورده الدكتور عبد المجيد شعر حديث ، لأنه نظم فى اللهجة العربية السودانية الحديثة ، ولم ينظم فى لهجات القبائل العربية قبل نهاية الصراع .

(٢) أن اللغة العربية الفصحى وهى لغة القرآن ولغة الدين بصفة عامة ، من المستبعد أن تظل معطلة ومشلولة ، حتى يكتب للهجات العربية الوافدة النصر على اللغات المحلية فى بعض المناطق من السودان ، وقد كان السودانيون يدخلون فى دين الله أفواجا ، ومنهم من أسلموا ولم يتعربوا ، فهذه اللغة وسبيل النطق بها التعلم المباشر المقصود ، حتى يمكن أن يتعلمها من لا يعرف لهجاتها كالمستشرقين مثلا ، هذه اللغة لابد أنها كانت نشيطة فعالة قبل أن تنتصر اللهجات العربية فى الأماكن التى انتصرت فيها ، فنشأت اللهجات السودانية العربية الحديثه .

فالرأى عندى أن هؤلاء العرب الذين دخلوا السودان ، والدعاة منهم خاصة ، قد اهتموا اهتماماً بالغاً بنشر اللغة الفصحى بين المسلمين ليتمكنوا من معرفة دينهم ، وأن العرب فى أول أمرهم نظموا شعراً فصيحاً يحنون فيه إلى مواطنهم الأولى ، يذكرون فيه ما ألف صباهم ومسارح شبابهم ، مثلما فعل العرب فى الأندلس أو أمرهم ، لابد أنهم رأوا ما يذكرهم أول أرض

مس أجسادهم ترابها . فقالوا كما قال عبد الرحمن الداخل حين رأى نخلة بالرصافة(١) :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنىّ وعن أهلى
نشأت بارض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى
يسح ويستمرى السماكين بالمزن

وإذا كان هذا شأن أمير من أعظم الأمراء ، فى بلاد من أخصب بلاد الله وأجملها ، فكيف يكون حال العرب المجاهدين فى السودان أول أمرهم وفيهم من انحدر إليه من مصر ودمشق ومن الأندلس نفسها ؟ !

أنا أرجح والقرائن كلها تدعونى إلى أن أجزم ، أن العرب بدأوا ينظمون شعراً فصيحاً يحنون فيه إلى ديارهم الأولى ، ويذكرون فيه ما خلفوا وراءهم من أهل وأحباب ، ونظموا شعراً فصيحاً شحذوا به الهمم فى الصراع الدائر بينهم وبين سكان البلاد الأول ، ونظموا شعرا فصيحا سجلوا فيه انتصاراتهم وأشادوا بفتوحاتهم .

أنا أرجح والقرائن كلها تدعونى إلى أن أجزم ، أنهم لم ينظموا فى اللهجات الحديثة شعراً إلا بعد أن انتصرت لهجاتهم على اللغات المحلية ،

---

(١) الأدب الأندلسى — للدكتور أحمد هيكل — ص ١٠٣

وبعد أن امتزجت دماؤهم بالدماء الحامية والزنجية وولد السودان الحديث ، أى بعد أن تعرب السودان وتسودن العرب .

ومع ذلك كله فأنا لا أستبعد أن يكون العرب قد نظموا فى لهجاتهم القديمة شعراً ، فللهجات أدبها ، وللذين لم يكن لهم حظ من الثقافة أدبهم ، ولكنى أعلم علم اليقين أنه لم يصل إلينا من ذلك شىء ، فالاعتراف بهذا الشعر الذى يظن أنه نظم فى لهجات العرب القديمة فرض لا يسنده دليل مادى ، وبجانبه فرض آخر يساويه ويزيد عليه ؛ هو أن العرب فى السودان نظموا الشعر أول ما نظموا فى لغتهم الفصحى ، وذلك ديدنهم فى كل مكان يتكلمون بلهجاتهم فى أمورهم الهينة ، فإذا جد الجد هدروا بفصحاهم، ولا أرى فى السودان ما يوجب تخلف هذه القاعدة .

والخلاصة: هى أن هذا التقسيم الذى أثبته الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه « الثقافة العربية فى السودان » فرض لا تسنده النصوص ولا تسنده قرائن الأحوال .

وليس مما يلائم طبيعة الأشياء أن الناس فى السودان ظلوا منذ أن صاروا عرباً ، إلى أن أتى العهد التركى لا يعرفون من الشعر إلا ما كان منه شعبياً أو صوفياً ، وقد دخل العرب السودان من عهود موغلة فى القدم قبل الإسلام ، ثم كثروا فيه حتى أدخلوه فى الإسلام ، ولم يعرفوا الأتراك إلا فى عام ١٨٢١ م .

ألم تجد قريحة عالم من العلماء فيمدح ملكاً من ملوكهم وكانوا لهم مكرمين مقربين ، وقد رأوا مدائحهم تأتى من علماء الأزهر الذين هم أساتذة وقدوة لهم ؟ !.

لقد استطاع هؤلاء العلماء أن ينظموا الشعر الصوفى على ضعفه

واستطاعوا أن ينظموا المتون ، فما الذى عقد ألسنتهم وشل قرائحهم عن نظم الشعر فى أغراضه التى لاصلة لها بالدين ؟ !

وطبقات ود ضيف الله لم تكن كتاب أدب فنى ، فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ، والشعراء الذين عناهم المؤلف هم الذين أورد أشعارهم فى كتابه ، هم الذين شطحوا بالشعر ، هم الذين نظموه فى مدح أشياخهم ومراثيهم ، أما غير هؤلاء من الشعراء فلا شأن له بهم ، فهو مغرم بالأولياء وكراماتهم الباهرة ،يذكرهم بإعجاب ويسهب فى سرد سيرهم ، فإذا جاء ذكر عالم لم يكن من صانعى الكرامات اقتضب ترجمته اقتضابا ،وقد يكون من أعظمهم ، كما فعل مع الشيخ البولاد مثلا(١) .

ورجل كهذا لاننتظر منه أن يروى شعراً فى مدح الملوك ، وهـــو لا يذكرهم إلا لماماً ، ولا ننتظر منه بالأحرى أن يروى شعرا فى الغزل واللهو ، فإن ترخص وروى أبياتاً من الشعر الشعبى فيها غزل ،فذاك لأنها منسوبة إلى صوفى(٢) ملامتى لا يدل ظاهره على باطنه كما يرون . أما أن يروى غزلا للشعراء الذين يتبعهم الغاوون فهذا أمر لا يمكن أن يكون .

والشيخ أحمد كاتب الشونة لم يلتزم بذكر الشعراء كما التزم صاحب الطبقات ،ثم هو متأثر به إلى حد كبير فى العناية بذكر الأولياء والصالحين، وبما قالوا وبما قيل فيهم من الشعر ، ومتأثر بالجو السائد فى تعظيمهم وإجلالهم .

والتونسى صاحب « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » يؤرخ منطقه لم تتأصل فيها العربية كما تأصلت فى سنار ، إنه يؤرخ سلطنة دارفور .

---

(١) الطبقات ص ٥ . (٢) الطبقات ص ٢٨ .

ومع ذلك كله فكاتب الشونة لم يبخل علينا كل البخل ، فقدم إلينا شيئاً قليلا ولكن دلالته كبيرة ، كان على الدارسين الذين فرضوا سبق الشعر الصوفى ألا يهملوه .

أورد كاتب الشونة قصيدة قوامها ثلاثة عشر بيتاً ، ليست فى مدح الأولياء ولا فى رثائهم ولا هى شطحة من شطحاتهم ، إنها فى مدح محمد ابن عدلان ، وكان قد ثأر لأبيه ورجع إلى سنار فرحاً . قدم لها الشيخ أحمد كاتب الشونة بقول « وقد مدحه أحد الفقراء[1] المتعرضين لصلاته بأبيات[2] » .

إن لهذه العبارة أهمية كبرى ، فقد كشفت لنا بوضوح أن هناك من كانوا يتكسبون بالشعر الفصيح ، ومن كانوا يتعرضون لصلات الملوك والوزراء ، وهذا هو المتوقع ، هو الذى يجرى على سنة الشعر العربى فى كل صقع عرف العربية وعمره العرب ملوك يكرمون العلماء ويعظمونهم ويقبلون شفاعتهم ، أيكون من المستساغ أن يبخل عليهم العلماء بأبيات من الشعر تشرح صدورهم وتدفعهم إلى المزيد من العطاء والبر ؟ !

مالى أرجع إلى الاستفهام وإلى الإنكار ، وأمامى هذه العبارة الناطقة بوضوح لا مزيد عليه بأن الشعر عندهم أصبح حرفة « مدحه أحد الفقراء المتعرضين لصلاتها بأبيات » .

سلام رب العلى أهديه الآنَ
إلى أمير بدار الفنج سلطان[3]

وهو الرشيد عزيز الاسم نذكره
محمد الليث نجل الشيخ عدلان

---

(١) الفقراء : جمع الفقير وهو فى لهجة أهل السودان الفقيه .
(٢) كاتب الشونة ص ٧٦ . (٣) كاتب الشونة ص ٧٦ .

له خصال على الأنداد زائدة
شجاعة القلب صدق ثم إحسان

* * *

له القبائل فى أوطانها امتثلت
لأمره رجعت جاءت بديوان
كثير صمت بليغ اللفظ منطقه
فيه الحذاقة منه الخصم غضبان

والقصيدة من غير شك ضعيفة طافحة بما يؤخذ على الشعر فى ذلك الزمان ، محمد من الصرف وحقه أن ينصرف ، وطابع الفقهاء يطبعها وسلام ربى العلى ، وفيها عبارات أو هى من خيط العنكبوت مثل ، رجعت جاءت بديوان ، وهذه القافية المقيدة خنقت موسيقى القصيدة خنقاً ، وليس فيها معنى جديد أو لفظ رائق . ولكنها مع هذا كله أدنى إلى الشعر من أغلب نماذج الشعر الصوفى الذى يفتقر إلى مقومات الشعر كلها ، وقد أوردت منه أمثلة لمن لا يود الرجوع إلى طبقات ود ضيف الله ومخطوطة كاتب الشونة ، فهذه الأبيات سليمة الوزن وهو أمر لا يعرفه الشعر الصوفى ويمكنك أن تقول وأنت مطمئن الاطمئنان كله أن القاعدة الأساسية فيه فساد الوزن وخلل القافية .

وبين يدى قصيدة أخرى طويلة نسبياً فعدد أبياتها ثلاثون بيتاً نظمت فى رثاء ملوك سنار حين سقطت .

تبدأ القصيدة بحكم عامة ، تتحدث عن زوال النعم ، وأنه من شأن

الدنيا وأنها دار رحيل لاثبات فيها لضعيف ولا لقوى جبار . فأين عاد ؟!
وأين فرعون ؟ ! وأين كسرى ؟ !

والدهر هذا فلا تبقى محاسنه
فيبدل المرء إحساناً وأضراراً[1]

ثم تأخذ فى الرثاء بعد هذا التمهيد الذى هيأ النفوس للحزن :

آه على زمن قد كان فى طرب
كنا بجمع من الأحباب سمارا

آه على بلدة الخيرات منشئنا
أعنى بذلك دار الفونج سنارا

فأوحشت بعد ذاك الأنس وارتحلت
عنها الأماثل بدواناً وحضارا

وصار عمرانها المحسون مندرسا
يصيح بوم به فى الليل صرارا[2]

وأبدلت دولة الإعزاز من همج[3]
كأنهم لم يكونوا الدهر أوزارا

فنصب الملك والتعظيم منطمس
كأنه لم ينل بالفخر إظهارا

بالمجد كانوا كرام الناس منقبة
بسيرة كاملين الفضل أحرارا

---

(١) كتاب الشونة ص ٨٠ — ٨١ .

(٢) صوت البوم يسمى النعيب ، ولكن أهل السودان يسمونها « الصرارة » لأن صوتها يشبه صرير الباب .

(٣) الهمج قبيلة كان منها وزراء الفونج .

فلو رأيت بهم ما حل من ضرر
أجريت دمعك أعلانا وإسرارا

أنا لا أجرؤ فأقول إنها قصيدة جيدة ، إنها نمط من الشعر الضعيف الذى سبق نهضة الشعر فى العالم العربى ، الألفاظ واهنة والنسج مهلهل وهنـــاك أخطاء فى استعمال بعض الكلمات وأخطاء فى اشتقاقها ، فى « أوزار » جمع وزر لا جمع وزير و « بدوان » لم أعثر عليها فى اللغة لجمع التكسير « بدو » وجمع السلامة « بادون » . « المحسون » لا أدرى من أين أشتقها .

وفيها تعبيرات ليست من أسلوب الشعر من مثل قوله « أعنى بذلك » والمعانى كلها مألوفة أكل الدهر عليها وشرب .

ولكنها بعد ذلك وبعد ما هو أكثر من ذلك ، تمتاز بعاطفة لم أحس فى أشعارهم ما يضارعها ، بل كانت أشعارهم خالية من العاطفة خلواً تاماً ، حتى فى الرثاء وهو أشد المواقف استدعاء للعاطفة .

أستطيع أن أقول إنها من أرقى أشعارهم فى وزنها وقوافيها وعاطفتها ، ولا مجال هنا للحديث عن الخيال والصور ، فهذه أشياء ما كانت تخطر لهم ببال .

ولدى نموذجان يمكن أن يضافا إلى الشعر السنارى ، بل هما شعر سنارى لا ريب فيه ، لانهما نظما قبل أن تثبت أركان الفتح التركى وتستسلم جميع القبائل ، نظما قبل أن يتخضرم الشعراء ويتشربوا بروح العهد الجديد ، الأول قصيدة نظمها الفقيه إبراهيم عبد الدافع عام ١٨٢٥م أى بعد سقوط سنار بثلاثة أعوام ، فليس من المعقول أن التركية ضربت السنتهم المعقولة بعصا سحرية ففاضت بالشعر السياسى فى هذه الأعوام الثلاثة ! .

مزج الشيخ إبراهيم فى قصيدته السياسية برثاء بعض العلماء وهذا ضرب من التقية ، مطلعها :

اليوم أصبح ركن الدين منهدما
بموت إخواننا فى الله والعلما[1]

وإستمر فى رثاء العلماء إلى أن قال باكياً على سنار وعهد سنار :

ديارنا بعد ما كانت مُعمَّرة
منهم غدت مسكن الطاغين والظلما

كنا زمانا يجينا الركب من بعد
إلى العلوم وللقرآن والحكما

صرنا طعاماً بلا ملح يلذ به
تعافه أعين الرائى ومن طعما

كأننا قط ما كانا بلدتنا
نقرر العلم جهراً ليس مكتتما

والدهر فى غفلة عنا ويحسدنا
على الذى عندنا الجيران والخصما

وهذه القصيدة تمتاز بالعاطفة ايضاً، وبالرغم مما بها من مآخذ فانها تمتاز بلون من التعبير لم يعرفه الشعر السودانى الذى ظفرنا بشىء منه هو تكرار المقطع الأول من بيت فى أبيات عدة تالية ، مما يدل على العناية بالموسيقى ، فقد كرر « فمن » ثلاث عشرة مرة :

فمن إلى العلم فى الآفاق ينشره
ومن يقوم بحكم الشرع ملتزما

(١) كاتب الشونة ص ٩٨ — ١٠٠

إلى قوله :

ومن بنغمته فى الليـــــل يوقظنـا

فى سرد در من الأمداح منتظمـا

وهذا النهج مألوف فى الشعر العربى منذ الجاهلية من ذلك ما جاء فى القصيدة الجاهلية المشهورة :

قربا مربط النعــــامة مــــنى

لقحت حـــــرب وائل من حيالى

وفى القصيدة ظاهرة أصبحت فنا فيما بعد كما سنرى إن شاء الله ، هى الرجوع إلى الماضى المشرق والبكاء عليه لبيان سوء الحاضر وبعث الهمم للنفور منه وتغييره .

وأتجاوز هذه القصيدة وهى خليقة بوقوف أطول إلى النموذج الثانى .

إنه مقطوعة مطربة نظمها الفقيه أحمد بقادى فى مدح خورشيد بك عام ١٨٢٥م وهو مايزال بالترغيب والترهيب يدعو الناس لتستقر الحال ويرجع إلى الديار من هرب ، وقد توجه نحو أهالى العطيش فألقى الله الرعب فى قلوبهم ، ولم يقاتلوه فدخل الدار وأمن من وجد[1] .

والمقطوعة من الشعر الرائع فى ذلك الحين ، ويمكن أن نضيفها إلى مختارات الشعر الذى نظم قبل النهضة فى السودان وفى غيره من الأقطار العربية :

إلى البهج السامى الأحابيش تخضع

وللنصر منه بارق النصر يلمـــع

---

(١) كاتب الشونة ص ١٠١ — ١١٠ .

والأمر منه معرض الناس يتبع
والقول منه قس و "قـدر" يسمع

وفي حكمه ما للهازيل مطمع
وفي فتحه أرض العطيش لمجمع

جميل منير مسفر نور وجهه
على عارضيه السعد يزهو ويلمع

هذه الأبيات كلها ماعدا البيت الأخير مصرعة ، مما أشاع فيها موسيقى صاخبة ، تجاوب صيحات النصر ، وتنبيء عن فرحة الشاعر وإعتزازه بقدرته على النظم ، والتصريع وإن لم يكن من مذهب الفحول[1] ، الا أنه هنا يعتبر فتحاً مبيناً ، فقد عرفنا أن أضعف مافي شعرهم موسيقاه ، وكانت الاغلبية الساحقة منهم لا تقوى على وضع القافية في مكانها المطمئن . وأنا لا أقول إنها مبرأة من العيب ولكنها مهما قيل فيها فإنها قلادة من معدن جيد محكمة النظم ، تلمع وسط عقود من الخرز واهية الخيوط .

وبعد فما آية هذا كله ؟

آيته أن الشعر التقليدي قطع شوطاً لم يقطعه الشعر الصوفي ، وهو بالتأكيد لم يسبقه اعتباطا ، بل لا بد أن يكون قد ثقفته ألسن الشعراء ، وصقلته المرانة ، وشذ به النقد ، وأسلس جامحه الزمن .

هو لابد والحالة هذه أن يكون بدأ من وقت مبكر ؛ قبل بداية الشعر الصوفي ، وتدرج في صور أضعف إلى صور ضعيفة كصور الشعر

---

(١) المرأة في الشعر الجاهلي — الدكتور أحمد محمد الحوفي ، ص ٦٧٢ .

الصوفى ، ثم خطا خطوات أخرى حتى وصل إلى هذه المرحلة القريبة من النضج والإحكام .

فاذا أبى القارىء أن يضم هذين النصين الأخيرين إلى شعر سنار ، وأصر على أنهما تركيان فليكن له ما أراد ، ولكن على شرط أن يعتبرها تطوراً لفن كان موجودا قبل العهد التركى ، وهذا ليس استجداء منى فقد قدمت ما يثبت ذلك بالفعل .

وإذا قال قائل إنهم لم يعتبروا هذا لقلته بجانب الشعر الصوفى الكثير فى العهد السنارى ، فلما جاءت « التركية » كثر الشعر التقليدى فكان البداية الواضحة ، ولهذا قالوا : إنه بدأ فى العصر التركى ، فإن هذا الاعتراض مدفوع بما يأتى :

(١) إن المسألة ليست مسألة قلة أو كثرة ، بل هى هل هذا الفن كان موجوداً فى عهد سنار أو لا ؟ وقد أجبت أنه موجود ، وكثرة الشعر الصوفى جاءت من حرصهم عليه ولكنه امتاز يومئذ لغرابته فى الأسماع ولإخلاص قائليه ، ولحاجة الناس إليه ، فقد كان صاحب الشعر صوفياً مقدساً ، والمريدون ينشدون شعره فى حلقات الذكر قربة وبركة ، ثم ينتفعون به فى دنياهم سلوكا وكسبا[1]

(٢) لم أجد مع الأسف فى العهد التركى شعرا تقليديا أكثر مما وجدت فى عهد سنار ، أما إذا أرادوا أن يضموا ماقيل فى ثورة المهدى إلى الشعر التركى فمن حقهم أن يفعلوا ذلك ، لأن شعراءه قد استمر مريرهم واستحصدت

---

(١) مقدمة محمد المهدى على ألحان وأشجان ص ٥ .

قوتهم فى العهد التركى ، فهذا أمر آخر وهو يطوع لى أن أضم ما قيل فى أوائل هذا العهد الى عهد سنار .

لم يكن همى كله مصروفاً إلى نقض منهج الدكتور عبد المجيد عابدين أو من جاء بعده وساروا فى سبيله ، وإن كان تاريخ الأدب يقتضى ذلك ، ولكنى كنت أبحث عن بداية الطريق فوجدتها ، فمن هنا سأسير وراء ظاهرة لها بداية معلومة ، وإن لم تكن هى الخطوة الأولى .

الفصل الأول

الشعر فى العصر التركى

أ ـ الأحداث التاريخية ومناقشتها :

غادرنا سنار وهى فى طور الهرم ، أكلتها الحروب والمجاعات والأوبئة فمات الناس بالالآف من سنار وكردفان ، وتمزقت أوصالها ، فاستقلت القبائل الكبيرة كالشايقية والجعليين وغيرهما ،واضطرب حبل الأمن وبارت التجارة،وهرب كثير من السودان خوفا من ظلم بادى السادس ،واستقرت جماعات منهم فى مصر والحجاز [1].

ومن جهة أخرى كان محمد على باشا يفكر فى فتح السودان مدفوعا بدوافع شتى ، يختلف فيها المؤرخون لاختلاف نزعاتهم ومقاصدهم . وكان الخلط بين الشعب المصرى ومن حكموه من أكبر أسباب الخلاف،فالمؤرخون بعضهم يحاول أن يلقى تبعة بعض مآس حدثت فى السودان على كاهل مصر ، وبعضهم يحاول أن يبرئها مما حدث ، وأن يبرز الحسنات ويغمض عينيه عن السيئات،حتى يخيل اليك أن السودان أصبح هو الجنة التى وعدنا الله بها ، وبعض مؤرخى الأدب يعمدون إلى إثارة الخواطر وتشويه الحقائق كما سنرى .

وهذا كله عمل باطل ، فنحن نعلم علم اليقين أن الشعب المصرى لم يكن فى يوم من الأيام إلا أخا كريما وصديقا حميما ، ونحن نعلم علم اليقين أن الشعب المصرى لم يكن راضياً عن حكامه من الأتراك المتمصرين، أو

(١) السودان المعاصر ـ للدكتور زاهر رياض ص ٥٥ .

الباشوات الإقطاعيين السائرين خلف سياسة الاستعمار ، فهو ما يزال يكافحهم ويناوئهم حتى تم له النصر بثورته التي ردت إليه رزقه المنهوب وإرادته المسلوبة.

فالسودانيون لهذا كله يسمون هذه الفترة التي بدأت بفتح السودان على يدي محمد علي ؛ وانتهت بسقوط الخرطوم في يدي محمد أحمد المهدي، يسمونها « التركية » نسبة إلى الأتراك :

أولا : لأن الفتح تم باسم السلطان العثماني ، فقد وافق محمد الثاني على أن يفتح محمد علي باشا ما شاء من أقاليم السودان ، على أن يحدث هذا باسم السلطان العثماني[1] .

ثانيا : لأنهم يعلمون أن الشعب المصري لا دخل له في هذا الأمر، فهو محكوم مثلهم بهؤلاء الأتراك المتمصرين ، وإلى وقت قريب كان بعض العامة في السودان يسمون الإنجليز الترك ، والظاهر أن الذي حملهم على هذه التسمية المشابهة في الألوان والعجمة وتولي الحكم ، أما المصري عندهم فهو « ود الريف »[2] نسبة إلى ريف مصر .

ومهما تكن الأسباب [3] فقد عزم محمد علي باشا على فتح السودان ، وجمع جيشا من المغاربة والأتراك والأرنؤوط وأعراب البادية وخاصة العبابدة. وعقد لواء الحملة لابنه اسماعيل وسيره لفتح سنار ، وكان في صحبة الجيش نخبة من علماء الإسلام ، لدعوة الناس للدخول في طاعة السلطان من غير أن تراق الدماء .

ثم جيش جيشا آخر جعل على رأسه صهره محمد بك الدفتردار وأرسله لفتح كردفان .

---

(١) السودان المعاصر ص ٥٥ .

(٢) ودفي لهجة أبناء السودان تعني « ولد »

(٣) السودان عبر القرون

(٤) انظر نعوم شقير جـ ٣ ص ١ ومصر والسودان ص ١١ المعاصر ص ٥٥

وسار جيش اسماعيل من غير أن يلقى مقاومة تذكر ، بل كان الفتح في بدايته هيناً ليناً ، ينتقل أسماعيل بجيشه من بلد إلى بلد ، فيتلقاه المشايخ بالتسليم والدخول في طاعته ويسيرون في ركابه . ولعل الذى يسر الأمر ، ما بذله العلماء الذين كانوا في صحبته من دعوة للدخول في طاعة السلطان ، وأن علماء السودان كانوا يعترفون بوجوب طاعته ،وإن لم تكن له عليهم إمرة قبل ذلك الوقت ، ومن الشواهد قول الشيخ ادريس بن الأرباب في حرمة التمباك[1] وكان بعضهم يراه حلالا وقد حرمه سلطان اسلامبول السلطان مصطفى ، ومذهب مالك رضى الله عنه أن طاعة السلطان تجب فيما لم يرد فيه نص الشرعي»[2] . مضافا إلى ذلك حالة الضعف والتفكك التى كانت عليها سنار .

وربما سار الفتح هكذا هينا لينا لو احسن القائد سياسة قبائل الشايقية المحاربة ، التى كأنها لم تخلق إلا للقتال ، كان الشايقية لا يصبرون عن القتال ، فاذا لم يجدوا عدواً مشتركا أغارت كل قبيلة على الأخرى ، ولما هزمهم الأتراك انخرطوا في جيشهم[3] .

بعث إليهم اسماعيل بعد أن استقر بدنقلا أن يسلموا أنفسهم وأسلحتهم وخيلهم ، كما فعل غيرهم فأجابوه بأنهم مستعدون أن يدفعوا ضريبة أو إتاوة أما تسليم الخيل والسلاح فلا . ولكن أسماعيل لم يرتح لهذا الرد ، وبعث اليهم بخطاب آخر يقول فيه « إن والده يريدهم شعبا يفلح الأرض ، ولا يريد منهم أن يحملوا السلاح (٤) » .

---

(١) التمباك : التبغ
(٢) الطبقات ص ٩
(٣) السودان عبر القرون ص ٨٩
(٤) المرجع نفسه ص ٨٩

فأمسك ملكهم الخطاب وجلس على الأرض يروى فى الأمر ، إنهم لم يتعودوا الخضوع بهذه الصورة ، فقد رفعوا عنهم أيدى سنار وملوك العبدلاب ، وهزموا المماليك وقذفوا بهم جنوبا(١) ، ولكن أين قوة سنار وملوك العبدلاب ، وأين عدد المماليك من هذا الجيش الجرار المزود بالنار؟! إنهم الآن لا يلاقون رجالا يحملون السيوف والرماح والتروس ، وإنما هى قنابل تنصب عليهم من أفواه البنـــادق والمدافع من حيث يعلمون أو لا يعلمون .

ولكن الشاعرة « مهيرة بنت الشيخ عبود » لم تدع للملك فرصة للتروى وإعمال الرأى ، بل وقفت على رأسه وصاحت :

الليلهَ العقيدْ(٢) فى الحله متمسكنْ

فى قلب الترابْ شُوفنْ(٣) متجكِّنْ(٤)

إن رئيس القوم اليوم على غير عهدنا به ، فقد ظهر فى الحلة مسكينا وجلس على التراب متداعيا خائرا ، فانظرن إليه يابنات .

الرّأىْ فاقدُ ولايدركْ ولا يمكنْ(٥)

لا تتعجبنْ ضيمْ الرُّجالْ بمكنْ(٦)

لقد فقد الرأى ، فهو لا يدرك شيئاً ولا يبرم أمراً ، ولا تتعجبن يابنات ، إنه قد أحس بالضيم والعجز فكربه الأمر .

ويدور توبيخها اللاذع فى صدور الرجال وكأنه شلال من نار ، ولكن العقيد ما يزال لاصقاً بالأرض وهم ينتظرون أمره .

---

(١) المرجع نفسه والصفحة نفسها .
(٢) العقيد : الملك .
(٣) شوفن : انظرن إليه .
(٤) متجكن : جلس فى تراخ وانحلال .
(٥) يمكن : يبرم . (٦) بمكن : بكرب .

وتدنو منه الشاعرة وتصيح فيه بنغمة لم تألفها أذنه من قبل .

أكانْ(١) قَرَّيتْ(٢) يا رفاقتْنا(٣)
أدُّونا(٤) الدَّرَقْ هاكُمْ رحاطْنا(٥)

إن الصمت فرار ، والتردد جبن وخور ، فاذا عزمتم على الفرار فهاتوا آلة الحرب ، وهاكم مآزر العذارى لقد كنتم يا رفاقنا حماة مانعين فان خفتم الموت ، فتآزروا بمآزر العذارى، وليخرجن هن ولتخرج النساء للقاء الأعداء دفاعا عن الأرض والشرف .

وهنا لم يطق العقيد صبراً ، فنهض وقفز على ظهر حصانه الأغر وقاد جحافل الشايقية إلى لقاء النار ، وركبت الشاعرة هجينا وسارت أمام الجيش تغنى فى حماسة ونشوة :

الليلة استعدُّوا وركبوا خيلْ الكَرْ(٦)
وقدامنْ(٧) عقيدنْ(٨) بالللَّغَرْ(٩) دفَّرْ(١٠)

لقد استعد رجالنا اليوم ، وركبوا الخيل الكرارة فهى خيل الكر لا الفر وأمامهم عقيدهم على حصانه الأغر ، يركضه ركضاً إلى ساحة القتال .

وتطغى عليها النشوة وفرط الحماسة فيصغر فى عينها الباشا وتصغر جنوده :

---

(١) أكان : إذا كان . (٢) قريت : قررتم .
(٣) رفاقتنا : رفاقنا . (٤) ادونا : اعطونا .
(٥) رحاطنا : رحط : أو رهط سيور من جلد أحمر ليس لها حجزة ولا ساق تلبسه العذارى فى السودان وكانت نساء العرب تلبسه، يقول الشاعر الهزلى .

بضرب فى الجماجم ذى فروع وطعن مثل تعطيط الرهاط

العروبة فى السودان — ص ٢٨ .
(٦) خيل الكر : الخيل الكرارة . (٧) قدامن : قدامهم .
(٨) عقيدن : عقيدهم . (٩) اللغر : الأغر .
(١٠) دفر : أركض الفرس .

جنْياتنـا(١) العزازْ الليـله تِتنتر(٢)
ويا الباشا الغشيم(٣) قول لى جدادك(٤) كر(٥)

أبناؤنا الأعزاء اليوم يزأرون كالأسود فى وجه العدو ، فقد جمعت أيها الباشا الغر جنوداً وضيعين كالدجاج ، يتزاحمون على بلادى ليلتقطوا الحب ، ولكنك ستفر بجندك حين ترى بأسنا ، كما يفر الدجاج من الصيحة «كر» فازجرهم عنا قبل أن نزجهم .

فى هذا الجو الحماسى دارت معركة «كورتى» الشهيرة ، وكانت الغلبة للسلاح النارى الفتاك .

واستأنف الفتح سيرته ، حتى سلم آخر ملوك سنار(٦) .

أما الحملة التى كان على رأسها الدفتردار فقد عبرت الصحراء التى تفصل بين النيل فى دنقلا وبين كردفان ، وترامت أخبارها إلى المقدوم حاكم كردفان ، فعقد العزم على مقاومتها ، ودارت رسائل بين الدفتردار والمقدوم قبل أن تدور رحا الحرب ، أبى فيها المقدوم أن يسلم ، وأبى أن يعترف بمشروعية الفتح(٧) .

وفى «بارا» التقى الجمعان ، وقاتل الفريقان قتال الأبطال ، واقتحم رجال المقدوم على ضعف سلاحهم نيران الأعداء غير مبالين بالموت ، وجرحوا عساكر الطوبجية فوق مدافعهم .

وهنا أيضا انتصر سلاح النار الفتاك ، ووقعت كردفان تحت قبضة الدفتردار ، وهم بدارفور لولا أن أزعجه حدث عظيم(٨) .

---

(١) جنياتنا . أبناؤنا ، فيها مجاز باعتبار ما كان ، لأنهم كانوا أجنة فى الأرحام .
(٢) تتنتر . تزأر .
(٣) الغشيم . الغر . (٤) جدادك : دجاجك .
(٥) كر . كلمة يزجر بها الدجاج .
(٦) مختصر تاريخ السودان ص ١٧ .
(٧) السودان عبر القرون ـ للدكتور مكى شبيكة ـ ص ١٠١ ـ ١٠٢ .
(٨) نعوم شقير ج ٣ ص ١٢ ـ ١٣ .

بعد أن استوى اسماعيل على سنار أوغل جنوباً بعد بساط الفتح ويتلق طاعة المشايخ ، وأشار على وكيله أن يفرض ضرائب على الناس ، فأحصى قراهم وسجلها وضرب عليهم ضرائب باهظة لم يألفوها من قبل ، وليست مما يطيقون ، فتذمروا وفر فريق منهم إلى الحبشة ، وهم فريق بالثورة ، فرجع إسماعيل على عجل وعمل ما وسعه فى إصلاح الحال[1] .

وبعد عامين قضاهما فى السودان ، وبعد هدوء الحال فى سنار ، أراد أن يرجع إلى مصر ، وفى سبيله إليها نزل بشندى ، وما إن دخلها حتى طلب من ملكى الجعليين نمر والمساعد أن يتحفاه بما قيمته عشرون ألف جنيه ، أو بما هو فوق طاقتها ، فامتعض الملك نمر من لهجة الباشا وثقل المبلغ المطلوب ، وكان رد الباشا مما لا يقبله زعيم قوم أشاوس يرفع نسبه إلى العباس بن عبد المطلب ، وقد صفع الباشا الملك نمر بغليونه الطويل !! فثار نمر وكاد يتميز من الغيظ والحمية ، وهم برد الصفعة ، ولولا أن أشار إليه أخوه المساعد إشارة خاصة لفعل ، وتظاهر بالطاعة والامتثال ، ودبرا مؤامرة ، فلما جن الليل كان إسماعيل ومن معه طعاماً للنار[2] .

وطار الخبر إلى مصر وكان وقعه أليما على الأسرة الحاكمة ، وطار إلى كردفان فجن جنون الدفتردار ، وأقبل كالوحشى المسعور ، وأخذ يجزر الناس جزراً لا يفرق بين آثم وبرىء . ثم عبر النيل إلى شندى فوجد الملك نمر قد فر ، فأحرق المدينة ، وكر جنوبا والناس تفر أمامه والدماء تسيل خلفه ، ووجد الحلفاية خالية فأحرقها أيضا ، وكان هذا دأبه حتى وصل إلى مدنى[3]

(١) السودان عبر القرون ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢) السودان عبر القرون ص ١١٠ .

(٣) نجوم شقير ج ١ ص ١٤ — ١٥ .

وترك فى نفوس الناس آثاراً لم يمحها إحسان من أحسن من ولاة الأتراك[١] .

وتتابع الولاة بعد ذلك وامتدت الفتوح إلى شرقى السودان وإلى جنوبه وكانت منطقة بحر الغزال فى قبضة الزبير رحمة، فقدمها هدية للباشا محمد على كما قدم دارفور فى غربى السودان، وفتحت أعالى النيل والمنطقة الإستوائية وكان لها تاريخ لونه الأوربيون الذين استعان بهم ولاة مصر، مثل صموئيل بيكر وغوردون بلون خاص[٢] .

إنها حقبة طويلة امتدت من عام ١٨٢١ م الى سقوط الخرطوم فى يد محمد أحمد المهدى عام ١٨٨٥ م، حكم السودان فيها البار والفاجر، المسلم والمسيحى ـ وكان هذا مما أنكر الناس هناك ـ وذاق فيها أهل السودان الرخاء والشدة .

أضرب أمثلة ثلاثة لولاة تغنى عن التطويل والتفصيل :

١) عثمان بك الذى نقل العاصمة من مدنى إلى الخرطوم، كان عهده تتمة لعهد الدفتردار اتسم بالظلم والقسوة، وكان فظاً غليظ القلب[٣]

٢) على باشا الأرنؤوطى، منذ أن دخل الخرطوم لم يخرج منها إلا إلى سنار، ثم عاد إلى مصر بعد مدة قصيرة، وقيل إنه ملأ جيوبه من مال البلاد، ولا سيما من جزيرة سنار[٤] .

٣) أحمد باشا أبو ودان الذى يقول فيه نعوم شقير «استلم أحمد باشا زمام

---

(١) السودان عبر القرون ـ ص ١١١ ـ ١١٢ .
(٢) السودان عبر القرون ص ١٨٦ ـ ٢٠٢ .
(٣) السودان عبر القرون ص ١١٣ .
(٤) نعوم شقير ج ٣ ص ٣٠ .

الحكمدارية . . فنظم الدواوين والمديريات، وحسن حال الكتبة والموظفين. ثم التفت الى أمر الضبط والربط ، فأبطل السخرة ومنع تعدى العساكر على الفلاحين ، ووطد الأمن فى البلاد حتى أمن المسافر والمقيم من حلفا إلى أقصى حدود السودان ، وبذلك اطمأن الأهالى وزادت عمارتهم وخصبت أرضهم حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش . وأوقع الله هيبته فى قلب العباد ، مع أنه لم يكن بذىء اللسان ولا سفاكا للدماء، بل كان وقورا كثير الصمت . ولم يجسر أحد على مخالفته ، وسرت هيبته إلى جميع فروع الحكمدارية ، حتى قيل إن الموظفين والمأمورين فى الجهات كانوا يتوهمون أنه مقيم بينهم يسمع ويرى ، فيحذرون مما يفعلون كل الحذر (١) .

ولا أريد أن أقف عند هذه الأمثلة أشرح واستنتج ، فهى واضحة الدلالة ناطقة بأن الحال كانت تختلف باختلاف الولاة لبعد الشقة إذا ذاك بين مصر والسودان ، حاكم طابعه القسوة وسفك الدماء وتسليط العساكر على الناس وتسخيرهم ، فيضطرب الأمن وتسوء الحال ، وحاكم يريد أن يثرى ويرجع إلى مصر ولا يهمه من أمر السودان الا هذا ، فتسوء الحال وتشيع الرشوة ، ويشاركه الموظفون فى الاهمال والفساد ، وحاكم حازم رحيم يجهد فى أصلاح ما فسد . وهناك نوع آخر كان شره مستطيرا لم أرد أن أضرب له مثلا لأن الكلام فيه يطول، وسنعرف عنه شيئاً فى أثناء ما يأتى عن الحكام الاوربيين الذين استعان بهم ولاة مصر فى حكم السودان .

ولكى أعطى صورة عن هذه الحقبة فإنى أختصر الطريق فالخص محاسنها ومساويها فيما يلى :

(١) أنها وسعت رقعة السودان ، وأقامت فيه لأول مرة فى تاريخه

---

(١) نعوم شقير — ج ٣ — ص ٢٤ .

حكومة مركزية تبسط نفوذها على سائر أجزائه فى كثير من الأحوال [١] .

(٢) استتب فيها الأمن بصفة عامة ، فأصبحت الحال على غير ما رأينا فى مملكة سنار (٢) .

(٣) دعمت وحدة القطر فربطته بشبكة تلغرافية ، وربطته بمصر (٣) .

(٤) أبلت بلاء حسنا فى نشر العلم وتشجيع العلماء ، فكانت « الخلوات » الكتاتيب لتحفيظ القرآن والمساجد لدراسة العلوم العربية الإسلامية منتشرة فى ربوع السودان كما رأينا فى أيام سنار ، فعطفت عليها الحكومة الجديدة بالتشجيع ، ووظفت رواتب شهرية من النقود للعلماء والفقهاء ورواتب من الذرة لغذاء الطلاب(٤) ، وانشأت أورقة فى الأزهر باسم مناطق من السودان ، يأوى إليها طلبة العلم الذين يرغبون فى المزيد من الثقافة فى مصر ، وأنشأت بعض المدارس الصناعية ، وفتحت خمس مدارس فى الخرطوم وبربر ودنقلا وكسلا والأبيض (٥) ، يقول عنها الدكتور مكى شبيكة : « قد أدت هذه المدارس النظامية خدمات لا مثيل لها للإدارة السودانية ، بأن مدتها بالكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف ، وأحدثت نهضة فى الثقافة والأدب فى ربوع السودان (٦) » .

قد يكون ما ذكره الدكتور مكى شبيكة من أنها أتحفت الإدارة بالكتبة والمحاسبين وعمال التلغراف موضع تسليم ، أما أنها أحدثت نهضة فى

---

(١) السودان المعاصر ص ٨٨ .

(٢) نعوم شقير ج ٣ — ص ٠ ٣ .

(٣) تاريخ السودان الحديث — ضرار صالح ضرار — ص ١٠٧ .

(٤) السودان عبر القرون ص ١٥٩ .

(٥) السودان عبر القرون ص ١٥٨ .

(٦) السودان عبر القرون ص ١٥٨

الثقافة والأدب فهذا مما أشك فيه ، لأنى لم أجد أديباً واحداً أو مثقفاً ينسب الى هذه المدارس ، بل إننى أجد عند رفاعه الطهطاوى الذى أسس مدرسة العاصمة ما يدل على أن هذه المدارس لم تنجح اطلاقا . يقول فى قصيدة يتبرم فيها من وجوده فى السودان لأنه ذهب إليه مكرهاً :

ثلاث سـنين فى الخرطوم مرت
بـدون مدارس طبـق المراد
وكيف مدارس الخرطـوم ترجـى
هنـاك ودونهـا خرط القتـاد
نعم ترجـى المصانع وهـى أحـرى
لتأييـد المقاصـد والمبـادى
عـلوم الشرع قائمـة لديهـم
لمرغوب المعـاش أو المعـاد (١)

وأعتقد أن رفاعة لم يرد أن يصف السودانيين بعدم القابلية لتحصيل العلوم ، بل يريد أن يقول إنها أخفقت لضعف وسائلها العلمية ، ولما تحتاج اليه من معدات . ودليلى على ذلك أن رفاعة قد أثنى على مواهب السودانيين واستعدادهم لتحصيل العلم حيث قال « لهم قابلية للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم . . . . واشتغالهم بما ألفوا من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم . . » (٢)

ومن ألوان تشجيع العلماء تزويدهم بالكتب القيمة ، مما اطلق ألسنتهم بالثناء على الخديوى توفيق من ذلك قول الشيخ الأمين محمد الضرير (٣) :

---

(١) تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية — سليمان كشة — ص ٣٣
(٢) السودان — عبد الله حسين — ج ١ ص ٩٦ .
(٣) شعراء السودان ص ٢٠ .

فيا أولى الفضل أهل العلم إنكم
في نشر ما يرتضيه الله إخوان
فأخلصوا حبكم في الله وازدرعوا
بذر الحبور فهذا الوقت إبان
أليس عارفكم يسدى معارفكم
كما يرى وله للنصح ديوان
ألم توزع عليكم كلكم كتب
في العلم نافعة بالطبع تزدان
لحاصل القول أن العلم قد سهلت
أسبابه إذا بدت للخير أعوان

ولم يرد بالطبع ما يقابل التكلف وكد الخاطر، وإنما أراد أنها مطبوعة وليست مخطوطة كالتي بأيديهم، وهذا يدل على قلة الكتب المطبوعة لديهم.

وإذا كانت هذه الكتب معربة مما كتبه الرحالون عن السودان مثل كتاب الرحال (Spake) الذى ترجمه رفاعة رافع كما يقول الدكتور العدوى[1]، فإنها تضيف إلى معارفهم لوناً جديداً، فقد كانوا يعتمدون في معرفة السودان على الأخبار المتداولة بينهم، يقول الشيخ ود ضيف الله مؤلف الطبقات «وبعد فقد سألني جماعة من الإخوان ... أن أؤرخ ملك السودان، وأذكر ما فيه من الأعيان فأجبت سؤالهم ... مع أنه لم يكن لأسلافنا وأسلافهم وضع في هذا الشأن إلا أن أخبارهم متواترة عند الخاص والعام ...[2]»

(٥) اهتمت بالزراعة، فتحولت طائفة كبيرة من الرعي والتجول إلى فلاحة الأرض، وظهرت قرى جديدة عليها طابع الاستقرار، وفي

(١) يقظة السودان ص ٣٣ .
(٢) الطبقات ص ٢ .

عام ١٨٣٩م زرعت مائة ألف فدان زايدة على ماكان ، وتوسعوا فى زراعة القطن ، ودخلت السودان زراعة النيلة وقصب السكر[١] .

(٦) كذلك نشطت حركة التجارة فأخــــذت القوافل والبواخر والمراكب تذهب وتجىء بالصادر والوارد من المواد والسلع[٢] .

(٧) أشركت السودانيين فى إدارة البلاد ، فاحتل بعضهم منصب المدير كالشيخ أحمد أبى سن ، وحسن الشلالى ، وأنشأت المجالس المحلية وهى تجربة رائدة فى إفريقية ، والغرض منها أن يباشر السودانيون حكم أنفسهم بصورة منظمة[٣] .

(٨) اهتمت إهتماما بالغاً بالكشف عن منابع النيل ، ودراسة المناطق السودانية،ورسمت لها خرائط تبين معالمها وحدودها ، دخلت فى خريطة العالم واعترف بها الأوروبيون[٤] .

(٩) ويرى سلاطين باشا « أن أعظم ما تمتع به السودان أثناء هذه الفترة الطويلة ، هو قيام كل فرد بشعائره الدينية ، وبنشر العلوم حسبما يوحى به ضميره ، فكنت ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين فى أماكن قريبة يقصدها أبناؤها بمطلق الحرية وفى هدوء وإطمئنان ، وكانت مدارس المسيحيين الأوربيين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة ، لا فرق فى ذلك بين الفلسفية منها والدينية والعلمية المحضة[٥] » .

ولكن هذا الذى يراه سلاطين ميزة كبرى لذلك العهد ، يراه المتشددون

---

(١) السودان المعاصر ص ٧٢ .
(٢) السودان عبر القرون — الدكتور مكى شبيكة — ص ١٦٥ .
(٣) يقظة السودان ص ٢١ .
(٤) يقظة السودان ص ٢٣ .
(٥) السيف والنار فى السودان لسلاطين — تعريب جريدة البلاغ ص ٣٢٨ .

من السودانيين سيئة من أعظم سيئاته ، وقد ظهر شعورهم جلياً بعد أن انتصرت ثورة المهدى ، حيث أبوا أن يقبلوا من المسيحيين إلا الإسلام ، مع أن الدين يبيح لهم أن يبقوا على مسيحيتهم ويعطوا الجزيه ، ويصبحوا أهل ذمة تجب حمايتهم ورعايتهم ، وقد اضطر هو نفسه أن يتظاهر بالإسلام قبل أن تنتصر ثورة المهدى[١] .

إن نظرة سلاطين وأمثاله من الأوربيين إلى المجتمع السودانى، هى نظرة أغلب الولاة الذين حكموا السودان فى ذلك الحين ، فقد عجزوا عجزا تاماً عن إدراك « المناخ الفكرى » الذى حرصت عـــلى تشخيصه ، فلم يدر بخلدهم أن خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام .

وفى الجملة أحدثت « التركية » إلى السودان فى نواح كثيرة ، ووصلته بالعالم على نطاق أوسع مما فعلت سنار ، وأطلعته على ألوان من الحضارة لا عهد له بها . ومع ذلك كانت لها أخطاء أضعفتها ، وزلزلت أركانها ثم قضت عليها . منها :

(١) الاستغلال السىء الذى صال فيه الدفتردار وجال ، وترك أهل السودان « جزر السباع وكل نسر قشعم » .

(٢) تسلط الأوربيين على الإدارة، فمنذ أن تولى غوردون الحكمدارية ـ وكانت له سلطة تفوق سلطة الخديوى ـ أخذ ينفذ سياسة معينة هدفها احلال الأوربيين محل السودانيين والمصريين فى الإدارة، والتمكين للمبشرين المسيحيين ، والقضاء على الروح العربى والثقافة الإسلامية، فعزل فى مرة واحدة أربعة عشر موظفا مصريا ووضع فى مكانهم أوربيين، من أمثال جيسى وريجوليه وسلاطين وجيكر وشنـــتزر وأمليا وسيداليـا

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ .

وفردريك ... الخ . فاستبدوا بكل شيء وحطموا كل شيء حتى القانون ، فعاقبوا على الشبهة وبغير محاكمة ، كما فعل جيجى بسليمان بن الزبير ، فقد اتهمه بالثورة على الحكومة ، وأخرجه من منزله وضربه بالرصاص أمام أعين الناس ، قبل أن يثبت عليه شيء مما اتهمه به ، فاعتقد الناس أنها حرب صليبية يشنها الكفار على الإسلام والمسلمين[١] ومما أكد هذا الاعتقاد فى نفوسهم أن غوردون حاول أن يشيع فى ربوع البلد ، الحرية الشخصية ، ولو كانت فيها إهانة للدين ، فأجاز أن تقيم المومسات بجوار الزوايا والمساجد[٢] .

واعترف سلاطين بانتشار الفساد الخلقى وأنه أصبح تجارة رائجة ، «وكان بالمسلمية جماعة من النساء فى سن الشباب يملكهن أغنى التجار وأكثرهم اعتباراً ، يؤجرونهن للأغراض السافلة بأجور عالية ، وهذا العمل من التجارات الرابحة[٣] » .

ولما احتج الشيخ عبد الله شيخ سجادة القادرية بالخرطوم على انتشار الفساد ، أهانه غوردون وسفه رأيه(٤) .

وما يزال الناس يتحدثون عن نوع آخر من الفساد الخلقى فشا فى السودان فى ذلك العهد ، ما كان السودانيون يعرفونه وما كان المصريون يعرفونه إلا فى الحالات النادرة التى لا يخلو منها مجتمع بشرى ، والناس فى السودان لا يترددن فى عزوه إلى الأتراك(٥) ، وقيل إن من الأسباب التى دعت

---

(١) السودان المعاصر ص ٩٤ .
(٢) الحكم المصرى فى السودان ص ٤٣ — ٤٤ .
(٣) السيف والنار ص ٤ .
(٤) الحكم المصرى فى السودان ص ٢١٧ — ٢٢٩ ويقظة السودان ص ٤٤ .
(٥) فى نفثات اليراع إشارة إلى ذلك ص ١٥ .

المهدي إلى الثورة . أنه رأى بعيني رأسه موكباً يزف فيه رجل إلى رجل ، وأرى من الإنصاف إلا يحمل هذا الإثم كله على الأتراك ، ويعنى عنه الأوروبيون أصحاب « الحرية الشخصية » وقد كان غوردون نفسه منحرفاً شاذاً(١) .

وقد نسبت إلى كاراتى أقوال خطيرة تفصح عما كان يدبره الأوربيون للعرب من ضروب الكيد . منها « يجب أن تفصل تماما البلاد السوداء ـ بلاد الزنوج ـ عن البـــلاد العربية فى السودان . . . وهؤلاء العرب المنتشرون فى البلاد ليسوا إلا لصوصاً أو شحاذين . ويجب إرجاعهم إلى بلادهم الأصيلة وقطع كل أمل عندهم فى العودة(٢) » .

دع هذا كله وماتركه فى النفوس ، فإن استخدام النصارى من غير الأوربيين كان مثار تذمر واحتجاج(٣) .

٣) أن بعض الحكام من الحكمداريين والمديرين والمأمورين لم يسلكوا مسلك الحاكم النزيه العف ، وكان بعد القاهرة عنهم ومايتبعه من ضعف المراقبة ، مشجعاً لهم على أن يلتمسوا الثراء الحرام من كل سبيل ، وقد رأينا ماصنع على باشا الأرنؤوطى ، وهو لم يكن وحيدا فى هذا الباب ، وكان بعضهم يحتكر التجارة كما فعل جركس لطيف ، فقد احتكرها واستأثر بما تدره من ربح . وحدث أن اضطر محمد على باشا إلى أن يعزل بعض المديرين والقواد والكتبة ، ويقدمهم للمحاكمة بسبب الاختلاس ، وكانت السخرة والجلد تصحب ابتزاز الأموال(٤) .

---

(١) أخبار اليوم ١/١٠/١٩٦٦ .

(٢) الامبراطورية السودانية ص ١٢٨ .

(٣) تاريخ السودان الحديث ـ ضرار ـ ص ١١٩ .

(٤) السودان المعاصر ـ للدكتور زاهر رياض ص ٩٣ .

٤) العقوبة بإجلاس الرجل على « الخازوق(١) » ولم يكن السودانيون يعرفونها ، وهم لم يعتبروها أمرا شديدا قاسيا فحسب ، ولكنهم رأوا فيها إهانة تلحق بالرجل وأهله .

٥) لم يتعود الناس فى السودان أن يدفعوا للحكام ضرائب، وإذا كانت عليهم ضرائب فهى الزكاة والعشور، لأن الحكومة كانت خفيفة المؤونة، ولها من التجارة ما يفيض عن حاجتها وقد أسلفت القول فى ذلك ، فلما فرضتها الحكومة الجديدة عليهم نفروا منها نفورا، وهرب بعضهم إلى الحبشة، وهم بعضهم بالثورة(٢) . وتخفيفها عنهم فى بعض الفترات لم يكن هو السياسة العامة ، ولذلك أشتد نفورهم منها. ومن أقوالهم المشهورة « عشرة فى تربة(٣) ولا ريال فى طلبة » ومما زادهم ضيقا بها أنها فوق طاقاتهم ، وأنها لم تكن عادلة ، فهى شديدة على الفقراء خفيفة هينة على الأغنياء ، لقدرتهم على إرضاء الجباة بالرشوة ، وبعض الأراضى التى يملكها الموظفون، ومعظمهم من الأتراك والشايقية لا تجبى عنها ضرائب .

والأنكى من هذا كله الطريقة التى تحصل بها هذه الأموال، فقد أسندوا تحصيلها إلى جماعة من الجنود الباشبوزق، الشايقية والأكراد والمغاربة ، فاستعملوا منتهى القسوة والعنف ، فمن تأخر فى الدفع ألهبوا ظهره بالسياط ، وفوق ذلك فإن المأمورين والجنود لم يقنعوا بتحصيل الضرائب الرسمية ، ففرضوا على الناس ضرائب أخرى . ذلك لأن هناك قصة عجيبة ، هى شرح لما قدمت فى المأخذ الثالث : يأتى بعض الحكداريين وهمه الأول والآخر الثراء ، فيفرض على المديرين أموالا باسم الهدايا ، فيضطر هؤلاء

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ٩ .
(٢) مختصر تاريخ السودان ص ٦٢ .
(٣) التربة : القبر .

إلى فرضها على المأمورين، وهؤلاء على الباشبوزق، وتنتهى السلسلة بأخذها من الناس[1] . ثم تتدرج القصة حتى الحكمدار، ولكنهم يحتفظون بشىء لأنفسهم ، ولم يكن النظار والمشايخ بنجوة من هذا الأثم .

وهم فى سبيل ذلك يسومون الناس ضروبا من العذاب والتنكيل مما يعتبر الجلد بالسياط ـ وكان منكرا عند السودانيين ـ بالنسبة إليها رحمة وشفقة واحتراما . وحسبك أن منها أن يدخلوا هرا فى سراويل الرجل ويلحوا عليه بالضرب حتى يمزق أجزاء حساسة من جسمه .

وهذه أبيات للشيخ محمد شريف ، وهى على ضعفها تعبر عن الحال أتم تعبير :

وما أبت السودان حكم حكومة
إلى أن أتى ضعف المطالب من مصر
فكالثلث والثلثين للميرى وحده
وللشيخ والنظار أضعافه فادر
بضرب شديد ثم كتف مؤلم
ومن بعده الإلقاء فى الشمس والحر
وأوتاد ذى الأوتاد من بعض فعلهم
وأشنع من ذا كله عمل الهر[2]

٦) المحاباة : نقل نعوم شقير عن المضوى « ومن الأمور التى سادت

---

(١) نعوم شقير جـ ٣ ص ١١٠ .

(٢) نعوم شقير جـ ٣ ص ١١٠ — ١١١ .

الأهالى فزداتهم وجداً على الحكومة ، تميز الشايقية الذين جندتهم عساكر وحوالات، وأعفتهم من الضرائب، فى حين أنها ثقلت بها على سائر الأهالى، مع أن الجميع فى مقام واحد ، وما قبيلة معروفة فى السودان تعترف بامتياز الشايقية عليها . ومما ساء الأهالى أيضا وعلى الخصوص تميز المرغنية على سائر الطرق فى السودان حتى كثر أتباعهم وعظم جاههم[1] » .

٧) وإذا كانت تجارة الرقيق عملا منكرا ، فالناس فى ذلك الوقت لم يكونوا يحسون هذا الإحساس ، وربما رأوا أنهم يحسنون إلى الرقيق بتمدينهم وإخراجهم من الوثنية إلى الإسلام ، وكان كثير منهم يعتق ،وقد رأينا فيما سلف أن منهم من أصبح من العلماء الأجلاء فعرض عليه شيخه أن يتزوج ابنته ، إذا كان الأمر على هذه الصورة ، فإن منع تجارة الرقيق فجأة وبلا مقدمات ، لما أثار الناس وجعلهم يعتقدون أن الحكومة تعمل بآراء الكفار . صحيح أن بعض العلماء أفتى ببطلان امتلاك الأرقاء والإتجار فيهم إذا لم يؤسروا فى جهاد مشروع[2] ، فإن العامة لم يقتنعوا بذلك ، فكان ينبغى أن يسبق المنع تمهيد بالفتاوى والمنشورات ، مما نسميه اليوم « توعية » .

ومن جهة أخرى فان نظام الرق كان يقوم عليه كيان السودان الاقتصادى ، فلم يتعود الناس أن يعملوا بأيديهم فى الحقول ، أو أن يستأجروا إنسانا للعمل فيها ، وإنما كانوا يعتمدون على الأرقاء فى فلاحة الأرض ، والرعى وحراسة القوافل التجارية، وغير ذلك من الأعمال[3] .

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٢ .

(٢) الشيخ محمد محمد نور حفيد صاحب الطبقات رواية .

(٣) السودان المعاصر ص ٧٨ — ٧٩ .

فكان التدرج فى المنع هو السبيل القويم . والطريقة التى عالج بها الموضوع صموئيل بيكر وغوردون ومن جاء بعدهما ، جعلت من النخاسين وتجار الرقيق خصوما الداء، ناصبوا الحكومة العداء وأعانوا ثورة المهدى بكل ما يملكون [١] .

وعندى أن الخطأ الأكبر الذى أدى إلى سقوط هذه الحكومة وانتصار ثورة المهدى ، هو أن الولاة لم يعبشوا فى « المناخ العقلى والعاطفى » للسودان ولم يدركوا من هم القادة الحقيقيون ، فقربوا بعض رؤساء القبائل ، وبصورة لم تنل الرضا من بقية الرؤساء ، وقربوا بعض العلماء ، « علماء الظاهر » وأهملوا مشايخ الطرق، مع استثناء طريقة واحدة ، وقد كان لهم نفوذ يعلوا نفوذ الملوك أيام سنار ، ومع وجود العلماء وانتشار العلم كما رأينا ، فإن الحياة الفكرية والروحية كانت من صنعهم هم . ولذلك شاهدنا بعض العلماء يقذف بالكتاب ويدخل الحجرة الموصدة الأبواب يمكث فيها الشهور ذوات العدد ، والذى يظل متمسكا « بعلم الظاهر » فقط ، يصبح موضع السخرية من أقرب المقربين إليه [٢] .

فالعلماء لم يكن لهم سلطان على العامة ، ورؤساء القبائل قد ضعف شأنهم قبل الفتح ولذلك لم يجد الفاتحون مقاومة تذكر ، ومعظمهم كان ساخطا لأن الحكومة أهملتهم .

إزاء هذه الحال التى بطلت فيها الوسائل كلها أمام جيش الحكومة المنظم وسلاحها النارى الفتاك، اتجهت أبصار المشايخ إلى السماء، يستعجلون نزول عيسى منها ، ويلتفتون إلى الناس يفعمون صدورهم حنقا وموجدة على

---

(١) مصر والسودان ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥ والسودن المعاصر ص ٩١ .

(٢) الطبقات ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠ .

الحكومة ، ويبشرونهم بظهور المهدى الذى يملاء الأرض عدلا مثلما ملئت جورا وظلما ، وقد رأينا منهم من ادعى المهدية [٣] قبل أن تشتد الحال وتستحكم حلقاتها ، فولدت الثورة شرارة فى الخلوات والمساجد ، ومازالت تنموا حتى اندلعت نارا حامية، يضرمها محمد أحمد المهدى الذى أحكمت الخلوات والمساجد بنيانه وأذكت جنانه، فتحولت المعارك الخيالية والغارات الغيبية على يده، إلى غارات ومعارك يصول فيها السيف والرمح ويصخب المدفع ، ويهدر الأنصار « الله اكبر ولله الحمد » ويثبون من معقل اشب إلى معقل أشب ، حتى سجدت الخرطوم تحت أقدامهم، ورفعوا رأس غوردون على أسنة الرماح .

وأشهد كما شهد المنصفون بإن الحكام فى مصر ابتداء من محمد على الذى فتح السودان، إلى توفيق الذى خرج السودان من قبضته ، كان همهم تقدم السودان وإسعاد أهله وما حدث من أخطاء لم يكن مما أرادوه أن يحدث ، فهو إما من سوء اختيار بعض الحكداريين ، وإما من ضغط المستعمرين عليهم، وخاصة الإنجليز الذين كانو يحتلون مصر .

وبعد ، هل قدمت لنا هذه الحقبة التى حفلت بالأحداث، وعرضت أمام أعين الناس شيئا من الحضارة التركية المتمصرة ، وشيئا من الحضارة الاوربية ممثلة فى حياة الأروبيين من كل الأجناس . مبشرين وقناصل وحكاما وتجارا . وذاقوا فيها الحلو المر، وخاضوا التجارب، ما كان يسمح بها مجتمعهم المنعزل المتقشف ، هل قدمت لنا هذه الحقبة شعرا ينم عن شىء جديد ، ويعد خطوة ثانية فى الطريق ؟ .

ب ـــ الشعر

صمت الشعر الفصيح فلم يصور شعور الناس الغاضب الحزين ، يوم خضب الدفتردار الأرض بدماء الأبرياء ، فأيم النساء وأيتم الأطفال ، وأحرق الديار ، ولم يصور ما تجرعه الناس من مرارة الظلم ، وما قاسوا من ضروب الهوان والمذلة على أيدى الأتراك وأعوانهم،اللهم الا أبيات محمد شريف السالفة الذكر هي ليست من الشعر في شيء .

ومن يدرى ؟ فلعلهم نظموا شعرا كثير أو قليلا لم يصلنا منه شيء ، وكان الشعر الشعبي أسعد منه حظا ، فقدوصلنا منه ما صور بعض المواقف تصويرا حسنا ، منه ما قدمت لميرة بنت عبود،في موقعة « كورتى » ومنه أبيات تصادفنا هنا وهناك تسجل بعض ما يعانيه الناس . ولأن الشعر الشعبي ليس موضوع الدراسة أكتفى بالأبيات الآتية :

قال أحدهم محبذا خروج الملك نمر على اسماعيل باشا حين أحرقه وفر هارباً إلى الحبشة،ناعياً على الذين أطاعوا وأقاموا على الظلم والهوان[1] :

يا الأرْباب[2] بحكى ليكْ حكاية الطّاعو[3]

بانتْ عليهمْ العوجه[4] وجنائمْ[5] ضاعوا

الحىْ ما استتار[6] والماتْ رقدْ باوْجاعْ

ياكلْ فيهمْ الأتراك متينْ[7] ما جاعوا

---

(١) نفثات اليراع ص ١٥ .

(٢) الارباب . السيد العظيم

(٣) الطاعوا . الذين أطاعوا

(٤) العوجة . الحال السيئة من الاعوجاج .

(٥) جنائم . أولاد .

(٦) استتار . أخذ ثأره .

(٧) متين . في أى وقت .

حبذا ما فعلت أيها الملك الهمام ، لقد أحسنت صنعا بخروجك على الأتراك الظلمة ، فإن قصة الذين أطاعوهم قصة عجيبة ، من بقى منهم حياً فهو ملوم محسور ، لقد ظهرت على وجهه آثار الحال السيئة ، وهو لايفتأ يذكر قتلاه ، ولا يستطيع أن يثأر لهم لضعفه وهوانه ، وهو لايستطيع أن ينهض بما يصلح من أمر أولاده فأضحوا فى عوز وضيق ، ومن مات منهم لم يمت قرير العين ، لأن دمه ذهب هدراً ، فقد مات مطوياً على أوجاعه. إنهم فى الجملة أصبحوا مائدة يأكل منها الأتراك كلما جاءوا ! ، ويثنى صاحب نفثات اليراع على الشطر الأخير فيقول « وكم هو جميل هذا المصراع الأخير ، وكم هو بليغ فى تصوير الظلم المستمر من ناحية الأتراك ، ووصف تلك الحالة العجيبة من الضآلة والهون الذى وصل إليه أولئك الذين استناموا إلى الحيف والعدوان الدائم من غير أن يحرك منهم حفيظة ، أو يثير منهم ثائرة[1] » .

وهناك أشعار شعبية ساخرة ، نعلم منها أن بعض الناس كانوا يعبثون بسلطة الحكومة فيفرون من دفع الضرائب ، ويعتصمون بالأماكن التى يضعف سلطانها عليها ، كسهول شرق السودان ، أكتفى منها بالبيتين المشهورين فى السودان :

البَاشَادا النْبِشْكُولُه[2] شِنْ[3] عُرْضُهُ وشِنْ طُولُهُ
أكَّانْ[4] حَجَرْ حَلُّولَه[5] حَتْ شَرقْ الله البَارِدْ[6] هُولُه[7]

---

(١) نفثات اليراع ص ١٥ .
(٢) البشكوله . الذى ترفع إليه الشكوى .
(٣) شن . ما .
(٤) أكان . إذا كان .
(٥) حلوله . حلله جمع حلة .
(٦) هوله . ملكه .
(٧) فى نفثات اليراع ص ١٨ .

الباشا اليمنو له   شن عرضه وشن طوله
كان حجر حلوله   حت شرق الله البارد هوله

والرواية الشائعة هى ما ذكرته .

هذا الباشا الذى يرفع الناس شكواهم إليه ليقضى بينهم . يعنى صاحب السلطة ، ما عرضه وطوله ؟ ! ما مدى سلطانه ؟ ! إذا استطاع أن يهيمن على المدن والقرى ،أله يدان على الشرق ذى النسيم البارد اللطيف ؟! لا، إنه الشرق الذى لايملكه أحـــد سوى الله . وهذا عكس قول النابغة الذبيانى :

وأنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ولكن الشعر الفصيح إذا صمت ولم يصور لنا الجانب الغاضب - ومن المحتمل أن يكون السبب أن العلماء وهم الذين ينظمونه قد ثابوا إلى شيء من التسامح والرضا عن الحكومة ،حين أنعمت عليهم وبسطت يدها فى تشجيع العلم - إذا كان لم يصور الجانب القاتم مهما يكن السبب ، فقد وصلنا منه شيء يسير، يصور الجانب المشرق الراضى فى أيام توفيق الذى أحبه العلماء .

أمامى قصيدتان الأولى للشيخ الأمين محمد الضرير يمدح بهما الخديوى توفيق ، وجعفر مظهر حكدار السودان،مطلعها :

الود مأدبة والصدق إخوان   والصادقون لدى الآداب إخوان[1]

والثانية للشاعر محمد أحمد هاشم ، وهى أيضا فى مدح الخديوى توفيق لمناسبة عيد جلوسه عام ١٨٨٠ م،ومطلعها :

اليمن أقبل بالإحسان طائره   والكون نار وقد زادت بشائره[2]

---

(١) شعراء السودان ص٢٠ .

(٢) غنات اليراع ص ١٠٩ . عزاها عبده بدوى إلى أحمد محمد هاشم ، وأوراه سهما فلدم وأخر ، وأسند روايتها إلى « شعراء السودان ص ٢٠ — ٢١ وهذا الكتاب لم ترد فيه هذه القصيدة — انظر الشعر الحديث فى السودان لعبده بدوى ص ٢٦٣ .

أما القصيدة الأولى فيستهلها الشاعر بحكم تشير إلى الموضوع ، تشير إلى أنه مقدم على حديث فيه مودة وصداقة وإخلاص .

الود مادبة الصدق إخوان[1]   والصادقون لدى الآداب إخوان
أشعارهم ذات إشعار بحالهم   فهي الشمار حظوا بالوصل أو بانوا
قلوبهم حاضرات حيثما علموا   وإن تناءت لبعد الدار أبدان
عان الأخلاء حتى قال واصفهم   ما (الأمين) بهذا الدهر خلان
فقلت قد لاح لى والله ذو كرم   وجعفر الفيض بالخيرات ملآن
حسن التخلص من هذا الزمان بمن   تضمنوا النفع كى يرتاد ظمآن

ثم الأبيات التى أشاد فيها بالكتب التى أهدتها الحكومة للعلماء.[2] ويقول فى مدح توفيق :

مخايل الخير فى توفيقه ظهرت   أكرم بشهم له التوفيق عنوان
عين الأفاضل لا تحصى فواضله   لأنه فاضل الأعيان محسان
صان المواطن توفيق العزيز كما   حمى أولى العلم مهما كان أو كانوا
لذاك حسن ختام القول أرخه   صون المواطن توفيق وعرفان

١٤٦   ١٣٧   ٥٩٦   ٤٠٧

سنة ١٢٨٦ هـ

فى هذه القصيدة تتجلى أمور :

(١) لقد قوى ساعد الشعراء فى إحكام الوزن والقافية أكثر مما رأينا فى الخطوة السالفة .

---

(١) اخوان: لغة فى خوان .
(٢) شعراء السودان ص ٦٨ .

(٢) إذا تجاوزنا عن بعض كلمات مثل جمع الخير على «خيور» ومثل «ألم توزع» التى لا تلائم الشعر، فإنا نجد اللغة جادت وأصبحت لغة شعر ليس بها بأس كثير.

(٣) هنا ظاهرة جديدة لم أر لها ظلا من قبل، هى الصنعة اللفظية، فمن النادر أن ترى فى هذه القصيدة بيتا خلا من صنعة، فالجناس يأتى وحده فى البيت مثل :

مخايل الخير فى توفيقه ظهرت
أكرم بشهم له التوفيق عنــــوان

وأحياناً يأتى معه الطباق :

أشعارهم ذات إشمار بحـــالهم
فهى الشمار حظوا بالوصل أو بانوا

أو تأتى معه التورية :

خان الأخلاء حتى قال واصفهم
ما (للأمين) بهذا الدهــــر خلان

فالأمين هو المتصف بالأمانة، والأمين اسم الشاعر .

ويرد الطباق منفرداً :

قلوبهم حاضرات حيثما علموا
وإن تنائت لبعد الدار أبدان

وترد التورية منفردة .

وجعفر الفيض بالخيرات ملآن

ثم اختتام القصيدة بالتاريخ

وهذه الصنعة وإن كانت تقليداً لما كان سائداً فى العالم العربى ، فإنها تدل على ترف وهدوء بال ، تدل على أن الشاعر فرغ من هم إقامة الوزن ووضع القافية فى مكانها المطمئن ، وفرغ من كد الخاطر فى جلب المعانى والألفاظ التى يريدها الشعر ، إنه بنى القصيدة وأخذ يزخرفها ، والتقليد نفسه مرحلة ذات بال بالنسبة لشعراء السودان فى ذلك الحين ، فقد كانوا فى عزلة عن آداب العالم العربى ، ومن جهة أخرى فإن هذا الزخرف والإسراف فيه ، يدل على أن تجديد البارودى لم يكن له أثر فى السودان حتى ذلك الحين.

٤) وهناك ظاهرة جديدة أيضاً ، هى إقحام المادة العلمية ومصطلحات العلوم التى عرفوها فى مادة الشعر كقوله :

فالعمر يغلبه يسران أوضح ذا
ما فى الحديث وما أخفاه قرآن

وقوله :

لما غدا رافعاً أعـــلام نصرته
مع نصبه انخفضت للفتح بلدان
فصار يكسر بالتقويم شوكتها
فلم يعد أهلها للحرب بل دانوا

وهذا أيضاً تقليد ولكنه يدل على ما دل عليه الزخرف .

٥) ظهر ضرب من الخيال وإن كان يسيراً ، ولكنه جديد يتمثل فى التشبيهات البليغة ، الود مأدبة . . الصدق إخوان .

ومن الشطط أن نطلب من رجل وهب حياته للفقه متعلماً ومعلماً ، أن تبرأ عباراته من آثاره ، فهو متأثر بأسلوبه من ذلك :

فحاصل القول أن العلم قد سهلت
أسبابه إذ بدت للخير أعوان

والقصيدة الثانية لم يبدأها الشاعر بحكم ولا ما يشبه الحكم ، وإنما بدأها بتهويمة فرحة ، أشاع فيها البشر والسرور وطوالع الخير ، وأشرك معه الكون كله فرقصت محاسنه،على تغريد الطائر الذى أعلن عن فرحته وفرحة الغصن الذى اتخذه منبرا :

اليمن أقبل بالإحسان طائره
والكون نار وقد زادت بشائره
والبشر أبدى سروراً من بجانبه
لما بدا طالع الإسعاد نائره
والكون قد رقصت فيه محاسنه
والغصن أعلن بالتغريد طائره

إنها نغمة جديدة فى الشعر السودانى . لانقل إن النسج ضعيف،وإن الشطر الثانى من البيت الثانى فيه غموض ، فليكن ، فإن تناول الشعر بهذه الطريقة يعتبر ريادة،هذا التحليق قد أطلق جناح الشعر الذى كان مقصوصاً ورفع القيد عن خياله الحبيس .

ثم أخذ الشاعر فى مدح توفيق، فلم يخالفه التوفيق فى كل ما قال :

« محمد » من بتوفيق الإله سما
فوافق الإسم معنى طاب ذاكره
بمولد منه كل الكون فى طرب
لاسيما مصر تعلوها أوامره
قد ضاء سوداننا من حسن رأفته
وصب فى « بَرْبر » منها جواهره

ويستمر هكذا حتى يثبت فى نهاية القصيدة اسمه وعنوانه كاملا ، المدينة ومقر العمل :

أبيات شعر بدت فيه على عجل
من تحل هاشم من طابت عناصره
مقامه « برير » فيها بمدرسة
فانظر له نظرة تملو شعائره(١)

والمقصود مفهوم ، غير أن الشيخ ينشده باستيحاء لا يخلو من ظرف .

والقصيدة تحمل عناصر جديدة غير التي أشرت إليها ، فهذه القافية الحلوة المرنة مولود جديد ، فقد كانت معظم قوافيهم خامدة جامدة . وفي القصيدة خيال غير الذي رأينا في مطلعها ، فليس من مألوف شعرائنا أن يضربوا للمفاخر سرادقا .

حيث المفاخر مضروب سرادقها والنور يلمع في الأكوان زاهره

ولكن صدر البيت مأخوذاً من قول الشاعر القديم :

إن المروءة والسماحة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فإني أكرر أن التقليد في هذه الفترة يعتبر خطوة إلى التجديد ، فهو دليل على أن الشعراء بدأوا يستحلبون مادتهم العلمية والأدبية .

وقد تكون القصيدة نظمت على عجل كما أخبرنا الشاعر ، فهي في الجملة أقرب إلى الضعف منها إلى القوة والرصانة ، وفي ظني أن هذا الضعف نتج من العجلة ، فمثلا في القصيدة أبيات يبدو فيها عدم التناسق مثل قوله :

يحوله منه كل الكون في طرب لا سيما مصر تملوها أوامره

فإن عجز البيت لا يلائم صدره ، فمصر في مثل هذا اليوم الذي طرب فيه الكون كله ، ينبغي أن تعلوها بشائره أو ما شاكل ذلك لا أوامره .

(١) نفثات اليراع ص ١٠٩ — ١١٠ .

وقوله :

كل الممالك أمت باب سدته لنيلها فضل من تسطو بوأتره

يريد أن يصفه بالكرم والشجاعة ، ولكن ما هكذا يكون القول ، فالذى تسطو بوأتره قد لا يكون كريما عطاء ، والناس لا يؤمون باب من تسطو بوأتره ، وإنما يؤمون باب من فاضت فواضله . وفى القصيدة ما يدل على أن الشيخ لو تأنى ونظر فى قصيدته لبرأها من كثير من مظاهر الضعف .

ومهما يكن من شيء فإن القصيـــدة كسابقتها تقدمنا خطوة إلى الأمام .

وهذه قصيدة ثالثة،لم يسبق لها نظير فى شعرنا . لا لأنها بلغت درجة عالية من جودة النظم ، أو أنها أتت بمعالم جديدة لم يلم بها الشعراء فى السودان ، إنها كشعر ذلك الحين يسير ويتعثر، ويكبوا وينهض ، وتعد التقليد من مزاياه التى تستحق الإشادة والتنويه ، ولكنها فريدة لإنها طرقت أفقا لم يطرقه الشعر السودانى ، وحملت دعوة لم يحملها ، وسارت سيرورة لم تكتب له .

إنها قصيدة نظمها الشيخ يحيى السلاوى فى الثورة العرابية لما ذهب إلى مصر لمناصرتها ، يقول عنها صاحب نفثات اليراع «وإذ كان هو من الحزب العسكرى ، فقد طلب إليه أحمد عرابى نفسه أن ينظم قصيدة تطبع وتنشر فى القطر المصرى ، فنظم قصيدته البائية المشهورة من ٩٩ بيتا ، وقع فى يدنا بعضها ، وكان من أهمية هذه القصيدة أن طبعت بماء الذهب ، وبيعت فى شوارع القاهرة كل نسخة منها بجنيه ذهبا[1] » .

ومطلعها قل أن نرى أديباً سودانياً لا يحفظه وهو :

شغل العدا بتشتت الأحزاب
والله ناصرنا بسيف عرابى

(١) نفثات اليراع ص ٨٣ ــ ٨٥ .

وقد قسم الشاعر قصيدته — أو الجزء الذي وقع في يد صاحب النفثات، محمد عبد الرحيم — أقساما :

١) دعا الوطن كله إلى مناصرة الثورة مستثيرا همم أهل مصر وحميتهم ، فهم أولو النهى وأرباب الهمم العالية ، الذين دحرت عزائمهم صنوفا من الأعداء فآبوا شر مآب ، وهم الأحرار والحر لا يركن إلى الحياة الناعمة وحماه مستباح ، وهذه الثورة عمل مقدس دعت إليه حمية الإسلام ودعت إليه محبة الوطن ، فلابد من مؤازرة الثائرين ، والقضاء على الأعداء وسماهم مشركين :

والقطر فيه من الرجال كفاءة
للحادثات فهم أولو الألباب
وحمية الإسلام تقضي بالوفا
حتما على كل امرىء أواب
ومحبة الوطن العزيز تحثهم
والفتح آذن باتباع صواب
والمشركون خواسر في سعيهم
هزموا وقد نكصوا على الأعقاب
هيا بنا يا أهل مصر إلى الرضا
والفوز في العقبى بغير حساب
أنتم أولو الهمم التي بسهامها
كم من عدو آب شر إياب
أنتم ولاة المجد أرباب النهى
والحر يظهر عند صدم مصاب

لا تشغلنكم الحيـــاة فانها ذل لمن يرضى بهتك جناب
ولقـد نرى إخواننـا فى حالة تحتـاج للأعوان والأصحاب
أعنى عساكرنا الكرام ومن أتوا متطوعين لهم من الأعـراب

٢) أثنى على من ناصر الثورة ، من رجال العلم ورؤساء الطرق الصوفية والعمد والتجار والأعيان ، لينصب منهم قدوة حسنة أمام أعين الناس ، كى يسيروا سيرتهم ويهتدوا بهديهم فى مؤازرة الثورة .

والعاملين لهـذه الخيرات من عمـد البـلاد وسائر الأحباب
حسب الإعانة فى الأفاضل قدوة شمس المفاخر شيخنا الأمبابى
وجناب قاضى مصر سيف شريعة يسطو على كل امرىء متغـابى
والسيد البكرى تاج نقـابة الـ أشراف أهل المجد والأنساب
والهجـرسى له سوابق همـــة جمعت نظـام الفخر والآداب
انعم بطائفة التجـار وقل لهم شكرت أياديكم كغيث سحاب
وأفاضل بذلوا الإعانة غيرهم فى حصرهم نصب على الكتاب

٣) يدعـــو الله أن ينجح الثورة ويشد عراها ، ويتشفع إليه بيت آل النبى (صر) ويناشد الخليفة الذى لا يخضعون لسواه ، أن يأخذ بيدها فهو مكان الثقة منهم :

يا ربنـا عجـــل لدينك نصره واجعل له الحسنى بخير مآب
وبآل بيت محمد رد العدا وارسل عليهم منك سوط عذاب
وامددعساكرنا بأعظم قـــوة باعالنا بالقـــانت الأواب
واشدد عـــراهم بالخليفة إنه متكفل بالنصر الأحـــزاب
هـذا ونحن الخاضعون لحكمه لا نرتضى بتعدد الأرباب

ثم يؤرخ كالعادة الجارية :

اثنان عشر منه قد أرختها بالله نصرتنا وسيف عرابي

٦٨ ٧٩١ ١٥٦ ٢٨٣

سنة ١٢٩٨ هـ

وميزة هذه القصيدة الحماسة ، لأن صاحبها كان مؤمنا بالثورة العرابية مشاركا فيها ، ولكنها مطبوعة بطابع النثر ، سوقية الألفاظ ، وليس لها من الجزالة ما لقصيدتيه اللتين مدح بهما السيد محمد سر الختم المرغنى[1] ، والسبب هو أن هذه القصيدة يخاطب فيها الجمهور ، فلابد له من أن يتسهل ، ويستعمل الألفاظ المألوفة والتراكيب المبتذلة .

وخلاصة القول أن الشعر السياسى فى هذه الحقبة قليل ، ومع قلته لم يصور الأحداث المثيرة داخل السودان ، ولكنه أعرب إلى حد ما عن رضا العلماء عن الحكومة ، وشاطر مصر الشقيقة فى ثورتها العرابية ، فوضع اللبنة الأولى للكفاح المشترك بين الشعب السودانى والشعب المصرى ، وهذا الشعر القليل يحمل خصائص لم يعرفها شعرنا من قبل .

---

(١) نفثات اليراع ص٨٥ — ٨٨ .

الفصل الثاني

الشعر فى وهج الثورة المهدية

أ — الأحداث التاريخية ومناقشها :

١) فى جزيرة لبب من أعمال دنقلا ولد طفل اسمه محمد أحمد بن عبدالله، قدر له أن يقوم بأمر عظيم فى تاريخ السودان، كان جده المسمى حاج شريف قد اشتهر بالتقوى والصلاح ، وكان أبوه نجارا ماهرا للسفن والسواقى .

ظل يمارس صناعته فى دنقلا ، فلما ضاقت به سبل العيش فيها رحل إلى الخرطوم ، ومحمد أحمد إذ ذاك طفل . وعاش بين الخرطوم وكررى، إلى أن توفاه الله ودفن فى كررى ، وخلف من الذرية محمد أحمد ، وحامدا ، وعبد الله ومحمدا ، وبنتا تسمى نور الشام . واشتغل الأبناء بصناعة أبيهم، ماعدا محمد أحمد ، فانه كان بفطرته ميالا إلى التدين وطلب العلم كجده حاج شريف ، فحفظ القرآن فى مدرستى كررى والخرطوم ، ثم أخذ يتلقى علوم العربية والدين ، فتتلمذ للشيخ الصويلح فى مسجد ود عيسى بالجزيرة[١] شرقى النيل الأزرق ، ودرس مختصر خليل فى مذهب مالك ، والسلم فى المنطق على الشيخ القرشى ود البصير[٢] ثم مكث ثلاث سنوات يتلقى العلم على الشيخ محمد الخير فى « الغبش » بالقرب من بربر[٣] .

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ١٦٤ ويرى الأستاذ عز الدين الأمين أن دراسة المهدى كانت فى « كترانج » أنظر بحثه « من تاريخ قرية كترانج » .

(٢) جهاد فى سبيل الله ص ٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤ .

واشتهر منذ نشأته بالتعبد والتقوى والزهد ، فكان يمتنع عن الطعام الذى يقدمه إليه شيخه عندما ينفد طعامه ، ويتبلغ بصيد السمك من النيل ، لأن شيخه كان يقبض مرتبا من الحكومة ، وهو فى نظره حرام ، لأنه مال أخذ من أهله ظلما[١] .

وبعد أن أتم دراسته على الشيخ محمد الخير أقبل على التصوف ، فاتصل بالشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيب منشىء الطريقة السمانية[٢] فى مصر والسودان ، فأدخله فى الطريق عام ١٢٧٧ هـ - ١٨٦١ م وأقام عنده منقطعا للعبادة والتبتل ، متقشفا منصرفا عن الدنيا وزخرفها ، وكان يشتغل فى بيت شيخه بما هو منوط بالخدم إذلالا لنفسه ، فكان يحتطب ويطحن ويطبخ ويجلب الماء ، وهو غير مكلف بشىء من ذلك ، وكان كلما وقف للصلاة يبكى حتى يبلل الأرض بدموعه ، وإذا جلس أمام شيخه نكس رأسه ولا يرفعه إلا إذا كلمه .

أقام على هذه الحال ، فأعجب به شيخه ونصبه شيخا ، وأعطاه راية وأذن له أن يدخل الناس فى طريقته[٣] .

وهذه شهادة منه لهذا التلميذ الصالح :

لقد جاءنا فى عام مزع بموضع[٤] ... على جبل السلطان فى شاطىء البحر
يروم الصراط المستقيم على يدى ... فبايعته عهدا على النهى والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصا ... وقد لازم الأذكار فى السر والجهر

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) ولم يكن منشىء هذه الطريقة محمد سعيد العباسى كما ذكر الدكتور جمال الدين الرمادى فى كتابه دراسات فى الأدب السودانى ص ٢٥ .

(٣) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٥ . (٤) سنة ١٢٧٧ هـ .

أقام لدينا خادما كل خدمة　　تعز على أهل التواضع فى السر
كطحن وعوس[1] واحتطاب وغيره
　　ويعطى عطاء من لا يخاف من الفقـــر
وكم صام كم صلى وكم قام كم تلا　　من الله مازالت مدامعه تجرى
وكم بوضوء الليل كبر للضحى　　وكم ختم القرآن فى سنة الفجر
لذاك سقى من منهل القوم شربة　　بها كان محبوبا لدى الناس فى البر
وكان لدينا عيشه صـــدقاتنا　　وخادمنا عشرين عاما من العمر[2]

وبعد أن امضى مع شيخه عشرين عاما كما ذكر وأعطاه المشيخة ، ذهب إلى الخرطوم ، وتزوج بابنة عم له ، وأخذ بنشر طريقته بين الناس فى جد وحماسة .

وفى عام ١٨٧١ م رحل إخوته إلى الجزيرة « أبا » لوفرة أشجارها الصالحة لصنع السفن الشراعية . فرحل معهم وهناك بنى جامعا للصلاة وخلوة للتدريس وحفر غارا فى جوف الأرض يختلى فيه للعبادة[3] ، فاجتمع عليه سكان الجزيرة وهم من قبيلتى دغيم وكنانة وغيرهما من القبائل ، فأخذوا عنه الطريق ، وبعضهم تلقى عليه العلم من أمثال على ود حلو الذى اشتهر أمره فيما بعد .

ولم يلبث قليلا حتى طار صيته وذاعت شهرته ، فوفد إليه الناس من كل حدب وصوب ، وأقام على صفاء مع شيخه الذى ارتحل إلى بقعة قريبة من أبا تسمى « العراديب » ثم تكدر هذا الصفاء وأعقبته جفوة وعداء ،

---

(١) العوس فى لهجة السودان الخبز .
(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٧ .　　(٣) مختصر تاريخ السودان ص ٣٧ .

وقد اختلف المؤرخون فى أسباب هذه العداوة (١)، ومهما يكن السبب فإن الأستاذ محمد شريف أبعد تلميذه محمد أحمد ومحا أسمه من الطريق . فجزع التلميذ وتذلل ولكنه أبى أن يعفو عنه(٢) .

فلما يئس منه ذهب إلى شيخ آخر من شيوخ الطريقة السمانية هو الشيخ القرشي ، وكانت بينه وبين الشيخ محمد شريف مناظرة وجفوة كما يقول المؤرخ نعوم شقير(٣) ، فتقبله بقبول حسن ، وأدخله فى الطريقة وجعله شيخا من شيوخها كما كان ، وذهب إلى مقره «أبا» فازداد أمره ذيوعا فى السودان ، وأقبل عليه الناس وقد اشتهر بينهم بالورع والزهد والصلاح ، وكان المسافرون فى النيل بالمراكب والسفن البخارية يقفون عنده ويقدمون إليه الهدايا ويطلبون منه البركة ، فكان يفرقها فى أتباعه الفقراء عفة وزهادة(٤) .

فلما توفى شيخه القرشي أسرع إلى الحلاوين للعزاء ومعه تلاميذه ، وأخذ يشيد قبة على قبره ، وهنا اتصل به رجل اسمه عبد الله جاء من غربى السودان وانخرط فى سلك تلاميذه، وكان له فيما بعد شأن خطير فى تاريخ السودان(٥) .

وكان الشيخ القرشي يحب محمد أحمد ويثنى عليه أمام أتباعه ، فرسخ حبه فى أفئدتهم واتخذوه شيخا لهم بعد وفاة الشيخ القرشي ، وأشاعوا أن الذى ورث الطريقة السمانية هو الشيخ القرشي وبعده ورثها محمد أحمد ،

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٦ — ١١٩ والسيف والنار ص ٣٦ — ٣٨ .
(٢) السيف والنار ص ٣٨ .
(٣) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٨ .
(٤) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٩ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

ووافقهم على ذلك معظم أولاد الشيخ الطيب ، لكراهية بينهم وبين محمد شريف[1] فقويت شوكة محمد أحمـــد وكثر أتباعه وبالغوا فى تعلقهم به وتعظيمه .

وكان من عادته أن يمشى فى الأرض سائحا ومعه بعض تلاميذه ، لنشر طريقته فى النـاس ودعوتهم إلى الله . فطاف أنحاء البلاد من دنقلا إلى سنار شمالا وجنوبا ، ومن النيل الأزرق إلى كردفان شرقا وغربا ، فسمع من الناس ورأى كراهيتهم للحكومة القائمة ، وكان كثير منهم يتمنى ظهور المهدى المنتظر لينقذهم مما هم فيه ، وكانوا كلما رأوا رجلا ذا علم وفضل وتعلق بالدين ظنوه المهدى المنتظر[2]

هذا الرجل الصالح أذاع فى الناس أنه المهدى المنتظر وأن من شك فى مهديته كافر ، ومن قاتله كافر يحل له دمه وماله وعرضه ، وقد أخبرنى صلى الله عليه وسلم مرارا أن من شك فى مهديتى كفر بالله ورسوله ، وأن من عادانى كافر ، وأن من حاربنى يخذل فى الدارين وأمواله وأولاده غنيمة للمسلمين[3] » .

فما المهدية، وهل الإيمان بها قاعدة من قواعد الإسلام أو ركن من أركان الإيمان ، فيكفر من ينكرها أو يشك فيها ؟ .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٣ (٢) المصدر نفسه ص ١٣٠

(٣) منشورات المهدى ج ٢ ص ٤٠ ـ ٤١

٢ – المهدى هو إمام ينتظره كثير من المسلمين يملأ الأرض عدلا مثلما ملئت جورا ، والقول برجوع هذا الإمام عقيدة شيعية لها أصل يهودى ، فقد زعم اليهود أن إيليا رفع إلى السماء ، وسيعود إلى الأرض آخر الزمان ليملأها عدلا وخيرا . نقل هذه العقيدة عبد الله بن سبأ بعد أن أسلم وألصقها بمذهب الشيعة ، فزعم أن على بن أبى طالب سيرجع ، وأنه مايزال حيا ولايموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وهو الذى يجىء فى السحاب ، الرعد صوته والبرق تبسمه[1] .

يقول فى الرد عليهم إسحاق بن سويد العدوى[2]

برئت من الخوارج لست منهم ... من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا ... يردون السلام على السحاب
ولكنى أحب بكل قلبى ... وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبا ... به أرجو غدا حسن الثواب

وزعمت فرقة من الشيعة أن محمد بن الحنفية هو الإمام المنتظر ، وأنه حى مقيم بجبل «رضوى» من ذلك قول كثير وهو شيعى كيسانى :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علىّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لايذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

---

(١) الملل والنحل — الشهرستانى — جـ ١ ص ٢٩ .

(٢) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ٢٤١

وانتشرت الفكرة بين الشيعة وغيرهم[١] . يقول ابن خلدون «اعلم أن المشهور فى أمر الفاطمى بين الكافة من أهل الإسلام على مر الأعصار ، أنه لابد آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولى على الممالك الإسلامية ويسمى المهدى . . . وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال ، أو ينزل معه يساعده على قتله ويأتم بالمهدى فى صلاته[٢] » .

ووضعت أحاديث فى هذا الشأن لم يرو البخارى ومسلم شيئاً منها . مما يدل على ضعفها ، من ذلك قول النبى «ص» من كذب بالمهدى فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كفر ، ومثل قوله لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جوراً ، وقوله لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا منى أو من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى[٣] .

وسرد ابن خلدون الأحاديث التى وردت مشفوعة بنقد علماء الحديث ، فلم يسلم منها شىء ، بل كل حديث منها تناوله العلماء بالجرح والتضعيف ، والقاعدة عند علماء الحديث هى أن الجرح مقدم على التعديل[٤] .

وبذلك تصبح هذه الأحاديث لا قيمة لها فى الاحتجاج لفكرة المهدية ، وتصبح المهدية حديث خرافة كما يقول الأستاذ أحمد أمين[٥] . وقد فند الدكتور أحمد محمد الحوفى هذه الفكرة بالتاريخ والمنطق أتم تفنيد فى كتابه «أدب السياسة فى العصر الأموى[٦]» .

---

(١) ضحى الاسلام — للدكتور أحمد أمين ﺟ ٣ الطبعة الرابعة ص ٢٣٥
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٤ (٣) المصدر نفسه ص ٢٧٥ — ٢٧٦
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٠ (٥) ضحى الاسلام ﺟ ٣ ص ٢٣٥
(٦) أدب السياسة للدكتور أحمد محمد الحوفى ص ٧٧ — ٨٣

ولكن المتصوفة لم يخضعوا لمنطق العلماء فنادوا بفكرة المهدية. وملخص ماذكره ابن خلدون عنهم: أن أوائلهم لم يخوضوا فى هذا الأمر، أما المتأخرون الذين قالوا بالحلول والوحدة متأثرين بمذهب الرافضة والإمامية القائلين بألوهية الأئمة. فقد ظهر منهم القول بالقطب، وامتلأت كتبهم بمثل ذلك الفاطمى المنتظر، ولم يستندوا على أدلة قوية، بل ربما أخذ بعضهم بأقوال المنجمين فى القرانات.[1]

وقد كثر المدعون للمهدية وخاصة فى المغرب، فما يكاد يمر عصر من غير أن يخرج من يزعم أنه المهدى المنتظر[2]. وقد عرفنا تأثر السودان بالمغرب فيما سبق.

٣ — تلك هى الفكرة التى نادى بها محمد أحمد، وهو فى حجته لا يعول على الأحاديث الواردة فى شأن المهدية لأن «الأحاديث منها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع، بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح والصحيح ينسخ بعضه بعضاً كما أن الآيات تنسخها الآيات، وحقيقة ذلك على ما هى عليه لا يعرفها إلا أهل الشهادة والبصائر[3]». فهو ليس فى حاجة إلى تأييد هذه الأحاديث، لأن الرسول (ص) أخبره بأنه المهدى المنتظر وأجلسه على كرسيه وجعله خليفته فى حضرة مشهودة يقول عنها «أحبابى كما أراد الله فى أزله وقضائه تفضل على عبده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله، وأخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأنى المهدى المنتظر وخلفنى عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر . . . ثم أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٥
(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٤
(٣) منشورات المهدى ج ٢ ص ٥٠

وسلم بأن الله جعل لك على المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن ، وكذلك جعل علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب ، يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقانى أحد بعداوة إلا خذله الله[1] » . ومن تتمة هذا البرهان أنه شريف « وليكن معلومكم أنى من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] » .

وهذا البرهان يرجع فيه إلى أصلين :

١ ـ بعض الأحاديث الواردة ، فاستمد منها العلامة وهى الخال ، واستمد منها النسب ، لأن المهدى يكون من أبيت النبى كما رأينا فى الأحاديث الضعيفة .

٢ ـ مشهد من مشاهد المتصوفة الذين يعتمدون على الكشف وماوراء الحس ، وهو أمر ليس غريباً على محمد أحمد المهدى فهو ناسك منقطع للعبادة والتأمل ، وهو وارث للمناخ الفكرى السنارى ، وقد رأينا أن حمد النحلان أدعى المهدية ، ولكنه لم ينجح لأن الجو لم يكن مهيئاً لنجاحه .

وهناك برهان غيبى آخر بينه بقوله « واعلم وإن كان لا يخفى عليك أن المهدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة إلا الله كما بينه المحققون ، كالسيد أحمد بن إدريس فإنه قال كذبت فى المهدى أربع عشرة من نسخ أهل الله ، وقال سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها ، وكذلك قال محى الدين بن عربى فى بعض تفاسيره[3] » .

وله برهان ثالث مستمد من الكرامات التى نسبت إليه « كما ظهر للكثيرين

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٧ ـ ٤٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٢ .
(٣) منشورات المهدى ج ٢ ص ٧٢

من المحبين نقش اسمنا على بيض الدجاج وورق الأشجار حتى صار ذلك فى اليقين[١] » .

وبرهان رابع هو انتصاره على الحكومة ، وأن من آلة سلاح أنصاره تحرقه النار . يقول فى ذلك مخاطبا الخديوى توفيق « وما زال الله يؤيدنى وينصرنى عليهم نصراً من عنده لا بحولى وقوتى وقد أهلك الله جميع عساكرهم الذين بالسودان على يدى وأحرقهم بالنار عيانا شاهدهم جميع من رآهم حين قتلهم الله بسيفى[٢] » .

٤ — اعتقد محمد أحمد أنه المهدى المنتظر وأخذ يكاتب أصفياءه سراً يدعوهم إلى الدخول فى مهديته ، وبعد رحلته إلى كردفان وجبال تقلى خاطب رجال الدين على مختلف طبقاتهم وألوان ثقافتهم ، يهيب بهم إلى نصرة الدين وتأييد دعوته[٣] ، ووقع نبأ هذه الخطابات إلى حكمدار السودان رءوف باشا . فشك فى صحة نسبتها إلى ذلك الرجل الصالح محمد أحمد وظنها من كيد خصومه ، فلما تأكد بعث إليه معاونه أبا السعود ، ومعه نفر ممن يمتون إلى محمد أحمد بصلة القرابة . ليراجعوه ويناظروه فيما أدعى ، فأورد عليه أبو السعود الآية : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . فرد عليه المهدى « أنا ولى الأمر فى هذا الأوان على سائر الأنس والجان[٤] » .

واصل المهدى الجهاد وانتصر على الحكومة عام ١٨٨٢ م نصراً مبيناً ، له من الأسباب الداخلية ما أسلفت ذكره من وجد الناس على الحكومة ،

---

(١) منشورات المهدى ـ ٢ ص ٢٣ .
(٢) منشورات المهدى ـ ٢ ص ٢٨٩ .
(٣) مختصر تاريخ السودان ص ٣٨ .
(٤) جهاد فى سبيل الله ص ١٠ ومختصر تاريخ السودان ص ٣٨ .

وتمنيهم زوالها وتشوقهم إلى ظهور المهدى المنتظر ليغير ماهم عليه . وله من الأسباب الخارجية تلك الظروف التي أحاطت بمصر ، فقد احتلها الإنجليز وحلوا جيشها ، جاء في العروة الوثقى ، وأول ماحلوا في مصر ولحوا شرارة في السودان أدنوا منها وقودها ، لتكون ناراً مهلكة . فبعد ما طردوا الجيوش المصرية إيذانا بالغضب عليهم ، جمعوهم ليسوقوهم إلى السودان تحت قيادة أعدائهم من الإنجليز ، فذهبوا وهم مقتنعون بأنهم يساقون إلى الموت ، وليذوقوا وبال الانتقام ، قلوبهم منكسرة وعزائمهم واهنة ، وعقائدهم لا تسمح لهم بالانقياد لرؤسائهم الأجانب ، وأحس السودانيون وهم مسلمون أن قواد الغارة عليهم ليسوا على شاكلتهم ، فزادهم جرأة وإقداما ، وكان هذا وذاك سبباً في استفحال أمر السودان ، بعد ما هلكت رجال وانفقت أموال وساءت أحوال من السودانيين والمصريين[1] » .

فهل كان للإنجليز يد في ثورة المهدى ؟ .

٥ — مثل هذا السؤال لا بد أن يرد على الخاطر ، ويرد الحاحا عندما يقف القارى على موقف الحكومة البريطانية واصرارها على اخلاء السودان ، وعما طلتها في إرسال نجدة لانقاذ غوردون[2] وبالفعل ظن بعض المؤرخين أن للإنجليز يدا في إشعال نار الثورة . يقول عبد الرحمن الرافعى :

« إن ظهور الثورة المهدية في السودان وثورة عرابي في مصر في أوقات متقاربة ، جعل بعض المؤرخين يظنون أن الإنجليز هم الذين حركوا الثورتين ، ليجدوا حجة لاحتلال مصر ، وليجدوا حجة لفصل السودان عن مصر ، ثم مبررا لفتحه باسمها والاستئثار به بعد ذلك[3] » .

---

(١) العروة الوثقى ص ١٤٤ .

(٢) كتاب اللورد كرومر — بريطانيا في السودان — من الصفحة ٥ إلى الصفحة ١٩٦ وثيقة تجلو النوايا الانجليزى — اظر تعريب أحمد عرابي .

(٣) مصر والسودان — لعبد الرحمن الرافعى ص ٩١ .

لقد تحققت مطامع الإنجليز في مصر وتحققت في السودان ؛ لكن الأسباب التي أسهبت في شرحها وتوضيحها تبعد هذا الظن ، تبعد أن الإنجليز هم الذين صنعوا ثورة محمد أحمد المهدي . فالناس في السودان قد كرهوا الحكومة التركية بكل جوارحهم ، وتعلقوا بمحمد أحمد قبل أن يتعلق بهم ، وقد كان كما رأينا شديد الغيرة على الدين ، وكان عميق الإيمان برسالته ، يريد أن يغير معالم الأرض ؛ فيملأها عدلا وطهرا ، مثلما ملئت جورا وفسادا، يريد أن يزيل الفساد التركي ويقضي على النفوذ الإنجليزي ، بل يريد أن يدخل الإنجليز أنفسهم في الدين الإسلامي. ولذلك لما خاطبه غوردون ووعده بأن يصيره حاكما على مديرية كردفان، أجابه بأنه موعود بملك الأرض كلها[1]، وطلب إليه هو أن يدخل في الدين الإسلامي[2] .

فالإنجليز لم يحركوا هذه الثورة ، وهي بطبيعتها لا تخضع لتوجيههم ، ولكنهم ساعدوا في استفحالها وصراوتها، حين حلوا جيش عرابي ، فأصبحت مصر عاجزة عن مكافحة المهدي . وكانوا مغتبطين لاضطراب الأحوال في السودان ، ليطيلوا بقاءهم في مصر بحجة أنهم يحمونها من لهيب الثورة المندلع في السودان . ومما يدل على ذلك أنهم أبعدوا عبدالقادر باشا حلمي عن السودان لما بدأ ينتصر على قوات المهدي ، ويعيد سلطة الحكومة مرة أخرى[3] . ومن المرجح إن لم يكن من المحتم أنهم فكروا في ابتلاع السودان بعد إخلائه ، بحجة ارجاعه إلى مصر كما كان ، فهم في حاجة إلى مثل هذه الحجة، ليبرروا موقفهم أمام فرنسا وغيرها من الدول المستعمرة .

٦ — كانت الحرب بين المهدي والحكومة حامية الوطيس، وكان المهدي

---

(١) منشورات المهدي ص ٢٠٠ .

(٢) بالنسبة إلى عرابي — انظر عدد الهلال الماضي عام ١٩٦٧ ص ٧ — ٢٥ .

(٣) مصر والسودان — لعبد الرحمن الرافعي ص ٩٢ .

ينتصر ، وكل نصر يعتبر كرامة ويمهد لنصر آخر ، وفى أيام الحكمدار عبد القادر باشا لم تقتصر الحرب على السلاح وحده ، فكما كان المهدى يغزو قلوب الناس بمنشوراته ومواعظه فيلتفون حوله ويهرعون إليه من كل فج عميق ،أراد عبدالقادر(١) أن يشفع قوة السلاح بقوة المنطق وقوة العاطفة، فطلب إلى العلماء أن يؤلفوا الرسائل وينظموا الشعر فى بطلان مهدية محمد أحمد . فنظم الشيخ محمد شريف رائيته المشهورة التى مطلعها :

وقد جاءنى فى عام «زخ»(٢) ، لموطن — على جبل السلطان فى شاطىء البحر

وقد رويت جزءاً منها فى مناسبة سلفت ، هى وصف حال المهدى قبل أن يدعى المهدية ، وجاء فى هجائه :

إلى الخمس والتسعين أدركه القضا — على ما مضى من سابق العلم بالشر
بصحبة شيطان من الجن آيس — وشيطان إنس وافقاه على الضر
ولا تنس داعى الاحتياج فثالث — وكم ساقط فى الشر من ألم الفقر
فقال أنا المهدى فقلت له استقم — فهذا مقام فى الطريق لمن يدرى
وخادعنى فى القول كالمهد ابنكم — ومحسوبكم فى الحب فى عالم الذر
فقم بى لنصر الدين نقتل من عصى — فأنت لك الكرسى ولى دولة الغير
فقلت له دع ما نويت فإنه — وتالله شر قد يجر إلى الخسر
وقال له الشيطان بشر ولا تخف — فإنك منصور على البر والبحر
وقد فهم القولين فهم أولى النهى — ومال إلى حب الرياسة والجبر
فقال أنا كالماء فى الطبع بارد — وأما يسخن كان كالنار فى الحر
وإن يستخفوا بى وإن يقتلونى — فقبلى علىّ والحسين ولى أسرى

---

(١) السودان عبر القرون ص ٢٥٦ .
(٢) عام ١٢٢٨ .

ومن ذلك النادى أبى وأبيته   وأفتيت فيه بالضلالة والكفر
وأنى أذنت الجيش أن يضربوه إن   أتاهم بما يهواه من واضح النكر
وقد جاء للقـــلوب فى سفهائه   وقد رده الأتباع بالجبر والقهر
وكنت نصحت القائمقام بحبسه   فما جاءنى من غير ودع صاحب الحضر[1].

هذا الحوار وهذا الحكم يبين بجلاء رأى الشيخ فى دعوى تلميذه ، فصدرها فى رأيه شيطانان ، شيطان من الجن يائس وشيطان إنس ، فمن هو شيطان الإنس ؟ . يظهر لى أنه يريد الخليفة عبدالله التعايشى ، فقد كان خصوم المهدى يرون أن عبد الله هو الذى زين له ادعاء المهدية وأغراه بها، يقول نعوم شقير فى ذلك إنه « أول ما رآه خر مغشياً عليه فلما أفاق وأراد مصافحته أغمى عليه مرة أخرى ، ثم أفاق وقدم إلى محمد أحمد حبوا على الأرض فأخذ يده وشرع يقبلها وهو يرتعد ويبكى ، فقال له محمد أحمد من أنت يارجل ؟ وما شأنك ؟ ، قال ياسيدى أنا عبد الله بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة قد سمعت بصلاحك . . . وجئت لآخذ الطريقة عنك . وكان لى أب صالح من أهل الكشف ، قد قال قبل وفاته إنك ستقابل المهدى وتكون وزيره ، وقد أخبرنى بعلامات المهدى وصفاته ، فلما وقع نظرى عليك رأيت فيك العلامات التى أخبرنى بها والدى بعينها ، فابتهج قلبى لرؤية مهدى الله وخليفة رسول الله ومن شدة الفرح الذى شملنى أصابنى الذى رأيت . فاستبشر محمد أحمد بهذا القول ورقص له قلبه . . وبايع التعايشى وقربه . . ومن ثم أخذ يفتش الكتب ويبحث عن كنه المهدى وصفاته وعلاماته وما تكون به نصرته ويطبق عليها صفاته[2] » .

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ٦٤١ .

(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ١٢٠ .

أما رأى الشيخ محمد شريف فى تعاليم المهدى فليس أحسن من رأيه فى دعواه فهى فى نظره :

أكاذيب أبداها منها عن النبى ... ومنها عن المولى ومنها عن الخضر
كإخباره بالخسف والمسخ للعدا ... وكم فى قدير من سلاح ومن تبر
ومن بعضها تحليل كل جميلة ... ولو ذات بعل دون عقد ولا مهر
ومنها روى عن زوجة المتخلف(١) ... بما لم يكن فى المسلمين ولا الكفر

يريد قول المهدى « فإنى موعود بالنصر والظفر عليهم بإذن الله تعالى ولو كنت وحدى ، فمن تخلف بعد مجيئنا فدمه هدر وماله وأولاده(٢) غنيمة للمسلمين(٣) » .

ومنها أصلى فى الجوامع كلها ... إلى المسجد الأقصى ولم يدر ما يجرى
ومنها أنا المهدى منتظر الورى ... ولم يستح من عالم السر والجهر
وينهى النسا عن حليهن وإن بدت ... بها منه كان الحكم بالنتف للشعر
وينهى عن التنباك نهيـاً كأنما ... أتى نهيه فى الذكر من شدة الزجر
وينهى عن الأرباح فى الأخذ والعطا ... ويمنع عن حرث وعن سبب الخير
وينهى عن العلم وعن كل واجب ... ويأمر بالمنهى وينهى عن الأمر
ويمنع من حج وينهى عن النبى ... ويمنع عن درس وينهى عن الذكر
يبيح حرام الدين كالمال والزنا ... وسفك الدماء والبيع للمسلم الحر
وينسخ حكم الله بالرأى والهوى ... ويقضى بإلقاء الشريعة فى البحر
ويزعم بالجهل المركب فضله ... على الأنبيا إلا الرسول فذو شطر(٤)

(١) زوجة المتخلف عن الجهاد مع المهدى بغير عذر ، فهى فى رأى المهدى غنيمة كماله وولده .
(٢) الكلمة أولاد ، وتشمل فى لهجة أهل السودان الزوجة .
(٣) منشورات المهدى ج ٢ ص ١٤٠ .
(٤) نعوم شقير ج ٣ ص ٣٧٢ .

والقصيدة ليست من الشعر فى شىء ، فهى منظومة ضعيفة النظم ، وفيها تحامل شديد ، سببه ما كان بين الشيخ وتلميذه من خصومة وبغضاء ، وبعض ما أخذه عليه يمكن أن يكون له وجه لايتنافى مع الشريعة كما سنرى .

وهناك ثلاث رسائل وهى أشهر ما كتب العلماء فى شأن المهدى وفى تفنيد دعواه ، كتبت وطبعت بمطبعة الحجر فى الخرطوم ، ووزعت على الناس فى أنحاء السودان :

(١) رسالة السيد أحمد الأزهرى بن الشيخ اسماعيل الولى شيخ الإسلام فى عموم غربى السودان، المسماة «النصيحة العامة لأهل الإسلام عن مخالفة الحاكم والخروج عن طاعة الإمام» .

(٢) رسالة الشيخ الأمين الضرير شيخ الإسلام فى عموم شرقى السودان، واسمها «هدى المستهدى إلى بيان المهدى والمتمهدى» .

(٣) رسالة المفتى شاكر مفتى مجلس الاستئناف فى السودان ، واسمها «رسالة المفتى شاكر الغزى فى بطلان دعوى محمد أحمد المتمهدى» .

ولم أعثر على رسالة الشيخ الأمين الضرير ، أما رسالة السيد أحمد الأزهرى ورساله المفتى فقـــد رواها المؤرخ نعوم شقير فى كتابه تاريخ السودان[1] .

وخلاصة رسالة المفتى : أن طاعة السلطان واجبة ، فخروج محمد أحمد على السلطان لايجوز ، وأن ظهور المهدى مختلف فيه ، فمن العلماء من لايراه ، والذين قالوا بظهوره احتجوا بأحاديث فيها نزاع فلا تقوم بها حجة ، والمتأخرون من المتصوفة الذين أثبتوه بطريقتهم الخاصة جعلوا لخروجه وقتا ، وقد مضى ولم يخرج . والأحاديث التى وردت على ضعفها

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ٢٧٥ — ٢٩١ .

واختلاف العلماء فيها، لا تأخذ بيد محمد أحمد لأن مضمونها يختلف عن حاله في كل شيء، في الزمان والمكان والهيئة والأمارات المصاحبة لظهور المهدى، فالشدة التي قالت بعض الأحاديث إن المهدى يفرجها لم تحدث، ولم يملأ الأرض عدلا بل ملأها فسادا وتقتيلا، ولم يكن أتباعه إلهيين من أبدال الشام وعصائب العراق، بل هم من جهلة العوام وأوباش الطغام، ولم يخرج لقتال السفياني، وإنما خرج لقتال المسلمين، وهو لم يكن أول من ادعى المهدية في هذه الديار، فقد ادعاها قبله إبراهيم السوداني وغلب على أمره وادعاها الشيخ أحمد بن عبيد الله بصعيد مصر ولم يفلح.

ثم خوف الناس من قوة الحكومة وبطشها، ونصحهم الا يصغوا لقول محمد أحمد إن رصاص الترك يصير ماء لا نارا، وإنه يستطيع أن يمسك سر النار فلا تحرق، فهذا كله زعم باطل، بدليل أن رصاص الترك أصابه هو نفسه في كتفه، وقتل الأكابر من أصحابه.

وخلاصة رسالة السيد أحمد الأزهري: هي أن طاعة السلطان واجبة وأن الإمام لا يعزل ولا يصح الخروج عليه إلا إذا كفر، وأن أمر محمد أحمد مخالف لما ورد في الأحاديث المنبئة عن المهدى، وأن وجود الخال في خده الأيمن لا يثبت دعواه، لعدم ظهور بقية الصفات المميزة للمهدى المنتظر، وهناك أمارات تصاحب ظهور المهدى لم يحدث منها شيء. وأن المكان الذي ظهر فيه محمد أحمد مغاير للمكان الذي ذكره الشعراني في مختصره، ولم يكن أتباعه هم أتباع المهدى المنتظر، ولم يبايع وهو كاره، وقد خرج وخليفة المسلمين مايزال موجودا، ولم يصلحه الله في ليلة، بل طلب العلم وأخذ الطريق على المشايخ، ولم تحدث الشدة التي يخلص المهدى منها الناس، كل هذا مخالف لما وردت به الأحاديث، ومخالف لما ذكره ابن عربي في الفتوحات المكية، من حدوث علامات تصاحب ظهور المهدى، منها أن ينادى

عند ظهوره فوق رأسه ملك ، هذا هو المهدى خليفة الله فاتبعوه ... الخ ، ولم يحدث الرجاء كما ذكر فى بعض الأحاديث ، وظهور المهدى مقترن بنزول عيسى وعيسى لم ينزل .

أما قوله إنه مأمور من النبى (ص) فأمر لا يطوع له أن يفعل مافعل، من الخروج على السلطان وسفك دماء المسلمين ، فالذى عليه المحققون من العلماء أن من رأى النبى فى المنام ، أو رآه فى اليقظة عن طريق الكشف وأمره بشىء مخالف لظاهر الشرع ، فإنه لا يجوز له أن يصدع بالأمر ، فالنائم لا يضبط ، وقد نص أكابر الصوفية على أن الكشف أقسام ، وأن بعضه يكون خياليا[1] .

ولم أعثر للمهدى على رد مفصل على رسائل العلماء ، ولكن الناظر فى منشوراته يجد شذرات هنا وهناك تشير إلى ما كتبوه ، فى منشور له سماهم علماء السوء ،وذكر فيهم حسين مجدى، ومحمود ود حبتك ، وود الدليل ، ولم يحدثنا المؤرخون عن الرسائل أو الخطب التى كتبها هؤلاء ، ولم يدخل الشيخ محمد شريف والشيخ الأمين الضرير بصراحة فى علماء السوء ، يقول فى هذا المنشور « وقد خبرنى صلى الله عليه وسلم أن الترك لا تطهرهم المواعظ بل لايطهرهم إلا السيف إلا من تداركه الله بلطفه ، وأخبرنى عليه الصلاة والسلام أن الأمة تهتدى بى بدون المشقة التى حصلت له ﷺ وبشرنى ﷺ أن أصحابى كأصحابه وأن عوامهم لهم رتبة عند الله تعالى كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ، فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وقد يدخر للمتأخرين ماعسر على المتقدمين،ولا تغتروا بالخطب التى ألفها فى ذمنا وتكذيبنا علماءالسوء ، كأحمد بن اسماعيل الولى ، وحسين مجدى والمفتى شاكر . ومحمد ود حبتك ، وود الدليل وأمثالهم ، ممن وقع

(١) نجوم شقير ج٣ ص ٣٨٣ — ٣٩١ .

فى عرضنا ، فهؤلاء ممن أدخل الله فى قلوبهم النفاق بحب المال والجاه ، قال ﷺ حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، وجاء فى الأثر إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم ، وجاء فى بعض الكتب الإلهية لا تسأل عنى عالما أسكره حب الدنيا فيبعدك عن طريق محبتى، أولئك قطاع الطريق على عبادى . ولا يخفى عليكم أن العلماء ينكرون كثيراً من أمور المهدى لأنه ليس على معتقدهم الذى يظنونه ، ولأنه يخالف مذاهبهم، ومما يخبركم بعدم معلومية عين المهدى للعلماء اختلاف الروايات وكثرة الأقوال عن أهل الكشف ، والمعلوم أن علم الله فى أزله لا يكون على هذه الروايات الكثيرة ، التى منها الحديث المقطوع والموضوع والضعيف والمنسوخ ، بل الحديث الصحيح ينسخ الحديث الصحيح ، كما أن الآيات تنسخها الآيات ، ويمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء ، والتصديق بأمر المهدية صعب لا يتوفق له إلا من أدركه الله بسابق سعادة ، لأنه لا يهتدى إلى معرفة حقيقته إلا الأولياء العارفون الذين لم يحجبوا عن رؤية نبيهم ﷺ ، فالمهدية من الله دلائل فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر[١] » .

وفى منشور آخر يقول « ولا يخفى عليك أن المهدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة إلا الله كما بينه المحققون كالسيد أحمد بن إدريس فإنه قال كذبت فى المهدى أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله ، وقال سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها ، وكذلك قال محى الدين فى بعض تفاسيره إلى غير ذلك من أقاويل المحققين ، ولاسيما وأن المهدية لا تدعى لكثرة أعدائها وقوتهم ، وعلى أنها لما ظهرت أنا بين أظهرهم فى أشد الضعف والقلة فلولا أنها من الله تعالى ما مكثنا فى الدنيا يوما واحدا من شدة قوتهم وضعفنا ، وهم محاطون بنا من كل جانب فألقى فى الله قلوبهم الرعب وصدهم بالخيبة[٢] » .

(١) منشورات جـ٢ ص ٤٢ — ٤٣ . (٢) منشورات جـ ٢ ص ٧٢ .

وفى موطن آخر يقول بعد ماسلف«وقد أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وجميع ما اخبرتكم به من خلافتى على المهدية . . الخ،فقد أخبرنى به سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بيقظة فى حال الصحة خاليا من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولاجنون بل متصفا بصفات العقل اقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١)

ويقول فى طاعة السلطان التى حاجه بها العلماء،إنه ولى الأمر فى هـذا الأوان على سائر الإنس والجان كما تقدم ، ويذهب إلى أبعد من هذا فيرى الترك كفارا ،«فقد نص القطب الدرديرى فى باب الجهاد على أنهم محاربون» وقد أخبره النبى (ص) أنهم كفار وأن طاعتهم بعد ظهوره كفر وضلال(٢) .

وهكذا نرى المهدى ينتهج فى حجته أسلوبين ، أسلوب العلماء القائم على نصوص الدين والجدل . وأسلوب المتصوفة ، وقوامه الحضرات والمشاهدات والأخذ عن النبى (ص) بلا واسطة .

هؤلاء العلماء ينبغى ألا نصغى إلى ما قالوا أو نلتفت إليه ، لأنهم لم يكونوا يريدون الله فيما قالوا ولم يصدروا عن إخلاص ، لحب المال والجاه هو الذى حداهم ، وحب المال والجاه يفضى بالعالم إلى النفاق كما ورد فى الحديث ، وينبغى إلا نصغى إليهم ونلتفت إلى قولهم ، لأنهم محجوبون فإدراك حقيقة المهدية لا يسهل على أمثالهم ، فهو خاص بالأولياء الذين يشاهدون الرسول ولا يحجبون عنه ، والأحاديث الواردة فى شأن المهدى لا حجة فيها لضعفها وتناسخها ، وما ذكره الأولياء لا حجة فيه أيضاً، لأن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، ولأن هذه الأقوال متضاربة ، وعلم الله

(١) منشورات ج ١ ص ١٣

(٢) منشورات ج ٢ ص ١٩ ، ١٥٨ .

فى أزله لابد أن يكون واحداً . وادعاء المهدية أمر صعب ، فهى لا تدعى لكثرة خصومها وقوتهم ، فلولا أن مهديته حق لا ريب فيه لما أقدم على إعلانها، ولما انتصر على قوات الحكومة وهو أعزل أو شبه أعزل .

هذا هو الجانب المنطقى الذى يشبه أساليب العلماء ، أما الجانب الثانى فهو غيبى صرف، لايخضع لمنطق ولا ينصاع لحجة مما ألف العلماء ، فقد أخبره النبى بأنه المهدى المنتظر وأن من شك فى ذلك فقد كفر ، وهو فى حال اليقظة التى لا يشوبها ما يدعو إلى الشك أو التردد .

والمهدى لم يواجهنا بشىء غريب ، فهو ثمرة ناضجة للغرس (السنارى) لذلك المناخ الفكرى والعاطفى الذى بينته ووقفت عنده وقفات ، كما أنه ليس أول من نادى بهذه الفكرة فى السودان، فقد رأينا الشيخ حمد النحلان نادى بها،ولكن الأحوال لم تكن مساعدة والمجتمع لم يكن مهيأ لقبول دعوته ، وقد رأينا فى كلام المفتى شاكر أن من يدعى إبراهيم نادى بها أيضاً . والذى يهمنى من هذا كله جلاء الآفاق التى صاحبت المعارك الدامية ، وكان لها أثر فى الشعر .

وله أقوال غيبية غير ما أسلفت ذكره فى مناسبات معينة ، سأذكرها توطئة لفهم الشعر المعبر عنها ، والتى ذكرتها لخدمة غرض معين لا أتحرج من ذكرها مرة أخرى ، إذا كان لها صدى فى نفوس الشعراء ، رجاء أن يمضى القارىء معى - إن كنت قد شجعته على المضى - دون أن أكلفه الرجوع إلى الوراء .

٧ — هكذا مضى المهدى يناضل الحكومة بالسيف والقلم وهى تناضله ، والنصر يصاحب جيشه ويسير فى ركابه ، انتصر عليها فى واقعة أبا وواقعة راشد وهزم يوسف الشلالى ، وسقطت بارا،ثم الأبيض فى يده بعد حصار طويل وكفاح مرير ، وفى الجزيرة صال أنصاره وجالوا ، وفى شرق السودان

دوخ قائده المشهور عثمان دقنه قوات الحكومة ، وأوقع بالإنجليز هزائم نكرا ، وانتصر فى واقعةشيكان انتصاراً دوت به الآفاق ، واستولى أنصاره على بربر ، واستولى على بحر الغزال ودارفور ، وحاصر الخرطوم بعد أن استولى على أم درمان حصاراً طويلا ، وكان الحكمدار غوردون باشا أثناءه يقضى معظم وقته على سطح السراى وعلى عينيه منظاره المقرب ، يرقب حركات الأنصار المحاصرين ، ويرقب سواد الجنود الإنجليز الذين ندبوا لنجدته ، فلم يكن من المهدى حين علم باقتراب هذه النجدة إلا أن يقضى على أمل غوردون الأخير ، فأمر الأنصار أن يقتحموا معقله الأشب كما كان يظن ، فوثبوا كالليوث الجائعة وقضوا على رمق الحكومة التركية ، وعلى رمق غوردون ،وكان المهدى يريد أن يظفر به حياً ليفدى به عرابى الثائر الذى نفاه الإنجليز ، واستمر جيشه يطارد حملة الإنقاذ الإنجليزية حتى طهر منها السودان(١) .

٨ — قلت أن المهدى قدأعانته ومهدت سبيله ظروف خارجية ، وأعانته ومهدت سبيله ظروف داخلية ، وهذاكله حق وصدق ، بيد أن شخصيته كان لها القدح المعلى فى هذا المجال ، فالرجل كان عالما بالدين وله قدرة عجيبة على استخدام آيات القرآن ، وكان قائداً ماهراً انتصر بالتدبير على السلاح الحديث والجيش المنظم ، بجيش من الرعاة والفلاحين العزل أو شبه العزل . وكان مؤمناً برسالتهوبارعا فى نقل هذا الإيمان إلى صدور أتباعه ومريديه . حتى جعل منهم قوة معنوية تأكل السلاح الذى يريد أن يأكلها ، وتحصد منه الألوف المؤلفة . وكان زاهداً شديد الزهد ، ولذلك أجاد وصف الدنيا وتصوير خستها حتى صار المؤمنون به يؤثرون الشهادة على الحياة، ليغادروها

(١) مصر والسودان — عبد الرحمن الرافعى — ص ٩٢
ومختصر تاريخ السودان ص٥٨ — ٧٦

إلى دار النعيم المقيم ، وقد وصفه إسماعيل عبد القادر الكردفاني فأحسن وصفه حين قال :

« إنه كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا فاحش ولا عياب ولامداح ، ترك نفسه من المراء ومالا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث لايذم أحداً ولا يعيبه ولايطلب عورته ولا يواجه أحداً بما يكره ، يتفقد أصحابه ويسأل عنهم ، فمن كان غائباً دعا له ، ومن كان حاضراً زاره ومن كان مريضاً عاده ، وأفضل الناس عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة . لايجلس ولا يقوم إلا عن ذكر ... يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن لاأحداً أكرم عليه منه ، ما جالسه أحد إلا صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء . . . أوسع الناس صدراً وألينهم خلقاً وأكرمهم عشرة ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ولكنه يعفو ويصفح ، متخلقاً بأخلاق القرآن المجيد ، عاملا بما فيه من الاجتهاد في طاعة الله والخضوع له والانقياد لأمره ... كان ذا حلم وعلم وصبر وشكر وعفة وتقوى وحياء ومروءة وجود وشجاعة وصمت إلا عن ذكر الله وتؤدة ووقار ورحمة بالمؤمنين . . . ما وضع أحد فمه في أذنه إلا استمر مصغياً إليه حتى يفرغ من حديثه ، أكثر الناس شفقة على خلق الله وأرأفهم بهم ، يركب الحمار ويردف خلفه ، ويجلس على الأرض ويأكل مع الخدم ، ويحمل حوائجه بنفسه من السوق ، ويحب الطيب ويستعمله ويحب من الطعام ماخشن ومن الثياب ما خشن ، واشتهر من أول نشأته بحب الخلوة والانفراد عن الناس والتمسك بالدين[1] » .

ويصفه « سلاطين » بأنه « كان يلبس السراويل ويتحزم عليه بحزام من

نعوم شقير ج ٣ ص ٣٦٢ .

من قش ويضع على رأسه طاقية يتعمم عليها ، ثم يقف خاشعا فى الصلاة أمام أنصاره ، ويحضهم على حب الله والزهد فى هذه الدنيا ، فاذا دخل بيته تغير كل هذا ، إذ كان يعيش فى ترف ونعيم ، بحيث تسترقه شهوة الطعام والنساء ، فينغمس فيها انغماس سائر السودانيين . وكانت النساء أو الفتيات يؤسرن ويحضرن أمامه فيختار أجملهن ويضمهن إلى حريمه ، أما اللواتى كن يجدن الطهى فكن يرسلن إلى مطبخه (١) . هذا القول لا يؤبه له ، لأنه صادر من رجل حاقد موتور ، ولم يكن له خلق فقد تظاهر بالإسلام خوفا ، وكان غوردون أكثر منه صدقا وشجاعة ، فقد ثبت على دينه حتى قتل . وسيرة الرجل منذ نشأته حتى وفاته معروفة عند أهل السودان ، ثم إن سائر السودانيين أو معظمهم لم يكونوا منغمسين فى الشهوات ، بل كانوا أصحاب ورع وزهادة ، وهذا الخلق منهم هو الذى جعلهم يتعلقون بالمهدى ويقضون على فساد التركية .

قد تشبه المهدى بالنبى ، ففى وصف الكردفانى نرى طائفة من صفات النبى (ص) وهناك مظاهر عدة لهذا التشبه ، فقد سمى أتباعه الأنصار ، واتخذ من الخلفاء أربعة : الخليفة عبد الله وهو خليفة أبى بكر الصديق ، والخليفة على ود حلو وهو خليفة عمر الفاروق ، وعرض على السنوسى أن يكون خليفة عثمان فلم يستجب ، ومع ذلك فان الأنصار اعتبروه خليفة ومدحوه ، وسنرى شيئا من ذلك ، ورابعهم الخليفة شريف وهو ابن عم المهدى ، خليفة على بن أبى طالب ابن عم النبى (ص)(٢) وله ملك يلهمه يسمى ملك الإلهام «وقد جاء الإخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن معى ملك الإلهام من الله يسددنى . . فمن هذا الخبر النبوى علمت أن الذى يلهمنى الله به بواسطة

---

(١) السيف والنار ص ٩٥ .

(٢) مختصر تاريخ السودان للدكتور مكى شبيكة ص ٧٥ .

ملك الإلهام لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضرا لفعله»(١) وأحيانا كان يوحى إليه بغير واسطة هذا الملك» . . . «وأنا فى ذلك فجاء سلام سمعته بجميع جسدى من غير حرف ولا صوت ولا سر ولا جهر ، ولا بعد ولا قرب ولا أقدر على تكييف شىء منه، فدلنى على أسرار كثيرة . ولله المثل الأعلى وتعالى الله عن كل ما يخطر ببال . . . وأمر ذلك مفوض إلى الله تعالى»(٢) .

وكما جاء فى سيرة النبى (ص) أن الملك شق صدره وأخرج قلبه ونظفه، حدث ذلك للمهدى « . . وقد أخرج قلبى من أصل صدرى وغسله ووزنه بجبل أحد فوازنه ووضعه فى محله ووضع جبل أحد فوقه» ! (٣)

وغير اسمه ليوافق اسم النبى «حصلت أوامر من النبى صلى الله عليه وسلم بتغيير اسمى بمحمد المهدى »(٤) .

وأصحابه كأصحاب النبى ونساؤه كنساء النبى(ص)(٥) .

٩ — رفض المهدى الحضارة التركية رفضاً باتاً ، ودعا إلى القضاء على مظاهرها ، فأمر أصحابه أن يبتعدوا عما يجعلهم يتشبهون بالترك فى الملبس والهيئة « . . وبعد ذلك ما يؤدى إلى التشبه بالترك الكفرة اتركوه . . وكل الذى يكون من علاماتهم ولباساتهم فاتركوه(٦)» . وهذا هو السبب فى إصراره على أن يلبس أنصاره ملابس الدراويش ، مع أنه سن عقوبة صارمة على من يطلق عليهم هذا اللقب، لأنه يدل على ضعف العقل وعدم الإدراك(٧) . وأمرهم أن يقابلوا النعمة بسجدة الشكر ، وألا يفعلوا فعل

---

(١) منشورات المهدى ج ١ ص ٢٦٣ .
(٢) منشورات ج ١ ص ٢٦٣ .
(٣) منشورات ج ٢ ص ١٣٥ .
(٤) منشورات ج ٣ ص ١٤٤ .
(٥) منشورات ج ١ ص ٢٦٣ .
(٦) منشورات ج ١ ص ٤٨ .
(٧) منشورات ج ٣ ص ١٢٢ — ١٢٣ .

الترك فى استقبالها ، ولاتقتدوا بالترك الظالمين الذين نسوا الله واستقبلوا النعمة بالفرح والفخر وبضرب البنادق والمدافع[(١)] . وهذا يفسر عزوفه عن الموسيق والرقص[(٢)] ، لأنهما يشبهان عادات الترك ، بجانب أن الرقص يؤدى إلى اختلاط الرجال بالنساء ويبين محاسن المرأة ، ونهى أتباعه عن إملاء الترك ، وطلب إليهم أن يقتدوا بإملاء القرآن ، وإياكم وكتابة الترك ثانى مرة واجتهدوا فى أخذ حذركم عنها كى تعودوا أيديكم على كتابة القرآن العظيم الذى أنزل بها[(٣)] » .

ولكراهية الترك أبى أن يجعل الخرطوم عاصمة لدولته ، وآثر عليها « البقعة » أم درمان .

١٠ ـ كان المهدى فى أيا يدير شئون أصحابه كلها المادى منها والمعنوى ، فلما كثرت فتوحاته بهظته تكاليف الإدارة ، فصار يستعين بآراء خلفائه ، وبعد فتح الخرطوم عظمت التكاليف وثقل العبء ، فرأى أن ينشىء حكومة تحكم بالشريعة الإسلامية ، ليتفرغ للقيادة والتأهب لفتح مصر والأقطار الإسلامية ، ثم لغزو أنحاء العالم[(٤)] ، فاصطفى من ينوبون عنه وهم سبعة أمناء بمثابة الوزراء وعلى رأسهم الخليفة عبد الله[(٥)] . وجعل للأقاليم عمالا ، وكان له قضاة يحكمون بالشرع ، ومنذ أن كثرت الغنائم اتخذ له بيت مال موارده من الغنائم والزكاة والعشور[(٦)] ، وأمر بضرب عملة خاصة بدولته ، فقد قلت العملة فى أيدى الناس ، لأن أكثرهم خبأوا أموالهم إبان الثورة .

---

(١) منشورات جـ ٣ ص ١٢١ .
(٢) منشورات جـ ١ ص ٤٨ .
(٣) منشورات جـ ٣ ص ٢١ .
(٤) صرار صالح ضرار ص ١٧٠ .
(٥) نعوم شقير جـ ٣ ص ٣٥٧ .
(٦) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٣٥٥ .

فضربت من الذهب والفضة[١] . ولعله لم يمنع النساء التحلي بهذين المعدنين إلا ليوفرهما ليسكا نقودا ، ورأى أن الشيخ محمد شريف لم يدرك غرضه حين أنكر عليه هذا المنع وعده من البدع :

ونهى النسا من حليهن وإن بدت   بها منه كان الحكم بالنتف للشعر

وقسم جيشه أقساماً ثلاثة جعل أكبر قسم منه تحت قيادة الخليفة عبدالله وله راية سوداء ، وجعل الخليفة علي ود حلو قائد قسم منه ورايته خضراء ، وقسم يقوده الخليفة شريف ورايته حمراء[٢] .

وبعد أن تم له الأمر في السودان أخذ يفكر في فتح مصر ، فكتب إلى الخديوي خطابا يطلب إليه أن ينضم إليه ليتعاونا على طرد الإنجليز ومحاربة الأتراك[٣] ، وكتب إلى أهل مصر خطابا يدعوهم فيه إلى طاعته[٤] . وكان قبل ذلك قد أرسل إلى السنوسي خطابا ينبئه فيه بأنه خليفته ، وطلب إليه أن يشخص إليه أو يعمل على نشر المهدية في جهته ، ولم يجبه السنوسي فكتب إليه خطابا آخر يتضمن الأغراض نفسها[٥] . وبعث أحد أهل الشام ليبث دعوته في ربوع الشام ، واتصل به نفر من المراكشيين ليختار واحدا منهم يكون نائبه في مراكش للغرض نفسه[٦] .

غير أن الأمور لم تسر على ما قدر المهدي ورسم ، ففي اليوم الرابع من رمضان أصابته حمى ، ولم تمهله إلا خمسة أيام ، ففي اليوم التاسع منه فاضت

---

(١) ضرار صالح ضرار ص ١٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٨ .

(٣) منشورات المهدي ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٤) منشورات المهدي ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٥) منشورات المهدي ج ٣ ص ٧٠ — ٧٣ .

(٦) السودان عبر القرون ص ٣٤١ .

نفسه إلى بارئها ، وكانت وفاته عام ١٨٨٥ م[١] فاشتد الأسف عليه وبكاه الشعراء كما سنرى .

١١ ـ أبطل المهدى العمل بالمذاهب الفقهية ، واعتمد على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة عن طريق الاجتهاد . ولما سئل عن ذلك قال : « هؤلاء الأئمة جزاهم الله خيراً فقد درجوا الناس حتى وصلوا إلينا مثلهم مثل الراوية تحمل الماء من منهل إلى منهل حتى تصل بصاحبها إلى البحر ، فجزاهم الله خيراً ، فهم رجال ونحن رجال . ولو أدركونا لاتبعونا، إن مذهبنا الكتاب والسنة والتوكل على الله، وقد أطرحنا المذاهب ورأى المشايخ[٢]» .

فقد أراد أن يجنب أصحابه الخلاف ، ويعصمهم مما تجره التأويلات والآراء المتضاربة من نزاع ، ليقوى وحدتهم ويدعم ألفتهم ، إذ كان يعدهم لأمر عظيم ، هو غزو الممالك الإسلامية ثم غزو أقطار الأرض ، ولذلك أحرق الكتب ولم يستثن منها سوى القرآن الكريم ومنشوراته وراتبه ، وقال بعض المؤرخين إنه استثنى كتباً أخرى[٣] ، ولهذه الغاية قضى على الطرق الصوفية ، وقد رأينا ما كان بينها من تطاحن وغيرة ، ووحدها فى طريقة واحدة هى المهدية، وقد سألوه عن ذلك أيضاً فأجاب بقوله «لو فرضنا أن لكل قبيلة تمدة[٤] تشرب منها ، فجاء البحر فغطى عليها كلها ، فماذا يفعلون ، هل يكتفون بأن يشربوا من البحر أو يظلون يبحثون عن تمدهم، فقالوا إذا بحثوا عنها فإنهم لايجدونها لأن النيل قد عمها وأصبحت جزءاً منه»[٥] .

---

(١) مختصر تاريخ السودان ص ٧١ .
(٢) السودان عبر القرون ص ٣٤٨ .
(٣) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٢٤ .
(٤) تمدة : غدير .
(٥) السودان عبر القرون ص ٣٤٩ .

وله أحكام شرعية أساسها الاجتهاد والإلهام . كانت تخرج إلى الناس في منشورات ينسخها النساخ، وبعد فتح الخرطوم كانوا يطبعونها على مطبعة الحجر التي ورثتها المهدية عن التركية ، وكان قضاته يستمدون الأحكام من هذه المنشورات ، فإذا عرضت لهم مسألة لم يجدوها فيها رجعوا إلى الكتاب والسنة[١] ، يقول نعوم شقير « جمع خليفته هذه المناشير في جزئين وطبعها بطبعة الحجر وجعلها أساساً لأحكامه ، وقد أسقط منها عدة منشورات ، كمنشور المهدي للسنوسي ومنشوره الذي صرح فيه بفتح مكة ، وقال إنه أسقطها حذراً من ضلال الجهال[٢] » .

ولكني وجدت أن الأجزاء ثلاثة وقد صورتها ادارة المحفوظات المركزية التابعة لوزارة الداخلية السودانية ، وفيها منشور خاص بالسنوسي مثبت في الجزء الثالث ص ٧١ ، يذكره فيه بأنه بعث إليه قبل ذلك بخطاب ، ولكنه لم يتلق منه اجابة عليه ، ويفترض أن الخطاب لم يصل إليه ، وجاء فيه « . . . ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي صلى الله عليه وسلم خلفاءه من أصحابي ، فجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق، وأحدهم على كرسي عمر ، وأوقف كرسي عثمان وقال هذا الكرسي لابن السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول ، وأجلس أحد أصحابي على كرسي علي رضوان الله عليهم أجمعين، ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابي »[٣] وقد شرع في تأليف كتاب سماه (المجلس) يتضمن أحكاما شرعية ولم يكمله .[٤]

ويرى الدكتور عبد المجيد عابدين أن ثقافة المهدي ذات منابع :

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ٣٦٦ .
(٢) المصدر نفسه الصفحة نفسها .
(٣) منشورات المهدي ج ٢ ص ٧١ — ٧٢ .
(٤) نعوم شقير ج ٣ ص ٣٦٦ .

ا ـ العلوم الشرعية .

ب ـ المنبع الروحي الصوفي وقد تجلى هذا في دعوته إلى التقشف .

جـ ـ التأثر بالوهابية عن طريق السنوسية ، فهناك مشابهة بين تعاليم السنوسي وبين تعاليم المهدي(١) .

من الجائز أن يكون المهدي قد تأثر بالوهابية عن طريق السنوسية ، فإن خطابه الذي بعث به إلى السنوسي ينبئنا بأنه يعرف اتجاهه « . . وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك إلى الله على السنة النبوية وتأهيلك لإحياء الدين(٢) » . ومن الجائز أيضاً أن يكون المهدي قد سمع عن حركة التجديد في الدين التي يحمل رايتها الإمامان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده . غير أني أحس بأنه لم يتأثر بشيء من ذلك ، فإن هذه الحضرات التي يقول إنه كان يحضرها مع النبي وخلفائه والأقطاب في اليقظة(٣) ، هذه الحضرات والمشاهدات لا تواكب اتجاهات الوهابية ، والمهدي وإن كان قد منع زيارة قبور الأولياء ، فإنه لم يمنع التوسل بهم والتقرب بشفاعتهم إلى الله « . . وإذا عظم عندكم أحد بتعظيم الله إياه ومكانته من الله ، فأطلبوا الأمر من الله وتوسلوا به إليه فبحرمته عند الله يقضي لكم الله أمركم(٤) » وتحريمه الموسيقى والرقص ناجم من صرامته في الدين ، وناجم من كراهيته للتشبه بالترك « . . امتنعوا من الملاهي فإن بذكر الله تطيب الدنيا لا بالملاهي والمعازيف والدَّلاَليكْ والنَّقاقيرْ والنُّحاسْ . . وبعد ذلك كل ما يؤدي إلى التشبه بالترك والكفرة أتركوه(٥) » .

(١) تاريخ الثقافة ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .
(٢) منشورات المهدي جـ ٢ ص ٧٠ ـ ٧١ .
(٣) منشورات المهدي جـ ١ ص ١٣ .
(٤) منشورات المهدي جـ ١ ص ٤٧ .
(٥) منشورات المهدي جـ ١ ص ٤٨ .

ولا أراه قيس شيئاً من تجديد الإمامين ، بل لا أراهما يؤيدانه كما ذكر الدكتور عبد المجيد عابدين مستنداً على ماقاله « آدمس[١] » .

فالذى يقرأ «العروة الوثق» ، وهى لسانهما المعبر عن آرائهما ومعتقداتهما، يجد أن موقفهما من السودان أيام الثورة المهدية يتلخص فيما يأتى :

(١) الخوف من انتشار دعوة المهدى فى مصر[٢] .

(٢) إتهام الإنجليز بتحريض الحبشة على السودان[٣] .

(٣) هزيمة الجنود المصريين لم يكن سببها الجبن ، ولكنهم كرهوا أن يأتمروا بأمر حاكم أجنبي ينتمى إلى دولة أجنبية[٤] .

(٤) حملة على استخدام الإنجليز فى مناضلة الثورة ، لأن الثورة دينيه ، ومحاولة إخمادها بالعساكر الإنجليز يزيدها لهيباً[٥] .

(٥) حملة على الميرغنى فى شرق السودان ، لأنه ساعد الإنجليز على إخضاع العرب[٦] .

(٦) الإنجليز عاجزون عن إخماد ثورة المهدى ، وأولو العزم فى مصر وفى تركيا قادرون على ذلك، لكونهم على شاكلة صاحب الدعوى[٧] .

(٧) نصّب غوردون نفسه مدافعاً عن حرية السودانيين ، ليرجع إلى السودان حاكما ، فلما رجع خالف مشربه وأباح تجارة الرقيق ، وادعى أنه نائب السلطان ، ولم يفلح لأن السودانيين يعرفونه جيداً[٨] .

---

(١) تاريخ الثقافة ص ١٢١ .
(٢) العروة الوثق ص ٣٢١ .
(٣) العروة الوثق ص ٣٢٥ .
(٤) العروة الوثق ص ٣٢٦ — ٣٢٨ .
(٥) العروة الوثق ص ٣١٠ — ٣١١ .
(٦) العروة الوثق ص ٣١٠ — ٣١١ .
(٧) العروة الوثق ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .
(٨) العروة الوثق ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(٨) تأييد عثمان دقنة فى مناهضة الإنجليز ومجالدتهم(١) .

فالإمامان كما هو واضح من هذا الملخص لا يؤيدان المهدى ، ولكنهما كانا يحاربان الإنجليز ، فإذا كان القتال بين العساكر الإنجليز وبين الثوار وقفا مع الثوار ، وصبا جام غضبهما على من يساند الإنجليز .

وأحب أن أقول إن الختمية فى شرق السودان لم يساعدوا جيش الحكومة وفيه إنجليز ، حباً فى الإنجليز أو تضامناً مع الاستعمار البريطانى ، بل لأنهم لم يؤمنوا بالمهدية ، ولم ينخرطوا فى سلكها كما فعلت سائر الطرق الصوفية ، فهم يرون أن المهدى خارج على السلطان ، وأن محاربته واجب دينى ، وإذا كان هناك خطأ فهو خطأ الخديوى الذى استعان بالإنجليز ، أو أكره على الإستعانة بهم ، وقد كان المهدى رقيقاً رفيقاً جداً فى خطاباته التى كان يرسلها إلى السيد محمد عثمان(٢) ، يدعوه فيها إلى الدخول فى مهديته ، لأنه كان يعرف مكانة الرجل(٣) .

ولا أرانى فى حاجة إلى لمس البواعث والأسباب التى طوعت للمهدى أن ينبذ المذاهب ويجتهد فى الدين ، فألتمسها فى تيارات وردت على السودان من الشرق أو من الشمال ، فدعوى المهدية نفسها تنطوى على تجديد الدين وتنقيته مما علق به من الشوائب ، والمهدى يرى نفسه أعلى مقاماً وأرسخ كعباً فى الدين من أئمة المذاهب ، وقد سبق أن رأيناه يقول ولو حضروا زماننا لاتبعونا ، وسبق أن قلت إن حكمته فى هذا أنه أراد أن يوحد أصحابه فكرياً كما وحدهم عاطفياً ، لأنهم مادة جيشه الذى أراد أن يغزو به العالم ، وثقافة الجيش ينبغى ألا تخضع للتأويلات والوجوه المختلفة .

---

(١) العروة الوثقى ص ٢٨٨ .

(٢) السيد محمد عثمان بن السيد الحسن بن السيد محمد عثمان الميرغنى مؤسس الطريقة الختمية فى السودان .

(٣) منشورات المهدى ج ٢ ص ٣٩٤ .

والمهدى لم يكن متمردا على سلفه فيما صنع ، فإذا كان قد أحرق الكتب وأبطل المذاهب، فقد كانوا يتحدون الفقه والفقهاء ويأخذون أحكامهم عن النبي (ص) مباشرة ، كما فعل الشيخ محمد الهميم، حين تجاوز العدد المشروع فى النساء وجمع بين الأختين[١] ، وكما فعل الشيخ إدريس حين أدعى أنه أخذ حرمة التمباك عن النبي[٢] ، وكانوا يعزفون عن الكتب كما رأينا ، ويلجأون إلى الغيران والحجرات المغلقة طلباً للمعرفة الحقة والمشاهد الغيبية ، وإذا كان قد أبطل الطرق الصوفية فإنه لم يبطل التصوف ، ولم ينكر المشاهدات والحضرات ، بل بنى عليها أساس دعواه ، وقد ألبس أصحابه المرقعات وجعل لهم راتباً يتلونه فى الصباح والمساء ، إنه أراد أن يجعل السودان كله طريقة دينية واحدة[٣] ، ودعوته إلى الزهد والتقشف وتحريم مظاهر الحضارة التركية، نجد نواتها فى صميم التربية الصوفية السودانية ، فقد كانوا كلهم زهادا ودعاة زهد،إذا استثنينا منهم نفراً قليلا جداً من أمثال الشيخ خوجلى ، وقد مر الكلام فى هذا وأمثاله ، ثم هو يريدهم جنوداً فى معاركه الطوال لمحو الكفر والفساد ، فكيف يسمح لهم بالترف والترفه ، ومثل هذا التشدد فى التمسك بأوامر الدين والمواظبة على صلاة الجماعة ، نجده عند الشيخ محمد بن أم مريوم[٤] .

وليس هناك غرابة فى الإقدام على حل الطرق الصوفية ، فالتنافس بين مشايخ الطرق الصوفية كان شديداً ، كل شيخ منهم يريد أن يلتف السواد الأعظم من المريدين حوله ،وقيل[٥] إن العداوة التى حدثت بين المهدى وشيخه محمد شريف كان سببها الحسد ، لأن الشيخ رأى الناس ينصرفون عنه ويقبلون على تلميذه ، مضافا إلى هذا ما قدمت من أنه يريد وحدة

---

(١) الطبقات ص ١٠٠ .
(٢) الطبقات ص ٩ .
(٣) تاريخ الثقافة ص ١١٨ .
(٤) تاريخ الثقافة العربية ص ٧٢ .
(٥) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٨ .

الولاء، فالجيش لا يكون ولاؤه إلا لقائده الأعلى أو من يختاره قائده الأعلى، ومنعه من زيارة قبور الأولياء يعتبر حلقة متممة لإبطال الطرق، وجمعها فى طريقة واحدة هو شيخها. فالمهدى ثمرة ناضجة للمناخ الفكرى والعاطفى السنارى، وإذا كره أن يسمى أصحابه الدراويش فما ذلك إلا لأنه أراد أن يشبههم بأصحاب النبى (ص) وإلا لأنه لاحظ أن خصومهم حين يصفونهم بهذه الصفة كانوا يريدون أن يصموهم بالغفلة وضعف العقل[1].

وأوافق الدكتور عبد المجيد عابدين على قوله ـ وقد أسقطت شيئا منه ـ « رأينا فى عهد الفونج أن الروابط الروحية التى أوجدها الدعاة والمشايخ قد نجحت فى عمل تجمعات دينية كانت بمثابة دوائر صغيرة أو جماعات لم تصل إلى درجة الاتحاد الشامل، فلم يكن هناك مجتمع سودانى كبير بمعنى الكلمة. أما العهد التركى فإنه ازال الفوارق التى كانت قائمة بين المملكات الصغيرة فى السودان . . . والإدارة الموحدة التى أعطاها محمد على للسودان قللت نوعا ما من العصبية القبلية، وهذا التحاجز وانفصالية الديار التى كانت متحكمة فى عهود الفونج وإن لم يقض عليها تماما . . . أما المهدى فقد كان يرمى إلى أكثر من ذلك، إلى جمع السودانيين على دين واحد ومذهب واحد وطريقة واحدة[2] ».

ولا أستطيع أن أوافقه على قوله « ولعل من أهم ما رسمه المهدى لهذا المجتمع الدينى الكبير أن يخلق فى نفوس أبنائه التشبث بالقومية، وأن يشعر كل سودانى بأن له مع إخوانه كيانا مستقلا لا يمكن أن يتحقق الا إذا بالغ فى الاعتزاز بدينه وجنسه وتراثه القومى[3] ». فالمهدى ما كان يحفل بمسألة

---

(١) منشورات المهدى ج ٣ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٢١.

(٣) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٢١.

القومية والجنسية،وما كان هدفه أن يقصر اصلاحه على السودان وحده، فقد كانت دعوته عالمية، فهو كما يقول موعود بملك الأرض كلها، فهو لا يعرف جنسا ولا قبيلا محدودا،والذي كان يهيمن على عقله وعاطفته هو الدين، الدين الإسلامي مصبوبا في قالب المهدية،والجنسية عنده تشمل ابناء آدم وحواء جميعا». . . وتعلمون أن لا سبيل لنا إلى قتال عبيد الله وجهادهم الا لدعايتهم إلى الله ودلالتهم الى ما دل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولا ذلك لأدتنا الشفقة القلبية إلى ترك قتالهم، لأنه سبحانه وتعالى جعل الجنسية ليورثنا الشفقة وجعل الأب واحدا والأم واحدة ليزيد نورنا بالاتصال بخلق الله الذين هم عباد الله[1]».

أرجو أن أكون بهذه اللمسات الخفيفة قد هيئت جوا لشعر المهدية في طورها الأول، يؤازر على فهمه وتحديد معالمه.

ب — الشعر

١٢ ـ نظم في ثورة المهدي شعر أكثر مما نظم في العهد التركي، وكنت أتوقع أن أجد شعرا كثيرا جدا لهذه الثورة،التي مخضت السودان مخضا عنيفا، وهزت كل ساكن وادع ودفعت به إلى الحركة والاضطراب، وابتلت المثقفين من السودانيين بلاء عسيرا ـ وهم الذين ينظمون الشعر الفصيح ـ وجعلتهم يدورون في دوامة عاتية؛ أين يذهبون؟! أيقفون مع علمهم واقناعهم فيصطفون في صفوف الحكومة،أم يلبسون ثياب الرهبان ودروع الفرسان وينخرطون في جيش المهدي،الذي لا يخرج من غمرة الا إلى غمرة والنصر في ركابه تقية؟! . كان من حق الشعر أن يصور هذه الحيرة وهذا الاضطراب والقلق، ولما تجاوزوا الدوامة فانضم فريق منهم إلى الحكومة القائمة،

---

(١) منشورات المهدي ج ٣ ص ١٣٦ .

وانضم فريق منهم إلى الثورة العارمة ، كان ينبغي أن ترى حربا شعرية بين الفريقين ، شعر يشيد بالحكومة ويزين أعمالها ويجرح الثوار وينعى عليهم خروجهم عن طاعة السلطان ، وشعر يغني للثورة ويلعن خصومها. ولكن الذى حدث بحسب ما وصل إلينا من شعر ، أن أصوات أنصار الحكومة كانت خافتة نحيلة ، وأن أصوات أنصار الثورة كانت عالية هدارة ، تشيد بالمثل الجديدة : وهي الشجاعة والصبر والإيمان بالمهدية والزهد .

ويرجع الغرابة — في رأيي — أن العلماء الذين وقفوا في صف الحكومة رأوا أن يكتفوا بهذا القدر الذى أرضوا به الحكمدار عبد القادر باشا حلمي ، والذين أتوا بعده لم يشجعوا العلماء على الاستمرار في المعركة ، ورأى العلماء من الحكمة إلا يندفعوا من تلقاء أنفسهم ويذهبوا مع الحكومة إلى آخر الشوط فانتصارات المهدى الباهرة المتلاحقة جعلتهم يخشون عاقبة محاربته ومصاولته ، وانصراف قلوب الناس عن الحكومة وتعلقها بمحمد أحمد ، جعل رسائلهم وأشعارهم تذهب أدراج الرياح ، دون أن تخلف أثرا يشجعهم على إنشاء مثلها ، فقد ثبت لهم عقم وقوفهم أمام هذا الثائر المحبوب ، الذى تجسمت فيه أحلام أهل السودان ، وحقق لهم ما كانوا ينتظرونه من الأولياء والصالحين ، الذين كانوا يلوذون بهم في عهد الفونج وفي العهد التركي أيضا ، ويعولون عليهم في الكبير والصغير من أمورهم ، وما كانوا يترقبونه من ظهور المهدى المنتظر ، وفوق هذا كله فقد ملأ حواسهم وقلوبهم بما يعشقونه من صور البطولة والإقدام . ونتج عن احجام أنصار الحكومة أن الشعر الذى واكب المهدية مع قوة بعض نماذجه وحرارتها لم يكن كثيرا كما كنا نتوقع .

وقبل أن أمضي في الحديث عن هذا الشعر أحب أن أقف عند مخطوطة تحوى شعراً يتعلق بالمهدية ، صورتها إدارة الوثائق المركزية التابعة لوزارة الداخلية بالسودان .

هذه المخطوطة ليست مصدرة بمقدمة تدل عليها، ولا أى لون من ألوان التعريف، ولذلك لانعلم من الذى جمع ما اشتملت عليه من أشعار، ولانعلم أيضاً فى أى وقت جمعت. وهى ناقصة تبدأ من صفحة ١٧٧، وأسماء الشعراء فيها لم توضع على رؤوس قصائدهم إلا قليلا، ولولا ما اعتاده القدماء من ذكر أسمائهم فى قصائدهم لجهلنا كثيراً من أصحاب القصائد.

وأكبر أقسامها منسوب إلى الشاعر عبد الغنى السلاوى، فمن صفحة ٢٠٦ حيث قال جامعها المجهول «قال عبد الغنى السلاوى فيه عليه السلام» إلى صفحة ٣٩٠ لا نجد اسم شاعر غيره. ونراه فى أحيان كثيرة ينظم اسمه فى ختام القصيدة كقوله:

ولم يزل عبده عبد الغنى أبدا   تحت الكفالة منه فهو حامينا[1]

وأحياناً ينظمه فى أثناء القصيدة وفى ختامها مثل قوله:

يا رحمـــة للعالمين ياكم   عبد الغنى يروم منك تفضلا[2]

ويقول فى الختام:

ما دام فى ختام فضلك معلناً   عبد الغنى بذى التهانى قائلا

وفى بعض الأحيان يذكر اسمه فى مطلع القصيدة:

صلى الإله على النبى محمـــد   والمهد ما عبد الغنى تصببا[3]

ويلاحظ أنه منذ البداية إلى صفحة ٣١٤ يسير فى وضع القصائد بغير ترتيب معلوم، ولكنه من هذه الصفحة حتى صفحة ٣٧٦ يرتبها على حروف الهجاء، مع استثناء قصيدة مقصورة وضعها بين الواو والياء، ثم أعرض عن هذا الترتيب ورجع إلى الحالة الأولى حتى صفحة ٣٩٠، وإلى هنا اختفى عبد الغنى السلاوى، وظهر اسم شاعر آخر هو محمد أحمد هاشم، وسبق أن

(١) المخطوطة ص ٢٤٦   (٢) المصدر نفسه ص ٣١٣ — ٣١٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٨٦.

التقينا به فى العهد التركى ، وله قصيدة طويلة قسمها إلى فصول شغلت حيزاً كبيراً من المخطوطة ، فهى تمتد من صفحة ٤٠٦ إلى صفحة ٤٣٢ ، ومن صفحة ٤٥٣ إلى صفحة ٤٨١ . ظهرت أسماء الشعراء : أحمد بقادى، وإدريس عمر البنا ، وعثمان الحلاوى ، وأحمد بن الإمام الـكَـبوشابى ، والبدوى ، ومحمد بن أحمد السُّكينى ، وعمر الصـَّارْدِى ، كل هذه الأسماء ظهرت موضوعة على رؤوس القصائد ، وفجأة يعود عبد الغنى السلاوى :

ونادى أبا عبد الغنى لنا هيا وقل واطرب الإخوان من مدحنا(١)

وفى صفحة ٤٨٨ جزء من قصيدة الشيخ محمد عمر البنا المشهورة :

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت فى شأن الإله حياة

أورده بلا تمهيد مبتدئاً من قوله :

فانهض إلى الخرطوم إن بسوحه أهل الغواية والمفاسد باتوا

ولولا شهرة القصيدة لما اهتدى القارىء إلى صاحبها ، ولا أظن قول الشاعر :

قد قلتها وأنا الفقير محمـــد أرجو الإقالة أن بدت عثرات

يرشده إليه ، لأن المحمدين كثير ، وأشد من ذلك غرابة أنه وصل هذا الجزء من القصيدة بقصيدة له أخرى ، يمدح بها عثمان دقنه وأعوانه(٢) ، وضنّ عليهما بأن يجعل بينهما فاصلا ، أو أن يصدر الثانية بمثل قولهم « وقال أيضاً » .

وبعد أن أشار إلى أن شعر هـــذا الشاعر قد انتهى ، أورد مقطوعة مطلعها :

(١) المخطوطة ص ٤٨ .

(٢) المخطوطة ص ٩٤٨.

الحق أبلج والسرور هناء والظلم أعرج واعتراه عناء[١]

ولم تكن بها إشارة تدل على صاحبها ، وأرجح أنها من نظم عبد الغنى السلاوى ، لأنها تشبه كلامه ، ولأنه وصلها بأخرى من سنخها ومن لونها ، وبعد نهايتها قال : « وقال رضى الله عنه » ثم أورد قصيدة ذكر فيها اسم عبد الغنى السلاوى :

يا حجة الرحمن بين العالمين أنظر عبيدا للغنى سلاويا[٢]

وبهذا تنتهى المخطوطة ، ويخيل إلىّ أن عبد الغنى السلاوى هو جامعها لسببين :

١ — أنه[٣] كان وراقا ، تخصص فى نسخ منشورات المهدى وراتبه ، فهو أدنى إلى التفكير فى جمع أشعار المهدية من قوم شغلوا بأمور أخرى كالجهاد وغيره .

٢ — كثرة ما ورد فيها من شعره ، فهو قد شغل من المخطوطة حيز أكبيراً كما رأينا، ثم إن اسمه ما يزال يظهر من وقت إلى آخر حتى ختمت المخطوطة بقصيدة من قصائده .

والاستفادة من هذه المخطوطة فى شعر المدح ليست ميسورة ولا موطأة ، لأنها لا تذكر مناسبات القصائد إلا فى القليل النادر ، ولا تصحبها بتاريخ يعين زمانها فلا ندرى — فيما عدا القصائد المشهورة — هل القصيدة نظمت فى عهد المهدية الأول أو فى عهدها الثانى ، ولا يعينك على الفهم أن القصيدة فى مدح المهدى، ذلك لأن شعراءه ظلوا يمدحونه بعد وفاته كما فعل مداح النبى (ص)، أما قصائد الرثاء فأمرها واضح ، لأن الرثاء غالباً لا يكون بعد تطاول الزمن ، وتسرب العزاء والسلوان إلى النفوس ، وماكان من أمر الخنساء ، فإنه من النادر الذى لا يقاس عليه . ولذلك سأكون حذراً

(١) المخطوطة ص ٤٩٣

(٢) المخطوطة ص ٤٩٦ .

(٣) منشورات ج ٣ ص ١

فلا أضع الشعر الذى قيل فى مدح المهدى فى فترة من الفترتين فى مكانه اللائق به ، إلا إذا كان مصحوبا بقرينة من القرائن تعين زمانه . وفى نهاية هذا الحديث أرجو أن تجد هذه المخطوطة من يحققها ، فهى وإن لم تضم الكثير من شعر المجيدين أمثال محمد عمر البنا ومحمد الطاهر المجذوب والحسين ابن الزهراء ، إلا أنها تستحق الدراسة والتمحيص باعتبارها أثراً تاريخياً هاماً ، وتاريخ الأدب ـ كما هو معلوم ـ لا تهمه جودة الأثر الأدبى ، بقدر ماتهمه دلالته على حال الأدب فى الفترة التى أنشىء فيها .

هذا الشعر الذى أنا بصدد النظر فيه مزيج من الدين والسياسة ، فالشعر الدينى قد تطور من ذلك النوع الذى رأيناه فى طبقات ود ضيف الله وفى مخطوطة كاتب الشونة ، وكانت موضوعاته مدح مشايخ الطرق ورثاءهم والاستغاثة بهم وما لهم من شطحات ، تطور فى موضوعه فأصبح ينظم فى مدح النبى (ص) وتطور فى أسلوبه فأخذ يساير الشعر التقليدى فى البحث عن الجزالة ، والبعد عن الإسفاف والركاكة ، ولما كان هذا الشعر ليس موضوع البحث فإنى لا أريد أن أفصل القول فيه .

وامتزاج الدين بالسياسة فى شعر يرتبط بالمهدية أمر طبيعى ، فالمهدى رجل صوفى صاحب حضرات عامرة بالنبى (ص) وخلفائه والخضر والأقطاب وما شاء الخيال من المخلوقات النورية ، فهو لا يصدر ولا يورد إلا بأمر من النبى (ص) أو وحى من ملك الإلهام ، أو وحى من غير واسطة كما رأينا ، وأتباعه من الشعراء موقنون بأن ما يقوله هو الحق الذى لا مراء فيه ، أو ينبغى أن يظهروا فى شعرهم أنه الحق الذى لا مراء فيه ، وهذا العالم الذى وراء الحس بل وراء الظنون والأوهام هو أساس المهدية ، إذ هى إشراق من عالم السر الذى لا يطلع عليه إلا الله أو من اصطفى من عباده ، والمهدى يرفع نسبه إلى النبى فهو من آل البيت ، وهو صاحب كرامات

يرويها أنصاره، ويقول بعضهم أنه شاهدها بعينيه كما سنرى ، وهى بمثابة البراهين على صحة مهديته ، وهو قد تحلّى بأكرم الصفات وأنبلها كالشجاعة والمروءة والحلم ... الخ ما أسلفت ، ومن جهة أخرى هو رجل سياسى يريد ان يسقط الدولة القائمة ويقيم مكانها دولة دينية ، ويريد أن يقضى على الظلم والفساد فى العالم كله ، يريد أن يغير خريطة العالم الروحية، والسياسة، ويظلله راية الإسلام المصبوغة بالألوان التى يراها هو ، وهو صاحب اجتهاد معين وفلسفة فى الدين، تخالف ما هو قائم فى مجتمع تتنازعه المذاهب الفقهية والطرق الصوفية ، وله خصوم من الدولة ذات الحول والطول . وخصوم من الساسة والعلماء وبعض مشايخ الطرق ، ثم هو لا يناضل بلسانه وألسنة شعرائه فحسب، وإنما يقود جيشا مؤمناً مظفراً شعاره لنا الصدر أو القبر . وله خلفاء بالغ فى تعظيمهم والثناء على سمو مكانتهم[1] .

فالشعر المتعلق بالمهدية ينبغى أن يصور هذا كله ، وينبغى أن يمزج السياسة بالدين . وقد اختلف الشعراء فى هذا الاتجاه فمنهم من غلب على شعره الجانب المادىّ من حياة المهدى كحشد الجنود ووصف المعارك ... الخ وإن كان لا يخلو من نفحة روحية ، ومنهم من غلب على شعره الجانب الروحى فسبح مع المهدى فى غيبه ، ووشح شعره بظلال وأضواء من ذلك العالم .

وموضوعات هذا الشعر كانت المديح والرثاء ، والوصف يأتى أثناء المديح أو الرثاء ، ثم الهجاء .

---

(١) منشورات المهدى ج ١ ص ٢٣١ ومنشورات المهدى ج ٢ ص ١٨٢ والمرجع نفسه ص ٢١١ .

المدح

تناول صورا عدة منها المادى ومنها الروحى وهذه أمثلة منه :

تأييد معتقدات المهدى وتصوراته والرد على من ينكرون مهديته .

فالشاعر الحسين بن الزهراء يرسم لظهور المهدى صورا خيالية يشيد فيها بجلال هذ الحدث ، وإن كانت صورا غير متناسقة .

فقد انكشف الحجاب عن الحق وأصبح الحق أبلج،وتضافرت البراهين والحجج على ظهور المهدى آية الله الكبرى ، المهدى الذى أزال الفساد ومحا السوء ، وأثبت كل مايرضى الله ويشيع الخير . ألا ترى أن مظاهر الكون العلوية قد حفلت وتجلت فى أروع صورها وأبهجها ، فالشمس قد سطعت فى روعة مابعدها روعة، والقمر قابلها فازداد كمالا وأشراقا،وتحلت الجوزاء بعقودها الدرية الباهرة ، ودارت الأفلاك فى مداراتها فخايلت بها السماء ، والجو كله حركة ونشاط ، فأينما تلتفت لاترى إلا جمالا باهرا،جمالا نشوان، وكأنه عاشق خلبته عيون هذه النجوم وسقته شفاها رحيقها المختوم :

برح الخفا ما الحق فيه خفاء ... وتوالت الآيات والأنباء
الشمس فى أوج العلى من مغرب ... بهرت عليها هيبة وبهاء
والبدر قابلها فتم كماله ... وتقلدت بعقودها الجوزاء
ودراري افلاك العلى دارت على ... أقطابها فزهت بها العلياء
ما إن ترى الا جمالا باهرا ... بهرته فى حلل البها زهراء
وسقته من خمر الهوى بعيونها ... ولمى ثغور شفاهها لمياء
بالآية الكبرى التى بظهورها ... كمل الرضا وانجابت الأسواء[1]

(١) شعراء السودان ص ٧ — ٨ .

ومن البراهين على صحة مهديته أنه من أرومة كريمة ، فهو شريف من السابقين إلى الهدى أبناء فاطمه الزهراء :

السابق ابن السابقين إلى الهدى   من معشر نتجت بهم زهراء[١]

والشيخ إبراهيم شريف الدولابي يؤيد قول المهدى ، أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأنى المهدى المنتظر وخلفنى عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مرارا بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام[٢] ، فيقول :

لازال فى كنف العناية يغذى   بدقائق التبصير والتنوير
حتى انتهى لمقامه الأعلى الذى   عنه النهى فى حيرة وقصور
وأقامه المختار عنه خليفة   خلعت عليه ملابس من نور
ورقى إلى كرسيه مقسنيا   فى مشهد بالأوليا معمور
هو مجمع البحرين بحر شريعة   طام وبحر حقيقة مسجور[٣]

والشاعر الخضر بن محمد يجارى المهدى فى قوله أن النبى (ص) أجلسه على كرسيه ، وقال له إن من علامات مهديتك الخال وراية النور التى يحملها عزرائيل وأعطاه سيف النصر :

وأجلس بالكرسى عن إذن جده   وقلّده سيف الهداية والنصر
وأخبره بالخال فيه علامة   عليه وما فى راية النور من نكر
ويحمل عزرائيل تلك لدى اللقا   فيظفر جند الله إذ ذاك بالفخر

(١) شعراء السودان ص ٨ .
(٢) منشورات المهدى ج١ ص ١١ .
(٣) شعراء السودان ص ٢٨ .

ويذهب عنهم من عنا الرعب خاطر	بدا من لعين بالوساوس فى الصدر
وخاطبه خـــير الأنام مشافها	بنصرة دين الله فى أمة العصر[١]

ويؤيد الحسين المهـــدي في قوله إن من آياته أن أعداءه حين يقتلون بسلاحه تحرق النار أجسادهم[٢] :

النار ترعى فى الجسوم كأنها	عشب لعمرى أن ذلك بلاء[٣]
ما النار شأن النار أعجب ما أرى	تجرى بهم وجسومهم سوداء
عنها استفد خبرا وكن متبصرا	فى أمرها وليعل منك بكاء

ويقول الشيخ عبد الغنى السلاوى فى هذا المعنى :

وقتيله يوم الطعان معجل	احراقه وبذاك لى أنباء[٤]

ويدعى البدوى أنه رأى بعينيه النار تحرق أجساد الترك الذين قتلهم جيش المهدى :

آياته كم أخـــرست حساده	وبها استدل على الحقيقة من نظر[٥]
فلقد رأيت النار تحرق جسم من	يقتل من الأتراك هذا بالنظر

ويقول محمد أحمد هاشم ، إن من آياته السواطع أن النار وقت الطعان يشاهدها الناس :

وله من الآيات أكبر ساطع	قد شاهدوا فى الطعن منها نارا[٦]

---

(١) المخطوطة ص ١٨٠ — ١٨١ .
(٢) منشورات المهدى جـ ٢ ص
(٣) شعراء السودان ص ١٢ .
(٤) نفثات اليراع ص٨٧ .
(٥) مخطوطة شعر المهدية ص ٤٦٤ .
(٦) مخطوطة شعر المهدية ص ٤١١ .

ويقول الشيخ الحسين مخاطبا العلماء الذين أبوا أن يستجيبوا لدعوة المهدى وناصبوه العداء ، إن هذه المهدية التى خص الله بها محمد أحمد ليست أمرا طارئا وحدثا عابرا ، فقد قضى بها الله فى أزله ، وأشار إليه قبل أن يخلق الخلق فى « عالم الذر » فكيف خفى ذلك على العلماء ، وهم أهل فطانة وذكاء ، وقد حفظوا القرآن الكريم ووقفوا على معانيه وأسراره ، ورووا الحديث وعلموا ما يدل عليه من الأمر والنهى ، وبهذا كله أصبحوا يدركون حقائق الأمور ، ويردون كل جنس إلى جنسه وكل شكل إلى شكله ، ويميزون بين الطيب والخبيث ، فكيف خفى عليهم أمر المهدية الواضح وحجب عنهم برهانها الساطع ، فأصبحوا كالجهلاء الذين لا بصر لهم ولا تمييز ؟! ، كيف استوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ! . ثم يطلب إليهم أن يجيبوه على سؤالين أحدهما دينى وثانيهما وطنى : هل يرضون أن يقيموا فى الظلام والضلال بعد أن ظهر الحق جليا لا لبس فيه ولا غموض ، وهل يرضون لأنفسهم ولقومهم أن يظلوا أذلاء مقهورين بحكام أجانب ، ويحاربوا من أتى لخلاصهم وصلاحهم ؟! ، أن كانوا يرضون هذا وذاك فقد خيبوا ظنه فيهم :

انعم بأمر كان من جد القضا … جار وقد حكمت به الأسماء[1]
وله الإشارة من ألست بربكم … طوعا له وليسمع العلماء
ما حالهم بالهم لم يسمعوا … نفسى لهم مما يشين فداء
من يحفظ التنزيل من يدرى الذى … فيه ومن لم يدر ذلك سواء ؟ !
من يحفظ الأخبار عن أهل النهى … وتعين ذلك فطنة وذكاء
ويرد أشكال الأمور لشكلها … وبها عليه من الثناء سناء

(١) شعراء السودان ص ٩ .

ويرى القبيح بداية ونهاية ويروم أحسن ما الإله يشاء
مثل الذى فى بحر ليل جهله داج وأشرق ما يراه مساء ؟!

* * *

علمــــاء أمة أحمد ناشدتكم ردوا على فإنكم علمـــاء .
أرضى وترضون الضلالة بعدما ظهر الهدى وإنجاب عنه قذاء
ويخيب ظنى فيكم وعشيرتى أنتم وتقمع جمعنا الغـــرباء
ونكون دون الدون من بين الورى كلنا بدى إحساننا خرقاء
ردوا على أعيذكم من شامت لكن أجيدوا فالجواب شفاء

وفى مواطن آخر يدعو الناس ليعرفوا حقيقة المهدية بأنفسهم ولا يلتفتوا إلى أقوال أهل العناد والكذب :

فاخبر بنفسك خل أخبار الورى والزاد خل ولا يعقك بعاد[1]
احذر تقول ذى اعتداء جائر كذب أتى منه له وعنـــاد

وأبو الحسن يصف العلماء الذين ناهضوا المهدى بأنهم أغبياء ماكرون، ولا أدرى كيف تجتمع الغباوة والمكر فى شخص ، ويصف أسلوب رسائلهم بأنه سجع ركيك وليس فيها منطق ، وبأنهم لا يعلمون من أمر المهدية شيئاً لأنهم محجوبون :

فصدق ولا ترتب فهذا زمانه وليس مع الإنذار ينفع من عذر
وأيقن بأن الله خلّف عبده ولا تتبع قوم الغباوة والمكر
ولا تكترث بالزور منهم فقد أتوا بسجع ركيك لا يقرر بالفكر
يقولون ما لا يعلمون وهم على عماء من المكنون عن قاصر السير
ومن أين للمحجوب حتى يخوض فى حقائق أسرار بدت من منى البدر[2]

---

(١) شعراء السودان ص ١٤ .

(٢) مخطوطة شعر المهدية ص١٨١ .

وامعانا فى حرب العلماء الأعداء ومتابعة للمهدى فى رأيه فى علوم الظاهر، وقصورها عن بلوغ الحقيقة حيث يقول :

« وكثير من العلماء الاكابر الذين لهم سابق سعادة ... أتونى نادمين ، وإنك تعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان أصوليا ولا نحويا ، بل كان نبيا أميا وخصه الله بخاصة لا يعلمها إلا الله(١) » . امعانا فى حرب العلماء المنكرين وتمشيا مع رأى المهدى فى العلوم يحط الشيخ الحسين من شأن العلم المستفاد من المكتب ، فقد صار فى نظره مضيعة للزمن ومشغلة عن طلب الحقيقة ، فعلم العقل عقال له ، وهو قشور وزبد، لأنه ليس معبرا إلى مكامن الاسرار ، وحقائق الغيب . فطلبه عبث ، والتعمق فيه مجلبة للندامة ، إن هذه العلوم ليست سوى سراب بقيعة خدعنا فحسبناه ماء :

إن كان علم العقل غير موصل ... إلى شرح علم السرار لم يزل قشرا
نهاية أعقال العقول معاقل ... عن الحق فى كن(٢) قصرت قصرا
قديما أرتنا من وراء خبائها ... ستور رسوم لم تزل للعلى سترا
سبرنا بها بحر المعانى فلم نجد ... لنا بعد ذاك السبر من أحد خبرا
ألا ليت ذاك السبر لم يكن حاصلا ... لقد ضيع الأيام والفضل والفخرا(٣)

فالرجل فى سبيل الكيد إلى خصومه من العلماء قد تخلى عن قضيته ، وخرج على مبدئه الذى عاش فيه ولاة المهدى، حين رماهم بالجهل وباللؤم والظلم ، كابد المهدى نفسه فرماه بسوء التدبير ، حيث وضع أمر الناس فى أيدى الجهلاء اللؤماء وأبعد عنه العلماء الكرام الأمناء :

---

(١) منشورات المهدى ج٢ ص ٩٦
(٢) يظهر أن هنا « لقد » سقطت من النسخة .
(٣) شعراء السودان ص ١٧ .

جهل الولاة أمات دين محمد   وأهليه ماتوا وهم أحيـــاء
وتراكت ظلماتهم بين الورى   لمـا اطمأن لهم ودام ولاء
ما بى استهانوا بل بشرع محمد   فعليـه من أثر الدمار حبـــاء
فتناوله من اللئـام وأعطه   صنف الكرام فأهله العلمـاء
واشرط عليهم ما أردت من الهدى   يعطوا العهود لأنهم أمناء

وأجدنى أميل إلى رأى الذين قالوا إن الحسين قد انضم إلى المهدية مدفوعا بالطمع ولم يكن بها من المؤمنين[1] . فنى شعره ما يعين على هذا الفهم ، فيه حسرة شديدة على مافاته من النعيم ، لم يستطيع اخفاءها وقد جهد فى ذلك ، فحديثه عن النعمة والمتعة وإن يكن قد ساقه فى أسلوب المعرض عنها طلبا لرضا المهدى وحبا له ، حديث من يهواها ويصبو إليها ويتحسر على فوتها :

سجية من لا غير وجهك قصده   ذهاباً مع الأغيار والناس طمع
لهتهم لهى ما ليس فيهن طائل   وعلقموا فى كل طبع منقع
قصور وحور والحبور ونعمة   ومال وآمال وخير منوع
بنا أنت ما لاحت بروق لغيرنا   وما اطربت آلات لهو تقمقع
وما امنمت فى الشجو ساجعة الحمى   على فنن غض وغصن ترجع[2]

لحرارة الشوق بادية هنا تكاد تلمس ، واتهام الناس بالطمع « والناس طمع » لا يبعد ان يكون تعبيرا — لا شعوريا — عن ذات نفسه ، وقوله « بنا أنت مالاحت بروق لغيرنا » واضح فى أن الشاعر صابر على مضض.

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ٥٦٠ .
(٢) شعراء السودان ص١٥ .

وتراه يناجى أمله الضائع مناجاة من بلغ مشارف اليأس :

وبينى وبين الناعمات مجاهل يضل بها الخريت عن ساحة الزهرا
فيا أملى دونى توقف فإننى رجوتك حتى لى تعرضت الأخرى
ونادى صريخ بالرحيل واسمعت خطوب الليالى ذا الندا لبنى الغبرا
أفى الحشر بعد النشر أنت منازل مقامى لأنى اليوم انتظر الحشرا

ويكاد يطلب من المهدى ضيعة أو ولاية كما طلبها المتنبي من قبل ، فهو يشكو إليه أمر الشكوى من الضياع الذى كتب عليه قبل ظهوره ، والضياع الذى مازال مكتوبا عليه بعد ظهوره ، ويكاد يتهم المهدى فى عدله بين أصحابه، ويلح إلحاحا فى طلب شيء لم يفصح عنه ، ولكنه واضح ، إنه يريد منصبا فى دولة المهدى يعلى شأنه وينتشله من خموله ، ولم أر شاعرا من شعراء المهدية غيره يجاهر ويلح فى طلب شيء من الدنيا ، التى دأب المهدى على تحقيرها وتزهيد أصحابه فيها ، غير ما سنرى فى عهد الخليفة عبد الله :

وأرى على بوقت عدلك دائما بين الورى تتكبر الأسماء
وأنا المصغر بين ظهرانيهم حسبى التصاغر إنهم أكفاء
لم تعرف الأيام قبلك منزلى ولذاك لم يرفع علىّ لواء
واستعملتنى اليوم فى عاداتها فاطعتهن ولى إليك رجاء
أجملت فيها لا أرى إجماله حقا ولكن الأمور مضاء
ومواضع التفضيل دونى شأوها لعبت به من دونى الأهواء
فلسان حالى ألكنته فها هى بعضال داء ما إليه دواء

وتراه واضحا عندما يكون شعره عرابا عن نفسه ، فاذا تناول فى كثير من الأحوال، شأنا من شئون المهدية غمض وأوغل فى الغموض ، مما يدل

على أنه يتكلف القول تكلفا وسنرى شيئا من هذا ، وقد رفض العمل بالمنشورات عندما صار قاضيا .

الجهاد ووصف المعارك :

رغب المهدي أنصاره فى الجهاد ، ونفرهم عن التخلف والفرار والجبن، بحجج قوية وبيان مؤثر، مدعما أقواله بالآيات القرآنية الحاثة على الجهاد[١]، فامتلأت صدورهم بالحماسة واستهانوا بالموت ، وأصبحت الشهادة أحب إليهم من الحياة لشغفهم بالجنة ، ومما روى عن بعضهم « الجنة جات قريبة تحت المدفع والزريبة[٢] » يدل على ثقتهم بما وعدوا .

وللمهدى جيشان : جيش محسوس تراه العين وتسمعه الأذن وتلمسه اليد ، هذا الجيش هو الأنصار الذين ضربت بسالتهم الأمثال ، وجيش مستور لا يرى ولا يسمع، قال عنه « ... وأيدنى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء منهم والميتين من لدن آدم إلى زماننا هذا ، وكذلك المؤمنين من الجن وفى ساحة الحرب يحضر معهم أمام جيش سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام، وأعطانى سيف النصر ... وأعلمنى أنه لا ينصر على معه أحد ولو كان الثقلين الانس والجن ثم .... تخرج راية نور تكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقانى أحد بعداوة الأخذ له الله[٣] » .

وقد حاول الشعراء تصوير هذا الجيش الغيبى ، ولكنهم لم يوفقوا

---

(١) منشورات المهدى ج ١ ص ٤٠ ــ ٤٢ .
(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ٣٧٢ .
(٣) منشورات المهدى ج٢ ص٤٧ .

كل التوفيق ، فجاء شعرهم حكاية لما قاله المهدى أو بعض ماقاله ، ليس فيه شيء من براعة الافتنان والتوليد ، يقول الحسين :

حرب بمحراب الهدى من بأسه　　بشتاتها تتزلزل الأطواد
لم لا وأملاك السماوات العلى　　فى جيش مهدى الورى أجناد
والجن(١) والإنس الذين عهدتهم　　سوى(٢) الذين ومالهم أعداد

وبهذا الحذف الذى لا يأباه النحو ولا تأباه البلاغة شمل كلام الشاعر الأحياء والأموات .

ويقول محمد أحمد هاشم فى ذلك :

فله من الآيات أكبر ساطع　　قد شاهدوا فى الطعن منها نارا
ونبينا الهـــادى أمام جيوشه　　فى صحبه قد قاتلوا الكفارا
ولقد أتى خضر لموسى عونه　　ما أنظر العون الذى قد صارا
وجنود جن عونه من ربه　　قد قاتلوا من حـــوله الفجارا
وجميع أهـــل الله ناصرة له　　من عهد آدم دائمـــاً حضارا
وكفاك عزرائيل حامل راية　　من نور مولاه قضت أدمارا

* * *

وحباه سيف النصر إكراما له　　فاكرم بسيف يذعر الكفارا(٣)

---

(١) شعراء السودان ص ١٤ .

(٢) يقول الأستاذ عبده بدوى أن البيت على هذه الصورة مكسور ولايستقيم إلا إذا شددت الواو ، والسودانيون يميلون إلى التشديد دائما أو سكون هناك واو قبل كلمة «سوى» الشعر الحديث فى السودان ص ٢٧٠ . والفرض الثانى هو الصواب من جهة الوزن ولكنه لا يلائم المعنى لأن سوى أداة استثناء والعطف لا يؤهلها لأداء وظيفتها ، ثم انى لم أر سودانيا يشدد ما خففت العرب فى اللغة الفصيحة ، أما فى الدارجة فانى لم أدرس هذه الظاهرة .

(٣) المخطوطة ص ٤١١ — ٤١٢

وقد عنى الشاعر نفسه عناء شديداً فى النظم ، ونظم الخضر وعزرائيل خاصة .

وقال شاعر يدعى أحمد :

وقال له المختار جيشك تابعى ... وأقدمه فى الحرب عند التقاتل[١]
ورايته فى النصر حفت مهابة ... وحاملها والله أعظم حامل
هذا بإخبار النبى محمـــد ... له يقظة فى محفل منه حافل

ويقول محمد أحمد هاشم :

أفنى وأهلك أهل البغى حين سطا ... بسيف نصر سقى الأعداء شر دم[٢]

ومن ذلك قول الشاعر الخضر فى جملة من العلامات :

وأخبره بالخال فيه علامة ... عليه وما فى راية النور من نكر
ويحمل عزرائيل تلك لدى اللقا ... فيظفر جند الله إذ ذاك بالفخر
ويذهب عنهم من عنا الرعب خاطر ... بدا من لعين بالوساوس فى الصدر[٣]

وجاء عثمان الحلاوى بتنظيم فى هذا الجيش ، مخالف للتنظيم الذى ذكره المهدى ، فوضع جبريل أمام الجيش وأبعد عزرائيل حامل الراية ، ووضع ميكائيل خلف الجيش :

له العون من رب السماء مؤكد ... بنصرة أملاك كرام أولى فتك
وجبريل يمشى فى الجيوش مقدما ... وميكال من خلف يهد بنا الترك[٤]

وقبل أن أغادر هذا الجيش وانتقل إلى الجيش الثانى ، أحب أن أقف وقفة قصيرة عند جزاء الشهيد ، لأن الحديث عنه لون من هذا الضرب الغيبى . فقد رغبهم المهدى فى الشهادة ، ووضع لهم جزاء الشهيد فى صور

(١) المخطوطة ص ٤٦٠ .
(٢) المخطوطة ص ١٨٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٦٢
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٠ — ١٨١ .

حسية مما يألفونه ، فانتزع تشبيهاته من بيئتهم ، وأجرى الحديث بين بعض الأحياء وبعض الأموات ، ليكون أكثر ألفة وتشويقا من السرد والتقرير. يقول فى ذلك : « . . . ورد عن الإخوان الذين ماتوا واستشهدوا فى حال صفائهم وصدق إنابتهم لما عند الله أنهم تنعمون نعما عظيمة لا تخطر ببال أو تقاس ، منها أن بعضهم رؤى فى نعيم عظيم وحور وولدان وفرش وأسرة وقصور وخيم وغير ذلك . فقال له صف لنا هذا الذى أنت فيه من النعيم، فيقول هذا شىء أكرم الله به عباده المخلصين فلا أقدر أصفه ولا أعده فإنه لا يوصف ولا يعد ، وبعضهم يرى أن هبوب الجنة تدخل فى مسامه وجميع جسده كالدخان الذى يخرج من بيت القش ، فيجد لذلك لذة أشبه بلذة الجماع ، ولكن تلك التى فى الجنة أحلى وألذ أضعافا مضاعفة لا تخطر ببال يلتذها بجميع جسده . ويسمع لنساء الجنة نغمات لا توصف لذاذتها ، ومن يمشين فى الهواء كمشيهن على أرض الجنة ... ويزرن أزواجهن ويقفن معهم فى الجهاد ويهللن لهم ، فإن استشهد أخذنه ومضين به إلى دار نعمة وإن جرح ولم يستشهد قعدن معه يمرضنه إلى أن يموت أو يطيب من الجرح وبعض الأصحاب من شهداء وقعة الشلالى يرى فى نعيم عظيم وقصور كثيرة فيقول أحد الإخوان الحيين إنكم قد نلتم هذا المنزل الكريم ، وتمتعتم بهذا النعيم العظيم ، فأين منازلنا ونعمنا ، فيقول لا تشفق فإن أصحاب المهدى الصادقين معه لهم منازل ونعم كمثل هذا فامض معى أريك منازلهم ، فيريه منازل عظيمة ونعما نفيسة ، فيقول متى نلحق بهذا ونخرج من هذه الدار المكدرة المتعبة ، فيقول له لا تشفق فإن أصحاب المهدى يصلون قريباً فيتمتعون بنعمهم هذه ، وبعضهم يرى أكابر الصالحين المتقدمين فيسأله عن مقامهم مع مقامات أصحاب المهدى الذين ماتوا ، فيقول هيهات فإن أصحاب المهدى من علو درجاتهم لا نراهم فهم راقون مرقى عظيما . وكثير يرى أنهم

يغبطون أصحاب المهدى ويقولون ليتنا كنا أصحاب المهدى[1] . . . .

فماذا صنع الشعراء إزاء هذا التصوير ؟.

أشهد أنهم أخفقوا فلم يجاروا المهدى فى تقريب نعيم الجنة وجزاء الشهيد من الأنصار إلى تصور المخاطبين ، واكتفوا بذكر ما ورد فى القرآن من ذكر نعيم الجنة بصورة مجملة ، وبذكر الحور والولدان .

يقول الشيخ محمد عمر البنا :

قووا عزائمكم وكونوا وا   ثقين بربكم قد أمكنت فرصات
وليهن بالخير الجزيل شهيدكم   فلقد تسابق روحه الرحمات
والحور تنتظر اللقا فرحا بهم   وتزينت لقدومهم جنات[2]

ويقول أحمد بن الإمام الكَشْبُوشابي :

شهيدكم فى جنة الخلد خالد   وموجودكم فى وجهه النور قد ظهر[3]

ويقول إدريس عمر البنا :

أكرم بمن قد أكرموا بجنا   ب رب العالمين وحولهم ذات الحور
وهم الأولى عدوا شهوداً بعد أن   ثبتت حياتهم لدى أهل الخبر
أنهارهم ملتفة برياض أشجا   ر الجنان تحفهم ريح الزهر
وبلابل الأفراح تطرب بالغنا   ويطوف بالكاسات ولدان غرر[4]

ويقول محمد أحمد هاشم :

فقل للإنجليز أتيت أسـداً   لهن الموت أحباء وربح
به الجنات والولدان حفت   لقاء الله فيه وفيه نجح
قصور بل وحور ناعمات   لدى المولى بدوح فيه مدح

(١) منشورات المهدى ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٧٨ .
(٣) المخطوطة ص ٤٤٦
(٤) المخطوطة ص ٤٠٧

بها عـــين تسمى سلسبيلا وتسقيها ختام المسك رشح[1]

فهذا الشعر مع بعده عن الجو الذى أشاعه المهدى فى جنة الشهيد ضعيف متكلف .

والآن يحسن بى أن أرى موقف الشعراء من المعارك والفتوح ، من الأنصار وقائدهم المظفر ، يحسن بى أن أنزل إلى الأرض بعد أن طفت بالسماء .

يحدثنا الشاعر محمد عمر البنا عن حقيقة الجهاد وملاكه وفضله والثواب عليه ، فهو فضيلة من أعظم الفضائل ، شهدت بذلك آيات القرآن الكريم ، والثواب عليه هو الخلود فى نعيم الجنة ، وملاك الجهاد الشجاعة والصبر والعزم والإقدام ، والمؤمن لا يعز عليه أن يتحلى بهذه الصفات ، لأنه يعلم أن الحياة إلى انقضاء ، وأن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر ، وأن الموت فى سبيل الله هو الحياة ، والجبن مع أنه لا يبعد الأجل إذا دنا ، ولا يدرأ الحين إذا حان ، مجلبة للعار فى الدنيا ومدرجة للعيب ، والشجاعة تكسب صاحبها هيبة يخشاها الأبطال فى حومة النزال :

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت فى شأن الإله حيـــاة
والجبن عار والشجاعة هيبة للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عند البأس مكرمة ومقـ ـدام الرجال تهابه الوقعات
والاقتحام إلى العدو مزية لا يستطاع لنيلهـــا غايات
العمر فى الدنيا له أجل متى يقضى فليس تزيده خشيات
فعلام خوف المرء أن يغشى الوغى نفس الكريم وحانت الأوقات
والفخر كل الفخر بيع النفس لله الكريم وأجرها الجنـــات
إن الجهاد فضيلة مرضية شهدت بمحكم أجرها الآيات[2]

(١) المخطوطة ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

(٢) شعراء السودان ص ٢٧٥ — نفثات اليراع ص ١٠٠ .

معانى هذه الأبيات الحكيمة حية فالشجاعة والثبات أولا ، ثم يأتى كل شىء مكملا مهما اختلفت ألوان السلاح . وأغلب هذه المعانى مقتبسة من كلام المهدى فى الجهاد(١) .

وقد اجتمعت كل هذه الخلال فى أنصار المهدى :

قد حاز هذا الإفتخار جميعه   صحب الإمام السادة القادات

إنهم إذا دارت رحا الحرب شمخوا كالجبال الشم لشجاعتهم وقوتهم فهم لا يتوارون ، ولباسهم — إذا لبس الناس الرقيق من الثياب — الدروع وطيبهم رائحة صدأ الحديد ، لأنهم لايخلعون عنهم عدتهم لحزمهم وتوقعهم الحرب فى كل حين ، لقد شهدت لهم الحروب بالبأس والصدق فى القتال . وفى السلم حين يتاح لهم السلم ، تراهم ركعا سجدا سيماهم على وجوههم من أثر السجود ، فهم لا يخرجون من عبادة إلا إلى عبادة ، وإذا كان — لكل امرىء من دهره ما تعودا — فعاداتهم الفتك بالأعداء ، تخالهم فى الهيجاء أسداً غاباتها الرماح ، والخيل ترقص تحتهم طربا ، وكأنها فتيات فى حفل راقص لشغفها بالقتال ، تغير على الأعداء صبحا وتثير فى حومة الوغى نقعا ، وسيوف هؤلاء الأبطال لا تعرض على قين ليصقلها فصقالها هامات الأعداء ، فليس لهم هدنة يبحثون فيها عن القين ، فهم إما فى جلاد وإما فى صلاة ، فلا يعرفون السلم كما يعرفه أهل الفراغ والبطالة ، أو لأنها جيدة لاتحتاج إلى جلاء . وإذا خاضوا غمار معركة لم يغادروا ساحتها إلا وأعداؤهم أشلاء مبعثرة ، ودماؤهم سيل جارف ، ينبت نباتا رهيباً هو جماجمهم وشعورهم . لاتصدهم الجبال الرواسى عن غاياتهم ، فالجبل الأشم عندهم كالصخرة لشدة عزمهم ومنعتهم ، ولكن أعداءهم جهلوا هذا ، حين احتموا بالجبال ، لما استولى عليهم من الغفلة . لقد أقاموا ركن الدين وحازوا رضاء الله وشرحوا صدر الرسول بإرهابهم العلوج وتضريب أعناق الكفار .

---

(١) منشورات المهدى ج ١ ص ٤٠ — ٤٢ .

ثم يحث الشاعر المهدي على فتح الخرطوم وإبادة الجبابرة والطغاة الذين نبذوا الدين وراءهم ظهريا ، واستسلموا للشهوات والملذات ، يحثه على أن يدع التريث ويفتحها عنوة بجيشه المنصور ، ولا يأبه بمعاقلهم وحصونهم ، وليفعل بها ما فعل الصحابة بحصون خيبر فله فيهم قدوة حسنة ، ولا ينتظر منهم أن يصالحوا ، فهؤلاء لا يذعنون إلا للسيف ، فما تريثك؟ رشادكم واضح ساطع ، ورشادهم كذب وتمويه فهو الباطل بعينه ، وقتيلهم مأواه النار وبئس القرار ، وشهيدكم مأواه الجنة ومنتهاه إلى النعيم . والنكاية بالأعداء أشهى إلينا من عناق الغانية العروب :

قوم إذا حمى الوطيس رأيتهم ... شم الجبال وللضعيف حماة
ولباسهم سرد الحديد وبأسهم ... شهدت به يوم اللقا الغارات
وخلوقهم صدأ الحديد لحزمهم ... قتل الأعادى عندهم عادات
فى السلم تلقاهم ركوعا سجدا ... أثر السجود عليهم وسمات
وتخالهم يوم اللقاء ضراغما ... أسدا وأسل رماحهم غابات
ركبوا الجياد وغادروا شلو العدا ... رزق النسور ولحمهم أقوات
والخيل ترقص بالكماة كأنها ... تختـال فى ميدانها فتيات
فأثرن نقع الموت فى عرصاتها ... وأغرن صبحا إذ علت أصوات
وذباب أسياف المنية فوقها ... رعفت دما وجلاؤها الهامات
والأرض سالت بالدماء وما بها ... غير الجماجم والشعور نبات
ظنـوا جبالهم المنيعة تقية ... وتوهموا أن الصعود نجـاة
ذهلوا أصحاب الإمام ومادروا ... أن الشوامخ عندهم صخرات
يا أيها الأنصار إن صنيعكم ... شكر الإله له وتلك هبات
أعليتمُ دين الإله وما بكم ... إلا الثبات تزينه الوثبات
وشرحتم صدر الرسول محمد ... بالفتح وانكشفت بكم ظلمات
ياسيد وسع الأنام بجده ... واستمطرتهم بالهدى بركات

فانهض إلى الخرطوم إن بسوحه ... أهل الغواية والضلالة باتوا
نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم ... عن دينهم شغلتهم الشهوات
خذ جيشك المنصور لاتحفل بهم ... ولتقدمن أمامه الرايات
فتسوروا لهم الخنادق وافعلوا ... فعل الصحابة إذ أتت غزوات
فتحوا حصون الخيبريين التي[١] ... زعموا بأن حروبهم هلكات[٢] .

يقول الدكتور محمد ابراهيم الشوش فى تعليقه على هذا الشعر « وليس الجديد هنا ابتداع صور مبتكرة جديدة ، فكل هذه الصور قديمة مكررة وكذلك تركيبها ، وإنما الجديد أنها أدخلت عنصر الحماس والدعوة إلى الجهاد فى ذلك الشعر الخامد ، وجعلته ينبض بالحياة ،كما تجد فيها لأول مرة ثورة لسخط على الفساد :

فانهض إلى الخرطوم أن بسوحه ... أهل الغواية والضلالة باتوا
نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم ... عن دينهم شغلتهم الشهوات[٣] »

أوافق الدكتور الشوش على أن هذه الصور أو معظمها قديمة ، عرفها الشعر العربى ، وتعاقب على نظمها الشعراء ، ولكنى لا أبخس الشاعر حقه فأجعل موقفه من هذه الصور موقف المقلد الذى ينظم من الذاكرة ، فالشاعر قد رأى وسمع وتأثر بما رأى وسمع ، ومن هنا جاء عنصر الحماسة التى يراها الدكتور الشوش جديد : توضع فى كفة حسناته ، لقد كان يمتح من واقع محسوس، وصف الأنصار فى حال حربهم وسلمهم فأحسن وصفهم، ولم يضف إليهم سمة غريبة إلا مايقتضيه الشعر من التضخيم ، ولم تغب عنه سمة من سماتهم ، ولكن صفاتهم مطابقة لصفات أصحاب النبى (ص) كما جاء

---

(١) هنا ،وضع الذين ولسكن لقامة الوزن هى التى أتت بـ ه التى .
(٢) شعراء السودان ص ٢٧٥ — ٢٧٨ .
(٣) الشعر الحديث فى السودان — الدكتور الشوش ص ٣١ .

فى القرآن فهم كذلك ، وقد أهاب بهم المهدى أن يتشبهوا بهم ما استطاعوا ، مثلما حمل نفسه على التشبه بالنبى ، والبيان القرآنى ليس ملك لجيل من الأجيال أو عهد من العهود ، فهو مورد للأدباء فى كل زمان ومكان .

ملأ الشاعر عينيه من الخيل وهى تصعد الجبال وتدك المعاقل ، وملأ عينيه منها وهى تغير صبحا وتثير بالميدان نقعا ، وترقص به نشوة وطربا ، ولا تغادره إلا وهو بحر من الدماء تعلو فوق خضمه الأشلاء ، والنسور تقبل من كل جهة لتصيب من هذه المائدة رزقها . ولكن أجزاء الصورة مقتبسة من هنا وهناك من النابغة وأبى تمام والمتنبى . . الخ ، ولكن الصورة فى إطارها الكبير من صنع الشاعر ما فى ذلك شك .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنى أرى أن هذا اللون من التصوير وهذا النهج من البيان جديد كل الجدة فى شعرنا السودانى . والقارىء الذى سار معى من أول الطريق يشهد بذلك ، فقد رأينا أن الشعراء لم يكونوا يعرفون الصور الشعرية ، وأقصى ما يصل إليه خيالهم هو التشبيه الجزئى والتشبيه نفسه نادر ، أما هذا المشهد الكبير الذى تغير فيه الخيل صبحا وتثير نقعا ، عليها ليوث غاباتها الرماح ، فلم يطف بأحلامهم ولم يلمع فى خيالهم ، لهذا فإنى أراه جديداً يستحق الحفاوة والإشادة .

والشيخ الحسين بن الزهراء لم ينهج نهج الشيخ البناء فيجمل بسالة الأنصار وشدة بأسهم قطب الرحا فى دحر العدو وتبديد شمله . ولكنه عالج المشهد بصور غامضة مبعثرة ليس لها قران ، وقد قلت إن هذا هو ديدنه عندما يتناول شأناً من شئون المهدية فى كثير من الأحيان . أراد أن يعطينا صورة عن واقعة الخرطوم ، فالخندق قوى محصن بالأسوار ومحصن بالنار ، فأنت لا ترى ولا تسمع إلا شرر البنادق وصواعق المدافع تنقض بين دوى رعدها ، وتبحث عن الأنصار فى هذا الجحيم ، فتراهم ضعفاء وتراهم ليس بأيديهم سلاح يقام له وزن وتراهم شهداء ، ومع ذلك فقد دمر الله العدو

الطاغية فكبهم من ناصيته ، فمزقوه برماحهم تمزيقاً، فكأنه خلق يوم خلق أشلاء ، فهم لم يرموا حين رموا ولكن الله رمى :

والله دمر من طغى وأباده . حتى تولى قتــله الضعفاء
ولقد تبدد جسمه برماحهم فكأنه من خلقه أشلاء
صالوا به وذوبه بين حصونهم في خندق غرت به الأذواء
شادوه بالحصن القوى وأيدوا بالنار من في النار فهي جناء
في كل مزغال شرارة بنــدق رام طوى من في يديه خواء
وكروبهم كالرعد بين صواقع للسلمين وكل ذاك عداء
الله أكبر أن يرد وجوههم عن شأنه أو تمنع البؤساء
ولجوه عمــداً باختيار صادق ولهم يد في فتكه خرقاء
وفي بذمة أحمــد ومحمد مهديهم وجنوده شهــداء
فعلوا وما فعلوا ولكن لأبهم رام بهم ولهم بذاك سخاء[1]

إبهام في إبهام والتواء ما بعده التواء .

والشيخ محمد أحمد هاشم يزاوج في قصيدة نظمها في فتح الخرطوم، بين عناية الله وإرادته النصر وبين بطولة الأنصار وثباتهم والقصيدة أشبه بالبيان الذي يذيعه القواد عقب الموقعة منها بالشعر :

الحمد لله بالفتح المنير دجى ظلم النفاق به الإسلام قد بلجا
والشكر لله زيد الشكر شاكره بفتح خرطوم توتى[2] للفا كل رجا
واستوجبت سؤددا سودانتا وعلت فوق الثريا علوا زادها درجا
فتح له ارتجت الأرضون من فرح تزهو به السبع حتى من بها عرجا

---

(١) شعراء السودان ص ١١ .
(٢) توتى : قرية بجوار الخرطوم .

وانهد ركن من الكفار فانبلجت   شمس الشريعة مذ أبدت لنا سرجا
والمؤمنون بنصر الله قد فرحوا   والدين عز بنصر أظهر الفرجا

وبعد هذا الحمد والشكر لله على ما أنعم به من النصر ، والحديث عن الفرحة التي لم تقف عند حدود السودان بل عمت الأرضين والسماوات ، كما فعلت يوم فتح عمورية في شعر أبي تمام :

فتح تفتح أبواب السماء له   وتبرز الأرض في أثوابها القشب

بعد هذا كله يدخل الشاعر في تفصيلات بيانه الحربي :

تحرك المهدي ذا الميمون طلعته   في ثامن من ربيع الثاني وابتهجا
وذاك بالأحد المبروك وانتدبت   أصحابه من علوا أعلى العلى برجا
ويوم اثنين من ديم الشجرى أتوا   وصبحوا الكفر طعنا أوصل الحرجا
والحرب دارت على ساق مناجزة   حتى انجلى الليل والأصباح قد بلجا
والخيل تصهل الأرماح شاهرة   والنار كالرعد كم قد أذهبت مهجا
حتى بدت فرصة للخندق إقتحموا   بحملة عنوة قد أظهرت لججا
والاعداء ولت فرارا من كبوسهم[1]   فأوردتها حياض الموت والوهجا
وذلك حين رجا الغردون دولته   وظن أن بها يلقى له فرجا
هيهات ، كيف ومهدي الله قاتله   أنبابه علم جفر عند من نهجا[2]

هذا الشعر في غاية الضعف وأضعف ما فيه قوافيه ، والشاعر هنا يدعى أنه ورد في الجفر « كتاب الشيعة » أن المهدي يقتل غوردون وقد عرفنا فيما أسلفت أن المهدي كان يريده حياً ليفتدى به عرابي ! ، وللشاعر قصيدة ذكر فيها وقائع المهدي[3] .

---

(١) الكبوس جمع كبس : رمح عريض النصل .
(٢) المخطوطة ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٢٠ ـ ٤٢٣ .

شمـــــــائله

ومثلما وصفه إسماعيل عبدالقادر الكردفانى بالحلم والعلم والكرم والتواضع والعفة والمروءة والصلاح والرحمة إلى آخر ما رأينا ، حاول الشعراء بطريقتهم الموجزة أن يصفوه ، فحبروا القصائد فى اطراء شمائله ، وفضله على الدين وأهله ونكايته بالأعداء وبطشه بهم ، والمكانة التى اختارها الله له . وحب أصحابه له وتعلقهم به ، وما إلى ذلك من المدح الصادر عن الحب والإعزاز .

وصفه الحسين بن الزهراء بالكرم ، وبأنه كل شيء فى الوجود لولاه لكانت الدنيا خالية خاوية ، وبأنه سما إلى مكانة لا مطمع لأحد فى الوصول إليها ، وخص بجمال لا مثيل له مقرونا بالجلال والهيبة ، وهو حلو المنطق وسديده، ورع بل هو الكمال مجتمعا، وهو أحب الناس إليه . وصل إلى هذه المعانى بطريقة تشبه طريقة الكميت فى قصيدته :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب [1]

فى مدخلها وتدرج إلى الموضوع فقال :

أدرت سراج الفكر فى أفق خاطرى فلم ألق من فيه الكمال مجمع
وما لذ فى عينى وقلبى وقالبى وما هاج أهوائى خباء مضلـــع
ولا سامرت نفسى من الليل سامرا ولا ضمنى فى الدهر بيت مصرع
ولا رد فى وجهى السلام تحية من الناس شخص حاسر أو مقنع
فسرت به روحى مسرة بهجة لحسن وإحسان له أتضرع
سواك فأنت الجمع والفرق دائما كذاك وأنت الأروع المتورع
كذا فليكن من شاء أعلى مكانة ومن لا فلا أصلا ولا يتطمع
لمن تزجر الحاجات زجرا مبرحا ومن فى حمى إحسانه تتمرع

(١) الهاشميات ص ٤٢ .

فهل دون مأواك الحصيب فناؤه   لحاج ذوى الحاجات ياعين مربع
توجه ومنه السير فيه وتنتهى   إليه فلولاه البسيطة بلقع
وقل عنه واسمع لطف كل مقالة   يمر بها فى أفق أذنك أصمع
وعاين وما فى العين الا أشعة   لها صورة منه تبدت تشعشع
جمال يروق العين من فرط حسنه   فيبهرها إذ الجلال مقنع
تخر له زهر الدرارى كواسفا   وتنزل من أفق العلى وهى خضع
عليه صلاة دون كيف وعدة   وأسنى سلام ما تلألأ يلمع(١)

فى نظمه شيء من التكلف وفى قوافيه قلق واضطراب ، وفساد القافية أو ضعفها يؤدى إلى ضعف المعنى ، فمثلا قوله :

فما لذ فى عينى وقلبى وقالبى   ولا هاج أهوائى . . .

يجعل القارىء أو السامع ينتظر شيئا رائعا من شأنه أن يلذه وأن يهيج أهواءه ، فاذا بالقافية تجعل ذلك الشيء الرائع دخيلاء مضلع ، وقد حاول أن يعيد نظم بيت المتنبى :

ذى المعالى فليعلون من تعالى   هكذا هكذا والا فلا لا

فأفسده وجاء به هكذا :

كذا فليكن من شاء أعلى مكانة   ومن لا فلا أصلا ولا يتطمع

وهو يستعمل « أصلا » هنا كما تستعمل فى اللهجة السودانية ومعناها فيها تأكيد النفى ، يقولون ما فعلته أصلا ، أى لم افعله اطلاقا . ومع ذلك فإن فى شعر الحسين موسيقى صاخبة وحماسة .

ومدحه محمد أحمد هاشم وكأنه ينظر إلى ما كتبه اسماعيل الكردفانى ، فقصيدته تحصى صفات المدح احصاء وتسردها سردا ويضرب أحيانا عن

(١) شعراء السودان ص ٦٥ — ٦٦ .

صفة ويذهب إلى أخرى من غير أن يكون لهذا الاضراب ما يسوغه، أو يدعو اليه ،وهذا نموذج من مدحه :

كريم الطبع محمود السجايا جواد فائض ما فيه شح
سخى أريحى لوذعى تقى المهى فيه سجح
رءوف بن رحيم ذو وفاء حليم فاضل لعداه جوح(١)
عفيف بل نظيف ذو سناء وفى بل وفى فيه نصح
صبور قانت ثبت على شجاع باسل للخلق وجح(٢)
كمى عابد بر عطوف عزيز كامل للصدر شرح
عن الدنيا نفور بل شكور مجالسه بها فسح ونفح (٣)

ومدحه عبد الغنى السلاوى ، فنعته بالرفعة والهداية والاصلاح، واقتفاء أثر النبي « ص » ، وتجديد الشريعة واحيائها والمساواة بين الناس، وبأنه صاحب مجد مؤثل وفضل مرجو ، وبأنه منصور مرفوع اللواء ، فصيح بليغ يقصر عن شأوه من أجمع العرب على فصاحتهم وبلاغتهم ، وأمره واضح قامت على صحته براهين العقل والروح والمحسوس من كراماته ، فهو خاتم العارفين بالله ، والذين خالفوه ولم يدخلوا فى صحبته أعداء للدين ، والذين آزروه هم الفائزون :

أجلى الصدى وأزاح أنواع الردى وسمت به فوق السما علياء
أمست به آثار طه نورها يعلو ولا يعلو عليه سناء
فالمجد فيه مؤثل والفضل منه مؤمل والناس فيه سواء
آياته نسجت بمحكم ناسج ولواؤه بالنصر نعم لواء

---

(١) الجوح : الهلاك
(٢) وجح : ملجأ
(٣) المخطوطة ص ٢٩٧ .

ماقيس ماسبحان ما أحزابهم ... من بحره أبدا لهم أدلاء
الله اكبر لا ارتياب بهديه ... والجاحدون له إذن أعداء
والآخذون به لقد أعلاهم ... أوج العلى فزهت بهم علياء
أمسيت منه حليف ود لا أرو ... م به بديلا لو بدت بدلاء
من أين تبدو والختام ختامه ... والروح شاهدة وفيه كفاء
والعقل قبلا فيه يشهد أنه ... بعث الهدى يا أيها العقلاء
هلا رأيتم موجبات الصدق فـ ... ـيما يدعى أو ليس فيه خفاء[1]

والشاعر يستعمل « ابدا » لتأكيد النفي مثلما استعمل الحسين « أصلا » وهكذا تستعمل في لهجة أهل السودان ، والشطر الثاني من البيت الأخير لا يؤدي المعنى الذي يريده الشاعر ، وكان من حقه أن يكون هكذا : « أو ليس فيه جلاء » مثلا لأن الاستفهام المقترن بالنفي يراد منه إثبات الشيء المستفهم عنه ، أو يقول « هل كان فيه خفاء » على سبيل الاستفهام الاستنكاري .

وقال فيه عثمان الحلاوي يمدحه بالتقوى والخشية وملازمة العبادة ، وهداية الخلق والشجاعة والبأس ، فهو صورة من النبي (ص) خلقا وخلقا :

محمد من هدى الخلق قاطبة ... خليفة المصطفى في العرب والعجم
مهدى الانام إلى رب العباد على ... صفو وعفو وإحسان بلا سأم
مراقبا راهبا لله ما هجعت ... عيناه في جنح ليل جن بالظلم
ولم يزل ذاكرا لله مبتلتا ... بخشية الله رب العرش والنسم
وخلقه واسع حاشاه من غضب ... للنفس بل دأبه لله مستلم
في الخلق والخلق موصوفا بما وصفت ... به شمائل خير الرسل كلهم
مستجمع لصفات الحمد أجمعها ... علم وحلم وأفضال مع الكرم
أفنى وأهلك أهل البغي حين سطا ... بسيف نصر سقى الأعداء شر دم[2]

(١) نفثات اليراع ص ٨١ .
(٢) المخطوطة ص٤٦٢ .

الرثــاء

ورثى الشعراء المهدى كما مدحوه فاسبغوا عليه الصفات الحسنة ولكن الرثاء يتميز بالحسرة والأسف ، وبالعزاء الذى يوجهه أغلب الشعراء إلى خلفائه وأحيانا إلى آل بيته أو إلى الأشراف عموما ، أو يتخلصون من البكاء إلى مدح الخليفة عبد الله التعايشى .

رثاه الشيخ إبراهيم شريف الدولابى بشعر حار جزل ، بدأه بالبكاء والتوجع ، ثم أخذ يعدد مآثره وصفاته الكريمة ، وقرر أنه قد أتم رسالته وبلغ أمانته وحنت نفسه للقاء بارئها فمات مختاراً . وهو فى هذا يجارى خطاب الخليفة الذى سنراه ، فقد استطاع أن يجد فى سيرة النبى (ص) ما يبرر موت المهدى قبل أن يبلغ غايته ، قبل أن يفتح الأمصار ويملك الأرض ، ورجع مرة أخرى إلى البكاء الممزوج بالمدح ، وانتهى إلى تعزية آل بيته بأن المصاب وإن كان جليلا والرزء وإن كان ثقيلا ، ففى وجود خلفائه ما يهون الخطب ويدعو إلى شىء من السلوان ، واهتبل الفرصة فأشاد بالخليفة عبد الله :

كيف التئام فـؤادى المفطور ورقوء دمع محاجرى المفجور
أم كيف ينفك الضنى عن مهجة أحشاؤها تصلى على تنور
أسف على المهدى مهدى الصبا قد كان معصوما من المحظور
فتح الفتوح ودمر الكفار فى كل البلاد بجيشه المنصور
قد كان قوام الدجى متبتلا متواصل الإحسان غير فخور
لا يبتغى جاها ولا مالا ولا عز الملوك ولا ارتفاع الدور
لما أبان لنا السبيل ولم يدع إيضاح منهى ولا مأمور

والدين عز وأهله بلغوا المنى | وتقلبوا فى نعمة وحبور
تاقت إلى الذات العلية روحه | وسمت لمقصد صدقها المذخور
فقضى وأودع كل قلب حسرة | وحشا الحشى ببلابل وسعير
تبكى المساجد والمحارب فقده | ومواطن الأذكار والتذكير
ياطيب أرض ضم جسمك تربها | تزرى بعرف المسك والكافور
يا آل بيت المصطفى صبرا وإن | جل المصاب وعز عن تصبير
فلكم تجمع فى مصيبة جدكم | خير الأنام الحى والمقبور
وإذا توارت فى الثرى شمس الهدى | فهناك بدر هدى عظيم النور
أبقاه مهدى الإله وراءه | خلفا يسير بسيره المشهور
هو ذاك عبد الله نجل محمد | وسع الورى بالحلم والتدبير
وخليفة الفاروق نجم ثاقب | بضيائه يجلوا ظلام الزور
وخليفه الكرار سيف منتضى | بالحق يقطع هام كل كفور
صلى الإله على ضريح ضمه | أزكى صلاة فى المسا وبكور[1]

ورثاه الشيخ إسماعيل عبد القادر المفتى بشعر لا عاطفة فيه ، وكأنما أراد أن يتوسل به إلى مدح خليفة المهدى عبد الله . وصف قبة المهدى التى شادها الخليفه وصفا خياليا روحيا ، فهى شاهقة بمجدها وسؤددها حتى صارت الجوزاء عليها عقدا منضدا ، ووضعت النجوم على رأسها أكليلا ، ثم شفع العقد بعقد آخر جواهره زهر النجوم ، وطلعت منها شمس الهداية وعمت الكون فأضاءته وأصلحته . وهى أنيقة محكمة الصنع يحف بها روض عجيب من الجود والفضل . تهوى إليها أفئدة الناس فيطوفون بها

(١) شعراء السودان ص ٢٧ — ٢٩ .

زرافات ووحدانا ، ولا غرابة فى أن يكون هذا شأنها . فقد ضمت أفضل من ورث النبى الشفيع :

سمت قيمة المهدى مجدا وسؤددا ونيطت بها الجوزاء عقدامنضدا(١)
وقد نظمت زهر النجوم قلائدا لجيد علاها حائز السبق مفردا
ولاحت بأنوار الهداية شمسها فأشرق منها للكون وانقشع الردى
فلله مغناها ومحكم صنعها وروضتها الزهراء بالفضل والندى
ولم لا وقد ضمت لأفضل وارث لخير الورى طه المشفع أحمدا

فالنور كثير والوصف دال على الجمال والجلال والتعظيم، ولكن الحسرة وهى دعامة الرثاء الصادق لا أحسها فى هذا الشعر، ويخيل إلىّ أن القصيدة مدحة لخليفة المهدى الذى شاد القبة أكثر منها مرثية ، ورثاء المهدى هنا مدح محض ، فهو أفضل الهداة ، وخلاصة المجد من آل هاشم ، له مآثر ما أجلها وما أعظمها ، فقد بشر به النبى ، وخصه الله بالنصر المؤزر، فأظهر الدين بعد خفاء ، وأحيانا بعد موت ، وأذل الجبابرة والطغاة ، وقوى ركن الدين بالسيف فى عهد بطل فيه عمل السيف ، ولما بلغ الرسالة وأدى الأمانة ودعاه الله إلى دار كرامته ونعيمه المدخر لبى النداء ، فعز علينا فراقه وأذاب أفئدتنا الحزن عليه ، فهو هنا يضرب على الوتر الذى ضرب عليه الدولابى، هو أن المهدى لم يمت حتى أدى رسالته :

خلاصة صفو المجد من آل هاشم وأفضل من فى الخير راح أو اغتدى
إمام له فى كل مجـــد وسؤدد مآثر فضل ما أجل وأمجدا
محمد المهدى بشرى محمد شفيع الورى فى الحشر من طاب محتدا
به الله أحيانا وأظهر دينه وأولاه أفضالا ونصراً مؤيدا

---

(١) شعراء السودان ص ٤١ .

وقد أحرز الدين الحنيفى بالظبا ... ودمر جبارا طغى وتمردا
ولما دعاه الله جل جلاله ... لدار بها الفوز العظيم مخلدا
أجاب الندا فالقلب بعد فراقه ... يذوب أسى والصبر عز وأبعدا

وبعد ذلك طفق يمدح الخليفة عبد الله، ولم يذكر معه بقية الخلفاء مما يؤيد أن القصيدة مدحة فيه، فالخليفة قد جبر الله به الكسر الذى أصاب الوجود بأسره من جراء موت المهدى، وأقام به منار الدين، فهو بحق خليفة هادى الأنام، فقد سار سيرته فى إعلاء شأن الدين، وتضريب أعناق أهل الضلال، بذلك كله نال طاعة الناس، فعنت له قلوبهم ووضعت تاجا على رأسه. ومآثره لا يدركها الحصر، فليس غريباً أن يدرك الشاعر القصور والعجز عن إيفائه حقه من المدح:

وقد جبر الله الوجود بأسره ... وأعلى منار الدين حقاً وشيدا
بمهدى الذى قد قام فينا مقامه ... خليفته هادى الورى قامع العدا
قلوب الورى تعنو جميعاً لهديه ... فلا تنثنى إلا وعنها انجلى الصدى
أمام أجل الله فى الكون قدره ... وتوجه تاج القلوب وأيدا
مآثره فى الدين يعسر حصرها ... فغاية ما عندى القصور وقد بدا

واضح أن الشاعر يتكلف مدح الخليفة تكلفا، فهذه المبالغات (قد جبر الله الوجود بأسره) و «مآثره فى الدين يعسر حصرها» آية التكلف وعنوانه، فإذا كان الخليفة عبد الله كهذا فماذا يكون المهدى؟!.

وقد ندت منه كلمة نمت عن رأيه فى الخليفة وموقف الناس منه، أعنى قوله «قلوب الورى تعنو جميعاً لهديه» فقلوب الناس جميعاً لا تهفو إلى هديه حباً وإخلاصاً، ولكنها تعنو، وهذا يدل على القهر من جهة الخليفة والخوف من جهة الناس، ولا يلطف هذا المعنى قوله: «وتوجه تاج القلوب وأيدا» فالقلوب لا تكون تاجا فى مجازات الشعراء لأنها ترسم صورة بشعة، ولا تدل على شىء، وإنما تكون عروشا ومنازل، أو ما شاكل ذلك مما يدل على أن الممدوح قد تمكن من قلوب الناس، والشطر الثانى من هذا البيت:

بهدى الذى قـــد قام فينا مقامه ... خليفة هادى الورى قامع العدا

مكسور وكان يمكن أن يستقيم لو قال :

خليفة هادى الناس من قمع العدا

ومن أشجى ما قيل فى رثاء المهدى وأشده لوعة القصيدة التى رثاه بها الشيخ محمد طاهر المجذوب ، فهى بكاء خالص ودموع غزار :

دهتنا دواه يضرس القلب نابهـا ... ويوقد فى الأحشاء ناراً منابهـا

غداة نعى الناعون مهدينـا الذى ... به ملة الإسلام جل مصابهـا

أمام الهدى المهدى أفضل من دعا ... إلى الله مفتاح النجاة وبابهـا

ألا قد أصبنا إذ عدمنا حبيبنا ... وضاقت بنا الأرض الوسيع رحابها

لبيك له الدين الحنيف وملة ... أبان هداها حين تم خرابهـا

فقدناك يا هديا يتمنـا بفقده ... فقدناك يا شمساً دهانا غيابهـا

إلى الله أنا راجعون هو الذى ... إليه نفوس العالمين إيابهـا

وكنـا نرى أنا نفوز بوصله ... بذى الدار حتى صاح فينا غربهـا

فلم يبق فيها الآن ما يبتغى له ... بقاها فقد أضحى سرابا شرابهـا

سقى الله أرضا ضمنته بقاعها ... به فاقت العرش العظيم بقاعهـا

وبعد هذا البكاء المر يقبل على خلفائه يعزيهم :

عزاء إلى الصديق نائبه الذى ... به الملة الغراء شد إنتصابهـا

عزاء إلى الفاروق من كان دأبه ... لدى نعم الدنيا الغرور إجتنابهـا

عزاء إلى الكرار ذا الناصر الذى ... لديه يهاب الباترات ذبابهـا

ثم يعزى آل المهدى ويتمنى من الله أن يلحقه به فى دار النعيم ، ليذهب ما فى قلبه من حسرة وألم ، ويختم شعره بتحية لضريحه :

عزاء إلى الآل الكرام أولى التقى ... على الله هاتيك الرزايا احتسابها

وألحقنا المهدى فى جنة العلى ... ليذهب عن هذى القلوب إكتئابها

ألا بلغوا عنا ضريح أبى الهدى ... تحايا إلى الله الكريم احتسابها(١)

(١) نفثات اليراع من ٩٤ — ٩٥ .

الهجـــــــاء

الهجاء قليل جداً ، وقد بينت السبب فى صدر هذا الحديث الذى يدور حول الشعر، وخلاصته أن العلماء لم يجدوا من الدوافع مايشجعهم على الاستمرار فى حرب المهدى ، وأن إنتصاره على جيش الحكومة جعلهم يفكرون فى عاقبة أمرهم، وأزيد هنا أن الرجل كان موقرا لدى أنصاره وخصومه ، لذلك لم يصل إلينا من الهجاء إلا القصيدة التى هجاه بها أستاذه السابق الشيخ محمد شريف، وإلا الأبيات التى هجا بها الشيخ حسين عمال المهدى. أما قصيدة محمد شريف فقد مرت بنا مجزأة فى مناسبات اقتضت ذكر شىء منها ، والقصيدة ذات شقين ، صدرها مدح يبدأ من قوله :

لقد جاءنى فى عام « زع » لموضع ... على جبل السلطان فى شاطىء البحر

وينتهى بقوله :

وكان لدينا عيشه صدقاتنا ... وخادمنا عشرين عاما من العمر

وعجز هجاء، ولم يكن المديح كما قلت مراما لذاته وإنما هو تمهيد لبيان عظم المأساة وسوء المنقلب كما يرى الشاعر، وقلت أيضاً إن الرجل كان متحاملا على المهدى لما بينهما من عداوة وبغضاء جاءت بعد مودة وصفاء. والقصيدة كما رأينا ضعيفة النسج واهية النظم ، لكنها على ضعفها مؤلمة شديدة الإيلام لأنها صادرة عن شيخه الذى وصله بالغيب وعن طريقه فتح عليه وجلس فى الحضرات ، وعن طريقه « سقى من منهل القوم شربة » ، بها كان محبوبا لدى الناس فى البر ، ومن الغيب جاءت مهديته ، فهى أنكى من رسائل العلماء الذين يستطيع أن يقول فيهم ما يشاء ويسميهم علماء السوء ، لأنهم محجوبون بحب الدنيا ومشايعة الترك الكفار عن مشاهدة الغيب الذى صدر عنه ، فليس لهم مجال سوى بطون الكتب التى حكم بإحراقها لأنها فاسدة :

ومن أين للمحجوب حتى يخوض في ... حقائق أسرار بدت من سنى البدر

كما قال أحد أتباعه :

أما الشيخ محمد شريف فقد أتى الرجل من مأمنه الذى كان يعتصم به فى محاجة العلماء ، يعتصم به عندما تبلغ حجتهم موطن الإقناع أو موطن الإفحـــام .

ومن أشد أبياتها نكاية وإيلاما الأبيات التى يقرر فيها الشيخ أنه هدى تلميذه التجدين ، ونصح له بأن دعوى المهدية مرحلة من مراحل السلوك عند رجال التصوف ، ومدرجة من مدارج الطريق التى ينبغى أن يتجاوزها المريد وهو غير مفتون ولا مصغ لوسوسة الشياطين ، وفهم ما قاله الشيخ فهم الأذكياء ، ولكنه مضى فى طريقه مصحوباً بشيطانين مدفوعا بما يمليانه عليه ، لأن حب الرئاسة والسيطرة غلب عليه فأضله الطريق :

إلى الخمس والتسعين[1] أدركه القضا

على ما مضى فى سابق العـــلم بالشر

بصحبة شيطان من الجن يائس ... وشيطان أنس ساعداه على الضر

فقال أنا الهدى قلت له استقم ... فهذا مقام فى الطريق لمن يدرى

وقلت له دع مـــا نويت فإنه ... وتالله شر قد يجر إلى الخسر

وقال له الشيطان بشر ولا تخف ... فإنك منصور على البر والبحر

وقد فهم القولين فهم أولى النهى ... ومال إلى حب الرياسة والجبر

ويرى الأستاذ عبده بدوى أن الأبيات التى نظمها الشيخ محمد شريف فى ذم الحكومة التركية جزء من هذه القصيدة :

وما أبت السودان حكم حكومة ... حتى أتى ضعف المطاليب فى مصر

فكل الثلث والثلثين للمرى وحده ... وللشيخ والنظار أضعافه قادر

(١) عام ١٢٩٥ ﻫ .

بضرب شديد ثم كنف مؤلم ومن بعده الإلقاء في الشمس والحر
وأوتاد ذي الأوتاد من بعض فعلهم وأشنع من ذا كله عمل الحر

يرى ذلك مع تسليمه بأن الحكمدار عبد القادر باشا حلمي هو الذي أوعز إلى الشاعر أن ينظم القصيدة تضامناً مع الحكومة في حرب المهدي[1] . وعندي أن هذا لا يستقيم ، لأن الغرض من نظم القصيدة محاربة المهدي ونقض دعواه، ومساندة الحكومة والأخذ بيدها في مكافحته. فكيف يسوغ للشاعر أن يذم الحكومة التي يناصرها أشنع الذم في هذا الموطن ؟ ! ، وما موقف الحكمدار الذي أغراه بنظمها ، أيقبلها ويحتفل بها وهي على هذه الصورة؟ ! ، إن دخول هذه الأبيات في القصيدة يفسدها إفساداً تاماً ، ويجعل لثورة المهدي ما يبررها ، سواء أكان صادقاً في دعواه أو لم يكن .

هذه الأبيات وإن كانت من بحر القصيدة وقافيتها ليست منها ، ورأي أن الشاعر نظمها قبل أن ينظم القصيدة ، نظمها في حال كان غاضباً فيها على الحكومة ، وقد عرفنا أن الحكومة التركية كان من دأبها أنها أهملت معظم مشايخ الطرق ، وعرفنا أيضاً أن الأمر في هذه الحكومة كان يخضع لشخصية الحكمدار وسلوكه، فتعاون محمد شريف مع الحكمدار عبد القادر ليس برهانا على أنه كان متعاوناً مع أسلافه ، وأول راو لهذه الأبيات هو المؤرخ نعوم شقير ، ولم يضمها إلى القصيدة لعلمه أن ضمها إليها خلط لا مسوغ له .

أما الأبيات التي هجا بها الشيخ الحسين ولاة المهدي فقد كانت جزءاً من قصيدة مدح هي قصيدته التي مطلعها :

برح الخفا ما الحق فيه خفاء وتوالت الآيات والأنباء

(١) الشعر الحديث في السودان — عبده بدوي — ص ٢٧٠ — ٢٧٨ .

نعتهم فيها بالجهل واللؤم والظلم ، وبأن ظلمهم أمات الدين الذى ظهر المهدى لإحيائه ، وبذل ما بذل لنصرته ، وقضى على أهل الدين فهم أحياء كالأموات ، فالأرض لم تملأ عدلا وخيراً ، بل ملئت جوراً وفساداً ، فهو حين ولى هؤلاء الجهلاء الظلمة ، وأبعد العلماء ، أهل الرأى والفضل ، نقض ما أبرم وأفسد ما أراد أن يصلح ، وأمات ما دأب فى حياته إذن فعليه أن ينتزع السلطان من أيدى هؤلاء الذين ليسو أكفاء له ، ويرده إلى أهله من العلماء إذا أراد أن تكون لدعوته ثمرة ولكفاحه غاية. فالهجاء لم يقتصر على الولاة وحدهم ، فقد مس المهدى نفسه مساً لا هوادة فيه ولا بقيا :

جهل الولاة أمات دين محمـــد	وأهيله ماتوا وهم أحياء
وتراكمت ظلماتهم بين الورى	لما اطمأن لهم ودام ولاء
فتناولته من اللئام وأعطه	صنف الكرام فأهله العلماء

مدح الخلفاء وبعض القواد :

قدمت مدحة مدح بها الخليفة عبد الله التعايشى قبل أن يأتى أبان ذكرها ، لأكشف عن معدن القصيدة التى رثى بها الشيخ ابراهيم شريف الدولابى المهدى ، ولولا ذلك لكان موضع ذكرها هنا ، وقد رأينا — إن صح إحساسى — أن وصف القبة والثناء على المهدى ولم يكن سوى مقدمة لمدح الخليفة عبد الله .

والآن تتمة لما نظم فى المهدية فى طورها الأول من شعر ، أقدم بعض النماذج :

مدح محمد أحمد هاشم خلفاء المهدى ، وتجاوز الخلفاء السودانيين فمدح السنوسى الذى عرضت عليه الخلافة فأباها . يقول فى الخليفة عبد الله أنه على القدر رفيع المكانة ، قد أخاف الفجار ، وشيد المهدية الكبرى بسيفه

وإنه هاد كالقمر فى الليلة الظلماء ، إنه رحا المعارف ومنارها ، وأحكامه هى أحكام الله ورسوله ، ويكفيه شرفا أن المهدى نوه به فى منشوراته :

فخليفة الصديق عبد الله نجـ ـل فى العـلى قـــد طارا
من شيد المهدية الكبرى لنـا بالسيف حتى أرهب الفجارا
قمر الهداية والولاية قطبهـا ورحا المعارف رفعة ومنارا
أحكامه أحكام خالقه جرت ورسوله من فتـق الأسرار[١]

هذا الشعر ينسج ثوبا فضفاضا غير مطابق لقامة الخليفة عبد الله ، كما ستعلم من تاريخ حياته ، فهو ليس من العلماء حتى يكون « رحا المعارف » ورحا المعارف نابية جافية بغض النظر عن علم الخليفة أو جهله .

ويقول فى الخليفة على ود حلو الخليفة الثانى ، إنه ورع حلو الشمائل متواضع دأبه العبادة ، مراقب لله يبتغى ما عنده ، وأن قبيلته دغيم شرفت به وعلا شأنها :

ورع تقى فاضل متفضـــل حسن شمائله علت مقـدارا
متورع جعل العبادة ديدنـا والخوف سلمه يروم الدارا
متهجد يتلو الكتاب بخشية ومراقب لله يبغى جـوارا
وبه دغيم زاد فضل جمالهـا حتى علت فوق العلى أطوارا[٢]

الشعر هو الشعر ، ولكن المبالغة قليلة فهو إلى الصدق أقرب . ويصف الخليفة شريف هو خليفة الكرار بالشجاعــــة وشدة البأس وبأنه فاضل كامل ممدح :

أسد جرىء فى الحروب مظفر ومجندل أعداءه الكفارا
فاكرم به من فاضل ومكمل فى مدحه قد ألفت أسفارا

---

(١) المخطوطة ص ٤٢٣ — ٤٢٤ .

(٢) المخطوطة ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

وإذا علا خيلا تردد فوقها من ثقله لن تكمل الضمار[1]

والبيت الأخير على غرابته الناجمة من استعمال « خيل » مكان فرس أو حصان ذم لا مدح فى معجم الفروسية ، فالفارس لا يوصف بأنه ثقيل على ظهر الفرس ، ولذلك قال شاعر يذم قوما بأنهم :

لم يركبوا الخيل إلا بعدما كبروا فهم ثقال على أكتافها عنف

أما قول امرىء القيس :

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنف المثقل

فقد أراد به أن يبين قوة الفرس وسرعته ، ولم يرد كما أراد الشاعر هنا أن يتحدث عن براعة الفارس وفروسيته ، والبيت الثانى فيه لحن « ألفت أسفارا » .

والشيخ محمد عمر البنا يمدح القائد العظيم عثمان دقنة وأصحابه فى شرق السودان ، فيقول إنهم حموا ثغرهم وذادوا عن حياض الدين ، وأذاقوا أعداءهم الكفار الموت الزؤام بسيوفهم ، وبما أمدهم الله به من الملائكة ، لقد كانوا يشتاقون إلى الطعان كما يشتاق الحبيب إلى لقاء الحبيب :

عثمان دقنة من رقى أوج العلى بفخاره والطاهر المجذوب
ومحمد بن الطاهر المجذوب خـ ـل نجابة وابن النجيب نجيب
وحماة ذاك الثغر أجمعهم فهم شم الثوابت إن ألم خطوب
والدين أصبح ضاحكا فى ثغرهم والشرك حل بربعه التخريب
ما شوقهم أبدا لطعنة فارس إلا كشوق العاشقين يصيب
إن نوزلوا كانوا الليوث معاركا أو غلبوا فعدوهم مغلوب

---

(١) المخطوطة ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

ثم يفرد عثمان دقنة بالمدح فيصفه بالفروسية والشجاعة والحلم والتقوى ونشر الأمن فى تلك الربوع ، وبأنه مجدود صارت صروف الدهر جندا فى جيشه تحارب معه :

وأميرهم عثمان أهلك ملة عدمَ النصير صريخها المكروب
إن صال فالفرسان تحجم دونه فرق الهلاك وللسنان لغوب
أو جال فى الميدان تحسب أنه أسد تفرس والرجال تثوب
فالحلم فيه سجية مغروسه أما لدى حرم الإله غضوب
وأفاد ثغر سواكن أمنا وأ يمانا ويمنا ليس فيه عزوب
قد ساعدته يد النوائب فانثنت خذلانة بوداده وتطيب
وغدت تنازل دونه أعداءه قد كثرت منها لهن نيوب[1]

وكنت أنتظر من الشاعر أن يصف هذا القائد البارع بحسن القيادة وسعة الحيلة فى إدارة المعارك وشن الغارات ، وتلك أبرز صفاته ، ولكنه لم يفعل ، واكتفى بهذه الصفات التى يسبغونها على كل من أرادوا مدحه. وفى بعض قوافى هذا الشعر وهن مثل « تصيب » فى قوله :

ما شوقهم دوما لطعنة فارس إلا كشوق العاشقين يصيب

فهى ضعيفة لا تؤدى ما أراد الشاعر أداء قويا ، ولو قال «الا كشوق الحب للمحبوب» أو ما شاكل ذلك من ألوان النظم لأدى هذا المعنى الجيد أداء يناسبه ، وكذلك «وتطيب» فهى أشبه بالفصول فقد أتم معناه قبل أن يصل إليها ،وخذلانة أراها محرفة وصحتها جذلانة ، وهى ليست فصيحة والفصيحة جذلى ، وفى البيت الأخير حمله ضرورة الوزن فوضع الضمير «هن» مكان «هم»لأن ذلك راجع إلى الأعداء .«وأسد تفرس والرجال تثوب» نظم ردىء لمعنى جيد .

(١) شعراء السودان ص ٢٨٠ .

نظرة عامة

هذا الشعر الذى نظم فى ثورة المهدى فيه القوى وفيه الضعف ، منه الصادق ومنه المتكلف ؛ وفيه نماذج ناضجة كما رأينا فى شعر الشيخ محمد عمر البنا والشيخ محمد طاهر المجذوب وما سلم من الغموض والتكلف من شعر الشيخ الحسين بن الزهراء ، وأنا لا أحب أن أصف قصيدة البنا:

الحرب صبر واللقاء ثبات   والموت فى شأن الإله حياة

بأنها من طراز المعلقات كما قال الدكتور جمال الدين الرمادى « وهى قصيدة سارت بها الركبان ودارت بها الألسنة فى كل مكان،واعتبرها بعض النقاد فى السودان فى شهرة المعلقات . . . ويزعم أن هذه القصيدة تقل فى عدد أبياتها عن المعلقة الا أنها تحمل طابع المعلقة فى وصف البطولة والبسالة والاقدام والتعرض للمواقع الحربية ، فان القارىء لهذه القصيدة يسمع بين أبياتها قعقعة السلاح ورنين السيوف وصهيل الخيل وطلقات الرصاص، وتلوح بين عينيه صور البطولة صادقة معبرة مثيرة مؤثرة(١) » .

وأنا لا أعرف من هم هؤلاء النقاد الذى شبهوا القصيدة بالمعلقة مع معرفتى بمن مارسوا كتابة النقد فى السودان ، ولا أرى مايسوغ تشبيه هذه القصيدة بالمعلقات لا فى ألفاظها ولا فى معانيها ، فهى قصيدة إسلامية لحا ودما ولا أريد بهذا الوصف أصطلاحا معينا ، وإنما أردت أن أقول إنها من جنس الشعر الذى عرفه الشعراء المسلمون منذ عهد حسان إلى يومنا هذا ، شعر المعارك الذى تمزج فيه البطولة بالحماسة الدينية . فنحن واجدون فى هذه القصيدة آثارا شتى تبعد بها عن النهج الجاهلى ، نجد أنها متأثرة بالقرآن الكريم من ذلك قوله :

---

(١) دراسات فى الادب السودانى ص ١٥ .

في السلم تلقاهم ركوعا سجدا   أثر السجود عليهم وسمات
وتخالهم يوم الجلاد ضراغما   أسد وأسل رماحهم غابات

فهو في أكثر أجزائه مقتبس من قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم على وجوههم من أثر السجود(١) » .

وقوله :

فأثرن نقع الموت في عرصاتهم   وأغرن صبحا إذ علت أصوات

مقتبس أيضا من قوله : « فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا(٢) »

وفيها أثر السيرة النبوية ، حيث يدعو الشاعر الأنصار أن يفعلوا بحصن الخرطوم ما فعله الصحابة بحصون خيبر :

فتسوروا لهم الخنادق وافعلوا   فعل الصحابة أذ أتت غزوات
فتحوا حصون الخيبريين التي   زعموا بأن حروبهم هلكات
صدقوا فإن الحرب أسقت مرحبا   موتا وما علت لهم سطوات

ونجد في القصيدة أثر الثقافة الفقهية :

إن الجهاد فضيلة مرضية   شهدت بمحكم أمرها الآيات

ونجد بعد ذلك آثار بعض الشعراء العباسيين ، وخاصة قصيدة أبي تمام في فتح عموريه مثل :

السيف أصدق أنباء من الكتب
السيف أصدق ناصح في حقهم
سماجة غنيت منا العيون بها   عن كل حسن بدا أو منظر عجب
فنكاية الأعداء أحلى من غنا   ق خريدة لعبت بها نشوات
فتح تفتح أبواب السماء له   وتبرز الأرض في أثوابها القشب

---

(١) سورة الفتح ـ الآية ـ ٢٩ .
(٢) العاديات الآية ٣ و ٤ .

فتحت لكم فتحا مبينا واضحا   سرت به الأرضون والسموات

فالقصيدة إسلامية فى روحها وأسلوبها ومعانيها ولا صلة لها بالمعلقات ، وليس من سمات القصيدة الجاهلية وحدها ، أن القارىء يكاد يسمع بين أبياتها قعقعة السلاح ورنين السيوف وصهيل الخيل . . . ، فشعر المتنبى الحماسى يستطيع أن يفعل بالقارىء مثل هذا وأكثر من هذا ، ولا سيما قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

ليالى بعد الظاعنين شكول   طوال وليل العاشقين طويل

أما طلقات الرصاص التى أراد الكاتب أن يجعلها سمة مشتركة بين هذه القصيدة وبين المعلقة وإن كنت لا أدرى أية معلقة يعنى ، فإن قصيدة الشيخ البنا لا تسمعنا إياها ، فقوام الحرب التى صورها الخيل والسيوف والرماح والدروع ، بله المعلقة وهى قصيدة جاهلية لا يعرف ناظمها الرصاص .

على أن هذه القصيدة لو كان طابعها طابع المعلقة لكانت كاذبة ، ولكانت بعيدة كل البعد عن الجو الذى ولدت فيه .

وينبغى الا يكون ما قدمت فى الرد على الدكتور جمال الدين الرمادى تهوينا من شأن القصيدة ، فهى خطوة واسعة فى تطور الشعر السودانى ، أما التأثر بالقرآن فقد قلت إن القرآن منهل للأدباء فى كل زمان ومكان ، وكذلك ينبغى أن تكون السيرة ، أما التأثر بالشعراء الأقدمين فله دلالة خطيرة ، هى أن الثقافة التى ألم بها الشعراء فى فترة الحكم التركى كان لها أثرها ، الذى ينبىء بأنهم قرأوا دواوين القدماء وكتبهم قراءة تمعن وتذوق ، مما جعل المجيدين منهم يتخلصون إلى حد كبير من أساليب الشعر الركيك ، الذى قدمته عصور الضعف ومعانيه الهزيلة ، وان كان اطلاع السودانيين العلماء على تراث العرب ليس أمرا طارئا ، فقد رأينا شيئا من هذا فى عهد سنار .

وقد ذهل الأستاذ عبده بدوى عن هذا حين قال « أما النماذج الأدبية التي عرفها السودان في هذه الفترة فقد كانت نماذج منطفئة من الشعر المملوكي والعثماني[1] » لا ، إنه عرف الموقدة أيضا .

رأينا أن الشعر في هذه الفترة ذو ألوان . وإن كان كله يدور حول المهدية تأييدا وتفنيدا ، وهناك سمات مشتركة بين القوى منه والضعيف ، أريد أن أبحث عنها في هذه النظرة الشاملة . وأبرز هذه السمات أنه شعر له غاية ، فهو في معظمه يرمى إلى تصوير المهدية ونصرتها في مجالها الغيبي ومجالها الواقع المحسوس ، أرى هذا ولكني لا أذهب إلى المدى الذى ذهب إليه الدكتور محمد إبراهيم الشوش ، حيث قال : « انتزعت الثورة المهدية هؤلاء العلماء الشعراء من تهويماتهم . . . ووجهت انتاجهم وجهة تتصل بحياة الناس ، وأدخلت فيه الحماس والتغنى بالبطولة والشجاعة . . . بيد أن هذه الثورة قد أثارت الحمية والحماس في نفوس العامة وانتشلتهم من وهدة الغيبيات والاتكال والأوهام المرضية والبطولات الوهمية[2] » .

لا أراني مستطيعاً أن أصل إلى هذا المدى ، لأننا إذا استثنينا الشعر الذى يصف المعارك والفتوح ، والشعر الذى وصف صفات المهدى وصفا تقليديا ، كنعته بالشجاعة والكرم والحلم ، والشعر الذى مدح به الخلفاء وبعض القواد . إذا استثنينا هذا فإنا لا نحصل على شعر مختلف في روحه وأجوائه عن الشعر الذى رأيناه في عهد سنار . إنه « المناخ الفكرى والعاطفى » نفسه ، انطلاق في مجاهل الغيب والمشاهدات والحضرات ، وقد رأينا أن أن هذا الشعر ساند المهدى في مجاله الغيبي ومجاله المحسوس ، وضربت على ذلك الأمثلة وسقت الشواهد .

---

(١) عبدة بدوى ص ٣٠٥ .

(٢) الشوش ص ٣٠ .

والمعارك الواقعية المحسوسة التي خاضتها جيوش المهدى، إن هي في الحقيقة إلا مظهر مادى لفكرة غيبية ، هي المهدية نفسها . فما الغاية منها؟

أرانى قد أجبت عن هذا السؤال في مواطن من هذا البحث، إنه جواب واحد وكل جواب غيره يبعد بعدا شاسعا عن جوهر المهدية وأهدافها ، ذلك أن المهدى يعتقد أن الله أعطاه الخلافة الكبرى ووعده بملك الأرض ليملأها عدلا مثلما ملئت جورا ، وجنوده من الأنصار في السودان هم نواة جيشه الكبير الذي سيتجمع ويزيد عدده كلما فتح مصراً من الأمصار الإسلامية ، وبذلك يستطيع أن يغزو أنحاء الأرض جميعا ، ويقضى على الكفر والفساد ويجمع الناس على دين واحد هو الإسلام المفرغ في قالب المهدية .

وهذه المعارك الواقعة المحسوسة لم يتم له فيها النصر بسيوف الأنصار وحدهم ، بل معهم جيش أشد منهم بأسا وأصلب شكيمة ، معهم جيش غيبى ماثل على رأسه النبى (ص) وفيه خلفاؤه والخضر وعزرائيل ملك الموت يحمل الراية التي تلقى الرعب في نفوس أعدائه والسكينة في قلوب أوليائه . وفيه الأولياء الأحياء منهم والأموات من عهد آدم إلى عهد المهدى ، وفيه المؤمنون من الجن ، وقد صور الشعر هذا كله كما رأينا .

إذن نستطيع أن نقول إن هذا الشعر أو قسما كبيرا منه لم ينزل إلى الأرض ولم يجانب التهويمات الغيبية .

وخلاصة القول : أنى أوافق الدكتور الشوش على أن هذا الشعر قد رفدته المهدية بعنصر الحماسة والتغنى بالبطولة والشجاعة ، وأثار الحمية في نفوس الذين يفهمونه ، ودعاهم إلى ترك الاتكال ، وتحول جزء منه إلى وصف الغارات الواقعة وان كان أساسها غيبى . وإلى هنا أقف ولا أذهب معه إلى قوله «وانتشالهم من وهدة الغيباب والأوهام المريضة والبطولات الوهمية».

لم أطل وأكرر بعض الآراء حبا فى كثرة القول ، ولكن أردت أن أحدد معالم هذا الشعر تحديدا دقيقا أو قريبا من الدقة .

ومن سمات هذا الشعر أنه يمتاز بعنصر الخيال ،كما رأينا فى شعر الحسين ابن الزهراء حين جعل الكون يحتفى بظهور المهدى ، وفى شعر محمد عمر البنا فى وصف المعارك ، وفى شعر إسماعيل عبد القادر حيث وصف قبة المهدى ، هذا الخيال عنصر إذا استثنينا مطلع قصيدة محمد أحمد هاشم التى مدح بها الخديوى — طاع لنا أن نقول إنه جديد وإن الشعر السودانى لم يكن يعرفه ، أما شطحات المتصوفة فهى ضرب آخر ، ليس فيه شىء من تحريك المظاهر الكونية وجمع المواد المختلفة لبناء الصور الشعرية ، وهى على أية حال ليست مما نحن فيه .

ومن سمات هذا الشعر أن بعض نماذجه مفعم بالعاطفة الحارة، وبخاصة بعض ذلك الشعر الذى نظم فى رثاء المهدى .

وفى الحديث عن قصيدة الشيخ محمد عمر البنا .

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت فى شأن الإله حياة

رأينا أن الشاعر كان متأثرا بثقافته الدينية والأدبية ، تلك الثقافة التى تلقاها العلماء الشعراء فى العهد التركى من الكتب التى أشاد بها الشيخ الضرير وغيرها ، ومن الاتصال بعلماء أجلاء من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى ، ولم يكن الشيخ البنا نسيج وحده فى هذا ، فالشيخ الحسين قد تأثر بدراساته الفلسفية الصوفية ، تأثرا يذهب به أحيانا إلى الغموض، انظر إليه كيف يدس وصف النفس فى قصيدة مدح بها المهدى :

كم ارتعى من روض دانية الجنى ثمر الرضا تدنيه لى وجناء[1]

---

(١) شعراء السودان ص ١٠ .

طارحتها تحف الحديث فنوعت   تحف الملام وهاجها ادلاء
وإذا نسيمات الصبا دعت الصبا   لوصالها تنفصل الأعضاء
ترتاع إن هتفت بها من كوة   سحرا لتجديد السلام رتفاء
عاش ابن سينا جهده أوصافها   بشفائه[1] فإذا بها العنقاء
دقت ورقت وارتقت فى سكرة   بلمى شفاه دونه الصهباء
كيف التواصل والقوى نهت السرى   إذ مسها من ضعفها الإعياء
فتنزلت حاجاتها فى سوح من   بحمولهم تتنزل الضعفاء

ويمض هكذا فى صوره الغامضة حتى لا تعرف الموصوف أهو النفس التى عزت معرفتها على ابن سينا أم هو الناقة الوجناء التى أدنت منه ثمر الرضا ؟ . إلى أن قال :

حتى بالطاف المهيمن مكنت   أغراضها منها يد بيضاء
وغدا بها متصرفا فى أهله   يعطى ويمنع من يرى ويشاء

ولعله أراد أن يقول إن النفس كانت حائرة ضالة عزّ فهمها على ابن سينا وغيره من الفلاسفة ، وأنها ماتزال تجاهد والقوى المادية تحول بينها وبين غاياتها الروحية السامية ، حتى لطف الله فوصلها بالمهدى فبلغها ماتريد. أقول ، لعله ، لأن هذا الشعر لا يطاوع للقارىء أن يجزم بشىء .

والشاعر أحمد بن حُميِّدة يستعمل المصطلح الفلسفى ، الهيولى ، بدلا من «الأصل» :

هيولى كمالات المكارم والتقى   وميزاب أسرار وللرشد منبع[2]

---

(١) الشفاء كتاب من كتب ابن سينا الفيلسوف المشهور.
(٢) المخطوطة ص ١٩٤ .

وكان لثقافتهم أثر في اساليبهم فظهر فيها ما يسميه الأدباء أسلوب الفقهاء، وإن كان هو في الحقيقة أسلوب مشترك بين الفقهاء والمتكلمين والنحاة وغيرهم من علماء الدين والعربية، سادفي فترات معينة من تاريخ الثقافة العربية الإسلامية . من ذلك قول الحسين :

لم لا وأملاك السماوات العلى   في جيش مهدي الورى أجناد(١)

وقوله :

ألا ليت ذاك السبر لم يك حاصلا(٢)

وقول الشيخ البنا .

فالفخر" فخركم وفخر سواكم   محض ادعاء ما له إثبات(٣)

وقول الشيخ عبد الغني السلاوي :

هلا رأيتم موجبات الصدق فيما   يدعى أو ليس فيه خفاء(٤)

وكما وجدنا أثر أبي تمام في شعر الشيخ البنا ، وجدنا من قبل الشيخ الحسين يسير على نهج الكميت في الدخول على الممدوح ، ورأيناه يحاول نظم بعض أبيات المتنبي في صورة جديدة وإن لم يوفق .

وأغلب معاني هـذا الشعر محصورة في نطاق المهدية تأييداً لمعتقدات المهدي وتصوراته الغيبية، ووصفاً لغزواته وفتوحاته، وذماً لأعدائه وإشادة بأوليائه وحسرة على موته. وما هجى به تنصب معانيه على تكذيب دعواه، وأنه مفتون ، وعلى أنه حرم ما هو مباح وأباح ما هو محرم في الدين . والمعاني التي هجى بها ولاته هي الجهل واللؤم وعداوة العلماء واقصاؤهم عن الصدارة وإدارة الشئون ، وبذلك أماتوا الدين وأماتوا أهله، والمعاني

---

(١) شعراء السودان ص ١٤ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٧٦
(٣) المصدر نفسه ص ١٧
(٤) نفثات اليراع ص ٨١ .

التي ذم بها خصومه هي أنهم كفار وأهل فساد ، والعلماء الذين ناصروهم قد ضلوا سبيل الرشد فهم ممن أضله الله على علم ، وليس فى مقدورهم أن يحكموا على المهدية لأنها من عالم الغيب وهم محجوبون ، وسجعهم الركيك الذى دبجوا به رسائلهم لم يقم على منطق وحجة . وهـذه المعانى ليس فيها ابتكار إذا قيست بالشعر العربى بصورة عامة ، أما إذا قسناها بالشعر الذى نظم فى عهد سنار والعهد التركى - وهذا هو سبيلنا - فإن فيها ما هو جديد رائع ، وقد مرت بنا أمثلة من شعر الشيخ محمد عمر البنا وشعر الحسين بن الزهراء وشعر الشيخ محمد طاهر المجذوب .

وألفاظ هذا الشعر تتراوح بين الجزالة والضعف والصفاء والجود بحسب قوة الشاعر أو ضعفه ، ولكن معجمهم الشعرى على وجه العموم أوسع وأكثر ثروة من معجم الشعراء الذين سبقوهم ، وقد لاحظت فى أثناء الدراسة أن بعضهم يستعمل « أصلا » و « أبدا » مثلما تستعمل فى اللهجة السودانية ومنهم من لا يتورعون عن استعمال الألفاظ الدارجة ، ومن ذلك قول الشيخ الحسين :

وعانيت فيها كل صعب وساهل فما شرحت تلك المعاناة لى صدرا(١)

فقد استعمل ساهل مكان سهل

والشيخ عثمان الحلاوى يستعمل صيغة المبالغة الشائعة فى السودان « الحسين » المأخوذة من الحسن .

بالفأل والحال الحسين يذبنا

عن الغى والأدناس والرجس والنكر(٢)

ومر بنا أن الشاعر محمد أحمد هاشم استعمل « كبوس » مكان رماح .

(١) شعراء السودان ص ١٨ .

(٢) المخطوطة ص ٤٦٠

ونراهم يكثرون من قصر الممدود، وهو وإن كان ضرورة جائزة إلا أنه ليس من دلائل البراعة فى النظم ، من ذلك قول الشاعر محمد عمر البنا :

والحور تنتظر اللقا فرحاً بهم(١)

وقوله :

وبردنى من حالة العقلا إلى حال الخبال تذللى وإباك(٢)

ومن ذلك قول الشيخ عبد الغنى السلاوى :(٣)

وسمت بهم فوق السما علياء

وأكثر الشعراء ارتكابا لهذه الضرورة الشيخ الحسين، ففى قصيدة واحدة قصر الممدود ست مرات :

برح الخفا ما الحق فيه خفاء (٤)

انعم بأمر جاء من جد القضا

رسم ترقرق بالسنا فله الهنا

فغدا بها يختال فى حلل البها

عبر تجل على قلوب ذوى الذكا

أما أغلب الشعر الذى حوته المخطوطة فيكاد يكون الأصل فيه قصر الممدود ، والضرورة تركه على حاله ، وفى شعرهم مد المقصود ولكنه لم يبلغ من الكثرة ما بلغه قصر الممدود .

---

(١) شعراء السودان ص ٢٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨١ .

(٣) فتات اليراع ص ٨٠

(٤) شعراء السودان ص ٧ — ١٣ .

ولم يكثر المجيدون منهم من استعمال المحسنات اللفظية ، ولكن القارىء يعثر أحياناً على شىء منها كالطباق فى قول الشيخ البنا :

فالحلم منه سجية مغروسة   أما لدى حرم الإله غضوب[1]

وفى قوله :

فلطالما عين الشريعة أسهرت   ذلا وذرف دمعها المصبوب
فأنامها عثمان وانكشفت به   أهوال حرب للصغير تشيب

وأحياناً يأتى بالطباق مع التورية :

والدين أصبح ضاحكا فى ثغرهم   والشرك حل بربعه التخريب

ويلمون بالترصيع وهو حسن ما لم يكثر إذ هو « ضرب من الإيقاع الصوتى والإنسجام الموسيقى[2] » من ذلك قول الشيخ محمد عمر البنا :

فسيوفهم مسلولة ورماحهم   مسنونة وعدوهم مرعوب[3]

وقول الشيخ السلاوى :

فالمجد فيه مؤثل والفضل مـ   ـنه مؤمل والناس فيه سواء[4]

وقول الشيخ الحسين :

عماد الهدى أمن الجدى معدم العدا   بدا وإليه الناس فى الأرض خضع[5]

وقد لاحظ[6] الدكتور عبد المجيد عابدين أن الشيخ الحسين بوجه عام

---

(١) شعراء السودان ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .
(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى الحوفى ص ٦٧٠ .
(٣) شعراء السودان ص ٢٧٩ .
(٤) نفثات اليراع ص ٨٢ .
(٥) شعراء السودان ص ١٥ .
(٦) تاريخ الثقافة ص ٢٠٤ .

لايحفل بالمحسنات اللفظية ، فقد استعاض عنها بالموسيقى اللفظية التي تقوم على تكرار اللفظة مثل قوله :

برح الخفا ما ألحق فيه خفاء ... وتوالت الآيات والأنباء

وقوله :

علماء أمـــة أحمد ناشدتكم ... ردوا جوابي إنكم علماء

وقوله :

أهاجك برق بالأباطح يلمع ... لها فيه ما شاء السراب الملمع
أم البرق من شعر العقيق ولعلع ... فهاجك يا هذا العقيق ولعلع

وقد رأيناه يطابق ، ووجدته لا يأبى الجناس من ذلك قوله :

ما حالهم ما بالهم لم يسمعوا ... نفسي لهم مما يشين فداء[1]
من يحفظ الأخبار من أهل النهى ... وتعين ذلك فطنة وذكاء
وتخط خط النار تعرف حظ من ... ع الهدى لمـــا نهاه شقاء[2]

وأحياناً يتورط فيه ويأتي منه بلون يؤدي إلى تنافر الأصوات :

نهاية أعقال العقول معاقل[3] .

والأسلوب الشعري الذي عالجوا به موضوعاتهم هو التصوير أو التقرير والسرد ، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من هذين النوعين . أما أسلوب الجدل وإقامة البرهان فهو نادر في شعرهم ، ومن أمثلته قول الشيخ محمد شريف :

فقال أنا المهدي قلت له استقم ... فهذا مقام في الطريق لمن يدري
وخادعني في القول كالمهد أبنكم ... ومحسوبكم في الحب في عالم الذر

---

(١) شعراء السودان ص ٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢ .
(٣) شعراء السودان ص ١٧ .

فقم بي لنصر الدين نقتل من عصى　　　فأنت لك الكرسي ولي دولة الفخر
فقلت له دع ما نويت فإنه　　　وتالله شر قد يجر إلى الخسر
وقال له الشيطان بشر ولا تخف　　　فإنك منصور على البر والبحر

وقول محمد أبي الحسن في الرد على العلماء الذين كتبوا الرسائل في تنفيد دعوى المهدي :

وخاطبه خير الأنام مشافها　　　بنصرة دين الله في أمة العصر
فصدق ولا ترتب فهذا زمانه　　　وليس مع الإنذار ينفع من عذر
وأيقن بأن الله خالف عبده　　　ولا تتبع قول الغباوة والمكر
ولا تكترث بالزور منهم فقد أتوا　　　بسجع ركيك لايقرر بالفكر
يقولون ما لا يعلمون وهم على　　　عماء من المكنون عن قاصر السير
ومن أين للمحجوب حتى يخوض في　　　حقائق أسرار بدت من سنى البدر

وقول الحسين بن الزهراء في الرد على هؤلاء العلماء أيضاً :

ما حالهم ما بالهم لم يسمعوا　　　نفسي لهم عمـــا بشين فداء
من يحفظ التنزيل من يدري الذي　　　فيه ومن لم يدر ذاك سواء
من يحفظ الأخبار من أهل النهى　　　وتعين ذلك فطنة وذكاء
ويرد أشكال الأمور لشكلها　　　ولها عليه من الثناء سناء
ويرى القبيح بداية ونهاية　　　ويروم أحسن ما الإله يشاء
مثل الذي في بحر ليل جهـــله　　　داج وأشرق ما يراه مساء
لاوالذي خلق النوى وهدى الورى　　　وله وراء مماته إحياء
علماء أمـــة أحمد ناشدكم　　　ردوا جوابي إنكم علماء
أرضي وترضون الضلال بعيد ما　　　ظهر الهدى وانجاب عنه قذاء
ويخيب ظني فيكم وعشيرتي　　　أنتم وتقمع جمعنا الأعداء

وتكون دون الدون من بين الورى   كلثما يدى إحساننا خرقاء
ردوا على أعيذكم من شامت   لكن أجيدوا فالجواب شفاء

وأنت ترى أن اللهجة فى هذا الأسلوب مختلفة، فبينما نجد الشدة والحدة والعنف فى شعر الشيخ محمد شريف وشعر أبى الحسن ، نجد الرفق واللين فى شعر الحسين ، وقد يكون من الأسباب أن الحسين ليست به موجدة على العلماء ، ولكنه اراد أن يناصر المهدى ويرضيه ، وقد أسلفت أنه لم يكن راضياً عن حاله ولا جذلا بانخراطه فى سلك المهدية ، بل ساخطاً قلقاً محسوراً .

وفى شعر هذه الفترة ظواهر جديدة ، منها :

١ — الصلاة على المهدى . والصلاة وإن كان معناها فى اللغة الدعاء، إلا أنها فى عرف المسلمين صارت خاصة بالنبى (ص) ، ولكن شعراء المهدية لم يتقيدوا بهذا الاصطلاح ، فهم يصلون على المهدى مع الصلاة على النبى وآله ، أو مع النبى دون ذكر الآل . من ذلك قول الشيخ الحسين:

وعلى النبى محمـــد خير الورى   جل الصلاة كذا السلام يراد[1]
ولآله والقائم المهدى مـــا   فتحت بأسياف الرشاد بلاد

ويكثر الشيخ عبد الغنى السلاوى من ذلك ، وكثيراً ما يضطره الوزن إلى أن يحذف الياء المضعفة من المهدى كقوله :

ذكر الصلاة على النبى ومهده   غرضى وذخرى صاح ثم ملاذى[2]

وقوله :

يارب صلى على النبى محمد   والمهد ما طابت به أوقات[3]

---

(١) شعراء السودان ص ١٤ .
(٢) المخطوطة ص ٣٣٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤ .

وأحيانا يفردون المهدى بالصلاة كقول الحسين :

عليه صلاة دون كيف وعدة وأسنى سلام ما تلألأ يلمع(١)

ويصلون على ضريحه :

صلى الإله على ضريح ضمه أزكى صلاة فى المسا وبكور(٢)

ويصلون على عاصمته البقعة ، أم درمان ، :

صلوات الله تغشى بقعة مهد رب الناس فيها دفنا(٣)

ماسر هذا ؟

أرى أنهم لما رأوا المهدى يتشبه بالنبى فى كل شأن من شئونه، ساغ لهم أن يصلوا عليه كما يصلون على النبى ، ومن الجائز أن يكونوا قد تأثروا بالشيعة فى ذلك ، فقد كانوا يصلون على على(٤) ، وفكرة المهدية وثيقة الصلة بمذهب الشيعة كما رأينا ، وهنا مظاهر أخرى تؤيد هذا الفرض ، من ذلك أن الشيعة يقولون بعصمة الإمام كالنبى منذ الصغر وفى جميع أطوار عمره، لايرتكب ذنبا كبيرا ولاصغيرا ولايجوز عليه الخطأ ولاالنسيان(٥). وبعض شعراء المهدى يصفونه بالعصمة :

أسف على المهدى من عهد الصبا قد كان معصوما من المحظور(٦)

وورد فى شعرهم ذكر الجفر .

يا ليت منكره للجفر قد رجعنا ليعرف الحق حقا كيفما نهجا(٧)

---

(١) شعراء السودان ص ١٦ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٩ .
(٣) مخطوطة ص ٣٠٧ .
(٤) انظر مثلا تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن مطبعة عيسى البابى الحلبى ص ٢٢٩ .
(٥) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٢٦ .
(٦) شعراء السودان ص ٢٧ .
(٧) المخطوطة ص ٣٩٤ .

ومن قول الشاعر نفسه :

هيهات كيف ومهدى الله قائله   أنبأ به علم جعفر عندمن نهجا[١]

والجفر كتاب الشيعة يقول ابن خلدون عنه « واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلى وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق ، وفيه علم ما سبق لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص . . . وكان مكتوبا عند جعفر فى جلد ثور صغير فرواه هارون عنه وسماه الجعفر باسم الجلد الذى كتب عليه[٢] » .

(٢) هذه التعزية التى يختمون بها مرثية المهدى ، يوجهونها إلى خلفائه وإلى آل بيته ، عزاء إلى الصديق ، وعزاء إلى الفاروق ، عزاء إلى الكرار . وقد مرت بنا أمثلة لذلك عندما كنت أتحدث عن الرثاء وهذا نموذج :

عزاء إلى الصديق نائبه الذى   به الملة الغراء شد انتصابها
عزاء إلى الفاروق من كان دأبه   لدى نعم الدنيا الغرور اجتنابها
عزاء إلى الكرار ذا الناصر الذى   لديه يهاب الباترات ذبابها
عزاء إلى الآل الكرام أولى التقى   على الله هاتيك الرزايا احتسابها

وأرى أن هذه الطريقة مستقاة من حياتهم ، فمن التقاليد المرعيه فى المآتم ، أن المعزّى يقرأ الفاتحة لروح الميت أو يبكى ، ثم يصافح أقرباءه ومن له به صلة واحدا واحدا .

(٣) افتتاح بعض القصائد بمقدمة غزلية أو خمرية ، أما البداية بالحكم كما جاء فى قصيدة الشيخ محمد عمر البنا :

الحرب صبر واللقاء ثبات   والموت فى شأن الإله حياة

فليست جديدة ، فقد رأينا فى العهد التركى الشيخ الأمين الضرير يبدأ

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٩٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٥ .

قصيدته بالحكمة ، ومن البداية بالغزل قول الشيخ البنا فى قصيدته التى مدح فيها عثمان دقنة وأعوانه . وقد أوردت جانبا منها حين كنت أتحدث عن الشعر الذى مدح به قواد المهدى .

فهو فى هذه المقدمة يصور نفسه عاشقا مفتونا محروما معذبا ، حزنه دائم وطرفه ساهر وملجؤه هو مدمعه ، وكأنه فى هذا البلاء الناصب نبى الله يعقوب ، وقد أحاط به هذا العذاب والنصب لأنه عف طاهر الذيل ، لا يدنس عشقه إثم ولا يحوم حوله ريب . ونحن نعلم أن الأمر فى أغلب الظن فن محض ، وما للعشق فيه نصيب :

ما بال طرفى للدموع سكوب ... شوقا وقلبى للملاح طروب
ولقد فتنت وما ظفرت وربما ... فتن المشوق وفاته المطلوب
أنا فى هوى الغيد الحسان معذب ... وسواى ينعم باله ويطيب
متواصل الأحزان ألجا للبكا ... سهر الجفون كأننى يعقوب
متعفف عن فعل كل دنيئة ... ما رابنى فى عشقهن مريب[1]

والشيخ الحسين يبدأ قصيدته العينية بمقدمة يذكر فيها أسماء البلاد العربية ، فيها شوق وغناء حزين ، وفيها موسيقى صاخبة ، وبعد ذلك لا يستطيع القارىء أن يتبين شيئا ، فليس هنا غانيات يعشقهن ويعف فى عشقه ، وليس هنا بكاء ولا سهر ، بل هنا موت شيء يقع عليه طير المنية ، ويخيل إلى أنه يرمز به إلى أمله الذى أوشك أن يموت ، فالشعر ملفع بضباب الغموض .

أهاجك وصل بالأباطح يلمع ... لها فيه ما شاء السراب الملمع
أم البرق من شطر العقيق ولعلع ... فهاجك يا هذا العقيق ولعلع

(١) شعراء السودان ص ٢٧٨ .

أم الوافع المتبول بين أجادع ... عليه بها طير المنية وقع
فسامرته والليل يلهو بنفسه ... وكل بكل ذى غموم موجع[1]

ومن البدايه بالخمريات قول الشيخ عبد الغنى السلاوى ، ونحوه خمر المتصوفة :

راق الصبوح ورقت الصهباء ... مذ كان فيها للعليل شفاء
ربية نبوية ملكية ... مهدية روحية وسماء
شمسية قمرية ما فض عنها ... ختمها فى دنها ورقاء
تشدو بأعلى صوتها طربا به ... فغدت تناوب شدوها الشعراء

وقد يكون السبب الذى حدا بهم إلى افتتاح قصائدهم بمقدمات من الغزل والخمر تأثرهم بالمدائح النبوية ، أسوة بها وتشبيها للمهدى بمن مدح بها .

ثم ان هذا الشعر مزيج من الشعر التقليدى والشعر الدينى ، كما ابنت ذلك فى صدر الحديث عن لونه ومعدنه ، فلا غرابة أن تظهر فيه سمة من سمات الشعر الدينى .

وخلاصة القول أن هذا الشعر فى عمومه قد استوفى عناصر الشعر ؛ ظهر فيه الخيال الذى يرسم صورا شعرية ولا يقتصر على التشبيهات الجزئية المتفرقة وعرف الافكار الشعرية ، فالشاعر هنا يريد أن يحدثنا عن أشياء معينة وقد يبرهن على صحة ما يقول ، ونحن نفهم منه فنوافقه أو نخالفه ، وندنو منه أو نبتعد عنه ، وفى بعض نماذج هذا الشعر عاطفة نحسها ونتأثر بها ، وقد استطاع بعض الشعراء أن يؤدوا ما أرادو أداءه فى نسج سليم وأحيانا فى نسج جميل .

فاذا كثر الردىء وغلب الضعيف وخاصة فى الشعر الذى حوته المخطوطة

---

(١) شعراء السودان ص ١٤ .

فذلك لأن منهم من أصروا على قرض الشعر ، وهم ليسوا من الشعراء ولهم ما يشجعهم ، فالشأن فى الأحداث الكبيرة المثيرة أن تطلق الألسن وتحرك الأقلام ، وتفسح الطريق للشاعرين والمتشاعرين ، والناس يستمعون إليهم جميعا ، لأنهم يعبرون أو يحاولون أن يعبروا عن عاطفة مشتركة وإرادة مشتركة ، وفى محيطنا السودانى رأينا مصداق ما أقول ، رأيناه فيما نظم فى الجلاء والاستقلال ، ورأيناه فيما نظم فى فلسطين والجزائر ، وفيما نظم فى العدوان الثلاثى على مصر ، ورأيناه فيما نظم فى ثورة الواحد والعشرين من شهر اكتوبر .

وفى جو كهذا يكون النقد والتمحيص عملا غير لائق ، لأنه بمثابة المعارضة والتثبيط للمؤيدين لهذه العاطفة المشتركة والإرادة المشتركة .

الفصل الثالث

الشعر في أعقاب الثورة المهدية

أ ـ الأحداث التاريخية ومناقشتها

١ ـ كان لموت المهدى أثر بليغ فى نفوس أهل السودان ، طغى الحزن واشتدت الحسرة على من أحبوه وتعلقوا به ، وقد رأينا تجلى هذا الشعور عند بعض من رثاه من الشعراء . أما الذين بهرتهم شخصيته وانتصاراته ولم يتمكن الإيمان بالمهدية من قلوبهم ، فقد ساور الشك نفوسهم وانضموا إلى من تبعوه خائفين أو طامعين ، لأنهم رأوا المهدى قد انتقل إلى جوار ربه قبل أن يبلغ الغاية التى حددها والمدى الذى رسمه ، فأين ما كان يقوله ؟ وأين ما وعدهم به فى قوله إنه سيصلى على كراسى مصر والشام والاستانة ومكة ؟! وأين قوله إن مهديتنا تظهر خيراتها بعد فتح مكة ، ويرعى فيها الذئب الغنم ، ويأمن الناس الآفات فيلعب الأطفال بالعقارب ؟ ! .(١)

وقد حلل الدكتور مكى شبيكة الموقف تحليلا دقيقا ، خلاصته أن الناس كانوا عند موت المهدى فريقين :

أ ـ فريق لم يتابع المهدى عن عقيدة واقتناع ، وإنما تبعوه رغبة أو رهبة ، وهؤلاء هم العلماء الذين أبطل المهدى العمل بمذاهبهم وحرق كتبهم التى أفنوا فى تحصيلها زهرة شبابهم ، ومن أليهم من أرباب الطرق الصوفية واتباعهم المستنيرين .

هذا الفريق هم سكان النيل ويطلق عليهم فى السودان « أولاد البلد » .

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ٩٢٥ طبعة بيروت .

ب — أما الفريق الثانى فيتألف من قوم بداة لا صلة لهم بالعلم ولا بصر لهم بمذاهبه ، وارتباطهم بالطرق الصوفية لم يبلغ بهم أن يتعمقوا حقائقها ويتصاعوا لأوامرها ونواهيها ، وهم لم يتبعوا المهدى لأنه أقنعهم بالحجة ، بل لأنه سبر نفوسهم وعرف كيف يجذبهم بتيسير أحكام الدين، ويخاطبهم على قدر عقولهم ، كان يقرب اليهم البعيد ويضرب لهم الأمثال بما ألفوه فى حياتهم اليسيرة الساذجة ، ولأنه ملأ نفوسهم ببسالته ، وأشبع نهمهم للقتال وصولات الأبطال ، وهؤلاء هم سكان غربى السودان ويطلقون عليهم « أولاد العرب » .

والى الفريق الأول ينتسب المهدى ، والى الفريق الثانى ينتسب خليفته الأول الخليفة عبد الله التعايشى ، وقد كان بين سكان النيل وبين سكان غربى السودان تنافر منذ عهد بعيد ، مرده إلى أن سكان النيل كانوا يرون أنفسهم أعلى شأنا وأرسخ قدما فى الحضارة ، فهم أرباب علم وأصحاب بصر بفنون التجارة (١) ، أما أهل الغرب فقوم رعاة بداة أجلاف ، وبديهى أن أهل الغرب لم يكونوا يرتاحون إلى هذه النظرة ، ولا يسكنون إلى هؤلاء المتعالين ، وقد كان لهذا الموقف آثار سيئة فى سير الأمور كما سترى .

٢ ـ بعد موت المهدى كان لابد من خليفة له يقوم مقامه ، و كان لابد أن يكون عبد الله التعايشى ، إذ كان خلفاؤه السودانيون هم الخليفة عبد الله والخليفة على ود حلو والخليفة شريف ، يتعاورون الخلافة على هذا الترتيب وهذا ما تم بالنسبة إلى الخليفة عبد الله بعد أن دفن جثمان المهدى ، فى مجلس ضم الخليفتين على وشريف وقاضى الإسلام أحمد ود على وبعض أقارب المهدى (٢) . ويقول نعوم شقير ـ ولعل ما قاله كان استنتاجا مستندا فيه على

(١) السودان عبر القرون ص ٣٥٩ — ٣٦١ .

(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ٩٧٣ طبعة بيروت .

ما كان بين الخليفة عبدالله وبين الخليفة شريف والأشراف ،من تنافس كان المهدى يضيق به ذرعا (١) – يقول «أما الخليفة شريف وقومه الأشراف فإنهم حاروا فى أمرهم ولم يدروا ما يفعلون ، وقالوا فى أنفسهم مات المهدى الآن وقد أسس مهدية وملكا، فلماذا تتبع ترتيب المهدية فنولى علينا عبدالله التعايشى غريب للوطن والجنس ؟ ،ولا نتبع ترتيب الملك فنولى ابن مؤسسه أو خليفته ابن عمه (٢)؟» وهو يرى أنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا ما هموا به ، لأن الجيوش التابعة لراية الخليفة عبد الله كانت حاضرة بأم درمان ونواحيها ، أما التابعة للخليفة شريف فكانت مفرقة فى الأقاليم ، ولأن الخليفة على ود حلو على قلة جيشه ليست له مصلحة فى معاونتهم فى إقامة ملك لا نصيب له فيه وهو الخليفة الثانى . (٣)

ومهما يكن من شىء فقد استطاع الخليفة عبد الله أن يجعل الأشراف والخليفة شريف يبايعونه ويذيعون فى الناس منشورا يقولون فيه إن المهدى ليلة وفاته حضرته حضرة ولى فيها الخليفة عبد الله، وبعد ذلك تصدى الخليفة عبد الله للبيعه العامة ، وأصدر منشورا بعث به إلى أنحاء السودان ، نعى فيه المهدى وأخبرهم فيه بأنه وقع عليه الاختيار ليخلفه ، وأن موت المهدى لا يعنى انتهاء رسالته كما أن موت النبى (ص) لم يكن نهاية رسالته، ثم طلب إليهم أن يثبتوا على ما كانوا عليه ويشمروا فى نشر الدين .(٤)

وإشار المهدى للخليفة عبد الله أمر لاشك فيه ، فقد خلف منشورات كثيرة يشيد فيها بالخليفة عبد الله إشادة لم يظفر بها واحد من أتباعه ، منها منشور طويل أقتطف منه ما يأتى :

---

(١) ضرار صالح ضرار ص ١٢١ – ١٢٢

(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ٩٧٤ ب

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣ ص ٩٧٣

(٤) المصدر نفسه ص ٩٧٦ – ٩٧٨ ب

(... أما بعد اعلموا أيها الأحباب أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق ... فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية والمشار إليه فى الحضرة النبوية ، ... الخليفة عبد الله هو منى وأنا منه ... فتأدبوا معه كتأدبكم معى ، وسلموا إليه ظاهرا وباطنا كتسليمكم لى وصدقوه فى قوله ولا تتهموه فى فعله ، فجميع مايفعله بأمر النبى صلى الله عليه وسلم وبإذن منا ، لا بمجرد اجتهاد منه ولا هو عن هوى بل هو نائب عنى فى تنفيذ أمره صلى الله عليه وسلم ... فإن فعله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك ، وأعلموا يقينا أن قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فمن كان فى صدره حرج لأجل حكمه فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته ... فحيث فهمتم ذلك فالتكلم فى حقه يورث الوبال والخذلان وسلب الإيمان واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب ، لأنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، ولو كان حكمه على قتل أنفسكم أو سلب أموالكم فلا تعترضوا عليه فقد حكمه الله فيكم بذلك ليطهركم (١)) .

واضح من هذا النص أن الخليفة عبد الله لم يكن قد اغتصب الخلافة اغتصابا ، كما يشتم من كلام المؤرخ نعوم شقير السالف الذكر ، فهو فى رأى المهدى رجل الدولة بعده ، وأفعاله منزهة عن الخطأ لأنه إنما يصدر عن وحى يوحى ! .

ومن الناحية العملية فإن الإدارة والاضطلاع بشئون الدولة ليست أمرا جديدا على الخليفة عبد الله ، فقد رأينا أن المهدى منذ كثرت فتوحاته وتشعبت شئون أصحابه تخلى عن الإدارة وانقطع إلى الإرشاد والتوجيه وإذكاء الحماسة فى الصدور ، وأسندها إلى نفر من أصحابه على رأسهم الخليفة عبد الله . ومع ذلك فإن الجانب الروحى وهو ملاك المهدية قد خمد بموت المهدى ، وفى ذلك يقول الدكتور مكى شبيكة ... فالمهدى رجل النظرية

(١) منشورات المهدى ج١ ص ٣٠ — ٣١

والخليفة رجل التطبيق ، فالمهمة التي أسندت إلى الخليفة بعد موت المهدى تحتاج إلى رجلين ولا يمكن أن ينهض بها رجل واحد [١] .

ومصداق ذلك أن الأمور قد اختلت منذ الخطوة الأولى ، وأحس الخليفة عبد الله بأن الفراغ الذى انفرج بموت المهدى لا طاقة له بملئه ، وأنه فى سبيل المحافظة على منصبه يحتاج إلى أن يخوض بحرا من الدماء ، ويحتاج إلى أن يصغى إلى أقوال الدساسين والوشاة ، وأن يتوجس خيفة من كل المحيطين به [٢] .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما أسلفت من أن سكان النيل لا ينظرون إليه بعين الإجلال التى ينظرون بها إلى المهدى ، فهو مهما يكن من شأنه فى رأى المهدى ، واحد من أولئك البدويين الذين ليس لهم حظ من علم أو حضارة ، وليس له ما يميزه عن خلفاء المهدى أو قواده فى رأى أولاد البلد .

٣ — من أول وهلة وجد الخليفة عبد الله نفسه محاطا بأحداث تزلزل عرشه وتكاد تقصيه عن منصبه ، فهو كما رأينا يختلف عن المهدى الذى يبهر الناس بشخصيته الجذابة وعلمه الجم ، ويختلف عنه فى نواح أخرى ، منها أن المهدى لم يكن بجانبه من ينافسه ، فهو المهدى مؤسس المهدية وقائدها ثم هو من صميم هذه القبائل التى تزعم لنفسها الرفعة وعلو الشأن على قبائل الغرب المتبدية ، يضاف إلى ذلك أن خليفة المهدى عبد الله لم يكن يمتاز عن سائر رجال المهدية بشىء سوى أنه من أوائل الذين صدقوا المهدى اتبعوه ، وهذه الميزة وإن كانت عظيمة فى نظر المهدى ، فإنها لم تكن موضع التسليم والإكبار من جميع أتباع المهدى ، فقد كان الأشراف ينازعون الخليفة ويحاذبونه السلطان قبل موت المهدى ، مما جعله يديج المنشورات فى فضله ، ومما جعله يحذرهم عاقبة هذا النزاع ، من ذلك قوله .. « إنى أخاف عليكم من اثنين : من الدنيا ،

السودان عبر القرون ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ٢٤٥ والسيف والنار ص ٢٢٦ .

والخليفة عبد الله ، فاعلموا أن الخليفة غيور ، وأنه خليفتى عليكم من بعدى فلا تخالفوه فى أمره[١] » .

والظاهر أنهم ندموا على مبايعته ، بدليل ما أظهروه من خلاف بعد أمد قصير من توليته ، ومثلهم فى ذلك أولاد البلد أو معظمهم ، لأنهم رأوه يقرب أهل الغرب ويبعد أولاد البلد عن المناصب الكبيرة ، وهو إنما يفعل ذلك مضطرا ، فقد كان لزاما عليه أن يحوط ملكه بمن يثق بهم ، وكان لزاما عليه أن يغل أيدى من يطمحون بأبصارهم إلى منصبه نفسه .

أحس الخليفة عبد الله بالجمر الذى تحت الرماد ، فأراد أن يقف على مدى ولاء هذه القبائل ، فكتب إلى مشايخها يطلب إليهم الحضور إلى أم درمان ، لتجديد البيعة والتبرك بزيارة ضريح المهدى ، فلم يستجب كثير منهم ، وأظهروا العصيان والتمرد[٢] .

أبى أن يستجيب له « مادبو » زعيم قبيلة الرزيقات ، وتمرد زعيم قبيلة الكبابيش وهى قبيلة كبيرة تمتد من شمالى كردفان إلى الحدود المصرية[٣] ، وأبى أن يستجيب له الشيخ عوض الكريم زعيم قبيلة الشكرية ، ورفض مبايعته زعيم جهينة المرضى ود أب رُوف ، وتمرد عليه محمد البشير طه ود أب جن ، وعصاه محمود ود زايد شيخ الضباينة[٤] .

هزم الخليفة هؤلاء الثوار جميعاً ونكل بقبائلهم ، فمنهم من زج به فى السجن ومنهم من قتله ، وبعض القبائل استجارت بالحبشة لما استحر فيها القتل

---

(١) جهاد فى سبيل الله ص ١١٠ .

(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٣٥ .

(٣) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٣٦ .

(٤) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٣٦ .

كما فعلت قبيلة الشكرية[١] ، ونصب الخليفة المشانق فى الميادين العامة وساق إليها رجال البطاحين وعلقهم عليها بطريقة مثيرة[٢]

تسنى للخليفة عبد الله أن يقمع هذه الثورات، لأنه قد احتاط لها وبالغ فى الحيطة ، فوضع الجيش كله تحت إمرة أخيه يعقوب ، وجرد الخليفة شريف من جيشه ، ومثل ذلك فعل بجيش الخليفة علي ود حلو ، وأنشأ جيشاً آخر لحراسته سماه « الملازمية » وضع قيادته فى يد ابنه عثمان شيخ الدين[٣].

وأقام لنفسه عصبية على ضفاف النيل ، فجاء بعرب البقارة[٤] من الغرب مهاجرين بأسرهم وممتلكاتهم[٥] .

وهو بهذا الصنيع قد هدم ركناً قوياً من أركان المهدية ، ذلك أن احتماءه بهذه القبائل جره إلى إحياء العصبية القبلية ، التى عمل المهدى جاهداً على محوها ، وعمل جاهداً على صهر القبائل والطوائف فى بوتقة الدين كما يراه هو ، لا كما يراه فقهاء المذاهب ، فالدين بهذه الصورة هو الرابطة الوحيدة بين أتباعه . أما الجنس فلا جنس سوى ذلك المصدر السحيق الذى انحدر منه سائر البشر ، أعنى آدم وحواء .

ومن الأسباب التى ساعدت على إخماد الثورات ، أنها لم تكن لها غاية معينة فهى حوادث عصيان ، وليس من همها القضاء على حكومة الخليفة ، ولذلك لم يكن بينها تضامن وعمل موحد .

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٣٨ .

(٣) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٣٨ .

(٤) البقارة : رعاة البقر .

(٥) تاريخ السودان الحديث — ضرار صالح ضرار ص ١٨٦ .

وبجانب ثورات القبائل هبت ثورات لها أهداف وغايات معينة ، منها ثورة دافور بقيادة السلطان يوسف الذى أراد أن يسترد ملك آبائه[١] . ومنها ثورة رجل يدعى أبا جميزة ، ادعى أنه خليفة السنوسى ، والسنوسى فى رأى المهدى خليفته خليفة عثمان ، ولذلك كانت ثورته ذات شأن خطير ، وزاد فى خطرها أن أبا جميزة جذب قلوب أهل الغرب بما منّاهم به من فتح طريق الحج الذى أوصده الخليفة ، وللحج عند أهل الغرب شأن لا يعد له شأن[٢] ، وفى معسكر القلابات ادعى رجل اسمه محمد آدام البرقاوى أنه نبى الله عيسى ، وكان من التابعين للجيش الذى يقوده يونس الدكيم ، ففشت دعوته فى الجيش وآمن به نحو ستة عشر أميراً من أمرائه[٣] .

وقد واجه الخليفة عبد الله هذه الثورات[٤] بحزم وثبات حتى أخمدها جميعها وقضى على الثائرين .

ولم تكن العاصمة هادئة وادعة ، فالتنافس الذى كان بين الخليفة شريف وأهله من الأشراف وبين الخليفة عبد الله ازداد بعد موت المهدى ، والمؤرخون يختلفون فى تصوير هذه الخصومة وبيان أسبابها ، ولكل فريق منهم ميل .

وأرى أن أسلم طريق فى هذه المتاهة أن أعتمد على رواية أهل بيت المهدى ، لأنهم ألصق الناس بهذه الحوادث وأكثرهم وقوفا على دقائق أخبارها ، وسأكتفى بالأخبار التى اعتمدها السيد على المهدى وأوردها فى اختصار شديد .

(أ) سالم الأشراف الخليفة عبد الله عاما بعد وفاة المهدى ، وبعد ذلك اشتد نشاط الوشاة حتى عزلوهم عنه .

---

(١) السودان عبر القرون — الدكتور مكى شبيكة ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٨١ .

(٣) جهاد فى سبيل الله ص ١١٥ .

(٤) قامت هذه الثورات ما بين عام ١٨٨٧ م و ١٨٨٩ م ــ أنظر تاريخ السودان الحديث لضرار صالح ضرار ص ١٨٧ ــ ١٨٩ .

(ا) اتهم الخليفة عبد الله الشيخ محمد عمر البنا وأحمد شجر الخيرى أحد أقرباء المهدى بالوشاية وأمر بنفيهما ، ثم ارجع الشيخ محمد عمر البنا بحجة أنه لا غنى عنه .

(ب) فى أوائل عام ١٣٠٩ هـ تسور حائط الخليفة شريف ثلاثة من الجهادية ، فلما أحس بهم حرسه هرب منهم اثنان وقبضوا على الثالث ، فاعترف بأن الخليفة عبد الله بعثهم ليقتلوا الخليفة شريف .

(د) بلغ الخبر الخليفة عبد الله مشفوعا بأن الخليفة شريف خرج بالصمت عن لا أو نعم عندما أثير هذا النبأ فى مجلسه ، مما يدل على أنه لا يبرىء الخليفة عبد الله .

(هـ) وبعد بضعة أيام سار الخليفة عبد الله ومعه القضاة فى حشد حاشد من الجنود وكبار التعايشة ، واجتمع بالخليفة شريف فى بيت أحمد شرفى ، وادعى أنه مظلوم وطلب إلى القضاة أن يفصلوا فى القضية .

(و) طعن الخليفة شريف فى نزاهة القاضى أحمد على بقوله « .. ولكنى لا أعتمد ذمة القاضى أحمد على ولا أرضى بحكمه ، وأفضل أن يحكم بيننا إنجليزى من أن يحكم بيننا هذا » . وبعد أخذ ورد انتهى الأمر بصلح ، ومعاهدة على عدم الإصغاء إلى ما يسعى به المفسدون .

(ز) وبعد ثلاثة أشهر بلغ الخليفة شريف أنباء من مصدر يثق به ، مفادها أن الخليفة عبد الله قرر نفيه ونفى أبناء المهدى واثنين من الأشراف إلى جبل مرة ، ونفى بقية الأشراف إلى بحر الغزال .

(ح) رأى الخليفة شريف وأتباعه أن يستأنسوا برأى السيد عبد القادر لماله من أصالة الرأى ، فأشار عليهم بالاستسلام ، إذ ليس لهم من يعضدهم بعد أن استولى الخليفة على الجيش كله ووضعه تحت إمرة أخيه يعقوب .

(ط) لم يأخذ الخليفة شريف ومن معه بمشورة السيد عبد القادر ،

وطفقوا يتصلون برؤساء القبائل من أولاد البلد ، للقضاء على حكم الخليفة عبد الله الذى يرونه قد جعل المهدية ملكا ، وعزم على نفى الخليفة شريف وأولاد المهدى والأشراف .

(ى) وبعد أن استجاب لهم نفر من رؤساء القبائل ، انكشف أمرهم للخليفة عبد الله ، فأخذ يستعد لمواجهة الثورة .

(ك) أحس الخليفة شريف بيقظة الخليفة عبد الله وتحركه ، فجمع أنصاره داخل سور قبة المهدى واستعدوا للدفاع عن أنفسهم وصاحوا صيحات الحرب ، فلما سمع الخليفة عبد الله صيحاتهم طوقهم بالعساكر من جميع الجهات .

(ل) سعى السيد أحمد عبد الكريم فى إصلاح ذات البين بعد أن اعتزل الفتنة ، وأظهر الخليفة عبد الله فى خطاب له أنه يرى أن الخليفة شريف وأبناء المهدى وكبار الأشراف لا يضمرون له شراً ، ولكن الوشاة والأوباش هم الذين حركوا هذه الفتنة .

(م) وعلى هذا الأساس بعث إلى الخليفة شريف وفدا من القضاة ومن بعض الأشخاص عساه يرجع عما اعتزم ، ولكن الخليفة شريف رفض سفارتهم ، وواجه القضاة بقوله « أما تعلمون أنى أطالب بترك المظالم وإقامة العدل والشريعة التى أمر المهدى بإحيائها ، وأنتم المقصودون بذلك ، لأن أمر المظالم والشريعة موكول لكم ، وأنتم المسئولون عنه أمام الله ، فلا أقبل مراجعتكم » .

(ن) أرسل الخليفة عبد الله وفدا آخر على رأسه الخليفة على ود حلو ، وبعد مداولة اتضح أن سبب خروجهم هو أن الخليفة عبد الله جردهم من أسلحتهم وجنودهم ، وأنه خالف نهج المهدية وصيرها ملكا ، وأنه عطل

الشريعة وصار يحكم ، بالإشارة ، على مقتضى رأيه وهواه ، يضاف إلى هذا ما ترامى إليهم من عزم الخليفة عبد الله على نفيهم .

(س) وبعد موقف شديد تم الصلح على شرط الا يمس الخليفة عبدالله بسوء الذى خرجوا عليه مع الخليفة شريف ، والا يؤاخذهم على مامضى، فعاهدهم الخليفة على ودخلو على ذلك بوصفه نائبا عن الخليفة عبد الله ، ثم أحضرهم الخليفة عبد اللهوأكدلهم هذاالعهدوأظهرلهم رضاهعنهم وطمأنهم .

(ع) ولكنه لم يلبث أن قدّم الخليفة شريف ومن كان معه من زعماء الثورة للمحاكمة ، فحكم المجلس برئاسة القاضى أحمد على على الخليفة شريف بالسجن وعذبه الجنود بمنتهى القسوة ، وحكم المجلس على بعض الأشراف بالشخوص إلى كسلا ليحاربوا ، وحكم على بعضهم بالقتل المهين ، فأعدموا ضربابالعصى وتركت جثثهم بالعراء .

(ف) رأى بعض الناس أن الصقور التى وقعت على جثتى السيدين عبد القادر ومحمد عبد الكريم ماتت قبل أن تنال منهما شيئا(١) .

هذه الأخبار التى اعتمدها بيت المهدى لا تقدم حكما صريحا ، وذلك لأنهم لا يريدون أن يلقوا تبعة هذه المأساة على الخليفة عبد الله بعد أن زكاه المهدى، وأمرأن يؤخذ تصرفه المخالف للشريعة مأخذ التأويل الحسن، فإدانته إدانة للمهدى نفسه ، وهم لايريدون أن يجعلوا الأشراف وفيهم خليفة المهدى الخليفة شريف وأبناء المهدى عصاةخارجين على أمر المهدية، شاقين عصا الطاعة من جراء حب الدنيا وشهوة الملك .

ولكن القارىء الذى لا يتقيد بشىء من ذلك يستطيع أن يخرج بنتائج لا ترجح كفة الخليفة عبد الله ولا تبرر مسلكه إزاء الأشراف وأولاد البلد عموما ، وقبل أن أحاول استنتاج أحكام من هذهالنصوص ،أعترف بأن

---

(١) جهاد فى سبيل الله ص ١٤٧ — ١٤٨ .

من حق الخليفة عبد الله أن يدافع عن كيانه ومنصبه الذى تسنمه بجدارة كما يرى مؤسس المهدية ما وسعه الدفاع الشريف ، ولكن المغالاة فى الدفاع وحرج الصدر مدرجة إلى الظلم والطغيان ، فمن حق المحكومين أيضاً أن يجدوا النصفة ولين الجانب ، وألا يؤخذوا بالظنة . بعد هذا الاعتراف أرى أن هذه النصوص تنطق بما يأتى :

(أ) سكان النيل وعلى رأسهم الاشراف لم تسكن أنفسهم إلى حكم الخليفة عبد الله ، لأنهم مع عدم اعترافهم باستحقاقه للخلافة ، رأوه يجنح إلى الظلم وإلى اطراح الشريعة التى أمر المهـــدى بإحيائهـا كما يقـول الخليفة شريف .

(ب) الأشراف كانوا دائمـا يرون أنفسهم فى خطر داهم مهما بالغوا فى الطـاعة .

(ج) الخليفة عبد الله كان يتوجس منهم خيفة فيبالغ فى سوء الظن بهم ، ومما لاريب فيه أن لأولاد البلد يدا فى افساد مابينه وبين الأشراف ، آملين أن يجدوا فى ثورتهم عليه فرجا مما هم فيه من ضيق وغبن .

(د) قضاء القضاة والأمراء لم يتحل بالنزاهة والبعد عن الهوى .

(هـ) الخليفة عبد الله كان دائما يتوارى خلف القضاة ، ولا يباشر هذه الأحكام القاسية بنفسه ، لتخرج إرادته ، الإشارة ، فى صيغ شرعية وان كانت بعيدة عن الشريعة .

(و) قصة الصقور بغض النظر عن صحتها أو عدم صحتها ، تحدثنا بأن الشريفين قتلا مظلومين ، فقاتلهما قطعا ظالم ، وهذا هو الحكم المستور فى الاخبار التى رواها السيد على المهدى فى «الأخبار المروية» جهاد فى سبيل الله .

(ز) بدا جليا من هذه الأخبار أن الخليفة عبد الله لايفى بعهده ، وليس

له إل ولا ذمة ، فقد نكل بالأشراف بعد أن عاهدهم وواثقهم على العفو عنهم ، وكان هذا من أهم شروط الصلح .

ونقض العهد أمر قد اشتهر به الخليفة عبد الله ، حتى جعل الخارجين عليه لا يثقون به مهما بالغ فى التأكيد ومن أمثلة ذلك موقف صالح زعيم الكبابيش حين أرسل إليه خطابا يؤمنه فيه إذا رجع ويعفو عما فرط منه ، فسأل صالح الرسل هذه الأسئلة الإنكارية « أين النوم ود سالم ؟ وأين الشيخ عوض الكريم ود أب سن ؟ ، وأين ود أب روف[1] ؟ » ، وهؤلاء جميعا أمنهم الخليفة عبد الله ثم بطش بهم . وجاءه منه خطاب آخر يبالغ فى تأمينه فرد عليه متهكما « لقد وصلنى منك أمان الله ورسوله ومهديه وأمانك ، ولكن لم يصلنى أمان (الحلة) »[2] يعنى الحضرة الغيبية التى يحكم بمقتضاها على خصومه ناقضا ما أبرم من عهد وميثاق .

هذا الصراع أوهن أمر المهدية وفت فى عضدها ، وجعل الناس ينظرون إلى المتنازعين نظرة مختلفة عن نظرة التقديس والتجلة التى كان يحيط بها بعضهم المهدى . هذا الصراع كان باسم الدين . الا أن ما صحبه من كيد وتهم وبطش وتشف أوحى إلى الناس أنه صراع فى سبيل الملك فاصابهم ما أصابهم من خيبة الأمل . ومن نتائجه البالغة السوء أنه ضاعف كراهية أهل الغرب لسكان النيل ، فانطلقوا على سجيتهم البدوية ، وعاثوا فى الأرض فسادا ، وظلموا الناس ظلما لم يروا له مثيلا من قبل ، وشاعت الفوضى وفسدت الأخلاق ، والخليفة عبد الله يرى ويسمع ولكنه لا يستطيع أن يصنع شيئا ، فهو لا يستطيع أن يجرد هؤلاء القوم من أسلحتهم ، أو يردهم إلى ديارهم ، لأنهم سنده وعصبيته التى يقابل بها عصبية أولاد البلد خصومه الألداء[3] .

---

(١) جهاد فى سبيل الله ص ١٢٤ (٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٣) السودان عبر القرون ص ٣٧٠ ـ ٣٧١

٤ ـ ومع أن الخليفة عبد الله كان حريصا على التمسك بشعائر المهدية التى هي حجته فى استحقاق الخلافة، مجتهدا فى إقامة معالمها البارزة، فان الظروف التى أحاطت به بعد موت المهدى، اضطرته إلى أن يقبض على زمام السلطة كلها. وأن يحدث تغييرا وتحويرا فى كيان الدولة. فجمع الجيش كله كما أسلفت تحت قيادة أخيه يعقوب وانشأ جيشا آخر لحراسته، وأبطل نظام أمناء المهدى ونوابه وحصر القضاء بصفة عامة فى دائرة قاضى الاسلام وأعوانه.[١] وقد عرت القضاء هزة أفسدته وغيرت جوهره، كان رأس القضاء فى القطر كله أحمد على ولم يكن نزيها كما ينبغى، فقد اتهم بأنه كان يحكم بالهوى ويقبض الرشوة، وكان من ضحاياه كبار الأشراف وبعض القواد من أمثال الزاكى طمل[٢]. ومر بنا موقف الخليفة شريف منه ورأيه فيه، ولما أخذ يناوىء الأمير يعقوب وهو من دهاة الساسة، تربص به حتى أثبت عليه قبض الرشوة فقذف به الخليفة عبد الله إلى أعماق السجن حتى مات فيه صبرا[٣]. وتولى رئاسة القضاء بعده الشيخ سليمان الحجاز[٤]، وبعد وفاته تولاها الشاعر الشيخ الحسين بن الزهراء، وكان له رأى مستقل فى تطبيق الشريعة عن رأى المهدية، فلم يتقيد بما جاء فى منشورات المهدى وتشدد فى موقفه منها، لذلك أبى أن يساير رأى القضاة فى قضايا مالية تمس الأمير يونس الدكيم أحد أقرباء الخليفة عبد الله المقربين، فعزله الخليفة عبد الله عن القضاء ثم زج به فى السجن[٥] وقال فيه قولته المشهورة التى تلخص رأيه فى العلماء جميعا «مثل العالم بين أصحاب المهدى مثل الشجرة وسط الزرع، تأوى إليها الطير الذى يفسد الزرع، فلا يستريح الزارع حتى يجتثها من أصلها». فمات فى السجن صبرا أيضا[٦].

---

(١) عبد الله حسين ج ١ ص ٢٤٨
(٢) جهاد فى سبيل الله ص ١٢٥
(٣) السودان عبر القرون ص ٣٧٠
(٤) جهاد فى سبيل الله ص ١٢٦
(٥) نعوم شقير ج ٣ ص ٥٦٣ مصر
(٦) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٨٠ ب

وبعد مقتل الحسين ، وبعد هذا التهديد الصارم الذى وجهه الخليفة إلى كل عالم تحدثه نفسه بأن يتولى القضاء ويحكم بالشريعة ، تحاشى العلماء وظيفة القضاء ابقاء على أنفسهم(١) ، ففقد القضاء جلاله وهيبته ، وإن كان قبل ذلك ظنينا ، ولكن الخليفة عبد الله لا يريد أن يظهر بمظهر الحاكم المطلق ، فهو كما أسلفت دائما يحتاج إلى قضاة يصوغون « إشارته » صياغة شرعية ، ولذلك حاول أن يؤلف هيئة من القضاة فقال له أحدهم « أنا ياسيدى لا أعرف العلم » فرد عليه الخليفة بقوله نحن لا نطالبكم بالعلم ، ولكن المطلوب منكم عندما تقدم إليكم قضية أو ظلامة أن تتفقوا مع بعضكم وتحكموا فيها بالعدل(١) » .

وهكذا آل أمر القضاء الشرعى إلى قضاء عرفى ، يكفى فيه تحرى العدل كما يبدو لقضاة لا يعرفون العلم!!.

أما التعليم فقد كان مقصورا على تحفيظ القرآن وتلقى بعض الأحاديث ، وقد يرسل عدد قليل ممن تلقوا هذا النوع من التعليم إلى بيت المال ليتثقفوا بثقافته ويتعلموا المراسيم الكتابية على أيدى الموظفين القدماء(٣) .

وتستطيع أن تقول وأنت مطمئن إن معالم العلم قد درست ، وإن كفته قد شالت ، وإنه أصبح شيئا غير مرغوب فيه . من حقك أن تقول إن المهدى أسكت العلماء وأبطل العمل بمذاهبهم وقضى على كتبهم ، ولكن ينبغى أن تذكر أنه كان عالما بارعا مجتهدا ، ولذلك أشاع أقباسا من النور بمنشوراته وبدروسه الميسرة الموطأة . أما الخليفة عبد الله فليس من العلماء ، وليس من المطمئنين إلى علم العلماء ، فهم فى رأيه كالشجرة وسط الزرع ، تجلب الطير الذى يفسده .

(١) السودان عبر القرون ص ٣٦٩ .

(٢) السودان عبر القرون ص ٣٦٩ (٣) السيف والنار ص ٢٥٤

والاتصال بالغيب لم ينقطع بموت المهدى ؛ فإن الخليفة عبد الله كان تحضره الحضرات فيما يزعم ؛ من ذلك أنه عاتب الخضر على طول غيبته عنه ، « . . . . ثم سألت الخضر — عم — عن سبب انقطاعه عنى منذ أن انتقل المهدى فقال إنى كنت حافراً شعرة من شعرات المهدى أمن أحد سليمان عليها لحفظها . ولكنه كان يكشفها أحياناً ويبكى عند رؤيتها ، وقد كشفها مرة فى الخرطوم فخشيت أن يخطفها ريح أو تقع فى محل وسخ تضيع فيه ، فبعد أن بلعتها أنت أمس استرحت وسرى عنى[1] » .

ومستوى هذه الحضرة ينم عما آلت إليه الحـــال الفكرية . وتطور أمر الحضرات فدخل فى الصراع بين الخليفة عبد الله وبين الخليفة شريف الذى نســـبوا إليه أنه قال : إن الغوث معه وفى حزبه ، وإن الصحابة قد اعترضوا على النبى[2]. يعنى فى اختيار الخليفة عبد الله .

٤ — لم يقف ذود الخليفة عبد الله عن حوضه عند حد مقبول ، فلم يغنه جمود الحياة العقلية ، وتدهور القضاء ، وإذكاء جذوة العصبية القبلية وإثارة الإحن ، بل كان له ضرر بليغ فى الحياة الاقتصادية أيضاً .

دعت الضرورة الخليفة عبد الله أن ينشىء بجانب بيت المال العام بيوت مال أخرى للإنفاق على حرمه الخاص ، وللإنفاق على نفسه وخاصته ثم للإنفاق على المصانع الحربية[3] .

والسودان فى ذلك الوقت كان يعتمد بصفة عامة على الزراعة والرعى ، وقد أفضت الضرورة أيضاً بالخليفة أن يعطل هذين الموردين فى أخصب

---

(١) نعوم شقير ج ١ ص ٢٤٨ (ب)
(٢) السودان عبر القرون ص ٣٦٨
(٣) السودان عبر القرون ص ٢٧٢

مناطقهما ، وذلك أن هجرة البقارة إلى أم درمان قد أخلت المناطق الرعوية من هؤلاء الرعاة ، فأصبحوا عالة على بيت المال وقضوا على الأخضر واليابس ، فأكلوا نصف مليون أردب من الذرة فى بضعة أيام ، وألح الخليفة على أهل الجزيرة أن يمدوه بها ، ونشط التجار المحتكرون فى اقتنائها ، حتى صار سعر أردب الذرة أربعين ريالا فى أم درمان، وستين ريالا فى بعض المناطق، وكان قبل قدومهم ستة ريالات فى أم درمان وأربعة فى الجزيرة(١).

وزاد الطين بلة أن الخليفة أمر بترحيل أهل الجزيرة إلى أم درمان ، وأخذ نصف ما يملكون من الذرة ، عندما ندبهم إلى الشخوص إلى حرب الحبشة فتثاقلوا(٢).

وأبت السماء أن تغيث الأرض ، وأبى النيل أن يفيض عام ١٣٠٦ هـ، وهبط الجراد على محصول عام ١٣٠٧ هـ فلم يدع فيه شيئاً مذكوراً، فأصابت الناس سنة لم يعرف السودان الحديث لها مثيلا ، سميت سنة (٦)، يقال إنها أهلكت من الناس أكثر مما أهلكت منهم الحروب(٣) والأوبئة على كثرتها . وقابلها الكثير من السودانيين بإباء وشمم ، فأوصدوا عليهم أبوابهم خشية أن يخرج أولادهم ويبتذلوا أنفسهم بتكفف بعض الأغنياء(٤). ويروى الرواة من ذلك صوراً تقشعر منها الأبدان . وهذا مشهد واحد يغنى عن التطويل والتفصيل ، يقول عمر أبو سن ، « خرجت من الخرطوم قاصداً رفاعة سنة ١٣٠٧ هـ فلما أقبل الليل تراكمت السحب ، فخفنا أن يداهمنا المطر فى الطريق، فعرجنا على حلة فى الجزيرة تسمى — ود عشيب — للمبيت فيها ، فوجدنا منازلها مقفلة لا يسمع فيها صوت إنسان، فعمدنا إلى باب دار فخلعنا، فانتشرت

---

(١) جهاد فى سبيل الله ص ١٤٥

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٤

(٣) السودان عبر القرون ص ٣٦٣

(٤) نسوم شقير ج٣ ص ١١٤ (ب)

رائحة منتنة ، فأوقدنا نارا لنرى ما الخبر . فإذا بأهل المنزل رجالا ونساء وأطفالا قد رقدوا على أسرتهم موتى(١) ».

ويبالغ (سلاطين) ليكيد للخليفة عبد الله من جهة ، وليقدم إلى قارئه وخاصة الأوربى صوراً لم يألفها فى حياته من جهة أخرى ، فيحدثنا عما شهد وما سمع فى أم درمان عاصمة المهدية ، ومن المناظر البشعة التى زعم أنه رآها « ثلاث نسوة عاريات مسدلات شعورهن على أكتافهن ، يتهافتن على أكل جحش صغير .. وقد رأيتهن يقطعن لحمه بأسنانهن ويأكلن منه ، وكان الحيوان المسكين مايزال على قيد الحياة(٢) » . وزعم أن امرأة أكلت طفلها (٣).

وطرق التجارة المعهودة درست حتى لايهتدى بمنارها ، وصارت التجارة فيها أشبه ماتكون بعمل اللصوص ، وكانت تضيق وتنفرج بحسب ماتريد سياسة الخليفة عبدالله ، ونشطت تجارة الرقيق(٤).

وفى ميدان الصناعة انتعشت صناعة الأسلحة البدائية كالسيوف والرماح والسروج والدروع ، والمراكب والصناعات الجلدية وأعمال الغزل والنساجة على الأنوال الساذجة(٥) .

٦ — أما فى المحيط الخارجى فقد شرع الخليفة عبد الله فى تنفيذ خطط المهدى ، وهى كما عرفنا نشر تعاليم المهدية وتوسيع رقعتها حتى تشمل العالم كله ، فهى لاتعترف بغير المسلمين المذعنين لثقافتها ، وترفض جميع الأديان كما ترفض جميع المذاهب . ومن أقوال المهدى « ... بحيث من كان منكم على

---

(١) نعوم شقير ج٣ ص ١١٤١ (ب)
(٢) السيف والنار ص ٢٠٤
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها
(٤) السيف والنار ص٢٠٤ — ٢٦٣
(٥) المصدر نفسه ص ٢٦٣ — ٢٦٥

على دين النصرانية يرفضه ويدخل الإسلام ، ويبادر بالتسليم والانخراط فى سلك المهدية[1] . وعلى هذه القاعدة كتب الخليفة خطاباته وبعث بها إلى أصقاع من العالم الذى كان يعرفه .

كتب إلى أهل مصر يدعوهم إلى الدخول فى المهدية ، ويؤكد لهم أن المهدية لم تنته بموت المهدى ، وأن المهدى لم يكن كاذباً حين أعلن أنه سيفتح بلداناً كثيرة منها مصر . لا . فالنبى بشر بمثل ذلك ومات قبل أن يتم الفتح على يديه ، فأكمل أصحابه ما بدأ وكذلك الحال بالنسبة إلى المهدى ، لأن فعل التابع منسوب إلى المتبوع[2] .

وكتب إلى الخديوى توفيق يطلب إليه الدخول فى المهدية ومؤازرته على نشر الدين وتقليم أظافر الكافرين ، ويعلمه بأنه لا يريد ملكا ، ولو أراد لكان فى السودان وملحقاته مع اتساع رقعته وتنوع ثمراته الكفاية ، ويؤاخذه على اتخاذ الكافرين أولياء ، ويحذره من الإصغاء إلى علماء السوء(٣) .

وكتب إلى ملكة الانجليز يدعوها إلى الإسلام ، ويبين لها أنها ليست على دين ، ويحذرها من التمادى فى غرورها وسوء تدبيرها الذى فقدت به خيرة رجالها ، من أمثال غوردون واستوريت وهكس حين أرسلتهم إلى حرب حزب الله ، فلو كانت حصيفة لاستشارت الدول ، وعندئذ كانت تظفر بواحد من اثنين : فهى إما أن تشير عليها بالكف عن حرب المهدية فتحتفظ برجالها ، وإما أن تساندها ، وفى هذه الحال تشترك معها فى الهزيمة وعار الفرار ، وفى النهاية يطلب إليها أن تأتيه مسلمة ، وإلا فإنه سيطأ دارها ويذيقها سوء العذاب بما صدت عن سبيل الله(٤) .

---

(١) منشورات المهدى ج ٢ ص ٢٠٠

(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ١٠٠٩ — ١٠١٠

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠١١ — ١٠١٥

(٤) نعوم شقير ج ٣ ص ١٠١٥ — ١٠١٨ بيروت

وكتب إلى السلطان عبد الحميد ، ومما جاء فى كتابه « .. ومع أنك تدعى أنك سلطان الإسلام .. فما لك معرضاً عن إجابة داعى الله إلى هذا الآن ، ومقراً لرعيتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع أهل الكفر والعدوان » . ثم يطلب منه أحـــد أمرين أيضا : أن يخرج الكفار من مصر وغيرها من بلاد الإسلام ، أو أن يقدم عليه ليقوما بنصرة الدين وقطع دابر الكافرين[١].

وخاطب قريشاً وأهل المدينة وجعل عليهم حذيفة بن سعد عاملا[٢] ، وأقام عبد الله بن فيصل بن مسعود عاملا على أهل نجد[٣].

وأرسل إلى إمبراطور الحبشة يوحنا يدعوه إلى اعتناق الإسلام والمهدية، وبعد موته كتب إلى منليك خطابات عدة يدعوه فيها إلى مثل ذلك[٤] .

ولم يزل الأستاذ محمد السنوسى معتصما بالصمت ، فكتب إليه الخليفة عبد الله خطاباً يعاتبه فيه على أعراضه من دعوة المهدية ، مع اهتمام المهدى الشديد بأمره ؛ ويرى أنه ليس له عذر فى هذا الإعراض مع قرب داره واجتهاده فى نشر الدين[٥] .

وخاطب سلطان وداى ، وكان المهدى قد كتب إليه فاستشار السنوسى ، فأشار عليه بالسياسة التى اتخذها هو إزاء دعوة المهدى ، وملخصها أن يصمت فلا يجيب بنفى أو إيجاب ، فإذا قدم إلى دياره حاربه ؛ غير أنه اتخـــذ مع المهدى لوناً من التقية ثم أخلد إلى الصمت ، وعلى هذا المنوال أعرض عن دعوة الخليفة[٦] . وسار على هذا النهج حياتو سعيد بلو سلطان سوكوتو

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ١٠١٨ ـ ١٠٢٢

(٢) المصدر نفسه ج٣ ص ١٠٢٢ ـ ١٠٢٤

(٣) المصدر نفسه ج٣ ص ١٠٢٤

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٢٦

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٢٦ .

(٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٢٨ ـ ١٠٢٩

فاتقى المهدى ولم يستجب لخطابات الخليفة (١) .

وكتب إلى رابح الزبير رسالة مسهبة ، فيها كما قال نعوم شقير خلاصة لوقائع المهدية (٢) .

ثم أمعن فى تنفيذ خطة المهدى التى ترمى إلى توسيع نطاق المهدية ومد أطرافها حتى تشمل العالم كله ، فبدأ بحرب الحبشة ، فأوغل فيها القائد الشهير حمدان أبو عنجة يقتل ويسبى ويغنم حتى وصل إلى « غندار » أم مدائنهم كما يقول ، وكتب إلى الخليفة عبد الله خطابا جاء فيه « فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يميناً وشمالا ... وأحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ، ما عدا ما أحرقناه بالديار المذكورة عندمرورنا بها وهى تزيد عن ٢٠٠ كنيسة (٣) » .

وشغل امبراطور الحبشة بحرب الطليان وكانوا قد احتلوا مصوع ، فرأى أن من حسن السياسة إلا يحارب فى ميدانين ، فكتب إلى أبى عنجة يطلب اليه الصلح والتضامن على حرب العدو الأوربى ، ودفع الخطر عن الحبشة والسودان . فكانت إجابة حمدان بعد استشارة الخليفة عبد الله دعوته إلى الدخول فى الإسلام ، وألا صلح بغير هذا (٤) .

ولما يئس من عقد صلح مع الخليفة عبد الله طفق يعد العدة لمصادمة الأنصار . وفى هذه الأثناء توفى حمدان أبو عنجه وتسلم القيادة بعده الزاكى طمل ، وبعد جلاد كان عدد الأنصار فيه أقل من نصف عدد الأحابيش ، انتصر الزاكى انتصاراً مبيناً ، ومزقهم كل ممزق ، ورجع بجيشه المظفر يحمل غنائم تجل عن الحصر ، وبتاج الأمبراطور يوحنا الذى خر صريعاً فى المعركة (٥) .

---

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠٣٠ — ١٠٣٩ (ب)
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٣٠ — ١٣٠٩
(٣) السودان عبر القرون ص ٢٨٣ .
(٤) السودان عبر القرون ص ٣٨٤ .
(٥) السودان عبر القرون ص ٣٨٥ :

وكان لهذا النصر فى أنحاء السودان صدى دوت به الآفاق ، وهدأت بعده الثورات الداخلية هدوءاً تاما (١) .

اكتفى الخليفة عبد الله بهذا القدر من النصر ، فلم يواصل القتال حتى يستولى على الحبشة كلها ، والسبب فى ذلك أن المجاعة التى حصدت الناس من جراء هجرة البقارة فعلت فعلهـــا فى الجيش ، وقد كتب القائد إلى الخليفة يصف الحال،من ذلك قوله « والحال ياسيدى أن الجيش ... وقد تزايد الضرر من جهة المعايش ... حتى صاروا يأكلون الجيف ويلتقطون الحبوب من الأرض فى الطريق . . . ولهذا أخرنا السرية من التوجه إلى الحبشة ، لأن الجيش قد شغل بنفسه (٢) .

وبعض المؤرخين أجهد نفسه فى التماس المبررات لهذه الحرب التى يبدو ألا مبرر لها ، من ذلك أن الحبشة كانوا يغيرون عـــلى حدود السودان، وأنهم آووا الســودانيين الذين خرجوا على المهدية ، وكانوا يساندون الانجليز فى شرق السودان .... الخ (٣) .

هذا حق ولكن هذه الأسباب ليست الدوافــــع الأساسية ، ففكرة حرب الحبشة لم تكن مما جد فى عهد الخليفة عبد الله ، بل هى فكرة من صلب سياسة المهدية، فقد أكد المهدى وجوب حرب الحبشة فى مجلس من مجالسه (٤) ، وفى مجلس آخر قال الشيخ جلال الدين للمهدى إن النبى عليه أفضل الصلاة والسلام قال اتركوا الحبشة ما تركوكم ، وقد بلغنى أنكم ذكرتم حربهم فكيف ذلك ؟ فأجاب المهدى « بأن الذى تركهم لنا فلن نتركهم نحن ، فما لهم عندنا إلا السيف (٥)».

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٢) تاريخ السودان الحديث — ضرار صالح ضرار ص١١٣ .

٣) مصر والسودان — محمد فؤاد شكرى ص٣٨٩ وضرار صالح ضرار ص١٩١

٤) جهاد فى سبيل الله ١١٦ — ١١٧

٥) جهاد فى سبيل الله ص١١٧

فالمهدية لاتخضع لأفكار عصرنا ، فهى لا تهادن إلا من أعتنق الإسلام وانخرط فى سلكها . وبهذا الفهم وحده نستطيع أن نفسر أسباب هذه الحرب ، وإعراض الخليفة عن طلب الصلح والتعاون الذى تقدم به امبراطور الحبشة ، وإحراق الكتاتس الذى كتب به حمدان إلى الخليفة وكأنه عمل جليل ، وبهذا الفهم وحده نستطيع أن نرفض خبراً أورده عبد الله حسين المحامى يفيد أن معاهدة عقدت بين الخليفة عبد الله و « منليك » امبراطور الحبشة ، وأن نسختها فقدت ثم وجدت بعد حدوث كرامة ، وبعد مضى زمن أمر الخليفة بإحراقها [١].

وقد ظفر الخليفة عبد الله بغنم أعظم من هذه المعاهدة المزعومة فرفضه ، لأنه يخالف خطة التوسع فى نشر المهدية . عرض عليه الخديوى توفيق الصلح والاعتراف بدولته ، وإقامة حدود واضحة بين مصر والسودان . وقد سفر فى طلب هذا الصلح رجل عظيم هو السيد سر الختم الميرغنى ، ومع ذلك فإن الخليفة عبد الله رفض الصلح ، وطلب من الخديوى الدخول فى المهدية أو الحرب [٢] .

إن الإنتصار الذى أحرزته المهدية على التركية ، وفرار الحملة التى أتت لإنقاذ غوردون بعد نهايته ، وهذا النصر على الحبشة ، خدع الخليفة عبد الله فرفض الصلح الذى عرض عليه الخديوى وحده ، فسير إلى مصر جيشاً هزيلا عاطلا عن أسباب القوة ، لظنه أن الحبشة التى انتصر عليها أخيراً أقوى من الجيش الانجليزى وجيش مصر الجديد [٣] . وكان على رأس هذا الجيش القائد المشهور عبد الرحمن النجومى ، وقد فتك الجوع والعطش بجيشه قبل أن يفتك به السلاح ، فوصف حاله الى الخليفة فى

---

(١) السودان من التاريخ القديم ج١ ص٢٥١ — ٢٥٢

(٢) جهاد فى سبيل الله ص١٣٨ — ١٣٩

(٣) تاريخ السودان الحديث — ضرار صالح ضرار ص١٩٤ — ١٩٥

خطاب جاء فيه « . . . فإن الجوع الحال بهم أضناهم وأذهب قواهم . . . لأنهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الأخضر المر ونواه ، وانقطع عنهم من مدة ، . . ولشدة الضرر جلسوا على الأرض وكثير منهم ماتوا جوعا. ولم يكن شرب الماء إلا بقتال ومضاربة وجراحات[1] » ومع ذلك أبى عبد الرحمن التسليم الذى دعاه اليه « جرانفيل » سردار الجيش المصرى وحارب بأنصاف الأحياء من جنده حتى دارت عليهم الدائرة ، فأسر منهم جرانفيل الانجليزى — عدو الاسترقاق — الأطفال والنساء وبعض الرجال وصيرهم أرقاء يباعون كما تباع الحيوانات[2] . . واشتهرت هذه الواقعة باسم « توشكى » .

٧ — منذ موقعة توشكى صار موقف الخليفة عبدالله موقف المدافع .

وامتد أثر المجاعة إلى شرقى السودان ، ومكن الانجليز من كسر شوكة جيش عثمان دقنة : فاستولوا على « طوكر » وأخذوا يرقبون نشاط الطليان عن كثب ، ويدخلون معهم فى سباق لامتلاك البقاع السودانية ، وكان الطليان قد سيطروا على ارتريا ومصوع ، وطمحوا بأبصارهم إلى سواحل البحر الأحمر من أرض السودان ، ولضعف الجيش السودانى استطاعوا أن يهزموه ، وأن يحتلوا كسلا باتفاق مع الانجليز احتلالا مؤقتا .[3]

وفرنسا مدفوعة بمطامعها الاستعمارية ، وزعزعة مركز انجلترا فى مصر ، احتلت فشودة وغرست العلم الفرنسى فى ربوعها ، ولكنها أبعدت عنها بعد فتح السودان الأخير .[4]

وفى المنطقة الإستوائية أتصل ملك البلجيك « ليوبولد » بفضل المولى أحد الضباط السودانيين التابعين لجيش التركية ، وكان من الذين تمردوا على

---

(١) السودان عبر القرون ص ٣٨٧ — ٣٨٨

(٢) تاريخ السودان الحديث — ضرار صالح ضرار — ص ١٩٦ .

(٣) تاريخ السودان الحديث — ضرار صالح ضرار ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٤) السودان عبر القرون ص ٣٩٥ .

أمين باشا ، وأقنعه بالانضمام إليه ، فقبل وصيره مديرا على الاستوائية . فلما علم الخليفة عبد الله بالأمر أرسل حملة قضت على فضل المولى، وطردت الحاميات البلجيكية التي توغلت في البلاد .(١)

ولم تهدأ مطامع البلجيك ، فحاولوا الاستيلاء على دارفور وبحر الغزال فصدهم جيش الخليفة عن غايتهم . غير أن ملك البلجيك ولج بابا آخر ، فحاول عن طريق السياسة أن يستأجر من مصر حوض وادى النيل من بحيرة البرت إلى الخرطوم ، ولكن مفاوضته مع الانجليز لم تثمر ، لأن رغبته كانت مناقضة لمطامع الانجليز في امتلاك السودان .(٢)

هكذا نرى حكومة الخليفة عبد الله قد أصبحت في مهب رياح استعمارية تذاء بت عليها من كل صوب ، وفي الداخل تحيط بها صدور تغلي بالحقد والكراهية ، مما جعل الانجليز يسرعون إلى ابتلاع السودان باسم مصر ، بعد أن أرغموها على إخلائه .

كان للمستعمرين البريطانيين حلم قديم ، هو إنشاء امبراطورية لهم في افريقية ، تمتد من رأس الرجاء الصالح إلى القاهرة ، ومن أجل تحقيق هذا الحلم عقدت أنجلترا معاهدة مع بلجيكا ، كان الغرض منها اقصاء فرنسا عن حوض النيل، فغنم ملك البلجيك من هذه المعاهـدة إقليم اللادو وبحر الغـــزال .

ومن أجل تحقيق هذا الحلم عقدت انجلترا معاهدة مع المانيا ، اعترفت فيها المانيا بأن أفريقية البريطانية تمتد من أعالي النيل إلى حدود مصر ، وإلى حدود الكونغو البلجيكية . وبعد ذلك بسطت انجلترا نفوذها على الكونغو واستولت على أوغندة وأونيور ، فوطدت أقدامها في أواسط أفريقية وأعالي

---

(١) تاريخ مديرية خط الاستواء ج٣ ص ٣٢٩ — وضرار ص ٢٠٤ .

(٢) السودان عبر القرون ص ٣٩٨ .

النيل قبل أن تثب على السودان ، وقد رأينا موقفها من الطليان فى شرقى السودان .

ومن أجل تحقيق هذا الحلم كانت انجلترا قبل ذلك قد أرغمت مصر على إخلاء السودان تمهيدا لاستعادته باسم مصر ومالها وجندها ، لتنظم حلقات الامبراطورية البريطانية فى افريقية ، وقد فهم شريف باشا الموقف كما ينبغى فوقف وقفته الباسلة ، وارسل كلمته الشهيرة « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » . (١)

بهذا الإدراك نستطيع فى يسر أن نفهم تناقض السياسة البريطانية واختلافها فى ظاهر الأمر ، مما جعل المؤرخين يضطربون اضطرابا شديدا فى تأويل هذه السياسة وتحديد غايتها ومراميها .

وعندما اكتملت لمصر قوتها الحربية والمالية عزم الانجليز على فتح السودان ، ليضعوا الحلقة المفقودة فى مكانها من امبراطوريتهم الافريقية ، وليحرزوا قصب السبق فى التنافس الإستعمارى المسعور (٢) ، وليأخذوا بأيدى الطليان الذين هزمتهم الحبشة هزيمة نكراء . فأصبحوا فى حالة تطوع للسودانيين أن يلحقوا بهم مثل هذه الهزيمة ، والانجليز لا يريدون للسودانيين ان ينتصروا ، خشية أن يقوى النصر عزائمهم فيعتذر الفتح وتطول المقاومة ، وكانوا يتوجسون خيفة ، من أن يتحد السودان والحبشة فى محاربة الأوربيين بعد أن تنبه الخليفة عبد الله إلى خطرهم المحدق . (٣)

ومما أغراهم بالإسراع إلى غزو السودان وهن حكومة الخليفة عبد الله من جراء النزاع الداخلى وفتك المجاعة ، والحروب المتصلة هجوما ودفاعا فى أطراف القطر وخارج حدوده كما رأينا .

---

(١) مصر والسودان للرافعى — ص ١١٠ — ١١١ و ١٥٣ — ١٥٥ .

(٢) ليالى سطيح ص ٦٨

(٣) تاريخ السودان الحديث — ضرار صالح ضرار — ص ٢٠٩

والهزيمة التي حاقت بحملة عبد الرحمن النجومي أذكت جذوة الحماسة في الجيش المصري الجديد، وقشعت الهالة التي كانت تحيط بجيش المهدية، وتبالغ في إظهار قوته المعنوية .(١)

وما أذاعه الهاربون من قبضة الخليفة عبد الله أمثال سلاطين من ظلم الخليفة عبد الله وجبروته وبطشه بالناس؛ أثار الرأي العام الأوربي، وأسبغ على بريطانيا ثوب المنقذ الرحيم لشعب بات فريسة الظلم والطغيان .(٢)

لم يكن قدوم الحملة التي جاءت لانقاذ غوردون ١٨٨٤م ورجعت قبل أن تحقق الغرض عاريا عن الفائدة؛ فقد درس خبراؤها المنطقة دراسة واسعة دقيقة، تناولت النيل وجنادله؛ وتناولت الصحراء وطقسها وعقباتها ووسائل النقل فيها وأنواعها ، فانتفع الجيش الفاتح بهذا كله . (٣) وكانت الحال في السودان من جميع نواحيها مكشوفة أمام ونجت، ومعاونيه؛ فقد كانت لهم عيون من التجار وغيرهم، وانجلى كل شيء في وضوح بعد فرار سلاطين . (٤)

وعلى هدى الدراسات التي بين أيدي الانجليز في مصر اختار اللورد كرومر كتشنر سردار الجيش المصري قائداً لجيش الفتح، لما له من صفات تميزه منها: إلمامه بشيء من عادات أهل السودان وتقاليدهم، وقدرته على التكلم باللغة العربية .(٥)

---

(١) السودان عبر القرون ص ٣٩٣

(٢) السودان عبر القرون ص ٢٩٢ وضرار صالح ضرار ـ ٢٠٨ ـ ٢١١

(٣) السودان عبر القرون ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣

(٤) المصدر نفسه ص ٤٠٣

(٥) المصدر نفسه ص ٤٠٤ .

تحرك هذا القائد من مصر بجيش مدرب يحمل سلاحا حديثا ، وكان همه أن يشن حربا بطيئة ولكنها شديدة متصلة ، فنهج نهج الرومان فى مد الطرق ليكون على صلة دائمة بقاعدته ، وليضمن وصول المدد العسكرى ، السلاح والذخيرة والمؤونة والمواد الطبية ؛ فصرف همه إلى بناء خط حديدى يربط مصر بالسودان[١] .

وهكذا سار فانتصر على جيش المهدية فى «فركة» وفى «الحفير» واحتل دنقلا ، و«أبا حمد» و«بربر»[٢] ، وتحرك بارسونز باشا بقوة مصرية من سواكن فاستلم كسلا من الطليان ورفع العلم المصرى مكان العلم الطليانى[٣] .

ولم يخف جيش المهدية من أم درمان إلى لقاء العدو ، بل اكتفى الخليفة عبدالله بإرسال محمود[٤] ود أحمد وضم إليه عثمان دقنة ، ليعسكر فى المتمة. وهنا وقعت مأساة دامية ، زادت المهدية ضعفا على ضعف . ذلك أن عبدالله ود سعد زعيم قبيلة الجعليين ثار على الخليفة عبدالله واتصل بالجيش الفاتح ، وأبى أن يخلى المتمة كما أمره الخليفة بذلك ، بل اتخذها جبهة قتال وتحصن بمنازلها . فصادمه محمود وبطش بقبيلته وأذلها ، وارتكب من المنكرات ما يأباه الخلق الكريم ، حتى إن كثيراً من نساء الجعليين قذفن بأنفسهن فى النيل وفضلن الموت على العار[٥] . وبعد أن نفض يديه من دماء المأساة وشنارها عبر النيل إلى شندى وسار شمالا ، فقابل جيش الفتح والتحم به فى معركة رهيبة هى موقعة «النخيلة» وانتصر العلم والسلاح الحديث على البسالة العزلاء أو شبه العزلاء ، فوقع نفر منهم فى الأسر على رأسهم

---

(١) ليالى سطيح ص ٧٣ .
(٢) السودان عبر القرون ص ٤٠٦ .
(٣) السودان عبر القرون ص ٤١٣ .
(٤) محمود ود أحمد وعثمان دقنة من قواد المهدية المشهورين .
(٥) سوم شقير ج ٣ ص ١٢٢٥ — ١٢٢٦ .

القائد ، وقتل منهم عدد كبير، وفر منهم من نجا لينضم إلى جيش أم درمان، وكان منهم عثمان دقنة[1] .

وأخذ الخليفة يستعد للدفاع عن عاصمته ، وتحرك كتشنر قاصداً هذه العاصمة بجيش كثيف من السودانيين والمصريين والإنجليز ، وهو يعلم كل شيء عن استعداد الخليفة من عيونه[2] .

عسكر الخليفة[3] بجيشه البالغ نحو خمسين ألف مقاتل في جبال «كررى» منتظراً لقاء العدو، وعندما وصل كتشنر المكان الذى اختاره الخليفة للموقعة الفاصلة ، وأصلت السفن البخارية سيرها إلى العاصمة ، فحطمت «الطوابى» ودكت قبة المهدى[4] لتوهن عزائم المقاتلين ، وكأنهم يقولون لهم بهذا الصنيع إن المعجزة التى هزمت جيش التركية ، وبددت جموع هكس وفتكت بغوردون ، قد بطلت ، لأن صاحبها عجز عن حماية ضريحه .

وفى اليوم الثانى من سبتمبر عام ١٨٩٨م ارتفع نداء النفير إيذاناً بتوقع الهجوم . وفى ساعة مبكرة من الصباح سمع جيش كتشنر لجب الأنصار ، وفجأة لاحت على الأفق الرايات خضراً وسوداً وبيضاً وزرقاً ، وارتفعت أصواتهم بالتكبير «الله أكبر ولله الحمد» وتقدم أمراء الجيش وشيوخه ، واختال الفرسان على ظهور الخيل أمام المشاة ، فأطلقت الحملة الإنجليزية المصرية نيران المدافع ، وبدأت المعركة الفاصلة ، وجهد الأنصار فى إطلاق ما لديهم من مدافع ، ولكنها كانت ضئيلة البأس قصيرة المدى النسبة إلى المدافع الحديثة التى كان يستعملها الإنجليز ، فقد كانوا يطلقون رصاصاً خطيراً فتك بالأنصار فتكاً ذريعاً .

---

(١) عبر القرون ص ٤١٦ .
(٢) السودان عبر القرون ص ٤١٧ .
(٣) تاريخ السودان الحديث — ضرار صالح ضرار ص ٢١٧ .
(٤) السودان عبر القرون ص ٤١٧ .

واستهات الأنصار فى القتال ، فإذا هوت صفوفهم الأمامية حلت محلها الصفوف التى خلفها فى لمحة البصر ، وهكذا ظلوا يتساقطون جماعة على جماعة، حتى غطت جثثهم ساحة القتال ، وكان مشاتهم فى قتال فرسان الإنجليز يعمدون إلى إصابة عرقوب الفرس ، فإذا أكب طعنوا الفارس برماحهم ، وكان فرسانهم يهجمون بخيولهم السريعة وسيوفهم المصلتة ورماحهم المشرعة ولا يرجعون إطلاقا ، فإذ توقف هجومهم فمعنى ذلك أنهم بادوا عن آخرهم.

لقد أبلى الأنصار بلاء حسنا ، ومع ذلك دارت عليهم الدائرة ، لأن المعركة لم تكن بين الرجال الشجعان ، ولكنها كانت بين العلم الحديث وبين الجهل القديم ، كما يقول عبد الرحمن صدقى ،

وفى نهاية هذه المعركة سجل التاريخ نهاية دولة المهدية فى السودان ، فدخل كتشنر أم درمان مختالا فخورا ، وفعل بها الأفاعيل ، وانتهك حرمة قبر المهدى ، وبعد يومين عبر النيل إلى الخرطوم ، فذهب توا إلى أطلال سراى الحكمدار ، وأقام صلاة مسيحية على روح غوردون ، وارتفعت راية على قمة الطلل بإشارة منه ، كانت هى العلم الإنجليزى ، وبعد لأى وتراخ رفع العلم المصرى الذى فتح السودان باسمه ، وكان هذا الترتيب والتعقيب مصورا للحكم الثنائى معبرا عن جوهره . ولعل هذا هو الذى أوحى إلى حافظ ابراهيم — وكان من ضباط هذه الحملة — ببيتيه المشهورين المتشائمين :

فما مصر كالسودان لقمة جائع   لكنها مرهونة بأوان
وأكبر ظنى أن يوم جلائهم   ويوم نشور الخلق مقترنان[1]

والحمد لله الذى كذب نبوءة الشاعر الأسوانى ، وصدق تفاؤل المجاهدين فى مصر والسودان .

---

(١) هذا كله مقتبس من ابيال سطيح بتصرف كثير ، انظر ص ١١٣ — ١١٥ .

وغادر الخليفة عبدالله أم درمان بعد الهزيمة إلى غربي السودان متحرفا لقتال ، ولكن قوات الفتح عاجلته ، فمات في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ م ميتة الأبطال، بسط فروته وجلس عليها منتظرا الاستشهاد كعادة أبطال السودان عندما تتحطم في أيديهم وسائل الدفاع[1] .

وقد وصفه المؤرخ نعوم شقير بقوله : إنه كان قبل اتصاله بالمهدى من الدجالين ، فاتصف بصفاتهم التي قوامها المكر والدهاء والتشيع للدين ، ولما اتصل بالمهدى برز من صفاته حسن الإرادة والتدبير مع القسوة والميل إلى سفك الدماء ، وكان شديد البطش بأعدائه أو من يتوهم أنهم أعداؤه ، وكان مشغوفا بالإطراء ، يحب أن يوصف بالحكمة والقوة والعدل ، مبالغا في الاعتداد بنفسه ، يظن أنه قادر على كل شيء ، لا يقبل نصيحة من أحد ، وكان يرخي أذنه للنمامين والوشاة ، وبهذه الصفات أرهب أهل السودان كافة على ما بهم من الجرأة واحتقار الموت[2] .

ويقول «سلاطين» إن الخليفة عبد الله قد اتصل بالمهدى وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان قوى البنية، فلما اشتدت عليه الخطوب وتعاظمت الثورات والأحداث صار يبدو كهلا قد اشتعل رأسه شيبا ، وضاق صدره فأصبح سريع الغضب، فإذا انتابته موجة الغضب كان من الصعب أن يدنو منه أحد مهما تكن صلته به وقرابته منه[3] .

٨ — أنا لا أحب أن أحكم على هذه الفترة من المهدية، خشية أن يكون حكمي جائرا متأثرا بما لاقاه (أولاد البلد) من عنت ومشقة في أيامها العصيبة ، وأكتفي برأي المهدى نفسه في المهدية بعد فتح الخرطوم ، أنقله

---

(١) تاريخ السودان الحديث لضرار صالح ضرار ص ٢٢٠ .

(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ٢٤٥ .

(٣) السيف والنار ص ٢٢٦ .

بنصه عن المؤرخ الدكتور مكى شبيكة «وهناك أخبار وردت عن ثقاة عن المهدى يرى فيها أن المهدية وردت على نهج يختلف عما كان يرجوه لها ، فقد روى عن الشيخ محمد ود البصير أنه قال ذات يوم بعد فتح الخرطوم طلبنى المهدى نصف النهار وقال لى إن أمر المهدية كان طويلا ، ولكن الإخوان غيروا وبدلوا ، ونحن اخترنا الآخرة ، فقلت كيف وانك كنت وعدتنى بفتوحات كبيرة . فأجاب بأنها كلها نسخت ، لأنه لا يخفى أن القرآن ينزل من عند الله بواسطة جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ويكون فيه الناسخ والمنسوخ » .

وفى رواية أخرى «أن أحد الأنصار سأل المهدى : كيف اتبعك هؤلاء الأعراب الأجلاف؟ ، فتبسم المهدى وقال له : يا أخى إن هؤلاء الأعراب إلى الآن لم يتبعونى على ما أطلب من إقامة الدين . وقد حضرت لى جوابات فى هذا اليوم من أبا بأن جماعة منهم قتلوا سبعة من المسلمين ظلما وعدوانا ، ولكن يا أخى أنا لما ألزمت بأمر المهدية وتحتم على ولم أجد منه خلاصا كاتبت أهل المساجد وأهل الدين وطلبت منهم إجابة دعوتى والقيام معى فى تأييد الدين ، لتأتى المهدية على حالة مقبولة عند العقلاء ، فمنعهم الجاه عن إجابة دعوتى ، فدعوت هؤلاء الأعراب الأجلاف فأجابونى فى الحال وهاجروا معى فى الحال ، فلزمنى لهم حق الصحبة القديمة ، وجاءت المهدية على هذه الصورة المشوشة عند العقلاء حسب طباعهم وعلى حسب مراد الله ، فعلى الناس أن يصبروا على جفوتهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا»[1]

وقبل أن أدع هذا الحديث إلى حديث آخر أحب أن ألفت القارىء إلى أمرين :

أولهما : أن قول المهدى هنا إن ما وعد به قد نسخ يؤكد ما قلته فى

---

(١) السودان عبر القرون ص ٣٥٨ — ٣٥٩

صدر هذا البحث عن أثر التفكير الصوفي في تاريخ السودان ، هذا المناخ الفكري يجب أن أحرص على تذكره في مسيرى في هذه الرسالة، فقد كانت له آثار خطيرة جدا في تاريخ السودان ، فهو المدخل الكبير لفهم حقائق الثورة المهدية وما تلاها من أحداث ، هذا المناخ الفكري أكبر محرك لتاريخ السودان ، فالواح المحو والإثبات كانت بها نهاية التركية ، وبداية المهدية ونهايتها .

ثانيهما : إذا كان شأن هؤلاء الأعراب في حياة المهدي نفسه كما وصف، فليفكر القارىء في حالهم بعد أن صاروا في يد الخليفة عبد الله سلاحا لا بد منه لإسكات تذمر أولاد البلد ، ليدرك — وهو غير متأثر بما سجله المؤرخون — المأساة التي كان يعيش فيها « أولاد البلد » .

ب – الشعر

الشعر فى هذه الفترة جد فقير ، فقير فى مقداره وفى تنوعه ، كتب عليه أن يجانب الأحداث الكبار والمآسى المروعة ، وكتب عليه الا يساير الأبطال فى حرب الحبشة كما ينبغى ، والا يشيد بانتصارهم الذى دوت به الآفاق ، واعتزل الصراع الدائر بين الخليفة عبد الله وبين الأشراف بصورة واضحة ، وهذا الشعر لم يمس الثورات الضاربة الا مسا خفيفا ، ولم يصور فظائع المجاعة الساحقة التى حصدت الأنفس حصدا ، وهزت كيان الدولة هزا ، ونثرت أمام أعين الناس صورا هى غاية فى البشاعة ، وخبأت فى ظلام الأكواخ نفوسا عزيزة كريمة ، آثرت الموت جوعا على طلب الحياة من تكفف الناس وإراقة أمواه الوجوه .

ثم هو لم يواكب الأنصار فى مصادمة الجيش الفاتح ، تخلى عنهم وهم فى أشد المعارك إثارة للشاعرية واستدعاء للشعر ، أعنى معركة كررى ، التى كان فيها الأنصار مثلا شردوا فى الشجاعة ونمطا فريدا فى الاستهانة بالحياة ، فلم يموتوا حتى ماتت مضارب سيوفهم واندكت صدور رماحهم ، وأمست جثثهم مثل جبال كررى على أرض المعركة ، وأشهدوا الملأ بأنهم فعلوا ما هو فوق طاقة البشر من الثبات وصدق الجهاد ، وأخيرا هو لم يذرف دمعة على قبر المهدية ، ولم يعلن سخطا على من داسوا بأقدامهم أقدس أقداسها .

وكما كان هذا الشعر فقيرا فى مقداره وتنوعه ، كان فقيراً فى فنه ، فإذا إستثنينا قصيدة وبقية من قصيدة لم يبق بين أيدينا الا شعر سفساف ، يكاد لا يصله بالشعر نسب ، ولا تدنو به إليه قربى سوى الوزن والقافية ، والوزن قد يختل ، والقافية فى أحيان كثيرة تكره على الإقامة فى موطنها اكراها ، وهى فى بعض الأحيان تضطر الشاعر أن يصوغ لها كلمات لم ترد فيما خلف العرب من شعر ونثر ، وفيما دونوه من معاجم ، وليست هى مما يستسيغه القياس المستقيم والذوق السليم .

لقد سجلت فى صدر هذا الفصل الأحداث الجسام ، باقتضاب شديد ، لألقى نورا على الأفق الذى اضطربت فيه ، والدوافع التى أثارتها ، وأنا أعلم علم اليقين أن الشعر الذى بين يدى لا يمثلها ولا يدنو منها إلا بقدر ، ففكرت مليا وهممت بإهمال الحوادث التى أهملها الشعر ، ولكنى مضيت فى تسجيلها موجزاً ماوسعنى الإيجاز وذلك لسببين :

(أ) رأيت أن ليس من الأمانة فى الدراسة أن أفصل الأحداث على قد الشعر ، فمن الخير بل من الواجب أن أسجل الأحداث التى تثبت تقصيره فى النهوض بما كان عليه أن ينهض به ، وأن التمس الأسباب التى غلت يده فلم يبطش ، وأمسكت لسانه فلم ينطق .

ثم أنى لست على ثقة بأن ماوصل إلينا هو كل الذى قيل ، فالمخطوطة التى تحدثت عنها فى الفصل السابق تبدأ من صفحة ١٧٧ وهذا وحده دليل مادى على أن شعراً كثيراً قد ضاع .

(ب) رأيت أن هذا التمهيد لم يكتب لهذه الفترة وحدها فالمهدية بعد أن جردها الزمن مما علق بها من هنات ، ومما لصق بها من سيئات ، أصبحت ذكرى كفاح وميراث بطولة ، وسلاحاً مدفوناً نبشه الشعراء وصوبوه إلى نحور المستعمرين ، وخاصة ماكان فى المواقع الشهيرة مثل شيكان والخرطوم وكررى ، وكأنهم يقولون للانجليز الذين ثاروا لأسلافهم من أمثال غوردون وهكس وغيرهما ، نحن أبناء الذين فعـــلوا بسلفكم الأفاعيل ، وسنعيد الكرة فندحركم ونشتت صفوفكم مثلما فعلوا ، ولا يغرنكم انتصاركم علينا فى كررى فانكم لم تدخلوا عاصمتنا إلا على جثثنا خائضين فى دمائنا ، فقد عاش أسلافنا أبطالا وماتوا أبطالا ونحن الوارثون لأمجادهم .

وأردت أن أدعم الأحداث التى لم يصورها الشعر الفصيح – كما ينبغى – بنماذج من الشعر الشعبى ، فهو وإن لم يكن من مواد الدراسة ، فإنه يمتاز بميزات تجعل من العسير على الدارس أن يتجاهله فى مثل هذه الفترة التى

نضب فيها معين الشعر الفصيح، فهو نص تاريخي أصدق مما يكتبه الأجانب، بل ربما كان أصدق من روايات المواطنين أنفسهم ، لأنه صور صادقة لما كان يعتمل في صدور الناس ، وبعد أن يدخله التلفيق الذي يفسد الأخبار، لتسلسل روايته وشيوعه على ألسنة الناس وهو في معظمه بعيد عن الملق الذي ربما جنح إليه الشعر الفصيح ، وهو مع ذلك يمثل قمة اللهجة العربية السودانية ، ولى أسوة بأسلافنا فقد كانوا يروون اللهجات بجانب اللغة الفصحى ، فكتب الجاحظ حافلة باللهجات وأدب اللهجات .

٢ — رأينا في الفصل السابق أن مدح الخليفة عبدالله وغيره من الخلفاء يجيء تابعاً لمدح المهدى ، أو يأتي في صورة عزاء في أواخر مراثيه ، أما هنا فقد حل الخليفة عبد الله مكان الصدارة ، وأصبح مدح غيره تابعا له في الشعر الذي مدح به . وبين يدى قصيدة فخر نظمها الشيخ محمد الطاهر المجذوب حين علم الخليفة أن جيشا انجليزيا يتقدم نحو سواكن لسباغت « ديم عثمان دقنة » في هندوب ، فكتب إلى عثمان دقنة يأمره بالانسحاب من المدينة لاستدراج العدو وجره إلى شعاب الجبال التي لا يعرف مسالكها كما يعرفها عثمان وأصحابه . ومطلع القصيدة :

هندوب تعرف صبرنا كيف ارتكبنا للصاعب

صور الشاعر في هذه القصيدة ملاحم الحسن في شرق السودان ، بأبيات تمثل سرعة الخيل وانتقالها من مكان إلى مكان ، والذي يدل على صدق لهجته فيها أنه أشاد بالسيف والرمح والخيل ، ولم يفتخر بغيرها من الأسلحة الحديثة ، إذ كان جل اعتمادهم في الحرب على الفروسية والمباغتة التي تضعف معها ضراوة سلاح النار وفتكه، وإن كان يدوى كالرعد القاصف. والقصيدة في جملتها تمثـــل نشوة المنتصر الذي توالت انتصاراته ، وذاع صيتها على صفحات جريدة الجوائب[1] الواسعة الانتشار :

(١) الجوائب : الجريدة التي كان يصدرها الأستاذ أحمد فارس الشدياق ، وكانت تعنى بأخبار السودان . فتاة الوادي ص ٩٤ .

وهشيم تشهد عزمنا كيف ادرعنا للمصائب
ياطالما صـــدنا بها صيد الغضنفر للثعالب
جيشا برن سلاحـــه كالرعد إذ ما المزن صائب
وسوا كن تدرى بنا أنا لدى الهيجا نضارب
بالمشرفى كأنـــه وقع الصواعق فى المضارب
زمنا رصـــدنا نحوها نبدى العجائب والغرائب
ونثر فى أرجائهـــا كالليث إذ نشب المخالب
ولطالمـــا برزت لنا منها العساكر والكتائب
من كل فج يمنـــة بل يسرة من كل جانب

وهذا البيت يمثل كثرة الجيوش وسرعتها تمثيلا رائعا .

فنجـــاذبتهم خيلنـــا ترمى بهم رمى الثواقب
والبيض تلعب فيهم فوق العمائم والعصائب
حتى أتت أخبـــارنا من مصر تكتبها الجوائب
نحيى لدين الله بـــل فى شأنه نلقى المعاطب

ويعتذر فى ختام القصيدة عن خروجهم من هندوب ، فهم لم يخرجوا جبناً ، ولا رغبة فى طول الحياة ، فليس هذا من شأنهم ، ولكنهم تحرفوا لقتال وطاعة لأمر ولى أمرهم الخليفة عبد الله ، فليعلم الأجانب كلهم جلية الأمر وحقيقته :

ما إن رحلنا عنهم جزعا ولا خوف النوائب
بل طاعة لولينـا فليدر ذا كل الأجانب[1]

والقصيدة وإن كانت وافية بغرضها لا تخلو من سمات الارتجال ، فهى

(١) نفثات اليراع ص ٩٣ ـــ ٩٤ .

مرتجلة كما قال صاحب نفثات اليراع ، فالقوافى فى بعض أبياتها لم تجلس فى أماكنها عفوا صفوا ، وذلك مثل قوله :

كيف ارتكبنا للمصاعب
وكيف أدرعنا للمصائب
منها العساكر والكتائب

فأنت تحس بأن اللام فى « المصاعب والمصائب » لم يأت بها المعنى ، وإنما جاءت بها القافية ومراعاة الوزن ، والكتائب بعد العساكر جاءت للقافية وفى بعض كلماتها ضعف مثل « يرن » فهى لا تعطى صوت الصواعق التى شبه أصوات السلاح بأصواتها .

وفى القصيدة ظاهرة يكرهها القدماء ويسمونها التضمين ، وهى أن يحتاج البيت إلى ما بعده ليكمل معناه مثل قول شاعرنا :

وسواكن تدرى بنا   أنا لدى الهيجا نضارب
بالمشرفى   كأنه   وقع الصواعق فى المضارب

وقوله :

ولطالما برزت لنا   منها العساكر والكتائب
من كل فج يمنة   بل يسرة من كل جانب

أما أنا فلا أكره هذا اللون من الأداء ، وأعتقد أنه أكسب القصيدة وحدة قل أن نجد لها مثيلا عند القدماء .

ولدى بقية من قصيدة للشاعر نفسه رثى بها القائد المشهور حمدان أبا عنجة ، ومن دواعى الأسف ان المراجع لم تذكر من القصيدة إلا هذه الأبيات ، والذى دلنى على أنها قصيدة وليست مقطوعة قولهم « رثاه بقصيدة منها[1] » ثم يروون الأبيات ، وهذا برهان مادى آخر على أن شعرا قد ضاع ولربما عثرنا عليه بظهور مخطوطة أخرى أو مخطوطات .

---

(١) السودان عبر القرون ص ٣٨٥ ونعوم شقير ج ٣ ص ١٠٧٧ (ب)

وأما الأبيات التي بقيت فهي :

حمدان إنك طالما سمت العدا   ذلا وذكرك في المحافل يرفع
ماوجهت رايات نصرك وجهة   إلا وبالظفر المؤكد ترجع
ذلك الهنا بلقاء ربك شاهرا   سيف الجهاد وكل قرم تقمع
وسحائب الرضوان تغشى تربة   ضمنتك مانجم يغيب ويطلع

٣ — بعد ذلك لم يبق لدى من الشعر الفصيح سوى شعر الشيخ عبدالغنى السلاوى ، وهو شعر كثير ، ولكن كثرته تؤول إلى قلة ، فهو كله فى مدح الخليفة وتبرير مواقفه وذم خصومه ، أما مدح غيره فيأتى تبعاً ، ومن جهة المعنى فإن مثالا منه يكاد يغنى عن سائره ، فهو لايعنى بشيء ولا يقصد إلى شيء ، سوى أن يجمع صفات المدح ويسبغها على الخليفة عبد الله ، أو من مدحهم ضمن مدحه من قواده وقضاته ، ولا يهمه بعد ذلك أن تكون هذه الصفات ماثلة فى الواقع أو متخيلة ، مناسبة للممدوح أو فضفاضة مسرفة فى الطول والعرض ، وسنرى مصداق ذلك إن شاء الله ، فمن أمثلة هذا الشعر مامدح به الخليفة عبدالله بجمله على الصورة الآتية :

ومهيب يكون كل عظيم   هادئا عنده يهاب اللقاء
وقوى على العدا ورحيم   بضعيف له جعلت فداء
حكم فيصل لكل النواحى   عم عدلا عمارة وخلاء
ومطاع إذا أشار لأمر   رجع الأمر كيف شاء مضاء
وبليغ إذا يخاطب يوما   ينزع النطق لحنة وسداء
عبقرى قديته عبقرياً   فى المعالى يسوم منها ارتقاء(١)

وسنرى أن هذه الصفات ستتكرر وتتضخم .

وفى قصيدة أخرى حاول أن يسلك الخليفة عبدالله فى نسب الأشراف ،

---

(١) المخطوطة ص ٢٥٦ — ٢٥٧

فاحتال لذلك بأن جعله سر بيت المهدى ، فهو إذن وارثه حتى فى النسب . وسنرى أنه يقول إن الخليفة ورث المهدى « بما له وما عليه » . ولما تمت له هذه الحيلة أدخله فى بيت آل النبى (ص) وسار فى مدحه على هذا الأساس، وفى هذا الصنيع كيد للأشراف الذين يرون أن الخليفة شريف أو أحد أبناء المهدى أولى بتولى أمر المهدية ، لأنهم من آل بيت مؤسسها ومن آل بيت النبى (ص) :

يا سر بيت الإمام يا خلف الـ — صديق يا وجهتى يا منتهى أملى
قصدى رضاك بنظرات تتابعها — نحوى وترأف بى مع ماعلى ولى
يا آل بيت الهدى فى الدين حلتنا — نيطت بكم أمد الإشراق والطفل
لكم وراثة أخـــلاق لجدكم — علم لدنى وحلم ساعة الزعل
وغيرة فى تعدى الحق ليس لها — مسكن غير حد فى الكتاب تلى
ورحمة للورى تجرى بلا عدد — لحكمة أنت تدريها ولم تزل
وخشية لإله الناس مجتهدا — فى وجه إيصال نور الله قلبى خلى[1]

وكان يتصيد المواسم الدينية والمناسبات، ليزجى إليه مدائحه، من ذلك قوله يهنئه بحلول شهر رمضان ، ويتمنى أن يعقبه عيد كبير هو اتساع دائرة المهدية بفتح مصر واستانبول !!

شهر الصيام يهنى بهجة الخلفا — بعوده فى مراضى الله وقت صفا
مازال ساعده يورى لمقتبس — منه اقتباسا لمن قد صام أو عكفا[2]
هذا ، وعيد اتساع الهدى يعقبه — بفتح مصر واسلامبول باحتفا

وقال يهنئه بعيد الفطر ، ذلك العيد الذى كدره عليهم فراق المهدى ،

---

(١) المخطوطة ص ٢٧٦ — ٢٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥١

ولم يبق بعده من أسباب العزاء إلا نهوض الخليفة عبد الله بالأمر :

عيد بمن خلف الصديق مبتهج ... مذ شيد الهدى وارتاحت به المهج
عيد به فرحة الآناس أجمعها ... لولا فراق أبي البشرى ومن درجوا
هذا . وإن مسنا حزن لفرقته ... ففي خليفته من هديه سرج[1]

وفي عيد الأضحى لا تخطر بذهنه صفة من صفات المدح إلا اتحف بها مولاه ، وإن كانت لا تشبهه ولا تمت إليه بآصرة . فهو أبلغ البلغاء بل سحبان وائل بالنسبة إليه عي مثل باقل ! . وهو شجاع منصور يقاتل معه حزب الله ، وهو متوكل على الله كالأنبياء . عابد يمعن في العبادة . هذا كله في عالم الشهادة ، أما في عالم الغيب فإن الخضر يصاحبه ويملي عليه الحكمة والصواب :

الله أكبر ما تهنى ذو العلى ... خلف الإمام بهديه وتجملا
أوما به عيد الأضاحي مشرف ... حقا ومن أنواره متجللا

* * *

إن جال ميدان البلاغة ناطقا ... ألفيت سحبان بن وائل باقلا
أو جال ميدان الشجاعة عنده ... ألفيت حزب الله عنه مقاتلا
أو جال ميدان التدين عنده ... تلقاه دوما راكعا متنفلا
أو جال ميدان التوكل عنده ... حصل الخليل به ومد توكلا
أو جال ميدان الغيوب لديه قد ... ألفيت ذا الخضر المعظم مملا[2]

---

(١) المخطوطة ص ٢٥١
(٢) المخطوطة ص ٣١١ — ٣١٢

وقال يمدحه بمناسبة عرض الجيش :

تالله لو أبصرت عرضهم لشمت　　البحر يرى كل ليث دافر[1]
وإذا نظرت سيوفهم أيقنت أن　　البرق يبدو فى أكف عساكر
أوشمت ياصاحى رماحهم لشمت　　مشاعلا تبـــدو بغاب كاثر
ودوى خيلهم يحاكى راعـدا　　وزجيج[2] إبلهم كصيب ماطر[3]

وقال يعلل ويبرر هجرة سكان غربى السودان إلى أم درمان ، تلك الهجرة المشئومة التى أشعلت نار العصبية القبلية ونشرت طيها المستور ، وافضت بالناس إلى مجاعة حاصدة كادت تأتى عليهم عن آخرهم ، ثم جردت حكومة الخليفة عن أظافرها وأنيابها ، فسالمت الحبشة مرغمة ، وخرت مستسلمة فى موقعة توشكى ، بالرغم من بسالة الأنصار وصلابة قناتهم . فادعى أن حب الخليفة عبد الله هو الذى جذبهم ، فأتوا من أوطانهم تلبية لدعوة هذا الحب ، وأن الخليفة تقبلهم بقبول حسن واذهب مابهم من ضر يريد بهذه المحاولة أن يفهمنا أن الخليفة لا يد له فى هذه الهجرة ، ولا هو مسئول عن جرائرها :

جذب الغروب بأسرها لهداه حـ　　ـتى جانبوا وطنا ثووه منزلا
فعلتهم رحماه وانقطع الأذى　　عنهم وأبعد عنهم كل البـــلا
ملأوا البسيطة بالركاب دويها　　يحكى دوى الرعد لكن موجلا[4]

وقال يحض الناس على طاعة الخليفة ، ويحرضهم ليسرعوا الى محاربة

---

(١) دافر : مركض فرسه فى لهجتنا .
(٢) الزجيج - لون من جرى الأبل فى لهجتنا أيضا .
(٣) المخطوطة ص ٢٩٨ .
(٤) المخطوطة ص ٢٦٥

الحبشة ، وهو هنا ينظر إلى ماقاله الشيخ محمد عمر البنا من حكم تتحدث عن فضائل الجهاد ومزاياه ، ويصوغها في أسلوبه الضعيف :

الله أكبر إن الكفر منخذل	والدين يعلو وهدى الله متصل
وذا الخليفة عبد الله قائدنا	بحسن هدى سناه ليس ينبذل
وذى الجنان لأصحاب الإمام بدت	هى المقام لمن يقفو ويمتثل
والحور ترقص فيها فرحة بهم	دوما وأترابها الولدان تحتفل
وحيث ذلك معدود لنا فلما	ذا الجبن والروح حقا صاح تنفصل
والفضل في معرك الهيجاء ليس له	أعلى ولا شبه فيه ولا مثل
قوموا صحاب إمام الدين وانتدبوا	لله واحتسبوا الأرواح وامتثلوا
شدوا عليهم بهندى ومرهفة	أشفارها وبطعن رمحه الأسل
تظل منه رقاب الحبش مصرعة	فى واد ويل به النيران تشتعل (١)

وله كلام فيه تلميح يقرب من التصريح ، بأن الخليفة قد أصاب شاكلة الصواب حين وحد الجيش وهيمن عليه، وفيه أن الخليفة صاحب حضرات لأنه ورث المهدى « بما له وما عليه » ولا تعجب من مثل هذا التعبير في مقام المدح ، فكل شيء عند الشاعر عبد الغنى جائز مقبول :

وقيادة للجيش لكن صعبة	يوماً به فرسانه أشتات
لا فارس نرضى قيادته سوى	هذا الخليفة من تلته هداة
خلف الإمام بما له وبما عليـ	ـه تؤمه في غيبه الحضرات

والملائكة ماتزال تقاتل مع جيش المهدية البشرى ، لأن الخليفة عبد الله قد خلف المهدى « بما له وما عليه » :

---

(١) المخطوطة ص ٢٨١

وذاك جبريل فى رفع اللواء لكم شد ومد وهد للعدا قطعا
وجنده أجمع الأملاك مجتهد فى النصر والله فى عون لهم جمعا
وعزرائيل غدا فيهم مصفد أرو اح الكوافر تصفيدا لهم قمعا(١)

ويخاطب أهل مصر وينعى عليهم تخلفهم عن الدخول فى المهدية، ويعجب لجهلهم بحقيقتها، وفيهم أهل العلم والدراية وأهل الكشف والولاية. وقد أنذرهم المهدى من قبل وأنذرهم الخليفة من بعد، فلماذا لم تجدهم النذر ؟ !

يا أهل مصر ألا الإنذار ينفعكم ولا العلوم لكم تهديكم السبلا
أهلكتم أمة المختار من زمن مضى ومهدى رب الناس ما انتقلا
لحضرة القدس والأحبار عندكم أهل الدراية إما مدهش نزلا
عليكم الوزر إذ فى طوع فكرتكم إيضاح ذا الأمر نصا جاريا مثلا
أو محكما من كتاب جل منزله أو فى حديث نقى منطوقه العللا

وله رأى يتقدم به إلى أهل مصر :

والرأى عندى أن تأتوا لنا زمرا من الأجلاء أهل العلم والكملا
لتنظروا مسلك المهدى ومدرجه ومابه خلف المهدى قد شغلا
وتصبحوا لصحاب المهد مختبرى أحوالهم كلها تفصيلها جملا
لترجعوا مخبرى «توفيق» ما جزمت
به عقولكم أو ما لهـــا احتملا(٢)

والقصيدة على ما بها من ضعف تدل على أن الرجل كان من علماء الدين الذين اتقنوا طرق الحجج بأسلوب ذلك الزمان . وتدل على أنه يجادل

(١) المصدر نفسه ٣٨٣
(٢) المخطوطة ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

بالتى هى أحسن ، كما تدل على بعده عن فهم مايجرى فى خارج السودان ، ويبدو أن هذا « البعد » سمة من سمات تلك الحقبة من تاريخ السودان . يدل على ذلك أن الخليفة عبد الله رفض الصلح الذى عرضه عليه الخديوى توفيق ، ظاناً أنه سينتصر عليه بجيشه الهزيل الذى قضى عليه السغب واللغوب قبل أن يقضى عليه السلاح ، فقد أغلق حدود السودان وأخذ يتخيل العالم الخارجى تخيلا .

٥ — وله شعر فى خصوم الخليفة الذين ثاروا عليه ، من ذلك ماقاله فى صالح الذى احتمى بالحبشة :

هو طالح لا صالح إن لم يتب ... عما جنى حتى جفاه الوامق
لنفوره عن هدى مهدالله من ... حظى المجيب له وفاز الرامق
ياليته إذ مسه ذعر من الأ ... نصار تاب وما اعترته عوائق
وجفا صليبا ليس ينقذ نفسه ... وهداه عبد الله ذاك الوائق
بسماحه وقبوله ودخوله ... فى حزبه فهو الزلال الرائق[1]

ويقول فى قبيلة الكبابيش وزعيمها صالح ، وقد عرفنا أنها خرجت على الخليفة عبد الله :

هو من له فى القهر عنقا مغرب ... قهرت بها يوم الوطيس بوارق
وفرت كبابيشا عصت وقبائلا ... معها رماها فى الرداء تطابق
ورئيسها الأشقى الذى هو طالح ... لا صالح قد أرضعته عوائق
بسيوف أنصار الهدى وقت الردى ... رأس الشقى قد جب فهو مفارق[2]

(١) المخطوطة ص ٣٠٢
(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها

٦ — وقد توسع مدحه رجال المهدية الكبار كلهم تقريباً ، ولا أرى جدوى فى استقصاء ماقال فيهم ، فهذه أمثلة منه تدل على سائره :

يقول فى مدح الأمير يعقوب :

وأناله وصحـــابه رضوانه — لا سيما يعقوب أفخر سيد
هو من رقى فى الفخر مرقى شامخا — قد زل عن مرقاه كل مسود
هو من غدا كشفاً لأنصار الهدى — للضر عنهم يومهم أو فى غد

ومدح حمدان أبا عنجة وكأنه يعرض علينا مايعرفه من أسماء الأسد :

جند لهم حمدان ركن للهدى — دوماً ولا تدنو إليه طغـاة
أعظم به من فاضل قاد الورى — حقا لهدى أمه السادات
هو ضيغم فى الحرب إن سام العدا — خضعت له من بأسه الهامات
ضرغام عبد الله من وثباته — فى المنكرين يزاح عنها ثبات
أسد إذا لاقى العدا نشب الردى — فى عنقهم ودهتهم الدهشات (١)

ومدح القاضى أحمد على الذى عرفنا مصيره :

تراهم حافظ سر البداية عبـ — ـد الله من شاد هديا بأن مرتفعا
طوعا نهضنا فيما يروم بهم — وفيهم قادة جبوا به بدعا
كمثل أحمد على قاضى الأنام بما — قد أنزل الله فى القرآن متبعا
مع الحديث وقافى مهدنا أبدا — وكل من ناب عنه للهدى تبعا (٢)

ولا عجب فى أن يكثر الرجل من مدح الخليفة عبد الله ويلح فيه ، ويحرص على تسجيل كل مايتصل بحكومته . ولن كان قد قصر فى تصوير الأحداث الكبار مثل حرب الحبشة ، وانكسار جيش الخليفة فى توشكى .

---

(١) المخطوطة ص ٣٠٥
(٢) المخطوطة ص ٣٨١

لا عجب فى ذلك فالرجل كان متكسبا بالشعر ، وأنا لا أقول ذلك استنتاجا وإن كان الجو يوحى بمثل هذا الاستنتاج . فقد سجل الشاعر هذا وأفصح عنه فى شعره ، من غير مواربة أو التواء ، أفصح عن ذلك فى أرجوزة « عرض حال » تقدم بها إلى الخليفة عبد الله جاء فيها :

وبعد ذا ، فمن عبيد ربـــه عبد الغنى الراجى لمحو ذنبـــه
معروض حاله على السيادة بوصـــل الحسنى مع الزيادة
وهو بأنى معـــدم محتاج لما له عائلتى تحتاج
ولا يليق بى سؤال الناس إذ أننى مداح هادى الناس
وليس لى قبيله آوى لها سوى التجانى نحو باب ذى الوفا
خليفة المهـــدى عبد الله ذى الكرم العريض ثم الجاه(١)

هذا النص فى رأيى خطير لأنه يدل على أمرين خطيرين :

(أ) يدل أولا على أن شعر المدح فى هذا العهد قد فترت دواعيه وجف معينه ، فلم يبق مايخلب الشعراء ويجذبهم بعد موت المهدى الذى سحرهم بشخصيته الباهرة ، وبعد أن عانوا وعانت قبائلهم من العسف والبطش ماشاء لهم دفاع الخليفة عن نفسه أن يعانوا . وبعد أن شكوا فى سلامة الغاية التى من أجلها يتحمسون ومن أجلها يقاتلون . وبعد أن يئسوا من تسنم المراتب العالية فى دولة الخليفة ، حيث أصبحت وقفا على رجال قبيلته ، لهذا كله صمت الشعراء الكبار من أمثال محمد عمر البنا والحسين بن الزهراء والشيخ محمد الطاهر المجذوب ، مع استثناء قصيدته فى الفخر التى أوردتها . فلم يبق فى الميدان من يصول ويجول إلا الشيخ عبد الغنى السلاوى الذى لايهمه مايقال ولكن يهمه ماينال ..

---

(١) المخطوطة ص ٣٨٩ .

وهذا لا يناقض قولى فى صدر هذا الفصل تعليلا لقلة الشعر فى هذه الفترة : إن شعراً كثيراً قد ضاع بدليل أن المخطوطة تبدأ من صفحة١٧٧ وأن القصيدة التى رثى بها الشيخ محمد الطاهر المجذوب حمدان لم يبق منها سوى أبيات . فمن الجائز أن يكون هذا الشعر الذى ذهب من قبيل شعر الشيخ عبد الغنى السلاوى لا هم له سوى إرضاء الخليفة عبد الله ، من نظم شاعر أو شعراء متكسبين . فليس مايحتم انفراد الشيخ عبد الغنى بهذا اللون من الشعر . ولكن هذه الظاهرة ، ظاهرة التكسب بالشعر تنطق بأن شعراء المهدية فى هذه الفترة قد فقدوا دوافعهم الأولى وحماستهم الدفاقة لتأييد المهدية ، وأصبح شعرهم وسيلة إلى غاية قريبة .

ومن الجائز أيضا أن يكون الشعر الذى ضاع من شعر الفترة الأولى ، الذى يتعلق بالمهدى وشئون المهدية فى حياته . والاحتمال الأخير عندى أرجح ، ودليلى على رجحانه أن القصائد المشهورة التى أوردت شيئا منها فى الفصل السابق ، لم يرو جامع المخطوطة منها إلا جزءاً من قصيدة الشيخ محمد عمر البنا :

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت فى شأن الإله حياة

وليس من المستساغ أن يهمل جامع المخطوطة تلك الأشعار وهى خير ماقيل فى المهدية من شعر .

وربما خطر بالبال أن جامع المخطوطة ـ سبق أن قلت عند الحديث عنها إنى أرجح أن يكون الشيخ عبد الغنى ـ قد أهمل تلك الأشعار عمداً خشية أن يظهر شعره بجانبها قميئا شائها . ويبعد هذا الخاطر أن الشيخ عبد الغنى ـ على فرض أنه جامعها ـ لم يكن هذا هو رأيه فى شعره . فهو كثير الفخر به إلى حد أنه يراه يفوق شعر النابغة الذبيانى[1] ! ! ، ويبعد هذا الخاطر أنه

(١) المخطوطة ص ٣٧٥ .

لو فعل ذلك لبدأ المخطوطة من الرقم الأول ولم يدع أثرا لمفقود .

(ب) ويدل النص ثانياً على أن القبلية التى عمل المهدى جاهدا على محوها وتقويض دعائمها عادت إلى عنفها وضراوتها ، حتى أصبحت ملاك الحياة فى حكومة الخليفة عبدالله ؛ فالذى ليس له قبيلة تحميه وتطعمه وتأويه ، إذا كان فقيرا لا سند له ولا نصير ، وهذا ما قاله المؤرخون وأيده الشاعر من غير أن يقصد إلى تأييده .

٧ — نظرة عامة :

لقد انفرد الشيخ عبد الغنى السلاوى بمحاولة التعبير عن هذه الفترة . فإذا أردت أن أنظر فى محصولها من الشعر ، كان لزاماً على أن أنظر فى شعره إذ لا شىء غيره ينبغى أن أقف عنده فيما وصل إلينا من شعر .

وشعر الشيخ عبد الغنى كما رأينا شيئا منه قد تجمعت فيه صفات الضعف كلها . فهو ضعيف فى معناه وضعيف فى مبناه كما يقول القدماء ، أو هو ضعيف فى شكله ومضمونه كما يقول بعض الأدباء اليوم(١) . ولولا حرصى على تسجيل الظاهرة الأدبية والنظر فى مميزاتها لما التفت إليه ، وذلك أن الدراسة العلمية قائمة على فحص ماهو كائن لا ماينبغى أن يكون . وهذه الفترة ليس فى وسعها أن تقدم إلينا أجود مما قدمت ، فهى نهاية الثورة الملهمة ، وبداية النهاية فيما كانت سابقة للأمد الذى حدده الدكتور مكى شبيكة بهزيمة جيش عبد الرحمن النجومى ، لا ، فقد كانت البداية فتح الخرطوم كما قرر المهدى نفسه فى رواية ود البصير وغير ود البصير . وتأكدت هذه البداية بموته وانتقال الأمر إلى الخليفة عبد الله ، فحكمت البادية المدنية

---

(١) ولا أدرى لماذا عدلوا عن عبارة القدماء وهى أجزل وأفصح من عبارتهم المتأثرة بأسلوب المنطق.

وتسلط الأعراب على شواطىء النيل يعيثون فيها فساداً ، وانقسمت المهدية وسادها النزاع ، واضطر الخليفة عبد الله أن يرتاب فى صدق ولاء العلماء وهم مصدر الشعر ويحيطهم بالعيون . وقد قدمت أسبابا عدة أدت إلى صمت الشعراء ، فلا ينبغى أن أعود إلى ذكرها ، بل يحسن أن أضيف إليها أن الشعر لا يزدهر فى مثل هذا الجو الذى يحتقر العلم والعلماء ، ويرى فى وجود العلماء بين الناس فساداً ينبغى أن يزال .

والشيخ عبد الغنى بعد ذلك مشكور على ماقدم ، فهو وإن كان قد آثر الجانب الآمن، وتصدى إلى تسجيل أحداث كبار بمنته الضعيفة ، فقد كشف عن جوانب من غير عمد تؤيد ماروى من أخبار ، وظل يذكر الناس بشىء اسمه الشعر الفصيح ، يمكنه أن يشاطر الناس حياتهم ويضطرب فى مجال نشاطهم ، وإن ظل يسير فى طريق غير طريقهم ويرضى قوماً لا يحبونهم ، فقد حافظ على رمق الشعر فى هذا المستوصف القاتم .

لذلك مع ماقدمت من أن الدراسة لاتعاف شيئا ، احتفلت بخيوط العنكبوت التى نسجها ، مع أنه بعيد كل البعـــد عن براعة العنكبوت فى نسجه .

من مظاهر هذا الشعر أن معانيه محدودة جدا ، لا تكاد تخرج عن مدح الخليفة عبد الله بالكرم والشجاعة والحلم والفصاحة والعدل والتقوى والتوكل على الله والافراط فى العبادة ، وأنه منصور مؤيد بجيش من الإنس قوى وجيش من الملائكة ، وأن باعه فى الغيب طويل ، وأنه ورث من المهدى كل شىء حتى نسبه . وإذا مدح واحداً من أمرائه أو قواده أو قضاته ، فالمعانى محصورة فى رضا الخليفة عنه ، وأنه على نهج الهدى وأنه فى قمة الرفعة والسؤدد . أما خصومه فهم موسومون بالضلال وسوء المصير ، وهم فى قبضته حيثما ولوا وجوههم . وأحياناً يبالغ فى مدح الخليفة مبالغة مفرطة تذكرنا قول ابن هانىء :

ماشئت لا ماشاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهـــار

وذلك مثل قوله :

تجرى مقـادير الإله كما يشا   منعا عطاء من فائض الرحمن[1]

وقـوله :

تحت الطباق يد العباد لنصره   مخلوقة والمثـل بالسموات[2]

ومعجمه أيضاً ضيق محدود ، فهو لا يمل تـكرار «هدى الهدى الهداية» ويكرر كذلك «الورى» . ولعل جو المهدية الذى يبدو فيه أن كل لم يذعن لتعاليمها ضال وأن مداها عالمى ، جعله يلح على هذه الـكلمات ، ولهذا السبب نفسه - فيما أرى - ألح عليها شعراء الفترة السابقة أيضا[3] . والشيخ عبدالغنى فى سبيل إقامة الوزن واطراد القافية لا تهمه صحة بنية الـكلمة ، ولا قواعد النحو ، ويندر أن يسلم له بيت من هذه الأخطاء ، وهذه قطرات قليلة من بحر لا ساحل له :

تظل منهم رقاب الحبش مصرعة   فى واد ويل به النيران تشتعل[4]

فالحبشة صارت الحبش . ومصرعة ليست من صيغ (ص ر ع) وواد لا مسوغ لحذف الياء منها وتنوينها لأنها هنا مضاف . وهو أحيانا يصنع كلمات لم ترد فى اللغة ، ولا هى وليدة القياس الصحيح ، وبخاصة فى القوافى فإنه يصنع منها مايشاء من ذلك :

صفت له ولصحابيه كراسى عز   ز أرصصت فى قدسها إرصاصا

فقد ارتجل فعلا من عنده هو « أرصصت » واشتق منه إرصاصا

---

(١) المخطوطة ص ٣٢٠ .

(٢) المخطوطة ص ٣٢١ .

(٣) انظر شعراء السودان ص ٨ و١٠ و١١ و١٢ و١٥ و٢٩ و٢٧٧ .

(٤) المخطوطة ص ٢٨١ .

ومثل ذلك قوله :

ظفر لكل المهتدين وما به غض سوى تجريدة المحظاظ(١)

والتجريدة فى أصلاح المهدية أخذ مال الرجل كله ، عقابا له على جرم اقترفه ، أما المحظاظ فإنى لم أرها لا فى الاستعمال ولا فى المعاجم .

ويكثر من جمع كافر على كوافر وهو جمع خاص بالإناث . وهو لا يحجم عن استعمال كلمات اللهجة ، وقد يكون أصلها عربى فصيح ، ولكن اللهجة قصرته على معنى خاص ، وقد لا يكون مقصورا على لهجة أهل السودان وحدهم ، وقد يكون المعنى مجازيا ، من ذلك قوله :

وهو من له فى الفوز مالا ينتهى تنبيك فزة شنق ذلك الفاسق(٢)

والفزة فى العربية الفصحى الوثبة بانزعاج ، وفى اللهجة السودانية تعنى الهرب . وأحيانا تغير اللهجة صورة الكلمة إلى جانب استعمالها المجازى ، مثل قوله :

ساوى الورى فوق القر واستأصلت أصحابه جيش العدو دواسا(٣)

يقولون داس الرجل الحنطة يدوسها دوسا ودياسا مثل الدراس . وقد لا يكون للكلمة أصل عربى مثل ماجاء فى قوله :

شرد بجيلك يا خليفة مهـــدنا زمر العدا واجعلهم طلاشا(٤)

والطلاش هم الذين لا ركانة لهم فى الفكر ولا أصالة . وربما كان للكلمة أصل محدث مع تغيير فى صورتها مثل قوله :

شيخ الضلال بجندل وجموعه صارت قلوبهم به فشفاشا

والفشفاش فى لهجتنا الرئة وأصلها المحدث وهو فشة(٥) كما يستعملها أهل مصر .

---

(١) المخطوطة ص ٣٤٧ .
(٢) المخطوطة ص ٣٠١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٤ .
(٥) أنظر القاموس الوسيط مادة فش .

وهناك أمثلة[١] كثيرة لانطيل بذكرها .

أما قصر الممدود ومد المقصور فحدث عنه ولا حرج ، وحذف ياء المهدى المضعفة للوزن أمر شائع فى شعره ، والنماذج التى قدمتها حافلة بالأمثلة ، ويعدى الفعل القاصر كما يريد :

وإذا نظرت[٢] سيوفهم أيقنت أ ... ن البرق يبدو فى أكف عساكر
جذب الغروب بأسرها لهداه حـ ... ـتى جانبوا وطنا ثووه منزلا

إن جال ميدان البلاغة ناطقا .

أو جال ميدان الشجاعة عنده .

ومن العبث أن نبحث عن العاطفة فى مثل هذا الشعر ، فهو كلام لا نصيب له من الشعور والعاطفة الصادقة ، فإذا وازنا بين هذا الشعر الكثير وبين قصيدته فى المهدى التى قدمت شيئا منها فى الفصل السابق ، اتضح لنا أنها على ضعفها أفضل من هذا الشعر ، لأنها تمتاز بصدق اللهجة والقصد ، فلم يضطر الشاعر فيها أن يقول فى المهدى مثل ماقال فى الخليفة:

تجرى مقادير الإله كما يشا ... منعا عطا من فائض الرحمن

وإليك هذه الأبيات من القصيدة ، وقل إذا كنت ترى فى ذلك الشعر الكثير مايضارعها :

أمست به آثار طه نورها ... يعلو ولا يعلو عليه سناء
فالمجد فيه مؤثل والفضل مـ ... ـنه مؤمل والناس فيه سواء
آياته نسجت بمحكم ناسج ... ولواؤه بالنصر نعم لـواء
الله أكبر لا ارتياب بهديه ... فالجاحدون له إذن أعداء[٣]

(١) المخطوطة ص ٥٠٣ و ٢٩٨ .
(٢) نظر تتعدى قليلا ، انظر المادة فى القاموس .
(٣) نفثات اليراع ص ٨١ — ٨٢ .

ومن الناحية الفنية البحت ، فإن الأسلوب كله أسلوب فقهاء ، والشيء النادر هو النظم الجاري على سنن الأدباء ، ومن سمات شعره أنه يكثر من الترصيع وكثرته كما قلت معيبة ، لأن النغم الرتيب يمجه الذوق المرهف ، وكل شيء يفسده الإسراف فيه . من ذلك قوله في خليفة المهدي عبد الله مبالغاً مخالفاً سنن الإعراب بالجزم في قوافي السجعات ، وهو في ذلك متأثر باللهجة :

حلو الكلامْ وافى الذمامْ بدر التمامْ
عالي المقامْ ووجهه الوجه المليحْ
حرم العبادْ باب الرشادْ ركن السدادْ
بحر الورودْ جمع الوفودْ نور الذبيحْ[1]
حبل الوصولْ مدّ الفحولْ ابن الرسولْ
عين المددْ كف الشددْ رحب ربيحْ

وهذا مثل من عشرات الأمثال . ومعظم القصائد مبدوء بالصلاة على النبي وآله وعلى المهدي ، والضرورة كثيراً ما خففت الياء المضعفه في « النبي والمهدي » وربما حذفت في « المهدي » كما أسلفت القول . والبيت الذي يصلى فيه على النبي وآله والمهدي ، قد لا يكون هو مطلع القصيدة بل المطلع بيت آخر يأتي بعده ، ويخيل إلىّ أن هذا فن قد انفرد به الشيخ عبد الغني . وهذه أمثلة :

الصلاة :

صلى الإله على المبعوث من مضـــر
والآل والصحب والمهدي ذي الظفر (٢)

---

(١) المخطوطة ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧ .
(٢) المخطوطة ص ٢٤٨ .

المطلع :

شهر الصيام يرى طلعة القمر   خليفة المهدى من قد فاق فى السير

الصلاة :

صلى الإله على المختار سيدنا   واله ثم مهد واضح السبل(١)

المطلع :

نغر الهداية تهليل بلا ملل   مع التجرد والإخلاص فى العمل

الصلاة :

يا ربى صلى على النبى محمد   والمهد ما طابت به الأوقات(٢)

المطلع :

حب الجهاد شهامة وثبات   وتصاعد من دونه الدرجات

فالصلاة على النبى وآله وعلى المهدى ليست جزءا من القصيدة ، ولكنه يأتى بها للتبرك وإشاعة الجو الدينى المهيب .

وللشيخ عبد الغنى فن آخر أغرم به الشعراء المحدثون مع تغيير طفيف، وذلك أنه فى كثير من قصائده يختم القصيدة بالشطر الأول من المطلع ، وقد يكون من مقاصده أن يسبغ على القصيدة لونا من الوحدة وترابط الأجزاء . وهذه أمثلة :

المطلع :

بلحاظها صابت فؤادى زينب   وتسارعت بوصالها تتحبب(٣)

المقطع :

بنعيمه صل من تولّه قائلا   بلحاظها صابت فؤادى زينب

(١) المخطوطة ص ٣٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٤ .

(٣) المخطوطة ص ٣١٧ .

المطلع :

برق الهداية فى الآفاق قد سطعا   والناس تقفو له والشر قد خضعا(١)

المقطع :

ما قال من للهدى يدعو على طرب   برق الهداية فى الآفاق قد سطعا

المطلع :

ربت الشجون لذات خـــد نير   فى القلب منى لست صاح بمقتر(٢)

المقطع :

رحمى له ما قال عبد غنيـــة   ربت الشجون لذات خد نير

ومعظم شعره مبدوء بالغزل، وقد يكون الغزل أحيانا أطول من الغرض الذى نظمت القصيدة فيه(٣) ، وهو بلا أدنى ريب غزل مصنوع ، كغزل جمهرة المشايخ فى قصائدهم الدينية ؛ فليست هناك فى واقع الأمر محبوبة يصبو إليها ويلهج بوصف محاسنها ، وفى كلامه ما يدل أبلغ دلالة على ذلك ، فهو لا يعرف عن محبوبته الجذابة الخلابة التى لا يستطيع أن ينساها ، إلا ما حكى عنها الحاكون :

ولى الشباب وما نسيت مليحة الخد   ين جاذبة الرجال كما حكوا(٤)

وشيخنا بحمد الله لم يكن ضريرا مثل بشار ، حتى نقبل منه دعوى عشق الأذن قبل عشق العين أحيانا :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٨١
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .
(٤) المخطوطة ص ٣٧٠ .

على أن بشاراً سمع منها ولم يسمع عنها .

وله فى حب هذه المحبوبة التى لم يرها ، وإنما عشقها بالسماع مجاز غريب وتعليل عجيب :

ويفيت وادها مراعى مهجتى قبلى أخى أهل الغرام لذا هووا[1]

وفى قصيدة أخرى يمنحنا صورة لحال الرجال الذين يرون محبوبته التى لم يراها ، أو محبوبة أخرى رآها فى كامل زينتها :

برزت إلىّ بحالة ما شامها نظر امرىء الا ارتمى يتقلب[2]

ويتمنى لها دوام الحسن ، ودوام السيطرة على قلوب العاشقين من ذوى النهى :

بهائها سلبت عقول ذوى النهى يا ليتها دوما أراها تسلب[3]

وذلك يذكرنا قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت وإن مت فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى[4]

٨ — لزم الشيخ عبد الغنى السلاوى الجانب الآمن ، وقد يكون فى ظنه جانبا غانما ، ذلك الجانب الذى يرضى الخليفة عبد الله ، فأبلى فى سبيل إرضائه كل البلاء ، وما أراه فاز بطائل ، والدليل على ذلك أرجوزته الضارعة ، التى تقول إنه لم يمنعه من سؤال الناس شىء سوى أنه مداح هادى الناس . ولست له باللائم فقد اضطر إلى هذا الموقف ، كما اضطر الخليفة عبد الله أن يظهر بمظهر العنف والجبروت ولكنه أسرف .

ساند الشيخ عبد الغنى الحقائق التاريخية بموقفه السلبى منها ، بكشف

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٧١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣١٧ .

(٤) الموشح للمرزبانى ص ٢٩٩ .

حاله فى « عرض حاله » وساندها بتبرير تصرف الخليفة الصارم فى معاملة الأشراف وسكان النيل على وجه العموم .

فالخليفة عبد الله فى شعره شخص آخر غير الذى صوره المؤرخون فى كتبهم ، وغير الذى وصلت إلينا أخباره ممن عاصروه ، فهو خليفة مهدى آخر غير الذى نعرفه ، خليفة يكون سحبان وائل بجانبه باقلا ، وسكان الأرض والسموات قد خلقوا لأجل نصرته وهو رجل أمى أو شبه أمى !!

ومن الإسراف أن نطلب من شعراء الشعر الفصيح أن يواجهوا خليفة المهدى بنقد أو توجيه ، كما فعل الشيخ الحسين حين واجه المهدى بهجاء أمرائه وكاد يتهمه بسوء الاختيار او فعل ، ومن الاسراف الذى ما بعده إسراف أن نطلب إليهم أن ينظموا قصائد فى هجائه ، وهجاء أمرائه وقبيلته ، كما فعل الشيخ محمد شريف نور الدائم فى هجاء المهدى نفسه بقصيدته التى ترى أن مصدر وحيه شيطان من الجن وشيطان من الإنس ، ومع ذلك كله فهما لديه موضع الإجلال والتكرمة .

فهناك بون شاسع بين المهدى وخليفته ، كالفرق بين الحليم الغفار ، وبين الغضوب الذى يخرجه الغضب عن اتزانه فلا يبقى ولا يذر ، كالفرق بين المطمئن الواثق بمن حوله ، وبين الذى يصبح ويمسى خائفا يترقب ، كالفرق بين المتثبت الذى يروى فى الأمور ، وبين الذى يأخذ بالظنة ويرخى أذنه للنمامين . وقد يكون الخليفة عبد الله مضطرا أن يكون هكذا ، لكن هذا العذر لا يغير من طبيعة الحال ومجرى الامور . وقد رأينا فيما ذكر المؤرخون أنه لا يقبل النصيحة من أحد ، فكيف يرحب صدره إذا سمع نقداً أو هجاء ؟! . وللعلماء عبرة فى مصرع الحسين الذى قيل أن سبب هلاكه قصيدة هجابها الخليفة حين عزله عن القضاء (١) . ثم إن العلماء عددهم محصور ولم يسكن

---

(١) نفثات اليراع ص ٨٩

الخليفة مطمئنا إليهم ، فالعالم وسط الأنصار كالشجرة وسط الزرع ، فهو والحال كاترى لابد له من أن يراقبهم مراقبة دقيقة تحصى ما يبدر منهم من قول أو فعل ، ثم إن الفترة نفسها ليست فترة فن أو أدب . فأسباب البهجة والمرح كلها محرمة ، لأجل أن يبتعد الناس عن التشبه بالترك الكفار !! .
والخليفة شريف العدو واللدود للخليفة عبد الله لا أراه يدرك خطر الشعر فى المعركة أو فى الحياة بوجه عام ، فقد كان يحتقر «الغنايين» أى الذين ينظمون الشعر الشعبى ، يدلنا على ذلك قوله للشاعر الحاردلو حين جاءه ضمن وفد للصلح بينه وبين الخليفة عبد الله «أنا لاأسمع مراجعة الغنايين[1]».

ولكن الشعر الشعبى قد اخترق جدار الرهبة والفزع ، وأرسل أنغاما ساخرة هازئة ، أو حزينة جازعة سرت عن الناس قليلا وشفت شيئا من غلتهم ، والذى طوع له ذلك أن بعضه كان من شعر الخارجين على الخليفة ، وأنه بصفة عامة يسير بين العامة دون أن يدرك التعايشة معناه ، لأنه منظوم فى لهجة غير لهجتهم ، ثم إن أصحابه لم يكونوا فى معظمهم ممن يهتم بهم الخليفة ويحيطهم بعيونه ولا يعترض على ذلك بأن الشاعر الحاردلو كان فى معيته بمثابة الوزير ، ومع ذلك ضاق بالمهدية وهجاها هجاء مرا واتخذها سخريا ، ذلك أن الحاردلو قد كان يشايع خليفة المهدى فى ظاهر الأمر . وحدث أن هجا خصومه وسخر بهم حين دبروا مؤامرة لتقتله مؤامرة بجامنها ، فقال الحاردلو هازئا بهم مندداً بضعف عقولهم وقلة بصرهم ، مهولا من شأن الخليفة عبد الله ، وسار شعره مسير المثل ، وصار يضرب للضعف فى أوهن صوره ، يتصدى فيقاوى القوة فى أضخم مظاهرها :

[2] أنصارك كنار [3] تامين عبرت الكيل[4]

---

(١) جهاد فى سبيل الله ص ١٦٤
(٢) ديوان الحاردلو للدكتور عبد المجيد عابدين والأستاذ المبارك ابراهيم ص ٧٤ ونفثات اليراع ص ١٤٤
(٣) كنار : كثير
(٤) ملاوا الكيال حتى فاض مجاز

زَى(١) نبتَ الرُّبىَ وكتين(٢) ركوبْ الخيلْ
كان موجورْ زمانْ(٣) وناسن بَصرها قليل
شركْ أمْ قيردون(٤) كيَفِنْ(٥) بِقُبْبض(٦) الفيلْ

أنت فى منعة من أصحابك الكثر : الذين لم يقصروا فى شىء قط ، بل هم دائما فوق ما يظن بهم من الشجاعة والبأس . وكأنهم عند ما يعتلون صهوات الخيل أصحاب النبى (ص) الذين مدحهم البوصيرى بقوله :

كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربى ... من شدة الحزم لا من شدة الحزم

فلولا أن حكم الزمان كان جائرا ، وأن بصر هؤلاء القوم بالأمور كان كليلا ، لعرفوا أنهم غير قادرين عليك ، بوسيلتهم الضعيفة الممعنة فى الضعف ، بجانب قدرتك التى لا تحد ، إن مثلهم فى قلة العقل وفسادالتدبير، مثـل من يمنى نفسه أن يصيد الفيل، بالشرك الذى ينصب لهذا العصفور الضعيف « أم قيردون الحاجة » .

فالجار لو بمثل هذا القول قد أحكم التقية ، فشايع الخليفة عبد الله وقلب ظهر المجن للأشراف وأولاد البلد عموما فى ظاهر الأمر ، فاطمأن إليه الخليفة ولم يشك فى ولائه .

---

(١) زى : مثل
(٢) وكين : وقت ، ساعة
(٣) مو : أداة نفى
(٤) أم قيردون : عصفور صغير ، ويعرف عند أهل السودان كذلك باسم ، الحاجة ، لظنهم أنه يهاجر إليهم من الحجاز زمن الشتاء .
(٥) كيفن : كيف
(٦) بقبض : يقبض .

وأنا لا أحب أن أسرف فى عرض هذا الشعر، وإن كنت ألذه وأطرب له ، فإن متعى به ينبغى الا تكون مدرجة للتغول على البحث الذى مجاله الشعر الفصيح .

عرفنا أن قبيلة الكبابيش كانت مناوئة لحكم الخليفة عبد الله خارجة عليه ، فهذا شاعر من شعرائها يسخر من جهل رؤساء المهدية وقادتها أيام الخليفة عبد الله ، وادعائهم العلم وإقبالهم على العبادة من غير علم وغرابة أزيائهم وبشاعة منظرها ، وخفة أحلامهم :

مقدمْ (١) ناسْ (٢) الفيتْ أبْ (٣) دِقناً راخيها
طاقيتُ (٤) السَّعَفْ بِي إيدُ شافيها

جبيبتُ (٥) مرقّعة وحتى الجلودْ فيها
ومنْ دغشنْ (٦) كَبِرْ صلاةُ باديها

لو عارفْ فقهْ لِيها ولا جِيها (٧)
إنْ ذا كركُ بالجنهْ أتقولْ كانْ فيها

انظر إلى رئيس هؤلاء القوم البداة لا صفه لك : قد أرخى لحيته حتى سالت على صدره ليكتمل له السمت الدينى ، ووضع على رأسه طاقيته المتخذة من السعف والتى صنعها بيده - تذكر أنه رئيس - وجبته الحقيرة

---

(١) مقدم : رئيس .
(٢) ناس الفيت : الذين يتافون بحثا عن شىء ينهبونه ، أو يتلفتون لبداوتهم وخفة حلومهم .
(٣) أب دقنا راخيها : ابو لحية مرخاة .
(٤) طاقيت : طاقيته .
(٥) جبيت : جبته ، صغير محقر .
(٦) دغش كبر : من صباح باكر
(٧) جيها : اتجاه .
(٨) أتقول : تظن .

المرقعة اجتمعت فيها كل المواد حتى جلود الحيوانات قد دخلت فى كيانها، فهى بهذا أحقر شأنا من جبة الدرويش ، مع أنها جبة أمير !!. ومن حرصه على الدين يبدأ صلاته من فجر باكر من « الفجر الكاذب » ، وهو لا يعلم شيئاً عن فقهها ، ولا يدرى كيف تؤدى على وجهها الشرعى !! . وهو مع جهله وهو جهول كثيف، يحاضرك عن الجنة محاضرة يطنب فيها ويؤكد حتى يخيل إليك أنه كان من سكانها !! وإذا كان هذا هو حال أميرهم فكيف يكون حال من هو دونه ؟ ! .

وزى هؤلاء البقارة وسوء تصرفهم وتسلطهم على الناس ، سود الحياة فى وجوه أولاد البلد ، فلم يجدوا مجالا للتشفى كالسخرية بهم . فهذا شاعر يضيق بهم غاية الضيق ، فيراهم حيثما التفت :

إنْ قبلْ (١) بِالْيمينْ تَلْقا (٢) وإنْ قبـلْ بالشمالْ تلقـا
سود اتن (٣) عليكْ آب جبةْ برقا (٤)

تلفت بالفريقْ متل (٥) المودْرشا (٦)

يقول : حيثما التفت تجد واحدا منهم فقد ملأوا الأرض، أو أن ضيق الشاعر بهم جعله يراهم ملأوا الأرض .

سود الله حياتك ـ كما سودت حياتنا ـ ياصاحب الجبة المرقعة ذات الألوان ، أتظل هكذا تتلفت بالحى باحثا عن شيء تنهبه ، ملحاً فى البحث كأنك صاحب شاة أضاعها وطفق يبحث عنها فى كل مكان ، ويحسب كل

---

(١) قبل : التفت
(٢) تلقا : تلقاه
(٣) سوداتن : سود الله حياتك ، أصابك بداهية سوداء .
(٤) آب جبة برقا : ياصاحب الجبة الملونة .
(٥) متل : مثل
(٦) المودر شا : الذى أضاع شاة .

سواد هو شاته التي أضاعها ؟ وهذا التشبيه يصور لنا البيئة الرعوية أدق تصوير ، وهو لا يقل روعة وبراعة عن تشبيه المتنبي المشهور :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

وصالح رئيس قبيلة الكبابيش الثائرة يحذر خاله من الدخول في المهدية ولبس مرقعتها ، ويستدل على بطلانها بأن الذي خلف مؤسسها بقاري جاهل :

لا ترقعْ دِليقكْ(١) تَبْقى(٢) لِي أنصاري
ما شُفْنا(٣) الإمامْ وخليفتهُ بقّاري(٤)

إياك أن تصبح أنصاريا ترتدي الجبة المرقعة البالية الحقيرة ، فالمهدية حديث خرافة . وأنصع دليل على بطلانها أن الذي خلف صاحبها بقاري ! . وهل يصح في الأذهان أن يكون خليفة المهدي الذي يملأ الأرض عدلا مثلما ملئت جورا راعي بقر جاهلا جلفا ؟ ! .

وقال شاعر من قبيلته يحذره ويدعوه إلى الحرص الشديد والبعد عن المناطق التي يكون لخليفة المهدي عليها نفوذ :

ابقَ حريصْ حرصاً شديدْ بَعشوم(٥)
واجرجرْ أزينْ(٦) لا مِنْ(٧) تشوف(٨) الدُّمْ

(١) دليقك : تصغير دلقان : الثوب الخلق ، والتصغير للتحقير
(٢) تبقى لي : تصير
(٣) ما شفنا : ما رأينا
(٤) نفثات اليراع ص ٢٢ .
(٥) البعشوم : الثعلب .
(٦) زين : جيد ، حسن .
(٧) لا من : إلى أن ، حتى .
(٨) اشوف : ترى .

النــاس الرُّقط(١) قطْ ما بتخافْ اللُّوم(٢)
قُبَّالكْ(٣) دَحين(٤) قتلوهُ شيخْ التوم(٥)

كن حريصا شديد الحرص حذرا مثل الثعلب ، واسرع فى الهرب ما أتيحت لك أسباب الإسراع ، حتى ترى شجر الدوم من صحراء ليبيا . فهؤلاء القوم الذين يشبهون الحيات الرقط فى فتكهم وألوان جيبهم ، لا يخشون لومة لائم فى قتل من يقع فى أيديهم من خصومهم ، فليس لهم عهد ولا ذمة ، وإياك أن تركن الى وعدهم أو تسكن إلى عهدهم ، وحسبك عظة مقتل الشيخ التوم الذى واثقوه .

ومما قيل فى تنكر الخليفة عبد الله لعهوده ومواثيقه ، قول الشاعر الحاردلو(٦) :

يا شايلْ(٧) الجوابْ وَدِّيه(٨) للحمرانى
وقول(٩) ليهُ الزمانْ مثلَ الـكلبْ سوانى(١٠)
اكتبْ لىْ جوابْ يا صاحبى لا تنسانى
ودْ زايدْ بقولْ ظاهرَ الأمانْ غشانى

يا حامل الخطاب اذهب به إلى الحمرانى . وحدثه عن حالى : فقل له ان هذا الزمن المنحوس صيرنى كالـكلب فى الخسة وحقارة الشأن . وليكتب

---

(١) الرقط : أصحاب الجيب المرقعة الملونة .
(٢) ما بتخاف : لاتخاف ، لا تخشى .
(٣) قبالك : قبالك .
(٤) دحين : ذا الحين ، وذلك الحين .
(٥) آثرت الرواية الشائعة على رواية صاحب النفثات ص ٢٣ .
(٦) نعوم شقير ج ١ ص ١١٣٧ .
(٧) يا شايل الجواب : يا حامل الخطاب
(٨) وديه للحمرانى : وصله الى شيخ قبيلة الحمر
(٩) قول ليه : قل له
(١٠) سوانى : صيرنى

إلى فإنى فى حاجة إلى ذكره ومواساته ، أما إذا سأل عن حال محمد ود زايد شيخ الضباينة ، فقل له إنه بات فى اعماق السجن ، آسفا حيث لا يجدى الأسف على انخداعه واغتراره بالأمان الذى أعطوه إياه وهو سراب بقيعة.

وقد ابتلى الحاردلو بغضب الخليفة على قبيلته وبطشه بها ، فهو تارة يقف أمامه مسترحما ومتشفعا ، وتارة أخرى يبكى على من قتل منهم ، وعلى بقيتهم الراحلة إلى أرض الحبشة يحدوها بشعر نائح فى رحلتها الحزينة ، ويضطره الخطب الفادح حين لم يبق فى قوس الصبر منزع أن يستصرخ الأعداء ! .

وسأقدم مثالا لكل حال من هذه الأحوال الثلاث ، ليرى القارىء السحب الداكنة فى هذا الجو القاتم ، ويقف على مدى ما ابتلى به اولاد البلد من عسف وجور ، فيما سجله شاعر هو من أقرب الشعراء من الخليفة وأدناهم إليه منزلة .

لما مثل عمارة محمد أحمد أبو سن أمام الخليفة عبد الله ، وهو غاضب عليه أشد مايكون الغضب ، ولم يشك أحد ممن عرفوا أحوال الخليفة فى أنه مقتول . وثب الحاردلو جازعا وأخذ ينشده ليستدر عطفه ويستل ضغينته ، بإشباع رغبته فى المدح وشغفه بالاطراء فقال (١)

مِن(٢) قومةَ الجَهَلْ وَلَدأ(٣) عِزْ(٤) عومه
تَحافلات(٥) اللبُوسْ فِيهِن بعزّر(٦) كَوُمه

(١) ديوان الحاردلو ٧٤ ــ ٧٦

(٢) من قومه الجهل : منذ أن كان طفلا ، فالجهل هنا كناية عن الطفولة لأن الطفل يكون جاهلا .

(٣) ولداً : فتى .

(٤) عِز عومه : يضم الأمور فى نصابها .

(٥) حافلات اللبوس : الخيل الحافلة بلباس الحرب .

(٦) عزر كومه : يأخذ منها بأكبر نصيب .

خليفةَ المنتظرْ عمــــارَة أغفرْ لوُمه
جاك[1] كبشَ الضحية الليلة[2] آخر يوُمه

إن الخليفة منذ نشأته حكيم ثاقب الرأى يعرف ما يورد وما يصدر ، وكأنه السابح الماهر الذى يقهر اللجة الخضراء بحسن تأتيه ، وهو الفارس الذى بلا الخيل وعرف كيف يملأ يده منها ويعدها ليوم الكريهة ، ثم يلتفت ويخاطبه قائلا : يا أيها العاقل الحكيم ، ويا أيها الفارس العظيم ، يا سائس الدنيا ونائب الله فى الأخرى ؛ خليفة المهدى المنتظر . أتشفع إليك بصفاتك هذه كلها أن تغفر ذنب عمارة ، فقد وقف أمامك خاضعا خانعا بعد تمرد وعصيان ، موقنا بأن هذا اليوم آخر أيامه من الدنيا ، واثقا بأن قتلك إياه ليس جورا ولا طغيانا ، بل هو قربى إلى الله ، مثله مثل كبش الضحية الذى يتعبد به المسلمون فى عيدهم العظيم .

ويستمر فى الإطراء والشفاعة :

مِن قَوْمَةَ الجَمَــــلْ شاطرْ[3] وَلوُ[4] بضَّاره[5]
يَخمْش[6] السَّكيكْ عَلى[7] الحربَة[8] البيوقدْ[9] نارهَ

---

(١) جاك : جاءك .

(٢) الليلة آخر يومه : ملاحظة . الهاء فى لهجتنا تنطق ألفا متوسطة .

(٣) شاطر : شجاع .

(٤) ولو : ليس .

(٥) ضاره : يتوارى ، يختفى .

(٦) يخمش السكيك : يهمز الفرس ، السكيك الفرس وليس الفارس كما شرح الأستاذان الدكتور عبد المجيد ومبارك ابراهيم .

(٧) على : على .

(٨) الحربة : الحرب ، مجاز مرسل .

(٩) البيوقد نار : التى تشتعل نارها .

جابيك[١] ممتثل ودّ عزة[٢] النّقّاره
خليفةَ المنتظرْ قولوُ السّماحْ باعماره

خليفة المهدى منذ نعومة أظفاره شجاع فارس ، يهمز الفرس المكتمل العاتى ليقذف به فى غمار الحرب المشتعلة الأوار .

فياخليفة المهدى المنتظر ويا أيها الفارس الراسخ القدم فى الفروسية ، ويا أيها الشجاع الذى لا يهاب ، يأتيك ابن أعظم القبائل وأوسطها بيتا ممتثلا لأمرك ، خاضعا لسطوتك ، فأتوسل إليك بأمجادك أن تقول له إنى سامحتك وغفرت لك ما فرط منك .

ويستمر فى الضراعة والإطراء أيضا :

من قومةَ الجهلْ يركب[٣] على المتشابى[٤]
وحاقلات[٥] اللبوسْ فيهن يعزل[٦] النابى[٧]
خليفة المنتظر عماره يجاكْ موماتى[٨]
طالبْكْ بالرسولْ تقول له من أصحابى

منذ أن شب مرن على ركوب الفرس القوى الذى يشب بصدره ، ويعتمد على رجليه من فرط المرح والقوة والنشاط .

وفى ساحة الوغى فإنه يختار الفارس العنيد الصعب المراس ، ولا يحفل بالضعفاء المهازيل .

---

(١) جابيك . يأتيك .
(٢) عزة النقارة . ابن العز والشرف . والنقارة . طبل الحرب ولا تملكه إلا البيوت الرفيعة
(٣) يركب : يركب .
(٤) المتشابى : الفرس القوى النشيط الذى يطاح بصدره لفرط قوته ومرحه .
(٥) حاقلات اللبوس : الخيل فى لباس الحرب السابغ .
(٦) يعزل : يختار .
(٧) النابى : الصعب المراس .
(٨) موماتى : طالما .

ويترقى فى رجائه حين رأى من الخليفة أمارات الرضا فيقول :

يا خليفة المنتظر عمارة جاءك طائعا ، فأتشفع إليك بالرسول صلى الله عليه وسلم ، أن ترضى عنه غاية الرضا ، وتدنيه منك وتسلكه فى زمرة أصحابك .

فهو فى هذه الجولة الثالثة لم يرض بطلب الغفران ، ولكنه خطا خطوة أبعد فطمع فى أن يسبغ الخليفة رضاءه على عمارة ويدنيه منه ، وإذا ظفر بالغفران وحده فقد أفلح ، وهذه براعة فى الاسترحام تشبه براعة النابغة الذبيانى فى الاعتذار .

أما القصيدة التى بكى فيها جلاء قبيلته إلى أرض الحبشة فارة من بطش الخليفه وتنكيله ، فقصيدة طويلة أجتزىء منها بما يدل عليها .

رحلوا أولاد حمدْ ال (١) لى (٢) البلدْ رُكاَّزةَ (٣)
قطعوا (٤) اللتّبراوى (٥) مَتْوبين (٦) البازهْ (٧)
ستّات (٨) الأسكيكْ (٩) ال (١٠) عقلتن (١١) زرازهْ (١٢)
يبكْين بالدموع لى (١٣) ريرةْ (١٤) لى من حازهْ (١٥)

---

(١) ال : الذين .
(٢) لى : إلى .
(٣) ركازه : عماد .
(٤) قطعوا : عبروا .
(٥) للأتبراوى : نهر العطبرة .
(٦) متوبين : ناوين ، قاصدين .
(٧) البازة : الحبشة .
(٨) ستات : صاحبات .
(٩) الاسكيك : الذهب الأصم .
(١٠) ال : اللاتى .
(١١) عقلتن : ناصيتهن .
(١٢) زرازة : مشبعة تضج .
(١٣) لى : على أو لأجل .
(١٤) ريرة : موضع من بادية البطانة .
(١٥) حازه : بقى فيها .

رحل أولاد حمد ـ قبيلة الشاعر ـ الذين هم عماد هذا البلد وأساطينه عبروا نهر العطبرة قاصدين بلاد الحبشة ليحتموا بها .

ونساؤهم المنعمات المكرمات الحاليات بالذهب ـ غير الجوف ـ واللواتى تضمخ نواصيهن بالدهن العطر ، غلب عليهن الحزن فصرن يبكين بالدموع الغزار على ديرة وعلى من غادرنهم فى هذا الوطن العزيز .

والشاعر لا ينسى فى غمرة حزنه أن يعرض بالقبائل الخاضعة لأمر المهدية وخاصة التى سارعت إلى إجابة المهدى ، وقد عرفنا أن دغيم قبيلة الخليفة على ود حلو خليفة المهدى الثانى وكنانة هما أول من انضم إلى المهدى فى أبا بل من الطبيعى أن تقفز إلى الذهن فى مثل هذا الموقف الموازنة بين حال قبيلته وأمثالها من القبائل التى فتك بها الخليفة عبد الله وبين حال هذه القبائل الآمنة والوادعة، والتى لم يكن لها شأن يذكر فى تاريخ السودان فى نظر الشاعر :

رحلوا اولادْ حمدْ الْ كَلْتْن[1] تحَجَانَهَ[2]
وخَلّوها[3] البــلدْ لى ناسْ دِغَيمْ وكنانَه
بنَّاتْ الليكيكْ الْ عقلِيتَنْ رَوْيانَهَ[4]
بِبكَــنْ بالدموعْ لى ديره والغبشانهَ

رحل أولاد حمد أصحاب الشرف الباذخ ، والكلمة النافذة، الذين كانوا يذودون عنا ويحموننا .

وتركوا هذا البلد بخيره لهذه القبائل التى لم تكن شيئا ، ولم يأخذ بضبعها الا انتماؤه للمهدية من أمثال ودغيم وكنانة .

---

(١) كلتن : كلهم .
(٢) تحجانه : تحمينا وتبعد عنا الأذى .
(٣) خلوها : تركوها .
(٤) رويانه : ريانة .

ومأساة قبيلة الجعليين كانت آخر خواطر الشاعر الحزينة فى هذه القصيدة الباكية(١).

ياعبد الله خوى(٢)   أغش البنادر(٣)   شوفن(٤)
بنوت(٥)   المتمة(٦)   اجدلن(٧)   صفوفن(٨)
شايلات(٩) القرب مثل (١٠) الخدم(١١) فى كتوفن
وبعد(١٢) خمرة(١٣) وجلاد(١٤) سال القمل فى رفوفن(١٥)

ياعبد الله أخى اغش المدن وانظر ماحل بها من كوارث ومآس . فإن بنات المتمة قد تغيرت أحوالهن فاتسخن وتشعثت شعورهن ، وابتذلن بالخدمة فصرن يحملن القرب كالجوارى .

---

(١) ديوان الحاردلو ص ٧٠ — ٧٢ . ملاحظة . روى الأستاذان البيت الثالث هكذا شايلات القرب ... والسمون فى كتوفهن . والرواية الصحيحة الشائعة ما ذكرت ووضعا مكان جلاد فى البيت الرابع « دهان » والصحيح ماذكرت ، وأكاد أجزم بأن هذه الكلمة « دهان » لم يعرفها الشعر الشعبي القديم . ويندر أن تأتى كلمة « خمرة » غير مقترنة بجلاد

(٢) خوى : أخى .

(٣) البنادر : المدن .

(٤) شوفن : انظر إليها .

(٥) بنوت : بنات .

(٦) المتمة : عاصمة الجعليين التى نسكت جيوش الخليفة بأهلها كما ذكرته فيما سلف .

(٧) اجدلن : اتسخت .

(٨) صفوفن : شعورهن .

(٩) شايلات : حاملات .

(١٠) مثل : مثل .

(١١) الخدم : الجوارى .

(١٢) بعد : بعد .

(١٣) خمرة : مزيج من العطور مشهور فى السودان بطيب عرفه .

(١٤) جلاد : نوع من العطر يشبه المسك .

(١٥) رفوفن : شعورهن .

وبعد النعمة والترف والتعطر بأطيب العطور وأغلاها ، أمست شعورهن مرتعا للقمل حتى أخذ يسيل منها سيلا ! !

ولما طفح الكيل وامتد سخط الخليفة عبد الله فشمل أولاد البلد أجمعين ، ولم يدع رأسا من رؤوسهم الكبار إلا أطعمه السيف أو رفعه على المشنقة أو زج به فى السجن ، ونكل بالأشراف أبشع ألوان التنكيل ، وانطلق البقارة ينهبون ويسلبون ويقتلون بلا رقيب أو حسيب ، يئس الجاردلو من نشوب ثورة داخلية تطيح بملك الخليفة وتقضى على آثاره ، فلما يئس واشتد به اليأس استصرخ امبراطور الحبشة والإنجليز[1] ! !

ناساً قباحْ منْ الغربْ يُومْ جُونا[2]
جَابوا[3] التَّصْفية(٤) ومنْ البيوتْ مرقونا(٥)
أولادْ ناسْ عُزازْ(٦) متلْ الكلابْ سوُّونا(٧)
يابابى(٨) النقسْ(٩) يا الإنقليزْ الفــــونا(١٠)

هؤلاء « البقارة » ناس أشكالهم قبيحة ، وأفعالهم أقبح ، فيوم نزحوا إلينا من الغرب أتتنا كل مصيبة وداهية دهياء ، أكلوا الأخضر واليابس

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ١١٣٦ .
(٢) جونا : جاءوا إلينا .
(٣) جابوا : أتوا .
(٤) التصفية : ضريبة كانوا يأخذونها بعد أن يأخذوا الزكاة .
(٥) مرقونا : أخرجونا .
(٦) عزاز : أعزاء .
(٧) سووناا : صيرونا .
(٨) يابى : أبى .
(٩) النقس : أمبراطور الحبشة .
(١٠) ألفونا : أدركونا .

وأنقلوا كواهلنا بالأتاوات ، وزادوا فيها على الحـــد المشروع بما سموه «التصفية» ، فخرجنا من بيوتنا فارين منها ، إذ لم يبق فيها مايغرى بالإقامة فيها ، فقد أصبحت مباءة للقحط والخوف .

كنا مكان التوقير والتجلة ، فنحن أبناء قوم أعزاء ، فأذلونا وحقرونا حتى صرنا مثل الـكلاب فى الخسة والحقارة ، وفعلوا بنا الأفاعيل وكادوا يبيدوننا بالنهب والتقتيل ،وكلما دنا منا غيث للفرج أخلفنا برقه الخلب وعارضه الجهام ، فيا أبانا إمبراطور الحبشة ويا أيها الإنجليز أدركونا فقد أوشكنا أن نقتل على بكرة أبينا .

مما لاريب فيه أن الشاعر قد عيت عليه مسالكه واضطربت عليه مذاهبه ، فباح بأمر قد لايكون طوى عليه كشحه ، ولكنه فى هذه الدوامة صار كالغريق الذى يتشبث بكل شىء ولو كان من المهلكات . ولكنه فى غمرة يأسه لم يكن غرا ساذجا ، ففى قوله «يا باب النقس» تفرقة واعية بين امبراطور الحبشة وبين الإنجليز ، فالنقس قريب منا جدا قريب حتى صار بمنزلة أبينا ، أما الإنجليز فلا قربى بيننا وبينهم ولا نسب ، فهو هنا أنضر أفقا من الخليفة عبد الله الذى تبع رسوم المهدية ونصوصها ، ولم يستوح روحها حين رفض التضامن مع الحبشة على حرب الطليان ، فهو لم يفطن إلى مغزى خطاب يوحنا ، ولم يبصر الخطر الداهم على افريقية من جراء تكالب الإستعمار الاوربى وتهافته عليها ، وأعتقد أن المهدى لو كان فى موضعه لوضع يده فى يد امبراطور الحبشة ولو إلى حين .

ومهما يكن من شىء فإن صرخة الشاعر صرخة يائس محزون ، همها قبل كل شىء إغاظة الخليفة عبد الله ، بتفضيل خصومه الأجانب عن الوطن والدين عليه .

وإذا كان الحاردلو قد يئس من انفجار ثورة داخلية تمزق عرش الخليفة عبد الله وتفل أيدى أنصاره ، فإن شاعرا آخر رأى أن الخلاف الذى نشب بين الخليفة عبد الله وبين الأشراف كان رحمة بالناس .

هذا الخلاف قد عرى المهدية عن ثوبها الوقور وجوها الصوفى المتقشف ، فهز ركنها الركين ، وأظهر المتنازعين أمام أعين الناس وفى وضح النهار فى صورة طلاب الدنيا التى أشبعها المهدى ذما وتفنيدا ، وهذا الفهم طوع لهم أن ينفضوا عنهم الحرج ، ويمعنوا فى الفوضى ويجاهروا بالعصيان .

قال معبرا عن ذلك هازئا بسياسة الحكومة(١) .

دْنقرنا(٢) فِى الـُعربـَان(٣) حَـَبـت(٤)
وقلـْبنا(٥) بـَعـْدْ الخـُـوفْ ثبـَتْ
خـُلـفاتـَـا لكـُوهـا(٦) وأبتْ
بعدْ ما شابتْ عقْبان(٧) حَبـَتْ

اختلاف خلفاء المهدى قضى على هيبة المهدية وأزال رهبتها ، فثبتت قلوبنا بعد خوف ، وسكنت نفوسنا بعد هلع ، وانطلقت الثورات من عقالها ، وارتفعت أصوات طبول الثائرين فملأت الآفاق هديرا رهيبا .

حاول ولاة الأمر أن يسيروا بالمهدية على نهج مؤسسها قوية زاهدة ، فأبت عليهم إباء ونفرت نفاراً ، لأن الطمع وحب العاجلة قد قضى على عزائمهم وفت فى أعضادهم ، فصاروا يلتون ويعجنون بلا جدوى .

(١) تقابات اليراع ص ٢٣ . ملاحظة . قد روى البيت الثالث هكذا أهل الرياسة والنائم ما رويت .
(٢) دنقرنا : الدنقر طبل كبير يعزف عليه فى الحرب والمناسبات الكبيرة .
(٣) العربان : الأعراب .
(٤) حبت : عزف .
(٥) قلبنا : قلبنا ، دأب اللهجة السودانية تحريك وسط الثلاثى الساكن الوسط .
(٦) لكوها : لاموها وعجنوها أى الحكومة .
(٧) عقبان : مرة ثانية ، مرة أخرى .

وعجيب أمر هذه المهدية التى لبثت فينا أمداً ليس بالقصير ، حتى قرّ فى أنفسنا أنهـا أصبحت حكيمة محنـكة . قد أحكمتها التجارب وقومتها الخبرة ، فإذا بها تعود كما بدأت طفلة غرة تحبو !!

أكتفى هنا بهذه اللمحات ، وأرجو أن يكون القارىء أبصر من خلالها أضواء كاشفة لمـا كانت عليه الحياة فى هذه الحقبة من تاريخ السودان ، فالمعركة التى أحجم عن خوضها الشعر الفصيح بالقدر الذى وصل إلينا ، خاضها الشعر الشعبى ، فشاطر الناس أحزانهم وترجم عن أشجانهم .

الفصل الرابع

(الشعر يمهد لثورة ١٩٢٤)

(أ) الأحداث التاريخية ومناقشتها

سقطت حكومة خليفة المهدى عام ١٨٩٩ م بعد أن روّى الأنصار أرضهم الطاهرة بدمائهم ، ورفع الإنجليز علمهم بجانب العلم المصرى ، وهو أمر لم يكن يتوقعه العاطفون على الفتح من السودانيين ، ولم تكن تتوقعه مصر التى فتح السودان باسمها وبجنودها ومالها وما كان ينقع المصريين والسودانيين أن يفطنوا لما حدث ويتوقعوه قبل حدوثه ، لأنهم جميعاً مستضعفون ومسوقون إلى غاية لا يعرفونها . وإن ظل بطرس غالى وأمثاله من باشوات مصر يحكون انتفاخا صولة الأسد .

وفى العام نفسه كتب الإنجليز اتفاقية الحكم الثنائى ، ووقع عليها بطرس باشا غالى نيابة عن مصر التى لم تنبه(١) ، وأهم بنودها ينص على أن السودان أصبح شركة بين انجلترا ومصر فى حكمه ، وقامت فيه حكومة تسمى «الحكم الثنائى» والكلمتان ترجمة حرفية للكلمة الإنجليزية «Condominium»[٢] وعلى رأس هذه الإدارة حاكم إنجليزى لقبه « حاكم عموم السودان » ترشحه بريطانيا وتعينه مصر[٣] ، وهو حاكم بأمره يرجع إليه فى كل شىء ، وله من حرية مطلقة جعل « السكرتيرين » المعاونين له مباشرة من أبناء جلدته ، وجعل المديرين للمصالح والمديريات من أبناء جلدته أيضاً ، وجعل المفتشين

---

(١) السودان عبر القرون ص ٤٣١ .

(٢) مجلة القلم السودانية العدد الثانى عشر يناير سنة ١٩٦٨ م من مقالة الدكتور التيجانى الماحى .

(٣) مختصر تاريخ السودان ص ١١٢ .

كذلك من الإنجليز ، وترك للمصريين سقط المتاع ، بل وضعهم فى الموطن الذى يجلب عليهم سخط الناس وتذمرهم ، كتنفيذ حكم السجن والجلد والمصادرة ، ووضع الانجليز فى الموضع المشرق الذى يتيح لهم أن يظفروا بالسمعة الحسنة فينقضوا ما أبرم « المأمير » المصريون ، ويضطلعوا بتنفيذ المشروعات المبشية ومنح الأراضى وإعلان العفو (١) .

ومصر وإن كانت فى ذلك الحين ضعيفة مقصوصة الجناح رازحة تحت كلاكل الاحتلال البريطانى لم تصمت ، بل أعلنت رفضها وسخطها وتبرمها على ما حدث ، فارتفع صوت الزعيم مصطفى كامل يقول : « . . . إن أكبر أيام الشقاء فى تاريخ مصر ، وأسوأ تذكار يهيج فى نفوس المصريين الأحرار الآلام والأشجان ، هو يوم ١٩ يناير ١٨٩٩ يوم تذكار اتفاقية السودان ، ذلك اليوم المشئوم الذى أعلنت فيه الحكومة للأمة المصرية وللعالم كله ، أن السودان صار مستعمرة انجليزية بالفعل ، وأن المشاق الهائلة والأتعاب الجسيمة والأموال الباهظة والدماء الطاهرة التى صرفت فى سبيل استرداده ، قدمت هدية من مصر للدولة البريطانية ، فما أعظمك يا مصر كرما (٢) » .

وفى السودان تلاحقت الثورات ، ومديرية دارفور لم تستسلم حتى نشوب الحرب العالمية الأولى (٣) ، وضعف الوعى السياسى وما اتسم به عهد الخليفة عبد الله من قسوة ، جعل بعض القبائل وبعض الطوائف الدينية تلق السلاح . وانحصرت المقاومة فى فلول المهدية تقريبا ، فنشبت الثورات هنا وهناك (٤) . وقد أخمد الإنجليز هذه الثورات بقسوة بالغة واضطهدوا

---

(١) مجلة القلم — العدد نفسه والمكان نفسه .
(٢) السودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ص ٤٤٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٨٤ .
(٤) المصدر نفسه ص ٤٦٨ — ٦١٩ .

بيت المهدى ، وتعقب مخربوهم الأنصار للقضاء على شعائر المهدية وآثارها [١] .

وقد استفاد الانجليز من تجارب التركية فى السودان وتجارب المهدية أيضا ، فتجلى لهم كيان السودان العربى المسلم وعناصره القوية المناضلة ، فرسموا سياسة قوامها القضاء على كل خلية حية من هذا الكيان ، وخلق أمساخ من البشر قبلتهم لندن، ليفصلوا السودان عن تاريخه المجيد ، ويباعدوا بينه وبين الوطن العربى الكبير ، والشعور العربى الأبى . وكان لهذه السياسة المجرمة مظاهر منها :

١ — عمدوا فى الاتفاقية على أن يغلو يد مصر ثم يمدوها عن السودان ، لينفردوا به ويصوغوه كما يشاءون ، فكان رأس الحكومة انجليزياً وما بعده فى الرتب انجليزاً وليس لمصر سوى « المأمير » . ووظيفة « المأمور » على ما بها من سوء أشرت إليه فيما سلف ، لم يقلدوها المصريين إلا لحاجتهم إلى من يعرف اللغة العربية ليكون حلقة وصل بينهم وبين الجماهير ، واستعانوا بجانب ذلك على قطع جذم المصريين فى السودان ببث « الدعاية » السيئة بجميع الوسائل ، لغرس كراهية المصريين فى نفس الشعب ، ونفوس زعماء القبائل . فأوحوا إليهم بأن المصريين يريدون استعبادهم واستغلال ثرواتهم ، مثلما فعلوا فى العهد التركى ، ويريدون أيضا أن يستأثروا بماء النيل [٢] . وحاول الانجليز التقرب من هؤلاء الزعماء ، فقامت عيونهم بإحصائهم وإحصاء زعماء الدين وبيان مايتمتعون به من نفوذ ، ليكونوا موضع التجلة والتكريم من الحاكم العام الانجليزى ، وليكونوا عونا له فى مناهضة المصريين [٣] .

---

(١) جهاد فى سبيل الاستقلال — من مذكرات السيد عبد الرحمن ص ١٦ .
(٢) مآسى الانجليز فى السودان ، ص ١٣ — ١٤ .
(٣) مجلة القلم السودانية من مقال الدكتور النعمانى الماحى .

ومنطق اللورد كرومر فى تبرير هذا الموقف من مصر ، هو أن مصر ليست مغبونة فى هذه الصفقة، فإذا كانت قد ضحت فى الفتح بشىء من المال، فان مالها لم يعم الا برعاية الانجليز، وإذا كانت قد ضحت بآلاف من الرجال، فالانجليز هم الذين خلقوا فيها جيشا مقاتلا ، ومصر بصفة عامة رابحة، لأنها قد ضمنت سلامة حدودها من هجمات المهدية، ولأنها باتت مطمئنة إلى وصول أمواه النيل إليها ، حيث صارت تهيمن على المنابع دولة صديقة [1] .

هذه أبلغ حجج الإنجليز فى إقصاء مصر عن السودان ، وهى حجج لصوص وليس فيها شىء من المنطق ، وإلا فمن الذى طلب إليهم أن يحتلوا مصر ويتعهدوا مالها وجيشها بالرعاية ، ومن الذى مزق جيش عرابى وسرح مابقى منه ؟ ! .

وما شأنهم والسودان ؟ ! ، فاذا كان فى حكومة الخليفة عبدالله ضعف وفساد فالسودانيون وحدهم هم المنوط بهم تقويمها وإصلاح ماأعوج منها ، وحمايتهم حدود مصر من هجمات جيش المهدية بهذا الفتح مغالطة ، فقد كان جيش مصر أقوى من جيش المهدية ، وكون السودان يفتح مصر أو مصر تفتح السودان مسألة لادخل لهم فيها، فهى قضية تخص الآخرين. وسيطرتهم على منابع النيل كان الغرض منها تهديد مصر لا ضمان سقياها ، كما سنرى ذلك جليا بعد مقتل اللورد ستاك فى مصر .

٢ — والتعليم وهو الأساس الأول للحضارة التى زعموا أنهم رسلها فى آسيا وفى أفريقية ، قد أفرغوه فى القالب الذى يوائم خططهم الاستعمارية ، ومن المبالغة أن نقول فيه مثلما قال الدكتور مكى شبيكة « وكانت ومضة من ومضات العبقرية ، حين فكر كتشنر فى تخليد ذكرى غوردون بمؤسسة تعليمية تحمل اسمه فى الخرطوم ، ولعلها كانت تكفيرا للخطايا التى اتهم بها

(١) السودان عبر القرون ص ٤٣٢ .

كتشنر فى محاولة الانتقام لغوردون . . . . حمل معه الفكرة حينما ذهب بقضى اجازته فى انجلترا ، فى شتاء سنتى ١٨٩٨ - ١٨٩٩ وكان الشعب البريطانى متحفزا ومستعدا للاكتتاب لمكانة كتشنر فى قلوب الشعب آنذاك، وللجرح العميق الذى لا يزال دامياً فى قلوبهم حين علموا بموت غوردون . فقد اجتمع لديه ما يزيد على المائة ألف جنيه فى وقت قصير ، وسرعان ما وضعت التصميمات اللازمة للبناء . . .»[١] .

فن الخير أن نتريث ونقتصد ، فإن سخاء الشعب البريطانى وانفاقه على هذه المؤسسة لم يكن شيئاً رائعاً ، ولم يكن عملا كبيرا ، فهذه المدرسة قد ظلت إلى عام ١٩٤٦ م ، تكلف الخزينة العامة ما يزيد على أربعمائه ألف من الجنيهات. أما المبلغ الذى يصل إليها من أموال ذكرى غوردون لا يزيد على ألف وتسعمائة وخمسين جنيها [٢] .

وكان الغرض من التعليم تخريج طائفة من الموظفين الذين يشغلون الوظائف الصغرى [٣] ، وظلت هذه المدرسة حتى عام ١٩٤٦ م فريدة فى هذا القطر الشاسع الأرجاء ، فلما ضج الناس وتذمروا ، شطروها شطرين وضعوا شطرا منها فى « حنتوب شمالى « مدنى » وشطرا فى « وادى سيدنا » شمالى أم درمان وبقى عدد التلاميذ كما كان [٤] .

فلم يكن الغرض إذن من إنشاء كلية غوردون التذكارية إشاعة النور فى أرجاء البلاد ، وبث الثقافة فى أنحائها ، ولكن الضرورة الملحة فى خلق وسطاء بين الشعب السودانى والحكام الانجليز ، مع الأمر المبرم على إخراج المصريين من السودان ، هو الذى حتم على الانجليز انشاءها .

---

(١) السودان عبر القرون ص ٤٦١ .
(٢) مآسى الانجليز فى السودان ص ٣٩ .
(٣) تاريخ السوادن الحديث لضرار صالح ص ٢٤٤ .
(٤) مآسى الانجليز فى السودان ص ٤١ .

ولكن حسن الحظ أو طبيعة الأشياء، حمل هذه الضرورة الملحة على أن يكون الأساتذة المصريون من أقوى أعمدة التعليم ، فشجعوا تلاميذهم على الاطلاع والتزود من الثقافة العربية (١).

وقد ضيقت مصلحة المعارف من التعليم الأوسط ما وسعها التضييق ، فحتى عام ١٩٤٦ ، لم يجاوز عدد المدارس الوسطى احدى عشرة مدرسة ، وكان التلاميذ يدفعون أجراً يكاد يوازى ما أنفق عليهم(٢) .

واقتضت هذه السياسة التى ترمى إلى « نجلزة » السودانيين أن تغلق آلاف المدارس التى كانت تعنى بتحفيظ القرآن ، خشية أن توقظ الروح الدينى المناضل من جديد ، ولم تجعل لها بديلا ، فكان عدد الأطفال الذين يتقدمون للحاق بالمدارس الأولية القليلة ، بكل مدرسة منها يقرب من خمسمائة طفل ، لا يؤخذ منهم سوى أربعين(٣) .

ولا مجال هنا للحديث عن التعليم الجامعى أو التعليم العالى بصفة عامة ، ما دام موقفهم من التعليم العام كما رأينا ، والأعجب من ذلك كله أنهم أخذوا يشككون السودانى فى مقدرته وأهليته لهذا اللون من التعليم ، وفى ذلك يقول « السير هارلود ماكايكل » السكرتير الإدارى لحكومة السودان : « ويبدو لى جليا أن الحد الأقصى للتعليم فى السودان هو المرحلة الثانوية ، التى تتجه بعض الشىء إلى شبه تخصيص مهنى ، وإننى أشك فى أن العقلية السودانية قد تطورت إلى الحد الذى يسمح بالتفكير فى إدخال التعليم الجامعى(٤) » !!

ومدرسة الطب التى سماها الانجليز « مدرسة كتشنر الطبية » لتخليد اسمه

(١) تاريخ السودان الحديث لضرار صالح ضرار ص ٢٤٦ .
(٢) مآسى الانجليز فى السودان ص ٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣ .
(٤) السودان الانجليزى المصرى ص ٢٦٤ .

البغيض لا علاقة لها به ، والذى أنشأها من حر ماله رجل عربى عراقى . اسمه أحمد بك البغدادى ، أثرى من التجارة فى السودان ، فبر هذا البلد الذى منحه الإخاء والثراء بهذه المدرسة ، وأوقف عليها أوقافا تدر عليها مالا وفيرا[1] .

والتعليم الصناعى لم يكن شيئا مذكوراً ، فقوامه مدرستان إحداهما فى أم درمان ، يفد جل تلاميذها من المدارس الأولية ، ويتخرجون فى البناء والنجارة وما شابه ذلك من الحرف الأولية ، والثانية بعطبرة ليتعلم فيها التلاميذ الحدادة وأعمال الميكانيكا(٢) .

أما التعليم الدينى، أو بعبارة أدق تعليم الثقافة العربية الإسلامية . فقصته من أكبر قصص مآسى الانجليز فى السودان ، وليس فى ذلك شيء من الغرابة أو العجب ، فهم الانجليز طمس معالم الشخصية السودانية ، وخلق شخصية تدير ظهرها للعرب وتراث العرب ، وتفخر بأنها ، متفرنجة ، وهى ليست من علم الافرنج وفهم وأدبهم فى شيء .

لهذا الهدف الاستعمارى اضطهدت اللغة العربية واضطهد معلموها فى المدارس ، وسنرى بكاء الشعراء عليها ، ووقع الاضطهاد الأعظم على المعهد العلمى ، المعهـــد الدينى ، وهو ثمرة لتجمع حلقات الثقافة العربية الإسلامية التى استأنفت نشاطها بعد سقوط المهدية . فقد نظمه الرجل الجليل الشيخ أبو القاسم هاشم على نهج الأزهر القديم ، . . . أسوة بالأزهر الشريف لأننا على نظامه فى مقررات السنين وفى الكتب التى تقرأ فى تلك المقررات[3] .

---

(١) مآسى الانجليز فى السودان ص ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٣) من خطبة له — جريدة الرأى العام السودانية ٢٠/٧/١٩٤٥ .

ولزميلنا الأستاذ عبده بدوى آراء فى نشأة المعهد العلمى والغرض منه ، ونظام الدراسة فيه لا أدرى من أين استقاها ، ومع أن الأخبار التى صدر بها حديثه ليس لها مصدر معلوم ، فإن بقية حديثه عن هذا المعهد تنقضها نقضا، ولقد عملت ـ حكومة السودان ـ على تحويل التيار الثقافى عن مصر بإنشاء المعهد العلمى عام ١٩٠١ م فقد كان الغرض من قيامه منافسة الأزهر فى مصر ، وتحويل الطلبة عنه إلى هذا المعهد الجديد ، وقد أنشأت به قسما للمعلمين والقضاة ، على غرار دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى بمصر(١)». هذا ما قاله الأستاذ عبده بدوى .

ويؤسفنى أن أقول إن هذه الأخبار لا نصيب لها من الصحة ، فالمعهد العلمى لم ينشئه الانجليز لهذا الغرض ، تحويل التيار الثقافى عن مصر ، فهو قد نشأ بالرغم منهم ، ولو استطاعوا لما سمحوا بقيامه . لأنه يدعم الكيان السودانى المبنى على دعامتى العروبة والإسلام ، وهمهم القضاء على هذا الكيان. وقد حاربوه حربا لا هوادة فيها ، ومن أنصع الأدلة على ذلك أن مدرسيه كانوا لا يجدون فى أجرهم الكفاف . وكانوا ينفقون منه على تلاميذهم المساكين . ومن أنصع الأدلة على ذلك أن المتخرجين فيه حتى عام ١٩٤٤ لم يجدوا عملا فى المدارس الحكومية(٢) . ومن أنصع الأدلة على ذلك أن بناء الجامع الذى هو مقر الدراسة لهذا المعهد ، قد أهمل بعد أن ارتفع سمكه ، ونضب المال الذى تبرع به الأهلون . فلم تمد حكومة السودان يدها لرفده وكانت تغدق الأموال بسخاء على التبشير المسيحى . وقد هاج هذا الموقف شاعرا مسيحيا واعيا فقال :

يامسجدا مطلت بنوه بعهده حتى غدا وهو الحسير المهدم
بدأوك جوداً بالصنيع وأحجموا ما كان أولى أن ذاك يتمم

---

(١) الشعر الحديث فى السودان — عبده بدوى — ص ٤٠٧ .
(٢) أنا فى ذلك كله شاهد عيان .

بينا تشيد إذ وقفت كأنك الـ ... طلل المحيل عفاه هام مرهم
عريان رأس ماتزال تضج من ... حر ومن قر لوجك يلطم
وعليك هامية الرباب مرنة ... ومن السوافى الهوج ماهو أقتم
قد لوحت شمس النهار بحرها ... من جانبيك ففى شبابك تهرم(١)

وأعتبر أن هذا القدر يكفى لدفع هذه التهمة ، فالمعهد العلمى كان شجى فى حلوق الإنجليز .

وهذا المعهد العلمى الذى به قسم للمعلمين والقضاة على غرار دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى فى مصر لا أعرفه ، فهذا معهـــد دينى خيالى ، أما المعهد الدينى الذى نعرفه هو الذى قال فيه الأستاذ عبده بدوى نفسه « لقد اهتم الوضع الجديد بالتعليم المدنى - وهذامبالغة - ولم يقبل على التعليم الدينى ، ولكن رغم ذلك ظل هذا النوع من التعليم منتشرا بين الأهالى ، ولكن الظاهرة البارزة فى هذه الفترة هى إنشاء المعهد العلمى بأم درمان سنة ١٩٠١ م . على أنه لم ينهض النهضه الحقيقية إلا سنة ١٩١٢ م حينما قام بأمره الشيخ أبو القاسم ، الذى أحضر لائحة الأزهر ووضع المنهج الدراسى فى المعهد على شاكلتها وكذلك المراحل الدراسية(٢) » .

والقارىء لا يحتاج منى إلى أن أضع أصبعه على مواضع التناقض بين أخبار المعهد العلمى الخيالى وبين أخبار المعهد العلمى الحقيقى . ولعل للأستاذ عبده عذرا ، هو أن منهج الدراسة فى المعهد العلمى قداختلط فى ذهنه بمنهج كلية غوردون التذكارية ، فقدكان بها قسم للمعلمين وقسم للقضاة الشرعيين ، ولكن لا يمكن بحال تشبيه هذين القسمين بدار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى ، لأنهما قسمان فى مدرسة ثانوية .

(١) شعراء السودان ص ١٤٠ .
(٢) الشعر الحديث فى السودان — عبده بدوى — ص ٤٠٩ .

ولما كانت سياسة الإنجليز فى السودان تمزيق أجزائه، للاحتفاظ بجنوبه إذا استطاع الشمال أن يقطع أحابيلهم ويحطم قيودهم ، ويسير فى الاتجاه العربى . لما كانت هذه غايتهم : لم يكتفوا بإغلاق جنوبى السودان فى وجوه الشماليين حيث لا يستطيعون الدخول فيه إلا بترخيص ، بل أرادوا أن ينشئوا له ثقافة خاصة تباعد بينه وبين الشمال فكرياً ونفسياً ، فأطلقوا أيدى الإرساليات المسيحية ، تمارس التعليم فى المديريات الجنوبية كما تشاء ، وأمدوها بالمال الوفير من خزينة حكومة السودان، بجانب الأموال الضخمة التى كانت تنهال عليها من دعاة التبشير فى أوربا وأمريكا . فحاربوا اللغة العربية ، وحاربوا الدين الإسلامى حربا ضروسا ، وزرعوا الأحقاد ، وعاونتهم الحكومة على ذلك، حتى ألجأت الشماليين هناك أن يمارسوا عباداتهم سرا ، لما رأت أن الجنوبيين يميلون إلى الاقتداء بإخوانهم الشماليين فى العبادات الجماعية . وقد جاء فى المضبطة السرية لاجتماع المديرين « من العبث الفصل بين التعليم والدين ، ولما كانت المسيحية أصلح لأهل الجنوب من الإسلام ، فإنه ينبغى والحالة هذه أن تكون اللغة الانجليزية هى لغة التعليم فى الجنوب . كما أنه يتحتم إرسال النجباء من الطلبة فى الجنوب إلى مدارس يوغندا وكلياتها حيث ترسخ عقيدتهم المسيحية(١) » ا هـ .

أما التعليم العالى فلم يكونوا يفكرون فيه ، لأنه يهدم سياستهم القائمة على جهل المحكومين ، فهم « حتى عام ١٩٤٦ م لم يبعثوا سودانيا واحدا ليحرز شهادة من الخارج . والسبب واضح ، هو حصر التعليم فى نطاق ضيق ، والاتجاه به إلى تخريج موظفين فى الوظائف الصغرى وكانت حكومة السودان — تحتج فى قصر السودانيين على هذه الوظائف بضعف الكفاية

(١) مآسى الانجليز فى السودان ص ٢٢ — ٢٣ وضرار صالح ضرار ص ٢٤٦ .

لهذه المناصب العليا — فهي لا تريد أن تأتى بأصحاب مؤهلات ينافسون الإنجليز » .

« لما احست بالحرج ... بدأت ترسل بعض الموظفين فى بعثات قصيرة، ولا تريد منهم عملاً جاداً فى التحصيل ، وقد لاحظ بعضهم أنها تختار من موظفيها لهذه البعثات القصيرة كبار السن ممن تجاوزت أعمارهم الخمسين ، وفترت هممهم ... لتوهم الناس أنها تبعث البعوث لترضيهم . وتسد الطريق أمام الشباب المتحمس لطلب العلم . . .(١) » .

والحديث عن البعثات إلى الخارج . لا يشمل البعثات إلى مصر . إذ أن طلب العلم فى مصر يعد فى نظر الإنجليز جريمة نكراء . لا يعاقب عليها الطالب وحده بالتضييق عليه وايصاد أبواب الرزق فى وجهه ، بل يعاقب عليها أهله وأصدقاؤه وكل من لهم به صلة .

وقد سافر نفر من الطلبة إلى مصر سرا فهاجت حكومة السودان وماجت « ... فاستقبلنا خبر ذهابهم إلى مصر ، وقد اضطربت الكلية لهذا الحادث، وازداد الضغط والتعنت .... وإذا التحقيق يدور مع البعض الآخر ممن كانوا وثيق الاتصال بمن سافروا(٢) » .

وللأستاذ حسن نجيلة صورة قصصية رائعة فى هذا الشأن تريك كيف يجن جنون الإنجليز عندما يفلت طالب من قبضتهم ويذهب إلى مصر(٣) .

هذه صورة مصغرة عن التعليم بوسائله التقليدية . أما التعليم الذى تذيعه وسائل الحضارة الحديثة فى الناس عن طريق الخيالة والمذياع ... الخ فلم يكن الناس فى السودان يعرفون عنه شيئا فى ذلك الحين ، وقد كانت

---

(١) مآسى الانجليز فى السودان ص ٤٩ — ٥٠ .
(٢) موت دنيا للاستاذين محمد أحمد محجوب وعبد الحليم محمد ص ٧٦ — ٧٧ .
(٣) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٠٤ — ١١٠ .

قراءة الصحف المصرية محرمة تحريما باتاً .. وكنت ترى أنت كيف نعامل في تلك السنين ، ألم يحرم علينا أن نقرأ الصحف والمجلات الأدبية ؟ وكم من عنت لقينا ، وكم أصابنا من لغوب ، ونحن نحاول أن ندس جريدة السياسة الأسبوعية ، والبلاغ الأسبوعي والهلال(١) » .

ولم يسمحوا بقيام صحيفة واحدة تناهضهم ، وتكشف أسرار سياستهم ، وقد نشأت صحف هزيلة ، لا يهمني هنا أن أقص تاريخها لأنها لا أثر لها في الأدب ، ويكفيني الحديث عن صحيفتين منهما هما « الرائد » و « حضارة السودان » .

أما الرائد فقد ظهرت عام ١٩١٤م وكانت أدبية اجتماعية تصدر في نهاية كل أسبوع ، وقد تعاقب على تحريرها نخبة من الأدباء المصريين والسوريين . طبعوا الفكر السوداني والذوق السوداني بطابع كان له أثر عميق ، وكان آخرهم الصحفي الممتاز عبد الرحيم مصطفى قليلاتي السوري ، الذي كانت نهاية عمله في هذه الصحيفة نهاية المجاهدين الأحرار في ذلك الزمان ، فقد أصابت السودان في غضون الحرب العالمية الأولى مجاعة جائحة ، وأصبح الحصول على الذرة شاقا عسيرا ، في حين أن كلاب الإنجليز تنعم بكل ما لذ وطاب ، فكتب في ذلك مقالا هداراً عنوانه :

تموت الأسد في الغابات جوعاً ولحم الضأن يطرح للكلاب !

فألقى الانجليز عليه القبض وأبعدوه عن السودان مأسوفا عليه (٢) ،

وكان لهذا الصحيفة شأن في دفع الحركة الأدبية وتنشيط أقلام الشيوخ والشبان ، فأخذوا يتبارون في التشطير والتخميس ، ولم يكن مثل

---

(١) موت دنيا ص ٤٨ .
(٢) ملامح من المجتمع السوداني ص ١٩ .

هذا العمـــل الأدبى حينذاك منكرا ، بل هو عمل دال على البراعة والاقتدار(١) .

أسند تحرير هذه الصحيفة بعد ابعاد قليلاتى إلى أول صحفى سودانى هو السيد حسين شريف ، وكان كما قال فيه الشاعر حسين منصور « ثم تسلمها المواطن الكريم السيد حسين شريف الدرة المتلألئة فى بيت المهدى ، وهو من طليعة خريجى كلية غوردون . . . وكان مثال الصحفى اللبق فى جمال أسلوبه وبعد مراميه ، وفى القيام بواجبه كرئيس تحرير من حيث تبويب الجريدة وكتابة الإفتتاحيات التى لا تقل فى منطقها وجزالتها عن أية افتتاحية فى أرقى الصحف العربية(٢) » . ولكنه يعيب مذهبه السياسى وحسن ظنه بالإنجليز « أما مذهبه السياسى فيمكن تلخيصه فى الاعتماد على ـ الشريك الأقوى ـ والاسترشاد به فى رقى البلاد . . . واهمال ـ الشريك الضعيف ـ والعمل على الخلاص منه وفى تلك الأثناء يعمل المفكرون على توحيد كلمة الزعماء لانتخاب زعيم يدين له الجميع ، ليتسلم زمام الحكم من الحكومة الصديقة . . . إلى آخر هذا الوهم الكاذب والهذر الفارغ ، الذى صار السيد فيما بعد أول كافر به بعد أن اصطدم بألاعيب السياسية البريطانية(٣) » .

وهذه الآراء التى لخصها الشاعر حسين منصور لم يكتبها السيد حسين شريف فى هذه الصحيفة وإنما كتبها فيما بعد ، عندما بدأت تتعدد الاتجاهات السياسية فى حضارة السودان .

وأما « حضارة السودان » فقد ظهرت عام ١٩١٩م ، وكانت أدبية اجتماعية

---

(١) للوقوف على أهمية هذه الصحيفة وجهاد هذا الأديب ، يحسن بالقارئ ، أن ينظر فى كتاب الأستاذ نجيلة ملامح من المجتمع السودانى من ص ٧ الى ص ١٧ .

(٢) الشاطئ الصخرى ـ ديوان شعر الشاعر حسين منصور ـ ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٣) المصدر نفسه والصفحات نفسها .

تولى تحريرها السيد حسين شريف بعد نهاية « الرائد » . وأصحاب امتيازها أول الأمر ، هم السيد عبد الرحمن المهدي ، والسيد محمد الخليفة شريف والشيخ عثمان صالح والشيخ عبد الرحمن جميل والشيخ حسن أبو(١) . وإلى هذا الحين لم تكن حكومة السودان تسمح للصحف بأي نشاط سياسي ، وأهمية هذه الصحيفة أنها ساهمت في نشر الأدب شعراً ونثراً . ثم تحولت إلى صحيفة سياسة حينما بدأ الصراع السياسي يأخذ طوابع معينة .

ومع هذا التضييق والحرمان من التعليم وإيصاد أبوابه ، ومطاردة من يرغب في المزيد منه ، فإن الطامحين من الشبان قد عكفوا على القراءة الجادة المثمرة ، قرأوا صحف المصريين وقرأوا كتبهم بنهم شديد فأفادوا منها ، بجانب هذا قرأوا الكتب الإنجليزية . وهذا نص ينم عما كانت عليه الحال :

« ولم يكن التعليم على حد تعبير المسئولين يومذاك سوى أداة لإعداد المادة البشرية الكافية ، لتدير دولاب العمل في مصالح الحكومة . . . ودائرة المحرمات قد اتسعت حتى شملت كل شيء . فقراءة الكتب لا ينظر إليها بالرضا . وقراءة الصحف محرمة ولا يكاد الطالب يطيل النظر إليها إلا في غفلة من أعين الرقباء . ومن هنا كان شغف هذا الجيل بالقراءة — وحب شيء إلى الإنسان ما منعا — وكانت السياسة الأسبوعية حديثة عهد تلك الأيام . وكانت مثار جدل أدبي وفلسفي بين طه حسين وهيكل آونة ، وبين رجال العلم ورجال الدين . . . على أن السياسة الأسبوعية لم تكن وحدها . فقد ظهر بعدها البلاغ الأسبوعي فياضاً بدراسات العقاد الأدبية للكتب والأشخاص . وما من كتاب أو شخصية تظفر بتحليل العقاد لها إلا كانت مما يلفت النظر . ومما يغري الناس بقراءة ذلك الكتاب أو دراسة تلك الشخصية ، فالعقاد كان مرشدنا في بيداء تلك الحياة الشائكة(٢) » .

٣ — درس الإنجليز السودان قبل الفتح وبعده دراسة دقيقة . فتبين

---

(١) ملامح من المجتمع السوداني ص ٢٠ .
(٢) موشد نيا ص ٥٠ — ٥١ .

لهم أن جوهره لا يسمح بوجودهم الدائم أو الطويل ، فعناصر المقاومة متوفرة فيه، وخاصة في شماليه الذي صنعته ثقافة عريقة مقاومة . من شأنها أن تمر بها التيارات القوية من الأفكار والاتجاهات ولا تمسخها وتفتت كيانها . بل تعينها على تجديد نفسها على مر الزمن وتعاقب القرون . وقد رأوا أن تيارات فكرية ثائرة بدأت تتسرب إلى عقول المثقفين وتخالط نفوسهم ، على رغم أنف حواجزهم وسدودهم . وهذا من شأنه أن يقضى على كل فكرة متخلفة ، وعلى كل نظام اجتماعى متخلف . وهم من تجاربهم يعلمون علم اليقين أن الإستعمار لا يعمر الا في المواطن المتخلفة . وعلى هدى هذا العلم عملوا على تعويق خطوات التطور وتثبيت النظم العتيقة في مجال القبيلة ومجال الطريقة الصوفية .

ففي مجال القبائل أثاروا النعرة القبلية التي حاول المهدى إماتتها . وانحصرت أيام الخليفة عبد الله في نطاقين : سكان الغرب يقابلهم أولاد البلد . أثاروا النعرة القبلية وضرموا نارها ، فاحتفوا برؤساء القبائل وأحلوهم محل الصدارة وأذكوا فيهم روح التنافس والتمسك بنظام القبيلة كان من دعائم حكمهم . وفي ذلك يقول « السير جون مافى » أحد خلفاء « اللورد كتشنر » ووارث منصبه [1] « .. أما فيما يختص بعامل الزمن فيجوز القول بأن السودان يجتاز عصره الذهبي . على أن هذه الفرصة لا تبقى طويلا . ولذلك علينا أن نضع الخطوات العملية قبل فواتها ... إذ مازال لدينا بالبلاد نظم وأوضاع قبلية . وقوانين محلية وتقاليد قديمة ... ولكن هذا كله صائر إلى الزوال ، أمام موجة الأفكار العصرية. مالم نحطها بسياج منيع من التحصينات [2] .. » !!

على هذا الأساس ولأجل تلك الغاية . حرصت حكومة السودان

---

(١) مجلة العلم السودانية — العدد الثاني عشر من مقالة للدكتور التجاني الماحي .
(٢) مآسي الإنجليز في السودان ص ٢٠ .

الإنجليزية على تعميق جذور القبلية . وإثارة الكراهية بين القبائل .
فكانت طوال الحكم البريطانى تتقاتل على الماء والعشب .

والأوراق الرسمية مثل الشهادات المدرسية ودفاتر المواليد والأموات وسجلات المحاكم . . الخ لا يقبلون من السودانى أن يكتب فى موضع « الجنسية » أنه سودانى بل لابد أن ينتسب إلى قبيلة « معينة(١) » !! .

وفى المجال الثانى مجال الدين ، فقد عرفنا مما سبق أنهم جهدوا فى حرب الدين الإسلامى فى صورته الحية المناضلة ، فى المعهد العلمى وفى المدارس ، وفى ثبات الثوار ، والدين المسيحى الذى دخل المبشرون السودان باسمه لم يكن هو المقصود ، لم يكن من همهم إشاعة المحبة والرحمة التى نادى بها المسيح عليه السلام ، ولكنهم أرادوا أن ينفذوا خطة مجرمة ، هى فصل الجنوب عن الشمال روحيا وفكريا ،وغرس أحقاد أدت فى آخر الأمر إلى أوخم العواقب .

رفضت حكومة السودان الدين فى صورته الحية المقاومة وشنت عليه الحرب ، ولكنها احتضنت زعماء الطرق الصوفية المسالمين ، وروضت الجامح أو من ظنته جامحاً منهم،ليسهل القبض على نواصى أتباعهم ومريديهم . ونشطت « المخابرات » من أول الأمر فأحصت الزعماء الدينيين من أرباب الطرق الصوفية وسجلت أسماءهم فى مقر الحاكم العام ، كما فعلت مع زعماء القبائل ، فاحتفت بهم الحكومة وأمرت حكام الأقاليم أن يتقربوا إليهم ويمنحوهم الصدارة الإجتماعية ، ويقضوا حاجاتهم ، وحاجات المنتمين إليهم ومن يلوذ بهم « أتبعت حكومةالسودان أسلوب اللورد كرومر بين المصريين وهو تشريف زعماء الطوائف الدينية بكساوى الشرف والأوسمة ، التى تمنح

---

(١) مآسى الانجليز فى السودان ص ٢١

فى حفلات تقام سنويا فى سراى الحاكم العام ، يدعى إلى حضورها كل زعماء الأقاليم والأعيان(١) .

وسنرى نتائج هذه السياسة إبان قيام الحرب العالمية الأولى ، وبعد أن تضع أوزارها فقد جنى الانجليز منها مازرعوا .

٤ — المستعمرون يخشون رخاء المحكومين وسعتهم ، كما يخشون تعليمهم وعمق الوعى فى جمهورهم . ولهذا السبب غلوا أيديهم فلم يستثمروا خيرات الأرض ولا خيرات الحيوان إلا بقدر ، والسودان كما هو معلوم يتمتع بأرضه الواسعة الغنية بالغابات والمراعى المترامية الأطراف ، وغنى بالحيوانات المتوحش منها والأليف . وذلك لأن الفقر يذهل الناس عن أنفسهم وعما ينبغى أن يتم لهم من رقى وكمال معنوى . فينفقون جهدهم فى العمل لسد الحاجة وطلب الكفاف ، ولايجدون فراغا ليفكروا ويجتمعوا اجتماعات مثمرة ، لرسم خطوط مستقبلهم ومستقبل أجيالهم . وهم فى حالتهم الفكرية وتصوراتهم البدائية ، إذا وجدوا شيئا من الفراغ فإنهم ينفقونه فى ممارسة الطقوس الصوفية أو المنازعات القبلية . ولمعرفة الانجليز الدقيقة بهذه الأوضاع الفكرية والاجتماعية حبسوا عنهم نور المعرفة ، وعلموا جاهدين على تثبيت النظم القبلية والصوفية كما رأينا .

وكان هدف الانجليز من استعمار السودان أن يوفروا لأنفسهم مايطوع لهم البقاء فى جو رافه وحياة لينة . ويدر على بلادهم مايزيدها ثراء وقوة . ويمكن حصر أغراضهم فيما يلى :

(أ) أن يزودوا مصانعهم « بالخامات » بثمن بخس ، لتفاهة الأجر الذى يقبضه الذين ينتجون هذه المواد .

---

(١) مجلة القلم السودانية العدد الثانى عشر من مقالة للدكتور التجانى الماحى .

(ب) أن يجدوا مجالا مضمونا وسوقا محتكرة لمصنوعاتهم ونشاط شركاتهم.

(ج) أن ينعم الموظفون البريطانيون بالمرتبات الضخمة والحياة الناعمة ، فى قصور حالمة تلفها الحدائق وتجرى من تحتها الأنهار .

(د) أن يتحكموا فى حياة مصر لسيطرتهم على منابع النيل .

ومع أن هذه هى غاياتهم ، وهى لا تتحقق فى صورتها الكاملة إلا إذا عم البلد الرخاء وامتلأت أيدى الناس بالمال ، فإنهم لم يطوروا الحياة الاقتصادية ولم يمدوها بأسباب النماء . وقد أعطانا الأستاذ سليمان كشة فى ذكرياته صورة مجملة للحياة الاقتصادية فى هذه الحقبة فقال عن الصناعة :

« فن الجالوص[1] ، عجلات عربات الكارو ، خراطة العاج . شباك صيد الأسماك ، البناء بالطوب الأحمر ـ الآجر ـ صنع العناقريب[2] ، غزل النساء[3] ، صنع الحصر ، المصوغات الفضية ، المصنوعات الجلدية ، عصر السمسم ، صنع المراكب ، مصنوعات الحدادين والسمكرية[4] » .

وقد استقى هذه المعلومات من معرض أقيم فى فناء مدرسة أم درمان الوسطى عام ١٩٢١ بمناسبة زيارة اللورد اللنبى .

فأنت ترى من هذا المعرض ـ وهم لاشك قد حشدوا له ما أمكن حشده لجلال المناسبة عندهم ـ أن السودان إلى هذا الوقت ١٩٢١ م أى بعد مرور ماينيف على العشرين عاما على حكم الانجليز مازال فى صورة تقرب من صورته فى المهدية من جهة الصناعة .

---

(١) بناء البيوت من الطين .

(٢) أسرة سودانية تتخذ من الخشب والحبال .

(٣) هو غزل يدائى تغزل النساء خيوطه على مغزل صغير .

(٤) سوق الذكريات لسليمان كشة ص ٦٦ .

ويقول عن الزراعة . إن النيل بفرعيه الأبيض والأزرق لم يكون يعرف الآلات الرافعة للمياه ، الا فى بعض مناطق المديرية الشمالية ، وفى حقول تجارب القطن فى الزيداب وطيبة وبركات . فعمل الساقية والشادوف وفيضان النيل هو كل ما يحصل علية الزارعون من أمواهه ، والاعتماد مازال على المطر . وقد زرع القطن فى دلتـــا طوكر ومناطق الجزيرة . فالمحصولات القديمة : الذرة والسمسم والصمغ ظلت كما كانت أهم صادرات السودان الزراعية(١) .

ووسائل الانتقال « المواصلات » لم تتطور تطورا يمحى صورتها القديمة. فاتصال أجزاء العاصمة المثلثة « الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحرى » يتم بالمراكب والسفن البخارية . وخطوط السكك الحديدية بعد خط حلفا لم يجد فيها الا مد خط واحد يصل عطبرة بالأبيض، جامعا خطى عطبرة ـ بورتسودان ـ وعطبرة ـ حلفا ، وبقى الجمل كما كان المركب وحامل الأثقال(٢)

وكانت التجارة بيد الأجانب ، فهم فى الغالب المستوردون والمصدرون، ومعظم التجـارة السودانيين وسطاء بين التجار الكبار والمستهلكين(٣) .

وظلت « ميزانية » السودان عاجزة عن الوفاء بحاجاته حتى عام ١٩١٣م وكان العجز يسد من الخزينة المصرية(٤) .

ولعل القارىء يعجب من موقف الانجليز فى السودان ، فهم لا يريدون منه الا نهب خيراته ، وهذا يقتضى أن يجهدوا جهدهم فى انعاشه اقتصاديا لتمتلىء الخزينة ، وهى تحت أيديهم ينفقون منها ما يشاءون بلا حسيب ولا

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(٢) المصدر نفسه ص٦٧ .
(٣) سوق الذكريات ـ لسابهات ص٦٧ .
(٤) مآسى الانجليز فى السودان ص٨٥ .

رقيب ، ولينعم الناس بشيء من الرخاء فيقبلون على شراء مصنوعاتهم ، مما يوفر لشركاتهم الثراء العريض .

والحقيقة أن خوفهم من الرخاء والرفاهية كما قلت فى بداية هذا الحديث هو الذى دفعهم إلى هذا الموقف . فهم بين أمرين أحلاهما مر كما يقولون ، هم بين أن يبقوا البلاد فى حالتها المتخلفة ويكتفوا بالمرتبات الضخمة التى يقبضها موظفوهم ، وهم أصحاب المناصب العليا ، وبما يحصلون عليه من المواد الأولية الزهيدة الثمن ، وبتهديد مصر لسيطرتهم على مياه النيل ، وبين أن يعملوا على تطوير الحياة الإقتصادية . فتدر لهم البلاد ما يفعم جيوبهم بالعسجد ويواجهوا ما يحدثه الرخاء وسعة العيش من رقى فكرى ووعى يقرب أجلهم ويدك صروحهم ، فآثروا الأمر الأول وتركوا الحياة الاقتصادية على هذه الصورة .

وهذه السياسة الإنجليزية فى مظاهرها المختلفة ، إذا أضفنا إليها عجرفيه المفتشين الأنجليز واستهانتهم بالناس حتى علية القوم منهم[1] . جعلت المستنيرين من المتعلمين يشكون كل الشك فى نواياهم ، ويضيقون كل الضيق بتلك الحياة وأجوائها الخانقة . وبدأوا يستأنفون الصراع بعد هدوء ، ويرفعون الأصوات بعد همس . إلى أن انطلقت الثورة والتحمت الصفوف .

٥ — رأينا أن السودان قد عركته الحروب فى صدر المهدية ، وعركته الحروب والمجاعات والأحقاد فى عهدها الثانى . فلما جاء الفتح الأخير . لم يجد المقاومه التى ترده وتكسر شوكته ، وبعد أن سقطت البلاد فى أيدى الفاتحين وخمدت الثورات ، أعقب ذلك صمت عميق واستكانة . فظن الإنجليز أن البذور التى بذروها قد نمت وربت وازدهرت . فأصبح الناس لهم موالين وبحكمهم فرحين !! .

---

(١) مختصر تاريخ السودان للدكتور مكى شبيكة ص ١٢١ .

غير أن سنة التطور لا تنسج على هـذا المنوال ، وحياة الجماعات والأمم لا يمكن بحال أن تظل مستنقعاً ميتاً آسنا ، فالتاريخ لا يقف ولا يعيد نفسه كما يقولون ، فىكل صور مشابهة لما مضى ، تحمل فى طياتها عناصر جديدة مباينة لماضى وإن لم ترها العيون. فحياة الجماعات والأمم كالماء الدافق ، الذى لا بد له من أن يأكل الصخور مهما كانت عاتية ركينة ، ويشق لنفسه مجرى عميقا ، ثم يذروها على جانبيه رمالا ناعمة الملمس .

وهذا هو الذى حدث ؛ فالشبان الذين تلقوا العلم على الأساتذة المصريين والسوريين قد غرس معلموهم فى أنفسهم حب القراءة والتطلع إلى حياة جديدة ، فأصبحوا ينظرون إلى ما حولهم بمنظار لم يعرفه آباؤهم ، فعرفوا شيئا اسمه الوطن . وما كان آباؤهم ولا أترابهم الذين لم يجدوا قسطا من الثقافة يعرفونه الا فى إطاره الدينى . واستقر فى نفوس هؤلاء أن التضحية فى سبيل الوطن وحريته هى الشهادة والشرف والكرامة .

وكانت حركة المقاومة فى مصر وبطولة الزعيم مصطفى كامل ومواقفه الخطابية، تتوهج فى نفوسهم كالألق ،وتسرى فى أعماقهم كالعصارة الخضراء فى الشجرة الغضة الغصون. «وسرعان ما نلجأ إلى مجموعة خطب مصطفى كامل نقرؤها فى نبرات خطابية ، ونستظهرها عن ظهر قلب . ونحس أننا مكانه من الجموع الحاشدة ، تسمع إلينا فى إعجاب ، وتقاطع جملنا بالتصفيق والهتاف(١) » .

وأول مظهر من مظاهر الحيوية عند هؤلاء الفتية أن فكروا فى إنشاء ناد فى أم درمان ، يضم شتاتهم ويلم شعثهم ، سموه « نادى خريجى المدارس»

(١) موت دنيا ص ٣٥ .

تم تأسيسه عام ١٩١٨م[١] ، وقد كان هذا النادي أول قلعة لمناوءت الطائفية والقبلية ، ثم محاربة الإستعمار نفسه ، فهو إعلان عن ظهور طبقة جديدة تتطلع للقيادة وتجعل منه منبراً لمخاطبة الجماهير .

كان بعض المثقفين يرى أن السودان في حالته الراهنة لا يستجيب إلا لصوت الدين ، كما كان في ماضيه القريب والبعيد ، فمن حسن التأتي وصواب الرأي أن يجتهدوا أولا في تنقية الدين من الشوائب التي علقت به ، والأكدار التي رانت عليه ، حتى أحالته إلى صوفية حالمة مستسلمة . فالصوفية إذا كانت في أيامها الأولى حركة بعث ودافع انطلاق ، فإنها بعد موت المهدي أصبحت قيداً سميكا وغلا صفيقا ، وضبابا يحجب العيون عن رؤية الضوء . فقد أخذ زعماؤها يسايرون الوضع الحاضر ، ويتنافسون في التقرب للحكام[٢] .

وهم قد تأثروا في هذه النظرة إلى الصوفية بما يرون من حال زعمائها وخضوعهم التام للمستعمر ، وحال أتباعهم المستغلين باسم الدين لغلبة الجهل وسلطان الخرافة عليهم ، وتأثروا أيضاً بما قرأوا عن حركة الإصلاح الديني في أوربا وما تبعها من نهضة ، وبما قرأوا عن حركة الإصلاح الديني التي حمل مصباحها السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الإمام محمد عبده ، ومن سار على نهجهما في مصر[٣] .

روجوا لهذه الفكرة ما وسعهم الترويج ، ثم أخذوا يتجادلون وسط الندى وعلى رؤوس الأشهاد ، هل يتعاونون مع رؤساء الطوائف الدينية أو لا يتعاونون ؟ وقام جدل عنيف وصريح بين المؤيدين والمعارضين . .

---

(١) كفاح جيل — للأستاذ أحمد خير المحامي — ص ١٠ — وملامح من المجتمع السوداني ص ٥٣ .
(٢) كفاح جيل ص ٩ — ١٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٢ .

ولم تتعرض الحكومة لهذه المناظرة ، وما درت أنهم يسطرون الفصل الأول فى إنجيل الحرية السياسية فى السودان[١] » .

وكانت حجة المنادين بالتعاون مبنية على التخويف والمغالطة ، وهى أن الذين يرفضون التعاون مع زعماء الدين يقفون مع حكومة السودان ، لأنهم يحرمون البلد من وحدة الكلمة ، واتحاد القوى المتمثلة فى شبان مستنيرين متوثبين ونفوذ طائفى واسع النطاق ، تدين له جماهير الشعب بالولاء والتقديس[٢] ! .

والمغالطة فى هذه الحجة واضحة ، لأن أساس الفكرة هو أن الزعماء حاطبون فى حبل الحكم القائم، وأن مصالحهم مرتبطة بمصلحته ، وبمسلكهم هذا يجرون أتباعهم إلى الطاعة العمياء لهذا الحكم الذى لا مصلحة لهم فيه ، بل هو يقوم على تهضمهم وأكل أرزاقهم ، فقيادة الجماهير والحالة هذه ينبغى أن تكون فى أيدى المتعلمين ، وهذا لايتم إلا إذا أبتعدوا عن النفوذ الطائفى .

٦ — فى النصف الأول من عام ١٩١٤ م أصبحت نذر الحرب العالمية الأولى تطل على العالم ، وأصبح احتمال دخول تركيا فى هذه الحرب متضامنة مع ألمانيا جد قريب ، وحكم البريطانيين فى السودان لم ترسخ أقدامه كل الرسوخ ، وهم مايزالون يشكون فى نوايا بيت المهدى وأتباعه ، ويعاملون السيد عبد الرحمن المهدى بحذر شديد[٣] ، والسلطان على دينار مسيطر على مديرية دارفور وليس قانعاً بها ، وعلاقته بحكومة السودان لم تكن على ما يرام ، وصلته بتركيا قوية يراسلها وتراسله[٤] .

---

(١) كفاح جيل ص ١٢ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٣) جهاد فى سبيل الاستقلال ، من مذكرات السيد عبد الرحمن المهدى ص ٢٣ .

(٤) السودان عبر القرون ص ٤٧٠ .

وسط هذا الجو المنذر بالعاصفة ، خافت حكومة السودان من طغيان العاطفة الدينية التي تربط السودان بتركيا ، فرأت أن تمهد تمهيداً هادئاً بالشرح والتوضيح ، حتى لا يأتي خبر اشتراك تركيا في الحرب مفاجئاً ، فطاف الحاكم العام بالأقاليم واتصل بزعمائها ، وشرح لهم موقف انجلترا من الحرب ونبل أهدافها ، ومثل صنيعه كانت تصنع جريدة « السودان » في الخرطوم[1] .

ولما وصلت أنباء تؤكد اشتراك تركيا في الحرب ، دعا الحاكم العام نفراً من الزعماء الدينيين والعلماء من العاصمة المثلثة ، وذكرهم بفضل حكومته في نشر لواء العدل ، والعطف على الإسلام والمسلمين !! ، وطلب إليهم كما طلب إلى زعماء العشائر في العاصمة والأقاليم أن يؤازروا الإنجليز في هذه الحرب . فأجابه الحاضرون بما يرضيه ، ووقعوا على وثيقة تفيد الولاء والإخلاص ، وفدت من الزعماء في العاصمة والأقاليم بتأييد تحمله الرسائل والبرقيات ، فجمع صاحب جريدة السودان ذلك كله وطبعه في كتاب سماه « سفر الولاء[2] » .

وهذا نموذج منها :

« حكومتنا العادلة التي لم ير الإسلام والمسلمون منها إلا كل خير ديني ودنيوي ، جميعنا في استياء من قيام تركيا في هذه الحرب التي نتبرأ منها ، فإنه لا مصلحة فيها للمسلمين بوجه من الوجوه » .

« إننا شاهدنا عياناً ما كان جرى فيما سلف ، مدة الأتراك من الجور والفجور والاستبداد في الأحكام ، بدوام الظلم والتنكيل والتمثيل والقلاقل والإهلاك والإهانة ... » .

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٧٠ — ٤٧١ .

« تركيا التى حاربنا ظلمها من قبل ، وتقلبت علينا أدوار كثيرة، وحكمنا الأتراك والدراويش وغيرهم ، فلم نجد عـــدلا مثل ولاة أمورنا الإنجليز الحاضرين الوفيين العاملين[١] !! ».

دارت رحا الحرب وقدمت خيرات السودان طعاما لها ، وقدمت الأنفس لتحوض غمارها فى الحملة السورية التى قادها اللورد اللنبى[٢] ، فلما وضعت أوزارها وثاب الناس إلى السلم ، وخرجت بريطانيا من الحرب منتصرة ، جلس ملكها للتهنئة بالنصر . فحشد له الحكام الإنجليز من المستعمرات وشبه المستعمرات الوفود تؤم انجلترا لتهنئه بهذا النصر المبين. وكان للسودان وفده الذى يضم زعماءه ، وكان على رأسه السيد على الميرغنى، ومن أعضائه الشريف يوسف الهندى والسيد عبد الرحمن المهدى وبعض العلماء وبعض زعماء العشائر . وأمام الملك ألقى الرئيس كلمة الوفد ، وهى فى روحها ولهجتها مع استثناء ذم تركيا، من قبيل سفر الولاء السالف الذكر[٣].

وتقدم السيد عبد الرحمن المهدى فقال كلاما من قبيل سفر الولاء أيضا، وأهدى الملك سيفا ، للدلالة على أنه رجل مسالم ، لا كما تراه حكومة السودان وتعامله ، « وقدمت سيفا[٤] كهدية ورمزا للصداقة . وقبل الملك السيف، ثم تفضل بإعادته إلىّ قائلا : احتفظ بهذا السيف لك ولأولادك[٥] » .

ولما عاد هذا الوفد من لندن أخذت بعض الصحف المصرية تهاجمه

---

(١) السودان عبر القرون ص ٤٧١ .

(٢) السودان عبر القرون ص ٤٧٣ .

(٣) أسرار ووثائق تاريخية لسليمان كشة ص ١١ .

(٤) هذا السيف هو سيف والده الذى كان معروفا بسيف النصر ، أنظر أسرار ووثائق تاريخية ص ١٢ . وقد رأينا فيما سبق أن الإشادة بهذا السيف كثيرة فى منشورات المهدى وشعر المهدية .

(٥) جهاد فى سبيل الاستقلال من مذكرات السيد عبد الرحمن ص ٢٣ .

هجوماً عنيفاً ، فاضطر رجاله أن يدافعـــوا عن أنفسهم ، فأجمع الزعماء الدينيون الكبار — السيد على الميرغنى والشريف يوسف والسيد عبدالرحمن المهدى — أمرهم على أن يملكوا صحيفة تكون لسان حالهم ومطبعة ، فآلت ملكية « حضارة السودان » التى عرفنا شيئا من تاريخها إليهم ، واتخذوها ميدانا للدفاع ، فتحولت من صحيفة أدبية اجتماعية إلى صحيفة سياسية وأبقوا على رئاسة تحريرها السيد حسين شريف(١) .

منذ ذلك الحين بدأ نشاط سياسى ، وأشرق وعى جديد فى نفوس صفوة من المتعلمين فى السودان ، ومازال هذا النشاط يلتهب الخطى حتى أفضى بهم إلى الثورة ، ويمكن أن نجمل العوامل التى دفعت هذه الحركة السياسية دفعا قويا فيما يأتى :

(أ) التأثر العميق بالثورة المصرية ومواقف أبطالها ، وقد مر بنا أن المثقفين فى السودان يقرأون ويتابعون كل مايجرى فى مصر ، ورأينا مدى تعلقهم بالزعيم مصطفى كامل ، وبعد نشوب الثورة المصرية عام ١٩١٩ م ، تعلقت أبصارهم بالزعيم سعد زغلول باشا ، وأصبح الحديث عن خطبه ومواقفه على لسان الخاصة والعامة . وحسبى هنا أن أورد قصة ساذجة ، ولكنها تدل أبلغ دلالة على ماوصل إليه سعد زغلول من الشهرة والإكبار فى السودان ، وهذه هى القصة مع تصرف طفيف لا يمس جوهرها :

روى الأستاذ حسن نجيلة أن مفتش المركز الانجليزى بكوستى فى تلك الأيام زار المدرسة الأولية ، فاستقبله ناظرها باحترام بالغ ، وطاف به على فصول المدرسة ، وفى أحد الفصول اتجه المفتش إلى التلاميذ وسألهم قائلا : من هو أعظم رجل فى الدنيا اليوم ؟ وكان يتوقع أن يذكر التلاميذ اسم

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ٢٠ — ٢١ .

واحد من كبار رجال الحكم البريطانيين فى السودان، حيث فرضت سياستهم التعليمية أن تحشى أذهان التلاميذ بأسمائهم . وتحمس تلميذ صغير وأخذ يلوح بأصبعه ، فأشار إليه أن يجيب ، فكانت إجابته « سعد زغلول » فصعق المتفون حول المفتش الذى احتقن وجهه من شدة الغضب ، وخرج من المدرسة ثائرا مهتاجا ، وألحق بالناظر والمدرسين أذى كثيرا[١] مع أنهم لا دخل لهم فى القصة .

(ب) اهتمام مصر بأمر السودان ، فقد كثر الحديث عنه فى البرلمان المصرى، وتألفت لجنة فيه للسودان برئاسة أحمد حمدى سيف النصر بك[٢].

(ج) متابعتهم ماحدث فى العالم من تغيير بعد الحرب . من قيام عصبة الأمم ، وظهور مبادىء ولسن التى تنادى بحق الشعوب فى تقرير مصيرها[٣] .

(د) تحركات الانجليز المريبة وتصريحاتهم ، وتصرفات من يؤمنون بسياستهم فى السودان من ذلك :

(١) الاجتماع الذى عقد فى بيت أحد الزعماء الكبار فى أم درمان . والثورة المصرية مشتعلة ، وهى تردد فى مظاهراتها اسم السودان ، وتؤكد أنه جزء من وادى النيل لا يمكن فصله . حضر هذا الاجتماع جماعة من العلماء والأعيان ، ثم أصدروا بيانا طالبوا فيه بأن يكون السودان ، تحت الوصاية الانجليزية وحدها حتى يبلغ رشده . ونشر هذا البيان فى جريدة الحضارة[٤] .

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٠٠ — ١٠١ .
(٢) السودان . . . عبد الله حسين المحامى ج ٢ ص ٢٠٦ .
(٣) كفاح جيل — أحمد خير المحامى — ص ١٣ .
(٤) ملامح من المجتمع السودانى — هامش ص ١٢٠ .

(٢) التصريح الذى أدلى به « السير ماكد ونالد » رئيس مجلس الوزراء البريطانى فى مجلس العموم وقال فيه « السودان جزء من الامبراطورية البريطانية ، لأن لنا فيه مصالح مالية وزراعية ومسئوليات أدبية لا يسعنا أن نعرضها للضياع، وأن ٩٢ فى المائة من الأهالى السودانيين مع الانجليز(١)».

(٣) زيارة اللورد « اللنبى » نائب ملك الانجليز عام ١٩٢٢ م عقب صدور البيان الذى نشر فى جريدة الحضارة ، وعرائض جمعت تفيد معنى البيان . نزل اللورد اللنبى فى سراى الحاكم العام ، وحشدت له حكومة السودان الأعيان والزعماء من أنحاء القطر ليخطبهم قائلا « بلغنى أن أهالى السودان يخشون أن تكون علاقة بريطانيا العظمى فى ترقى هذه البلاد فى المستقبل أقل مساهمة مما عليه الآن ، ولكن الحكومة البريطانية لاتنوى شيئا من ذلك قط ، وإثباتاً لقولى هذا لا شىء أفضل من أن أعيـــد على مسامعكم ماصرح به رئيس وزراء بريطانيا فى مجلس العموم ...(٢) » .

إزاء هذا كله وإلى جانب ماعرفوا من أغراض السياسة البريطانية فى السودان ، وموقفها من المصريين منذ الفتح. أيقنوا أن ساعة إخراج المصريين من السودان ، وانفراد الانجليز به وضمه إلى مستعمراتهم قد دنت .

فإلى أين يتجهون ومع من يتعاونون؟، فهم أضعف من أن يقفوا وحدهم يصاولون الحكم البريطانى بقواته ودهائه ومكره. والسير فى ركاب الانجليز هو ضياع السودان إلى الأبد؟.

ومادام الموقف هكذا ، فالاتجاه إلى مصر أمر لا غرابة فيه ولا شذوذ، وذلك أن المصريين إخوانهم منذ جرى النيل المبارك ، فهم شركاؤهم فى

---

(١) مجلة القلم السودانية ـ العدد الثانى عشر ـ مقالة الدكتور التجانى الماحى .
(٢) أسرار ووثائق تاريخية ص ٣٢ .

الماضي والحاضر المصير وقدوتهم فى الثقافة والكفاح ، وشركاؤهم أيضا فى هذه المحنة التى أحاطت بهم وأطبقت عليهم ، فمصر ماتزال تحتلها الجيوش البريطانية واستقلالها مابرح مشروطاً بشروط .

بدأ المستنيرون المؤمنون بأن الانجليز لايمكن بحال أن يكونوا رسل خير وموضع ثقة ، ينتقلون من طور المناقشة والجدل ، إلى طور التنظيم والعمل ، فانشأوا جمعية « الاتحاد السودانى » عام ١٩٢١ م ، وهى جمعية سرية منظمة تنظيما دقيقا ، وكان شعارها « السودان للسودانيين والمصريون أولى بالمعروف » وإن كان تعاونها مع المصريين أوثق من هذا الشعار .

وتمثل نشاطها فى الاجتماعات السرية ومناقشة سياسة حكومة السودان والاستعمار البريطانى بوجه عام ، وتوزيع النشرات التى تكشف عن أحابيله وتدعوا إلى كراهية الحكم القائم فى السودان ، ومراسلة الصحف المصرية ، وجلب هذه الصحف سراً وإذاعتها فى الناس ، وكان الحصول على صحيفة مصرية كما قدمت يعتبر جريمة من الجرائم . ومن مآثر هذه الجمعية إرسال بعض الطلبة سرا إلى مصر ليكملوا تعليمهم وهذا أيضا أمر شديد[١] .

ومن أطرف ألوان نشاط هذه الجمعية تلك القصة التى رواها الأستاذ حسن نجيلة « ... ويقص علينا توفيق[٢] فى سخريته المرحة ، وكان قد عين فى وظيفة نائب مأمور بمدينة أم روابة ، وعهد إليه أن يعد الاحتفال التقليدى بعيد ملك الانجليز ، وقد جرت العادة أن يقام فى ميدان عام فى كل مدينة ، ويحاط الميدان بالزينات والأعلام ... وظل هو وصديقه باشكاتب المركز .. وكان من أعضاء الجمعية السرية أيضا ، ساهرين ليلة الاحتفال

---

(١) السودان عبر القرون ص ٤٨٧ — ٤٨٨ وأسرار ووثائق تاريخية ص ٣٢ .
(٢) توفيق صالح جبريل : الشاعر المشهور فى السودان .

يدبران أمراً، فقد عزعليها أن يرفعا بأيديهما أعلام الاستعمار تخفق تمجيداً لحكم الانجليز .

وفى الهزيع الأخير من الليل دبّ إلى مكان الاحتفال شبحان ، وأخذا يقتلعان الأعلام الانجليزية ، ويمزقانها شذر مذر ويلقيانها للرياح ، ولم يتركا علماً انجليزياً واحداً مرفوعاً .

وأشرقت الشمس على منظر عجيب جن له جنون مفتش المركز البريطانى، وكان المأمور توفيق قد سبق إلى مكان الحادث فى ثلة من جند البوليس ، وقد اصطنع الحزم الإدارى المرجو . للبحث عن المجرمين الذين ارتكبوا هذه الجريمة الكبرى ... والمفتش الانجليزى محتقن الوجه ، منفوش الشعر ضيق الصدر بكل من حوله ، يرسل العبارات النارية هنا وهناك ، وبوده لو أطلق الرصاص على جميع سكان المدينة انتقاما للشرف البريطانى المثلوم .. وقيد الحادث ضد مجهول ، فمن كان يخطر بباله أن حاميها حراميها (١) » .

ومن الخير أن أعطى مثالا للآراء التى ينادى بها من يؤيدون سياسة الانجليز فى السودان ، ثم مثالا للمنشورات السرية التى يناهض بها أعضاء جمعية الاتحاد السودانى هذه الآراء .

ويمثل الاتجاه الأول ماتنشره حضارة السودان ، كالذى كتبه رئيس تحريرها السيد حسين شريف تحت عنوان « المسألة السودانية » وخلاصة ماكتبه :

أن الانجليز ينبغى أن ينفردوا بحكم السودان ؛ لأن حكم الشريكين

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص١٣٢ .

المتنازعين لايسمح للبلد أن يتقدم ويرقى ، فهذا يبنى والآخر يهدم . «ومن الأفن فى الرأى والقصر فى النظر والظلم للوطن ، أن تترك البلاد بين يدى حكمين أجنبيين عنها ، وغير متعاونين ... هذا يبنى جهارا وهذا يهدم سرا ...» ويرى الكاتب أن البلاد لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها ، لما بها من الضعف وقلة الخبرة . فلابد لها من مرشد ومعين يتدرج بها رويداً رويداً حتى تبلغ أشدها . والمصريون لايعتمد عليهم فى هذا الشأن ، فهم وإن كانوا فى طليعة الأمم الشرقية ، فأنهم حتى الآن قاصرون لاخبرة لهم بفن الحكم وسياسة الشعوب ، ولسنا على ثقة بأنهم سيحفظون لنا حقوقنا ويصلون بنا إلى الغايات التى ننشدها فمن المغامرة أن نؤثرهم فنلق بأيدينا إلى التهلكة ، ونقذف بأنفسنا فى هوة ليس لها قرار . «فلم يبق لنا إذن إلا باب واحد هو الانجليز ، وهؤلاء لا يسع أحداً أن ينكر أنهم أكفأ من أدار دفة وحكم وساس أمة(١)» .

وهذا شيء من منشور يمثل الاتجاه الثانى وهو منشور بارع ، يعرف كيف يخاطب الناس ، فهو لا يضع الانجليز فى كفة والمصريين فى كفة ، ويأخذ فى موازنة قوامها المغالطة ، لأن المسألة ليست مسألة حسن إدارة ومهارة فى فن الحكم ، إنما هى مسألة حرية ومسألة مصير . فما مصير السودان إذا استسلم للإنجليز وألقى لهم الحبل على الغارب ؟ ! .

هذا مايجيب عنه المنشور بطريقة مثيرة ، فهو يعـزف على الأوتار الحساسة كما يقولون :

«... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، فقد لبثتم زمنا طويلا وأنتم خاضعون لأحكام سياسة الاستعمار الانجليزية ، تلعب بكم أهواء القوم ، وتلقى بكم كل يوم فى حفرة عميقة لاتعلمون لها قرارا ، فتارة تفرق

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ٢٢ — ٢٥ .

بين القبائل ، وتارة تفرق السادة رؤساء الدين ، فتقرب منهم واحدا دون الآخر ، وترفد بالمال واحدا وتسجن سواه . وهكذا يذيقكم الانجليز من صنوف العسف والجور ألوانا ، منها نزع ملكية الأراضى من أربابها الذين يملكونها بحق الوراثة الشرعية عن الآباء والأجداد ، ويعطونها للشركات الانجليزية من أبناء جنسهم كما تعلمون، ثم حرمانكم من حقوقكم المشروعة، والحجز على حريتكم الشخصية ، إلى غير ذلك من صنوف الظلم التى لاتخفى على أحد منكم .

وينتقل المنشور إلى الحديث عن الضرائب الثقيلة التى فرضتها الحكومة على الناس ، وهو حديث يفهمونه ويحسون به ، ولكنه لم يكتف بنكء الجرح ، بل ربط بين الضرائب وبين الدين الذى له فى نفوس الناس مكانة لا تسامى : « انظروا إلى الضرائب تثقل الآن كاهل الغنى والفقير على السواء ، ويعلم الله ونبيه أنها ضريبة لم تنطبق على عدل ، وليس لها مثيل فى دول الأرض قاطبة ، ولو كانت الحكومة وطنية مؤمنة بالله واليوم الآخر ، لما كانت تستحل من هذه الضرائب إلا ماينطبق عليه الشرع الحنيف » .

ويتبع هذه الضربة بقاصمة الظهر ، وهى أن الدين نفسه أصبح فى خطر عظيم « أما حرية الدين فلا أدل على ماوصلت إليه من التضييق ومن التأخر ، إن المدارس بالخرطوم وأم درمان وسواهما ، ترغم أبناءنا على تعلم الإنجيل ، وكذا ترغم أهالى البلاد الجنوبية على التدين بالنصرانية ووجود أكثر من ست كنائس فى الخرطوم كاملة ، فى حين لايوجد غير جامع واحد لم يتم منذ عشرين عاما ، كل هذا من الأدلة التى تفسر لكم استعمار القوم وتعرضهم للدين » .

فى هذا الجو الملتهب يعرض قضية المصريين مدعمة ببراهينها الفكرية

والعاطفية ، والدين أحـــد عناصرها ، وقد بدأوا بسياسة جديدة بقصد التفريق بيننا وبين إخواننا المصريين . وعندما أقول إخواننا أقول ويعلم الله أنهم مرتبطون معنا بروابط متينة لا تنفصم عراها مدى الدهر ؛ منها الدين والنسب واللغة والوطن والمصالح والجيرة ، وروابط أكثر من أربعة آلاف عام » .

ولـكن كيف تجند جريدة الحضارة لخدمة هذا الغرض الخبيث ، وهي ملك لزعماء الدين الثلاثة الكبار ، وهم هداة الناس ومرشدوهم ؟ ! .

توقع كاتب المنشور أن يسأل القارىء نفسه هذا السؤال ، فيضعف وقع المنشور في نفسه ، فأجاب « بدأ الإنجليز بسياسة التفريق بيننا وبينهم، ولكني واثق من أن هذه السياسة غير مجدية ، وقد سخروا لها جريدة الحضارة التي أظهرها القوم هذه الأيام لأغراض لا تجهلونها خدمة لمآربهم ، يكتبون فيها ما يشاءون من ضروب السياسة الخرقاء . ومما يؤسف له شديد الأسف أنهم يستخدمون لأغراضهم أسماء الثلاثة زعماء الدينيين ، لما لهم من المكانة العظيمة في نفوسنا ، ويعلم الله أن سياسة هذه الجريدة على غير إرادتهم ، ولكنهم مرغمون على السكوت ، لأحكام السودان العرفية الظالمة » .

إذن لا مفر للناس في السودان والحالة هذه ، من أن يتضامنوا مع إخوانهم المصريين ، العاملين لخلاص وادي النيل كله من براثن الاستعمار « إن إخوانكم المصريين الآن يجاهدون من أجلكم ، حتى إذا تم مرغوبكم كان لهم ما لكم وعليهم ما عليكم » .

ولكنه لا يحب أن يغادر هذه النتيجة التي وصل إليها ، قبل أن يحصنها بتحذير من الهلاك والبوار ، الذي تجر إليه سياسة الإنجليز إذا انفردوا

بالسودان . وأنتم الآن لا تزالون خارج الشرك المنصوب لكم فاحذروهم، وثقوا يا إخوانى بأن الإنجليز ستكون عاقبتهم قريباً وخيمة ، والرجاء — هداكم الله إلى الصراط المستقيم — عندما يفكر أحدكم فى أمر بلاده ، أن ينظر إلى كندا واستراليا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا ، ويتساءل ، كيف انقرضت الشعوب الأصلية فى هذه البلاد وحل محلهم المستعمرون الإنجليز[1] . »

ولم تقف خطى المستنيرين عند هذا الحد ، بل أخذت تقترب بهم إلى الثورة ، وكأنهم مدفوعون بريح عاتية لا يرونها . فظهرت عام ١٩٢٤ م جمعية أخرى تختلف عن جمعية الاتحاد فى وجوه منها :

أنها أقرب إلى العلانية منها إلى السر ، ومنها أنها ليست على شىء من التنظيم الذى ظفرت به جمعية الاتحاد ، ومنها أن زعماءها أكثر جراءة وإقداما من زعماء الاتحاد .

هذه الجمعية هى « اللواء الأبيض » التى كان رئيسها البطل الخالد الذكر على عبد اللطيف[2] ، وسميت هذه الجمعية بهذا الاسم ، لأن شعارها كان لواء أبيض عليه خارطة النيل من منبعه إلى مصبه ، على جانبها الأيسر الهلال وعلى الأيمن كتبوا « إلى الأمام[3] » .

وقصة اللواء الأبيض هى فى الحقيقة قصة ثورة ١٩٢٤ م ، وقد كانت اللواء الأبيض صريحة فى موقفها بجانب مصر ، مؤمنة بوحدة وادى النيل ، وعلمها الذى سميت باسمه دال على ذلك .

بدأت هذه الجمعية أعمالها بإرسال البرقيات إلى مصر ، مؤيدة المطالب

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ٢٦ — ٢٨ .

(٢) انظر ترجمة على عبد اللطيف فى كتاب الأستاذ ضرار صالح ضرار تاريخ السودان الحديث ص ٢٥٨ — ٢٤٩ .

(٣) يقظة السودان للدكتور إبراهيم أحمد العدوى ص ٧٠ .

المصرية، وهي الاستقلال التام لمصر والسودان ، ولما احتدم الجدل فيما يقال في البرلمان المصري عن المسألة السودانية ، وتصرفات الإنجليز في السودان ، وما يقال في البرلمان الإنجليزي ومجلس اللوردات من مغالطات وتبرير ، ولما وصل هذا كله إلى السودان وخالط القلوب والأفكار ، خرجت جمعية اللواء الأبيض إلى الشوارع(١) ، فملأ أجواء العاصمة وغيرها من المدن هتاف المتظاهرين « تحيا مصر تسقط بريطانيا » ، واتصل الهدير وتدافقت المظاهرات ، وأصبح كل واحد من أعضاء الجمعية لا يرضى إلا إذا قاد مظاهرة صاخبة . وثارت ثائرة الإنجليز وجن جنونهم ، وصاروا يخبطون خبط عشواء ، وينكلون بالناس تنكيلا ، وبعد صراع مرير أذكى الحماسة في صدور المواطنين وجدد فيها الحية ، قبضت الحكومة على أعضاء الجمعية وحكمت عليهم بأحكام قاسية وأودعتهم السجن ، ولما تمردوا فيه وأخافوا السجان ، ضاعفت عليهم عدد سني السجن . فمات في أعماق السجن عبيد حاج الأمين سكرتير الجمعية ، ومات من جراء السجن علي عبد اللطيف(٢).

وفي أغسطس من العام نفسه خرج طلبة المدرسة الحربية وأسلحتهم بأيديهم ، مؤيدين مصر في نضالها المجيد ، ناقمين على الإنجليز وبطشهم بقادة اللواء الأبيض ، فهلل الناس وكبروا ، وعاودهم الأمـــل في بعث الثورة واحتدامها(٣) . ولكن الإنجليز خدعوهم بحيلة يتقنها اللئيم ويجوز على الشريف الكريم ، فقد أسلسوا قيادهم وراضوا جماحهم ، بوعد ظنه آباؤهم وعد حر ، فقد أكدوا لهم أن أبناءهم لم يمسهم سوء إذا استطاعوا أن يرجعوهم إلى الطاعة والهدوء ، فطلبوا إليهم أن يضعوا السلاح . فوضعوه انصياعا لأوامر آبائهم وأولياء أمورهم . وكالعادة نقض الإنجليز عهدهم

---

(١) مختصر تاريخ السودان الحديث ص ١٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤ .

(٣) ملامح من المجتمع السوداني ص ١٣٥ .

وأخلفوا وعدهم ، فوثبوا على الطلبة واعتقلوهم ، ثم حكموا عليهم بأحكام أملاها الغيظ وزكتها الضغينة ، وأوصدوا أبواب المدرسة الحربية(١) .

وفى ذلك الحين كان المصريون المجاهدون يصطادون الإنجليز فى مصر اصطياد الأرانب . وفى نوفمبر ١٩٢٤م كان السير « لى ستاك » حاكم السودان العام وسكرتير الجيش المصرى ، عائداً من انجلترا نازلا بالقاهرة ، ريثما يعود إلى السودان ، فأرداه المجاهدون المصريون(٢) بضربة خر منها لليدين وللفم غير مأسوف عليه ، فهو فى ميزان العدل والإنصاف لايساوى قلامة ظفر من أولئك الأبطال الذين فتكت بهم حكومته فى السودان ، فهم مدافعون عن أوطانهم ذائدون ، وهو رأس الغاصبين والمعتدين .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ ! وكيف تصرف رسل العلم والمدنية فى ديارنا ؟ ! بعثت حكومة المحافظين بـ « تبليغ » بريطانى إلى الحكومة المصرية ، تقذف اللورد اللنبي إلى مجلس الوزراء المصرى ممتطيا صهوة جواده المطهم ، وحوله كوكبة من الفرسان الإنجليز ، وسلم « التبليغ » إلى رئيس مجلس الوزراء سعد باشا زغلول ، وسعد كما نعرف لاترهبه مظاهرتهم الصبيانية ، ولا تقنعه مطالبهم التى لا سند لها من العدل والقانون(٣) .

إنهم يطالبون الحكومة المصرية بتعويض قدره مليون جنيه ، وبإخراج الجيش المصرى من السودان ، وكذلك يطالبون بإخراج المدنيين من الأساتذة وغيرهم من السودان ، ويهددونهم بزيادة رقعة مشروع الجزيرة من ٣٠,٠٠٠ فدان إلى مدى غير محدود ، وإزاء هذا التعسف استقالت حكومة سعد ، وأقامت قوات الاحتلال فى مصر حكومة على رأسها زيور باشا

---

(١) تاريخ السودان ، ضرار صالح ضرار ص ٢٦٠ .
(٢) مختصر تاريخ السودان الحديث ص ١٣٥ .
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

فنفذ ما طلبه الإنجليز بحذافيره(١) .

وفى السودان رفض قائد الطوبجية السفر إلا بأمر من ملك مصر ، وسرعان ما بعث الملك مندوبا عنه على طائرة خاصة يحمل الأمر ، فانصاع القائد وبدأ يعد للرحيل(٢) .

وترامى إلى مسامع الضباط السودانيين أن الطوبجية يرفضون الرحيل، وأنهم سيقاومون القوة بالقوة ، فخف جماعة منهم على رأس جنودهم وكامل عدتهم ، لينضموا إلى إخوانهم المصريين وزملائهم فى السلاح ، ويربطوا مصيرهم بمصيرهم . وسلكوا طريق شاطىء النيل الأزرق فلما صاروا بمقربة من المستشفى العسكرى تصدى لهم الجنود البريطانيون ، ومنعوهم الوصول إلى « الكوبرى » . وهنا وقعت ملحمة هائلة ، أصلى فيها الجنود السودانيون البريطانيين نارا حامية ، وحصدوهم حصدا ذريعا ، لم يكفوا حتى كفت أسلحتهم لنفاد الذخيرة . ومات البطل المغوار عبد الفضيل الماظ ومدفعه بين يديه ، ولولا أن مدفعه لا يرسل نارا ، لما خالجك الشك فى أنه مايزال ينافح ويكافح . وقبض على الضباط الأبطال سليمان محمد وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وعلى البنا . وحكم عليهم بالإعدام رميا بالرصاص ، وحل وثاق البنا قبل أن يطلقوا عليه الرصاص بلحظة(٣) .

وهكذا انتهت ثورة عام ١٩٢٤ مخلفة فى النفوس حسرة وألما ، ولكن وراء هذه الحسرة وذلك الألم ، إرادة صارمة وعزما أكيدا ، على معاودة الكرة وإحراز النصر .

---

(١) السودان المعاصر ص ٢٣٢ .

(٢) مختصر تاريخ السودان الحديث ص ١٣٥ .

(٣) السودان عبر القرون ص ٤٨٥ — ٤٩٥ .

وهكذا تكشفت الخطة المدبرة والنية المبيتة لاخراج المصريين من السودان وانفراد الانجليز به ، وإلا ّ فما العلاقة بين إخراج المصريين عسكريين ومدنيين من السودان وبين مقتل الحاكم العام فى مصر ؟ ، ولو كان قد اغتيـــل فى السودان وأتهم المصريون باغتياله أو الاشتراك فيه ، أو الإيعاز به ، لأصبح لهذا التصرف من جهة الانجليز شيء من التبرير ، وإن كان يدل على حماقة وضيق صدر . أما أن يغتال فى مصر ، والمتهمون باغتياله مدنيون ، ويكون العقاب أو بعض العقاب كما رأينا فأمر عجب ، لايسع المرء معه إلا أن يتذكر قصة الحمل والذئب المشهورة .

ب ــ الشعر

١ ــ لم يذرف الشعراء دمعة على حكومة خليفة المهدى حين سقطت، ولم يسايروا بشعرهم المناضلين فى حومة الوغى ، يحثونهم ويصفون المعارك كما كانوا يصنعون أيام كان المهدى يصول ويجول ، ويهزم الفيلق بعد الفيلق ويحتل المدينة بعد المدينة .

لماذا سار الأمر على هذا النهج ؟ !.

ربما خطر بالذهن أن الكارثة كانت أقوى من أن تدع مجالا للشعر ، فقد دهش الناس وطاشت أحلامهم ، فقابلوها واجمين محزونين لايدرون مايقولون . وربما استدل من يخطر له هذا الخاطر ، بأن المهدية صارت فيما بعد موطن فخر وذكرى مجد ، وأصبح وصف معاركها وتصوير أبطالها من أسلحة الكفاح التى خاض بها الشعراء معركة الحرية .

مثل هذا القول لا يخلو من وجاهة ، ولكنه لايفسر كل شىء ، ولعله لا يفسر شيئا . فالكارثة على فداحتها لم تصب كل الناس بالدهش، فقد كان معظم قبائل « أولاد البلد[١] » تريد الخلاص من حكومة خليفة المهدى بأى وجه من الوجوه ، وبعض رؤساء هذه القبائل حاول الاتصال بجيش الفتح كما فعل عبد الله ود سعد(٢) رئيس قبيلة الجعليين . ونكبة هذه القبيلة من قبل الخليفة عبدالله إبان الصراع كانت ضغثا على إبالة ، وقد تحدثت عن هذا كله فى الفصل الثالث من هذا الكتاب ، وقدمت عليه الشواهد من الشعر الشعبى . وشعراء الشعر الفصيح كلهم من أولاد البلد الذين أذل الخليفة عبد الله قبائلهم ، لهذا لم تهزهم الكارثة ولم تحرك أعماقهم ، وهذا هو

---

(١) عرفنا فيما سبق أنهم يعنون بهذا سكان شواطىء النيل .

(٢) تاريخ السودان الحديث . ضرار صالح ضرار ص ٢١٤ .

التفسير الصحيح لانصراف الشعراء عن خوض غمار هذا الحادث الجلل في نظرى .

واستمر الشعراء صامتين في هذا المجتمع الجديد الذى تراءت فيه بوادر حضارة لا تمت إليهم بقربى ولا نسب ، وكأنهم يبحثون عن مدخل إلى هذا المجتمع ، ويبحثون عن أسلوب للتعبير عن مظاهره الجديدة . فلم يكن أمامهم ملك من ملوك سنار ليمدحوه وينعموا برفده ، ولم يكن أمامهم الخديوى يمدهم بالكتب الجيدة ، ويمطرهم بره العميم ، ليمدحوه ويثنوا على شمائله . ولم يكن محمد أحمد المهدى يخوض غمار الحرب ويجندل الفرسان لتلهج ألسنتهم بالثناء عليه ، ويحبروا القصائد فى وصف جيشه الباسل . وهم لم يتمرسوا بالهجاء ، ليبسطوا ألسنتهم فى هجاء الانجليز ولو هم عرفوا هذا اللون من الشعر ومرنوا عليه ، فما هم بقادرين على أن يتخذوه أسلوبا فى النضال . لثقل القيد وشدة البطش وانتشار عيون الانجليز بكل مكان .

أقبل الشعراء فى هذه الفترة (فترة التيه) يمدحون النبى (ص) ويفصلون القول فى معجزاته ويستغيثون به ، ويرجون من الله حسن الخاتمة فى الآخرة . لذلك قل أن نجد شيخا من شيوخ الدين المثقفين فى السودان وليس له ديوان شعر فى مدح النبى أو التصوف . ظلوا هكذا حتى نشأت ناشئة من جيل جديد تخرج معظمهم فى كلية غوردون التذكارية .

لذلك كله لم يصلنا من الشعر السياسى إلا قصيدة عائرة من الشيخ على الشامى فى فتح دنقلا يقول فيها :

بشرى لجيش بالفتوح قد ظفر ... بالصبر من زمن فبشر من صبر

وبعد حكم مبتذلة يقول :

حتى رأى ملك البلاد بأنه ... لاشىء غير الحرب عجل وابتدر

حشد الجنود ولاوعود تعوقهم   إلا ملاقاة العدو بما أمر
بقيادة الشهم اللوا سردارنا   رجل السياسة والحروب والكتشنر

* * *

قل للخليفة فز بعمرك ناجيا   من قبل أن يأتى زمان لا مفر
يا لقوم بالسفاهة خالفوا   أمر المليك وخالفوا ما قد أمر
كم قد طغوا كم قد بغوا كم أسرفوا   كم ذبحوا كم جرحوا وهلم جر
فزمانهم قد كان وقتا وانتهى   ورجالنا انتصروا وطاب المستقر
بالبشر قل لمهاجرى أوطانهم   عودوا بيوم من زمان ينتظر
والجيش حل بدنقلا مستفتحا   خبرا فقلنا أرخوه فقد ظفر[1]

١١٨٠   ١٣٤
سنة ١٣١٤هـ

وقد أحس سعد ميخائيل صاحب «شعراء السودان» بأن ضم الشيخ على الشامى إلى شعراء السودان قد يعترض عليه فقال «وقد يقول بعض الناس إن وضع مختارات على الشامى ضمن شعراء السودان خطأ لأنه شامى الأصل، ولكن متى عرف القارىء أن الشيخ على الشامى جاء إلى السودان صبيا لا يتجاوز العاشرة من عمره، وتعلم فيه وأخذ العلم من مشايخه، وافقنى على هذا الاختيار[2]».

ومهما يكن من أمره وأمر قصيدته، فإنه صور ما كان فى عهد الخليفة من مظالم.

(١) شعراء السودان ص ٢٣٧
(٢) شعراء السودان ص ٢٣٥

٢ — ظل الشعراء كما قلت صامتين حتى تخرج جيل جديد فى حلقات المشايخ وكلية غوردون التذكارية(١)، واتصل بالحياة الجديدة نوعاً من الاتصال، واتصل بالثقافة المصرية وتابع أنباء النضال المصرى، وعرف مايجرى فى العالم العربى والعالم الإسلامى، ورأى كيف يستخدم الشعراء المصريون والشاميون والعراقيون ماضى العروبة والإسلام سلاحاً فى محاربة الاستعمار . فأخذ هذا الجيل يخوض المعركة وعليه دروع من جلال الدين، ولم تكن هذه الدروع وقاية من بطش الانجليز، الذين يتظاهرون بحياطة الدين وهم كاذبون فقط، بل كانت هذه القصائد فى معظم الأحوال فيضا صافيا من قلوبهم وتدفقا هدارا من وجدانهم . فجاءت قصائد المناسبات الدينية حدثا جديدا فى السودان . ولا أعنى بذلك أنها لا جذور لها فى السودان، فالشعراء السودانيون لم يستفيدوا ممن سبقهم إليها سوى التوجيه، فهذه القصائد مشتقة من المدح النبوية التى أكبوا على نظمها منذ عهد طويل. وقد عرف الشعراء السودانيون القصيدة التى تجمع بين السياسة والدين فى عهد المهدية، كما رأينا ذلك عند الشيخ محمد عمر البنا والشيخ الحسين بن الزهراء وغيرهما من شعراء المهدية .

وهذه القصائد لم تظهر فجأة فى صورتها المكتملة، ولكنها بدأت فى السودان بمحاولات طريفة، فقد كانت البداية نظم مقطعات تكتب على واجهـة السرادقات التى تنصب احتفاء بمولد النبى(٢) . وهى وإن كانت شعرا دينيا خالصا، فإنها كانت تلمس السياسة لمسات خفيفة . وناظم هذه المقطعات وإن لم يكن سودانيا فقد كان يراعى الذوق السودانى حين ينظمها، ومعنى هذا أن الشعراء السودانيين وجدوا توجيها داخل السودان فى تحويل المدحة النبوية إلى قصيدة دينية سياسية .

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٢ .
(٢) المرجع نفسه ص ٨ — ١٢ .

ظل الشعراء فى هذه القصائد التى تلقى فى حفل المولد النبوى وفى عيد الهجرة، يرفعون صورة النبى (ص) فى شعرهم أمام الجمهور منوهين ببطولته وصدقه وصبره وأمانته، ويرفعون صور أصحابه فى شعرهم مشيدين ببلائهم فى القتال مع قلة عددهم أول الأمر، مثنين على عدلهم وعفتهم فى السلم. ويبكون فى هذا الشعر حضارة العرب وسعة سلطانهم، ويذكرون ما كانت عليه مدنهم العامرة المضيئة، فيحنون إلى عهد دمشق وبغداد ومدن الأندلس. يفعلون هذا كله لا لأنه غرض دينى محض، يريدون به العبادة والمناجاة الصوفية، كما يريد ناظم المدحة النبوية التقليدية. ولا لأنه فخر بالآباء والأجداد ثم لاشىء، كما كان يصنع الفرزدق وجرير وأضرابهما، بل كان همهم الأكبر أن يحركوا مجتمعهم ويهزوا هذه العواطف النبيلة فيه لينفض عنه غبار الهوان، ولذلك تراهم يعمدون إلى الموازنة بين ما كان عليه آباؤهم الإعزاء الأمجاد من رفعة الشأن، وبين ما صار إليه من ينتمون إلى هؤلاء العظماء من ضعف وذل، وتراهم أحيانا يصرحون بهذا الغرض، فقد عرفوا أنه لاشىء يحرك الناس ويلهب عواطفهم فى ذلك الوقت مثل ما يفعل الدين وما يتصل بالدين، لأن فكرة الوطن والوطنية وإن ورد ذكرها فى شعر بعض الشبان، وفى بعض المقالات التى كتبت فى حضارة السودان، لم تكن لها صورة واضحة فى الأذهان، فهؤلاء الناس الذين كانوا يعكفون على قراءة المولد النبوى أو إنشاد المدائح النبوية، بقلوب خاشعة وعيون دامعة، من حسن التربية السياسية أن يجعل الشعراء من مادة القصيدة القديمة عملا فنيا جديدا فى مخاطبتهم وإثارة هممهم، فهذه القصائد قصائد نضال. وليست كما وصفها الدكتور محمد إبراهيم الشوش بقوله « وكانت تستحوذ على الفكر العربى والشعر العربى آنذاك فكرة الرجعة، وهى فكرة رومانسية حالمة، تدعو إلى العودة إلى مجد العرب الغابر والإسلام، وترسم صورة

---

(١) الفجر الصادق ص ٦ و ١٨ .

وردية للتاريخ العربى ، تهرب إليها مما تحس من ضعف وهوان وضعة وتأخر ، بالمقارنة إلى الأمم الغربية المتقدمة[1] » .

لم يكن الأمر كما صوره الدكتور الشوش ، فهذه القصائد خليقة بأن توصف بغير هذا الوصف ، فهى سلاح امتشقه الشعراء حين فقدوا أسلحتهم جميعها ، وهى مجال تبصرة وإثارة وعى ناضر ، وقد كان لها أثر عميق، وإلى القارىء قصة تكشف فى وضوح عن مدى تأثير هذا الشعر :

لما أنشد الشاعر عبد الله محمد عمر البنا قصيدته التى مطلعها :

ياذا الهلال عن الدنيا أو الدين　　حدث فإن حديثا منك يشفينى

قال فيها ناقدا حال رجال الدين :

وهيكل عبدته الناس عن سرف　　كالسامرى بلا عقل ولا دين

يحتال بالدين للدنيا ليجمعها　　سحتا وتورده فى قاع سجين

غضب زعماء الدين ، ولم يطق الشريف يوسف الهندى صبرا ، فشكا البنا إلى رجال الحكومة مطالبا بمحاكمته ، على الأبيات التى تضمنها شعره باعتبارها تعريضا وسخرية وقذفا[2] » .

وفكرة اتخاذ الماضى المشرق سلاحا امتدت عند شعرائنا ، فشملت ماضى السودان البعيد والقريب ، فتغنوا بمجد سنار . وأخـــذ الفخر بالمهدية يتسرب شيئا فشيئا فى مدح السيد عبد الرحمن المهدى، ثم استفاض فيما بعد.

والشعر السياسى فى هذه الحقبة يشمل شعرا مدح به السيد على الميرغنى والسيد عبد الرحمن المهدى . وإن كان مدح السيد على فى الغالب

---

(١) الشعر السودانى الحديث ، الدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٤٤

(٢) ملامح من المجتمع السودانى ص ٨٦

دينيا ، لأنه لم يمارس العمل السياسى المباشر ، كما مارسه السيد عبد الرحمن . ويشمل شعرا قيل فى مصر وعلاقتنا بمصر وهو بمثابة الرد على شعر مدح به الانجليز ، ويشمل شعرا قليلا فى مشاركة العالم العربى والعالم الإسلامى والحرب ، ويشمل شعرا يعالج أمورا ربما ظنها بعض الناس اجتماعية أو ثقافية أو دينية لاعلاقة لها بالسياسة ، كالحث على التمسك بأهداب الدين ، والفزع من مظاهر الانحراف والاستهانة بالخلق القويم والاستخفاف بأوامر الدين ونواهيه ، وكالحث على طلب العالم والمطالبة بتوسيع نطاقه والاحتفاء بمن نال منه قسطا ، وكالبكاء على اللغة العربية . ولكن الذى يمعن النظر يرى أن الناس فى ذلك الحين لم يفرقوا بين السياسة والدين والخلق ، لأن مناخهم « الفكرى العاطفى » لم يتغير وخاصة فى القرى والبوادى ، فقصة الدين والعروبة هى قصة كيانهم ، فعلى الدين والعروبة نهضت سنار وأخواتها من الدويلات العربية الإسلامية ، وبالدين والعروبة قضوا على التركية لما نخر الظلم والانحلال فى عظامها ، والآن ليس بأيديهم سلاح سوى تمسكهم بدينهم وعروبتهم ، يقارعون بها هذا الغزو الأوربى الذى لايتم له النصر إلا بمحو كيانهم . وقد رأوا أن الانجليز يضطهدون التعليم الدينى الإسلامى ، ويفتحون أبواب جنوبى السودان على مصاريعها للمبشرين المسيحيين ، وينفقون عليهم بسخاء ، ويمنعون الشماليين الذين سمحوا لهم بدخول جنوبى السودان أن يباشروا عباداتهم جهرا .[1] ورأوا محاربتهم للاستعراب فى هذا الجزء من الوطن خوفا من امتزاج السكان ، وصياغة الجنوبيين صياغة عربية إسلامية[1] .

وقد كان معنى الدين هو معنى الوطن عندهم ، فالوطن هو الإسلام والأهل هم المسلمون ، وقد عبر عن ذلك الشاعر عبد الله عبد الرحمن :

---

(١) مآسى الانجليز فى السودان ص ٢٤ .
(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

فليس سوى الإسلام من وطن لنا ولا غير أهليه أعد صحابا
كفى بقبيل الله جنسا ومذهبا وبالله ربا والكتاب كتابا
وبالمصطفى المختار صفوة خلقه نبياً زكا فى العالمين نصابا[1]

وهناك شعر قليل يدل على أن بعض الشبان يومذاك قد عرفوا الوطن بالمعنى الذى نعرفه اليوم ، فتغنوا بوطنهم وسبحوا بحمده .

وقد لاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين أن ظاهرة الحزن والتبرم بالحياة والأوضاع غالبة على نفوس الشعراء السودانيين ، وهى ملاحظة صائبة ، وعزا ذلك إلى رهافة حسهم وسوء الظروف المحيطة بهم[2] . وأحب أن أضيف إلى هذا فأقول : إن التبرم والسخط والحزن الذى غلب على معظم هؤلاء الشعراء يدل على بداية وعيهم الوطنى ، وعدم الرضا بما هو كائن ، فهو افصاح مقنع ، يتخذون فيه الدهر وسوء الحظ ولؤم الناس ، رمزا للعدو الذى سلبهم كل شيء حتى الصراحة فى الشكوى . وفى أحيان قليلة يفصحون عن السبب . وسأعرض فى الصفحات الآتية نماذج من الشعر فى هذه الفترة بألوانه المختلفة .

٣ — فى التبرم والسخط والضيق بالحياة والأحياء يقول الشاعر العباسى مخاطباً الدهر :

زد عتوا أزدك من حسن صبرى وأذقنى كأس العذاب الأمر
لست يا دهر واجداً فى شباعز مى فلولا ولاقلامة ظفر
لا تحاول منى مراماً بعيدا وارض من شئت بالمذلة غيرى

* * *

(١) الفجر الصادق ص ٩
(٢) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٢٣٤

إن بيني وبينه أبدا حر ... باسجالا ما بين كر وفر
ضاق صدري منه وإن عجيبا ... قول مثلي في حادث ضاق صدري
مامقامي حيث الصحاب قليل ... وبقائي بدار هون وقهر(١)

فقد كشف الشاعر عن سبب سخطه وتبرمه . فالدار أصبحت دار هوان وقهر ، وفي مثل هذه الدار يقل وجود الأصدقاء الذين يركن إليهم الحر الكريم .

ومثل ذلك صنع توفيق أحمد البكري .

أحب ظلام الأرض مثلك ضوءها ... واستملح الديجور عن مطلع الفجر
كأن نجوم الليل وهي نواظر ... إلىّ ندامى جالسون على خمر

والبيت الثاني كناية جيدة عن السهاد .

كأني والأيام أيام غيرنا ... أخو غفلات يطلب الخير في العسر
فياعفتي صوني على كرامتي ... ولاتسلميني للمتاعب والضر(٢)

فقول الشاعر « والأيام أيام غيرنا » أفصح عن سبب سخطه . فالأيام في وطنه هي أيام الغاصبين أو من تقرب إليهم ، أما هو وأمثاله ممن يعتصمون بعفتهم ويحتمون بكرامتهم فوجودهم كالعدم . فمن الغفلة وترك الحزم إذن أن يجمح به الطموح فيطلب الخير في مظان الشر وأرى قوله « يطلب الخير في العسر » لايؤدي مايريد

وقد علل حمزه الملك طنبل ضيقه بالناس وزهده فيهم ، بأن الأخلاق قد فسدت ولم يبق سوى النفاق ، وهو الموت بعينه :

إني على رغمي وجد ... ت ولست أنعم بالإقامه(٣)
في عالم مافيه فرد ... قـــد تخلق بالشهامه

(١) ديوان الباسي ص٣٧ :
(٢) شعراء السودان ص ١٠٥
(٣) ديوان الطبيعة ص ١١٩

حولى الألوف من الورى | وتــكاد تقتلنى السآمه
ما سرنى شخص إذا | مــا مر أهدانى سلامه
وأرى النفاق هو الردى | ولكل منهم علامه

ولكن كثيراً منهم يطوى السبب فى نفسه ، ويلقى بالشكوى مظللة الجوانب . من هؤلاء الشعراء الشاعر صالح عبد القادر ، وهذا مثال مما قال :

لاتلمنى فتكن متهمى | ان عقلى لم يكن متهما
ولم الدهر على تقصيره | أخطأ الدهر وعمدا ظلمــا
وطوانى فى زواياه التى | ضيعت ناسا ووارت أمما
بيننا معرفــة لكنه | غض عن الطرف لما حكما(١)

ومثله فى ذلك الشاعر فهمى مينا :

تحدثنى نفسى بكأس مريرة | وشر أحاديث النفوس تصيب
تحدثنى نفسى ببؤس وشقوة | وعيش بغيض فى الشباب يشيب
تحدثنى نفسى بما لا أطيقه | وأن سهامى فى المنى ستخيب
تحدثنى نفسى بكل رزية | وإن صدقت نفسى فأين أغيب(٢)

٤ — وقصائد المناسبات الدينية كما أسلفت تشيد بالماضى فيمدح الشعراء النبى (ص) ويمدحون أصحابه وينوهون بفضل الإسلام على سائر الناس ، ويلهجون بعظم الحضارة الإسلامية والأمجاد العربية ، ويرددون ذكر المدن العربية القديمة ، والخلفاء العظام وما إلى ذلك ، وهذا كله فى معظم الحالات يقترن بتصوير هوان الحاضر وذله وحقارته ، وهم يعزون سبب هذا

(١) شعراء السودان ص ١٥١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٣ .

إلى ضعف الوازع الديني والخلق ، وإلى اختلاط الدين بشوائب شوهت وجهه ورنقت صفاءه وقضت على حيويته ، وأحالته إلى خرافة شائهة ، فأصبح مأكلة وحبالة فى أيدى الدجالين . ويعزونه أيضاً إلى تفرق الكلمة وتباين الاتجاهات وضعف الهمم . ولا خلاص للناس مما هم فيه إلا بالرجوع إلى الدين فى ينابيعه الصافية ، وإلا باستلهام ماضى الإسلام والعروبة المشرق . فحرام على من لهم مثل هذا الماضى المجيد أن يصبحوا ويمسوا فى أغلال الرق وقيود الهوان . وأورد نماذج من هذا الشعر مصحوبة بمناقشة الآراء التى تعرض أصحابها إلى نقده :

يقول الشاعر صالح بطرس وهو كما قدمت مسيحى مؤمن بعروبته وماضى قومه وهو بجانب ذلك يدرك أن المناسبة سياسية أكثر منها دينية :

كانوا أولى همم تناجى رفعتى ... قد أدركوا ما أملوا بل أكثرا
أخذوا بأعناق المكارم أخذة ... وتربعوا من عزهم فوق الذرى
يترفعون عن الدنية أو يرى ... سيل النفوس على الأباطح أنهرا
شادوا لكم عزا رفيعا سمكه ... وبنوا لكم مجدا أثيلا أكبرا
ذهبوا وقد أدوا الأمانة حقها ... ونما إليكم ذكرهم متعطرا
ياليت شعرى ما صنعتم بعدهم ... لأولئك الآتين ـ أنظر هل ترى؟!
إنا غبرنا بعدهم فى مجمة ... شتان ما بين الثريا والثرى[1]

ويقول الشاعر عبد الله محمد عمر البنا :

سل دار عاتكة عن شأن عاتكة ... فيها وعن سائل فيها لهارون
وسل زبيدة عن قصر تبوأه ... بعد الأمين حسام الشهم مأمون
أخلى منابرها من فى مقابرها ... من كل متضح الآثار مدفون

(١) شعراء السودان ص ١٣٩ — ١٤٠ .

وقبلها ابك دمشقا إنهـا جمعت ... بسادة عمروا الدنيا أساطين
وعهد طيبة اذكر فيه كل فتى ... جم الأيادى من الشم العرانين
واذكر ليالى للفاروق أرقـــه ... فيها التقى وحنان للمساكين
وكم تفجر فيها المصطفى كرماً ... عطفاورفقا لبادىالفقر محزون

• • •

أحبتى ودعاة الحب مرحمة ... لايحزننكم بالنصح تلقينى
ترضون بالدون والعلياء تقسم لا ... تدين يومالراضىالنفس بالدون
تفرق وتوان وإتباع هوى ... وإن الهوى لهوان غير مأمون
وللمفاسد إسراع وتلبية ... ولا التفات لمفروض ومسنون
والناس فى القطر أشياء ملفقة ... فان تكشف فمن ضعف وتوهين
فمن غنى فقير فى مروءته ... ومن قوى بضعف النفس مرهون

ثم يضرب الطائفية الدينية ضربة معلم كما يقولون :

وهيكل عبدته الناس عن سرف ... كالسامرى بلا عقل ولادين
يحتال بالدين الدنيا ليجمعها ... سحتا وتورده فى قاع سجين[1]

وقد رأينا أثر هذين البيتين فيما سبق من القول ، ولكن الدكتور محمد ابراهيم الشوش[2] لايرضى عن هذا التعميم عند هذا الشاعر وعند غيره ، ولست أدرى مايريد منهم ؟ ، أيريد من الشعراء أن يحصوا رؤساء الطوائف الدينية ، ثم يهجوهم فردا فردا ؟ ! وهل هذا من طبيعة الهجاء الاجتماعى الذى هدفه الإصلاح ؟ ! .

---

(١) شعراء السودان ص ١٧١ — ١٧٢ .
(٢) الشعر الحديث فى السودان ص ٥٥ .

إنهم يهجون النوع ، يهجون النموذج الذى ينطبق على من كانت هذه صفاته وديدنه . فالمقصد أولا وأخيراً تنبيه الغافلين إلى أن الدين أصبح حبالة من حبائل المكسب الحرام ، وأصبح ضلالا وعبادة أشخاص ليس لهم عقل ولا دين .

ويقول الشاعر صالح عبد القادر :

فاسأل العالم عنـــا أننا ... أمة كنا وكانوا عدما

يعنى بالذين كانوا عدما الانجليز

من لقومى إنهم قد أهملوا ... ما بنى آباؤهم فانهـــدما
غلب اليأس عليهم إنهم ... ضعفوا رأيا فزلوا قدما
وقضى الدهر على آمالهم ... ليت شعرى من بهذا حكما
يا بنى أمى أفيقوا إنكم ... ما خلقتم لتعيشوا غنما
ليتنى أعـــرف ما أخركم ... سادة كنتم فصرتم خدما
ولقـــد يحزننى أنى أرى ... رأيكم مختلفا منقسما
فأفيقوا يغفر الله لكم ... وأطلبوا العليا وجاروا الأمما(١)

والشاعر عثمان هاشم لم يقصر النظر على حالة السودان وحده . بل مدّ بصره إلى أطراف العالم الإسلامى . ودعا إلى الثورة المسلحة :

واه على الإسلام أصبح ضائعا ... أودى به وأماته الظلام
ظهرت به بدع الهوى وتعطلت ... فى مثلها أن تنفذ الأحكام
بالأمس كانت دولة العز التى ... «صال الرشيد بها وطال هشام»
واليوم أطفئ نورها وجلالها ... والمسلمون مفرقون نيام
هذى الجزيرة وهى باكية أسى ... والهند تندب حظها والشام

(١) شعراء السودان ص ١٥١ .

في مصر أقوام يطاحن بعضهم بعضا ففيم تطاحن الأقوام ؟ !
والترك قد تركوا بغير معونة وهم الألى ساطوا الثغور وحاموا
قد فوجئوا في عقر دارهم التي هي للخلافة مركز ودعام
فإلى متى هذا التخاذل بينكم هبوا فكم ردّ الحقوق حسام(١)

والشاعر عبد الرحمن شوقى يقصر نظره على وادى النيل ، ولكنه فى مناجاة هلال المحرم يدعو بالخير للشرق كله ، وهو قد عكس نظام القصيدة المألوف فجعل مناجاة الهلال فى ختام قصيدته :

مضى الزمان وقلبي عتل ألما وفى فؤادى أمى كالنار مضطرما
حزناً على أمة بالنيل نائمة تشكو الأوار وأخشى أن تموت ظما
أبناؤها وهم شر البنين لها لا يعبأون إذا ما أصبحت عدما
كرت عليها سنون ما انتهت وبدا هذا الهلال إليها اليوم مبتسما
يا طلعة العام إن الشرق فى ظلم فاطلع أزل هذه الأحلاك والظلما
وأرسل إلى الشرق نوراً يستضىء به لعل نورك يمحو فى القلوب عمى(٢)

ويقول الشاعر عبد الله عبد الرحمن واصفاً النبى (ص) مبينا أثر رسالته فى العالم :

وما احتفلت مشارقها بعيد كما احتفلت بميلاد النبي
نبي كان للدنيا جمالا وذخراً للعديم وللغنى
لعمرك ما النبي فدتك نفسى بمنطلق اللسان على البذى
ولا هلع تزعزعه خطوب ولا مهدى الملامة للمسى
أتى بالملة السمحاء ويدعو إلى الأخلاق والشرع السوى
يساس العالمون به ويبقى جديداً رغم كرات العشى

(١) شعراء السودان ص ٢٦٨ .
(١) شعراء السودان ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

وأقسم ما سحاب مكفهـــر كأن بروقه قسمات مىّ
يروى الأرض من غور ونجد بأجود من بنان الهاشمى

* * *

إذا ابتهجت بمـــولده البرايا فذاك لذكرها سنن النبى
ليذكروا مآثر صالحـــات ومجداً كان فى الزمن الخلى

ويقول الشاعر مجذوب جلال الدين واصفاً أصحاب النبى فى الحرب والسلم :

ودعوت بالحسنى فلما أن عتوا خاطبتهم بقنا وبيض سلاح
بأكف أبطال شديد بأسهم من كل أغلب للعلى طماح
يعلوا على نهد أقب محجل أو فوق متن جلالة سرواح
بطل إذا ورد الكتيبة معلماً يدع العدا فى ضجة وصياح
أسدالفريسة فى الوغى وإذا انبرى نحو المساجد مخبت سباح
أبدا يحن إلى لقاء الله فى الآ صال والإمساء والإصباح

* * *

يا أهل هذا الاحتفال تيمموا موالكم وسلوه بالإلحاح
ليزيل عنا كل ضر مسنا ويعيد هذا العيد فى إصلاح[1]

وقبل أن أغادر هذا الشأن إلى شأن غيره ، أحب أن أقف وقفة قصيرة مع الدكتور محمد إبراهيم الشوش ، الذى أنكر على هؤلاء الشعراء إلحاحهم فى الوعظ والإرشاد فى مجتمع قد تغير تغيراً جوهرياً . وأصبح يتوق إلى لون آخر من الفن الشعرى . ويرى أن الذى يقدمونه فى كل مناسبة من ضروب الوعظ والارشاد والحكم لا جدوى فيه .

(١) شعراء السودان الدكتور الشوش ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

ولكن الدكتور الشوش قد كفانا مؤونة الرد عليه ، فرد بنفسه على نفسه ، وإلى القارىء شذرات من كلامه :

« القارىء لقصائد الاحتفالات العامة التي قيلت قبل ثورة ١٩٢٤ م يحس أنها تحتمل بثورة غامضة ، وهي على غموضها سطحية غير واعية ، فليس هناك شاعر تعمق أسباب هذا الفساد ، بل لعل هؤلاء الشعراء لم يدركوا أن حياة الناس قد تغيرت تغيراً جوهرياً ، وأن الرياح التي هبت من كل جانب كان حتماً أن تقتلع كثيراً من جذور البيئة السودانية ، وهذا التغيير في حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية ، لابد أن يؤدى إلى نوع من الحياة والأخلاق لم يألفه السودانيون من قبل(١) » .

ولكن هل من الحق أن حياة الناس في السودان قبل ثورة ١٩٢٤ م قد تغيرت تغيراً جوهرياً ، وأن جذور البيئة السودانية أو الكثير منها قد اقتلعت ؟ ! .

يقول الدكتور محمد إبراهيم الشوش قبل أسطر من كلامه السابق « تقول إن هذا الشعر بالرغم من أنه أدمى الأكف بالتصفيق عند إنشاده في نادى الخريجين ، وهيأ كثيراً من المتعة وملأ فراغ المتعلمين الذين خلت حياتهم حينذاك من متع الحياة الأخرى التي تجلبها الحضارة(٢) » .

فأين هذه الحضارة التي غيرت حياة الناس تغييراً جوهرياً ، والمتعلمون منهم لا يجدون مجالا للمتعة وملهى يسد فراغهم ؟ ! وكيف يدمون أكفهم بالتصفيق ويجدون متعة في شعر متخلف عن زمانهم ، وبعيد عن حياتهم التي تغيرت تغيراً جوهرياً ؟ ! .

لقد أجاب الدكتور الشوش بنفسه أن ليست هناك حضارة صنعت مثل هذا الصنيع ، وأن المجتمع السوداني ما يزال بعيداً عن « التعقيدات » التي

(١) الشعر الحديث في السودان الدكتور الشوش ص ٥٥ .
(٢) الشعر الحديث في السودان ص ٥٤ .

توجدها المدنية ، وأن هذا الشعر كان موائما لزمانه ، مؤثراً في حياة سامعيه ، ملبيا لحاجاتهم : « بيد أننا وإن آمنا الآن أن هذه الحكم البديهية والنصائح التعليمية ليست من سمات الشعر الجيد المؤثر ، إلا أننا مع ذلك نرى أن لابد من الحكم على هذا الشعر في نطاق المجتمع والزمان الذى قيل فيه ، لهذا فإنى لا أرى أن نستعلى على مثل هذا الشعر التعليمى الذى كان يجد تجاوبا لا نشك فيه ، ولا ننس أن البحث عن الإثارة الأخلاقية غريزة عميقة فى الإنسان ، وكما أن بعض القراء يفضلون المتعة الحسية ولا يتجاوبون إلا معها ، فإن بعض القراء — بخاصة فى مجتمع لم يتعرض بعد للتعقيدات التى توجدها المدنية — يهتمون بالشعر أساساً لما فيه من رسالة وهدف[1] » .

وكفى الله المؤمنين القتال .

ولكن الدكتور الشوش يعيب على هؤلاء الشعراء أمراً آخر ، هو أنهم لم يقفوا موقفا إيجابيا معيناً من الصراع السياسى القائم فى ذلك الحين[2] .

وأرى أن الكاتب قد قسا عليهم فى الحكم ، وكان من حقه أن يقدر مواقفهم حق قدرها ، ولا يطلب إليهم أن يأتوا بأمر لا يسمح به زمانهم وحال مجتمعهم ، فإن ماقدموه إلى الناس فى ذلك الحين يعتبر خطوة واسعة من خطوات الصراع العلنى المضاد لاتجاه الإنجليز ومن شايعهم ، فقد رأينا فيما سلف من القول أن الاتجاه السياسى السافر قبل الثورة هو الذى كانت تمثله جريدة حضارة السودان ، وسفر الولاء وتوقيعات الزعماء وما إلى ذلك ، من ضروب التعبير التى تساند الإنجليز وتدعو إلى تفردهم بحكم السودان . أما الاتجاه المعادى فقد كان سريا أو شبه سرى ، ولم يكن يسمح له أن يعبر عن نفسه على المنابر وصفحات الجرائد . وحسبك أن على عبد اللطيف قد

---

(١) الشعر الحديث فى السودان ص ٥٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٦٠ .

سجن عامين كاملين لأجل مقالة تدعو إلى شيء من الإصلاح[١] . وقد كان الإنجليز وعيونهم يحضرون هذه الحفلات[٢]، ويسمعون كل كلمة تقال ويزنونها وزناً دقيقاً[٣] . فهؤلاء الشعراء قد استحقوا منا الثناء والإكبار حيث استطاعوا أن يشقوا للحركة الوطنية طريقا وسطا، ويتصلوا بالناس مباشرة ويحركوا مشاعرهم ، ويجدوا منهم تجاوبا لا يشك الدكتور الشوش فيه .

على أنك واجد منهم فى بعض الأحيان مواجهة سافرة ، تعد فى نظر معاصريهم تهوراً ومغامرة مهلكة ، من ذلك قول الشاعر عبد الرحمن شوقى:

ندیمی من سلاف الخزهات — وشنفنی بذكر الماضيات
أترضى أن أضام وأنت حر — وتسمح أن تلين لهم قناتى
لحدث عن بنى النيلين[٤] قوما — بأدنى النيل أو أعلى الفرات
بأنا نتنمى حسبا ومجدا — إلى ما بالجزيرة من رفات
يعز عليهم نحيـــا ولسنا — مثالاً للشجاعة والثبات
وإلا يبصروا فى النيل قرنا — ولا بطلا يعد من الكماة
يجود بنفسه للموت حبا — لنيـــل الباقيات الصالحات
وليس الجود بذل دريهمات — لمسكين على قيد الحيـــاة
بل الجود الممات على بلاد — ليحيا أهلها بعد الممات[٥]

والشاعر محمد سعيد العباسى — وهو رجل قد عرف بالاتجاه إلى مصر بكل مشاعره منذ شبابه الباكر إلى أن وافته المنية — يدعو إلى الثورة وتحكيم السيف :

رعى الله عهد الراشدين وتربة — سمت بالعصاميين عمرو وخالد
أئمة خير ما استباحوا كرامة — لجار ولا خانوا حقوق معاهد

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ٣٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٩
(٣) ملامح من المجتمع السودانى ص ٥٩
(٤) النيلان : الأبيض والأزرق .
(٥) شعراء السودان ص ١٩٩ .

أما ويمين الله وهي أليـــة تقال فتغنى عن يمين وشاهد
سأصفح عن هذا الزمان وما جنى متى ظفرت كفاى منه بماجد
وإن ألقه بعت الحياة رخيصة وآثرته بالنين : سيفى وساعدى
كفى بذباب السيف خلا فإنه لدى الروع أحفى من خليل مساعد
فلا سلمت نفس الجبان وباركت يد الله فى كف الشجاع المجالد
ويحزننى من معشرى أن تفرقت بهم سبل أرضت هوى كل قائد
وقد جهلوا معنى الحياة وأنهم غدوا غرضا يرمى وصيدا لصائد
وظن رجال أنه العيش بارداً وقد وهموا ماعيش ذل ببارد[1]

والشاعر مدثر البوشى يدعو إلى تحكيم السيف أيضاً ، وينعى على رجال الدين موقفهم المشين :

ترفق فما يجدى البكاء ولا أرى من الخير ما يلقـاه فى الناس نائم
أرانا هجرنا الدين والدين معقل فما خير سيف لم يؤيده قائم
أرى البدعة الحمقاء أرخت سدولها على السنة الغراء أين الصوارم ؟
إذا شئت يا ذات الثنايا تشاهدى بنيك على مر الليالى نهائم
أغاروا وقد أنجدت لما تحولوا عن العهد واستولى القيـاد سوائم
فينام للأمر والعرض ســالم إذا بهم يقضون والأنف راغم
يقال رجال لا وربك إنهم جديرون حقا أن يقال القواطم
نفوس أبت فعل الجميل لأهلها وأيد إلى الأعداء نعم اللهازم
فما روع العلياء إلا عمائم تساوم فينا وهى فينا سوائم[2]

---

(١) ديوان العباسى ص ٤٢ — ٤٣ .
(٢) ملامح من المجتمع السودانى ص ٩١

٥ — قد صنع بعض الشعراء فى ماضى السودان مثل صنيعهم فى ماضى الإسلام والعروبة ، يلوذون بهذا الماضى محتفين به مثنين عليه ، وفى بعض الأحيان يرجعون إلى الحاضر محزونين آسفين ، ولكن هذا الشعر فى هذه الفترة قليل .

من هذا اللون جزء من قصيدة للشاعر محمد سعيد العباسى سماها «سنار بين القديم والحديث» ، وقف فيها على عاصمة ملوك الفونج سنار . واندفع يصور مجدها الغابر ، وما كان عليه ملوكها من العزة والإباء والمنعة والكرم ، وانتهى بالشكوى المرة مما صار عليه الحال فى السودان من ذل وهوان ، فما أعظم الماضى وما أخس الحاضر :

زرت سنار الجوانح أسرى ‏ ‏ زفرات هدت قوى الصبر هدا
إن محا الدهر حسنها فلقد كا ‏ ‏ نت مرادا للمعتفين وخلدا
كم لها فى الرقاب منا ديون ‏ ‏ وعزيز على ألا تؤدى

* * *

لهف نفسى فقدت يا قبلة الخـ ‏ ‏ ـير كهولا حموا حماك ومردا
كنت مثوى للأكرمين ومبدا ‏ ‏ نا رحيباً لخيلهم ومندى
ورحابا قد زينت وقباباً ‏ ‏ زان أرجاءها مليك مفدى
عاش ما عاش وهو جد أبى ‏ ‏ لم يعفر لغير مولاه خدا
عجمته الخطوب وهى شداد ‏ ‏ فأثارت منه الخشاش الأشدا
وبنوداً تهفو وخيلا تنزى ‏ ‏ بالأناسى سادة وعبدا
أرخصوا فى هواك كل عزيز ‏ ‏ فتباروا فى الحرب والسلم جندا

* * *

قد شقينا من بعدكم فوردنا ‏ ‏ يا كرام الحمى من الهول وردا
واستعضنا من ذلك العز هوناً ‏ ‏ ونعيم الحياة بطشا وكدا

وركبنا عشواء لايأمن الركـ ـب عثارا ولا يؤمل رشدا[1]

وجزء الملك طمبل قصيدة سماها « بين أطلال سنار » لم يتحمس فيها لماضي سنار ، ولم يأس على أيامها كما فعل العباسي ، ولكنه نحا فيها نحو العبرة والعظة ، فعزى مساحل بها من الدمار إلى الجهل والتعصب والحروب الطاحنة :

صمدت للعظات هذى الطلول فاصغ ياصاحبي لما سأقول
رافعات رؤوسهن ولكم دقت فوق هذى الرؤوس طبول
بعثرتها يد الزمان فأمست جازعات كأنهن فلول
قد برى بعضها الزمان فصارت مرهفات كأنهن نصول
مشرفات على الزوال بأمر القا در الذى لا يزول
هى والدهر والإله على ما قد جرى حولها شهود عدول
أيها الطرف عدمتك لا تجـ ـفل فكم ها هنا أغارت خيول
لم تقم هذه الخرائب إلا فوق ملك عنه الكلام يطول
هدمته يد التعصب والجهـ ـل وضرب من الحرب يهول[2]

ولكنه عندما يقف على طلل قصر على شاطىء أرقو — بلدة الشاعر — بناه أحد ملوكها[3] يعاوده شيء من الحماسة والأسى ، وأخشى أن يكون قد مسه ضرب من التعصب الذى اتهم به ملوك سنار ، وجعله أحد الأسباب فى زوال ملكهم :

أدامك الله أيها الطلل وفدتك القلوب والمقل
أنت آثار دولة ذهبت وملوك إلى الثرى رحلوا
رزؤهم ربما يهونه أن سيمضى من بعدهم زحل

* * *

(١) ديوان العباسى ص ٢٨ — ٢٩ .
(٢) ديوان الطبيعة ص ٥٧ .
(٣) الشاعر من سلالة هذا الملك .

أيها القصر قد صمدت على الكر ه ولو أن خطبك الجلل
أنا أدرى ما عنيت من القو ل وقلبي لوحيك الـــنزل
كنت بالملك حافلاً زمنـا بالوف الضيوف تحتفل
للنهى والصلاح فيك وللجو د وللعـــز تلتقى السبل

• • •

لم يزل شامخا على مضض حاسراً دون شأوه الجبل
مرتع الأسد كان ثم غدت ترتع الشاة فيه والحمل
وزوال النعـيم صيرنا لضروب الأرزاء نحتمل(١)

وأخذت ذكرى المهدية ، والتغنى ببطولة المهدى تبدو قليلا قليلا ، فى الشعر الذى مدح به السيد عبدالرحمن المهدى ،من ذلك قول الشاعر عبدالله محمد عمر البنا :

يابن الذى خضعت ميل الرقاب له وأتعب السيف والأرماح والقلما
يود كل عزيز أن هامته نالت بعزتها ما يوطىء القدما(٢)

وقول الشاعر أحمد محمد صالح :

أبوك أقام الدين والفسق ضارب بأطنابه والناس للحق تجهل
به عاد دين الله أبلج واضحاً مقيما فـــلا يبلى ولا يتحول
ألا افخر فبالمهدى يفخر نسله ويفتخر السودان والدين يحمل(٣)

وقال البنا أيضاً :

---

(١) ديوان الطبيعة ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢) ديوان البنا — ص ١٤٤ .

(٣) شعراء السودان ص ٧٣ .

يا بن الذى قال يادهر اتبع فأتى ... له الزمان مطيع الأمر متبعا
وبالمغيرات صبحا جال جولته ... فلم شمل الهدى والكفر قد صدعا
وكم مجير تصلىّ فى الجهاد فما ... خارت قواه ولا استسق ولا جزعا
وكم رمى الجيش بالمنشور يكتبه ... ففل جيش الهوى واستأصل الشيعا(١)

وأرى أن أقف هنا وقفة مع الدكتور محمد النويهى، قبل أن أتجاوز هذا الغرض إلى غرض آخر، ليرى القارىء رأيه فى أبيات العباسى التى قدمتها، ويقف على لون من النقد تعرض له الشعر السودانى حقبة من الزمن .

تحدث الدكتور محمد النويهى عن الغزل الذى صدرت به القصيدة «سنار بين القديم والحديث» ثم قال . . . فإذا تركنا هذا الفن الذى لا يقنعنا بحب صادق ذاقه الشاعر ، وجئنا إلى الموضوع الحقيقى للقصيدة ، وجدنا تأثيراً واحداً يطغى على الشاعر ، هو تأثير شوقى فى طريقته المعروفة . فى مثل هذه الذكريات والمواقف . وخصوصاً فى قصيدته فى الخديوى اسماعيل — حلم هذه الكرى لك مدا — وفى أنس الوجود :

أيها المنتحى بأسوان دارا ... كالثريا تريد أن تنقضا

وشوقى فى أولاهما يقلد دالية البحترى ، ولكن شوقى استطاع بعد طول الممارسة أن يصطنع لنفسه نغمة خاصة . فالعباسى يقلد المقلد ، ويعجز أن يشتق هو الآخر أسلوباً منفردا . ثم روى الأبيات التى قدمت ذكرها، وبعد أن فرغ من روايتها أورد الدليل على حكمه فقال :

« أنشد هذه الأبيات جهراً ، ثم ارجع إلى شعر شوقى وانشد من أبياته كذلك تسمع نغمة واحدة طاغية ، ثم أقض دقائق مسلية ترجع فيها صيغ العباسى إلى أصولها وخاصة شعر شوقى(٢) » .

---

(١) ديوان العباسى ١٤٣ .
(٢) الاتجاهات الشعرية فى السودان للدكتور محمد النويهى ص ١٢ — ١٣ .

ما رأى القارىء فى مثل هذه الدراسة ، وفى هذا الحكم الجازم الصارم، الذى لا يستند إلا على أبيات معدودات من ديوان الشاعر ؟ ! . ما رأيه فى دراسة مهما تعددت الشواهد على أحكامها يمكن الرد عليها « بلا » يمكن أن تقول : أنشدت أبيات العباسى جهراً ، وأنشدت من شعر شوقى ماشئت لى أن أنشد ، فلم أجد نغمة مشتركة واضحة طاغية ، ولا نغمة خافتة واهنة . وأمضيت « الدقائق المسلية » فى رد شعر العباسى إلى شوقى وغير شوقى ، فلم أجد صيغا للعباسى مأخوذة من شوقى ولا غيره .

وللقارىء بعد ذلك أن يسأل :

لماذا طلب إليه الدكتور أن ينشد شعر شوقى وشعر العباسى جهراً ، ألا يستطيع قارىء الشعر المتذوق أن يميز بين ضروب أساليبه وموسيقاه إذا قرأ سراً ؟ ! .

وما الدليل على أن شوقى كان يقلد البحترى فى قصيدته الدالية ، أهو أيضاً « القراءة جهراً وقضاء دقائق مسلية » ؟ !.

ولماذا صار العباسى مقلدا للمقلد وليس بينه وبين البحترى حجاب ؟ ! .

وكيف استطاع شوقى بعد طول الممارسة أن يصطنع لنفسه نغمة خاصة ، وعجز العباسى أن يشتق لنفسه أسلوباً منفرداً ، وقد مارس الشعر دهراً طويلا ؟ ! .

وهل من الحق أن طول ممارسة النظم ، يجعل من الشاعر المقلد شاعراً أصيلا صاحب أسلوب خاص[1] ؟ ! .

---

(١) الدكتور محمد النويهى «موقف من الشعر السودانى» ناقشته فى كتابى « محاولات فى النقد » وقد اقنع بطائفة من آرائى فى كتابه « الاتجاهات الشعرية فى السودان » الذى أخرجه معهد الدراسات العربية عام ١٩٥٧ ، ولكنه لم يغير النتائج التى وصل إليها من قبل بمقدمات خاطئة جاء «معظم كلامه» متناقضاً كما سنرى شيئاً من ذلك إن شاء الله . وأرجو أن ينظر القارىء فى « محاولات فى النقد » ص ١٢٢ — ١٨٤ ، وفى الاتجاهات الشعرية فى السودان ص ١ — ٤١ .

٦ — وقد ظهرت عند نفر من الشعراء بوادر وعى جديد أكثر نضارة، فنظموا شعرا وطنيا لم يقف عند حد التبرم والشكوى والضيق بالحياة الأحياء والتشاؤم ، ولم يرتبط بالماضى وينتزع أسلحته منه ، لم يسر فى الطريق الوسط . تغنوا فى هذا الشعر بحب وطنهم والهيام به ، وجهروا بأنهم جنوده الذين يبذلون دماءهم رخيصة فى حياطته ، ونادوا بما ينبغى أن يكون عليه المواطن الغيور من الصفات ، ونددوا بالخائن المارق . وأنذروه بما سيلاقى من وخامة العاقبة وسوء المنقلب .

ومن ذلك قول الشاعر خليل فرح يناجى بلاده وهو على سفر :

وقفا عليك وإن نأيت فؤادى ... سيان قربى فى الهوى ومعادى
يا دار عاتكتى ومهد صبابتى ... ومثار أهوائى وأصل رشادى
لك كالطبيعة فى الخمائل روعة ... وعليك من سحب الجلال هوادى
إيه فديتك يا بلادى ألنى ... من حاضر بين القلوب وبادى
فعلى كلا الحالين نحن ودائع ... كودائع لك فى السحاب الغادى(١)

وقول الشاعر حسيب على حسيب :

ذرنى لا أبالك لا أبالى ... لقاء الموت فى طلب المعالى
بلادى أنت ريحانى وروحى ... وأنت حقيقتى ومدى خيالى
هواك هواك غذانى رضيعاً ... فمنه دمى ولحمى بل مقالى
إذا ماعد أقوام ضلالا ... هوى وطنى فما أحلى ضلالى
خذى العهد الوثيق علىّ أنى ... محبك فى الشدائد غير سالى

والشاعر عبد الرحمن شوقى يضفى على بلاده روحا دينيا؛ فيشبهها بالأماكن المقدسة :

---

(١) الشعراء والناورون كتاب مخطوط للشاعر منير صالح عبد القادر .

بلادى لها روحى وجسمى ودونها ... فؤادى وفيها لا أزال متيما
أرى الخلد فيها والمقام وطيبة ... وسيناء والبيت العتيق وزمزما
وجنة خلد ما رأيت طيورها ... تغنى وإن كانت على جهنما
أرى حبها فرضا علىّ مقدسا ... وحب سواها فى البلاد محرما(١)
فهل سأرى يوما عن الغاب أسده ... تذود إذا ما الليل فى الغاب أظلما(٢)

والشاعر إبراهيم يوصى قومه بما ينبغى أن يكونوا عليه :

أقومى أفيقوا وحسبى نداء ... عدمت فتى لا يلبى ندائى
وكونوا أساة لمرضى بلادى ... أضربهم فقد أهمل الدواء
فمنهم يتيم ومنهم عديم ... ومنهم عراة ثووا فى العراء
أرى الغرب يدأب فى كل وجه ... وأبصر قومى رضوا بالثواء

* * *

ألا فارس يستفيض حماساً ... ألا أين منكم رجال المضاء ؟ !
لجدوا وشدوا وضحوا جميعاً ... وأدوا فقد آن وقت الأداء
فليس السوالف ترجـــع الا ... إذا خضبتها الظبا بالدماء
وثرنا ليوثاً ومتنا كراما ... بذلك ندرك معنى الجلاء(٣)

وحين وشى أحد أعضاء جمعية الاتحاد برفاقه ، وانكشف أمر الجمعية أمام مكتب « المخابرات » رأى بعض الأعضاء حل الجمعية ، لأنها أصبحت هدفاً لعيون هذا المكتب ، وأصبح أعضاؤها عرضة للاضطهاد والبطش ، عارض هذا الرأى الشاعر إبراهيم بدرى فقال :

---

(١) لماذا ؟! لعله يرد على من يعشقون بلاد الإنجليز .
(٣،٢) الشعراء والناوون كتاب مخطوط للشاعر منير صالح عبد القادر .

عهد قوى لم تزده الحـا   دثات سـوى ازدياد
ويحوطه القصد الشـر   يف وأشرف القصد الجهاد
من أجـل فـرد خائن   تبغون حـل « الاتحاد »
والمـرء يقطـع زنـده   خـوف التسمم والفساد
أعماه حب الأصفر الرنان   عن نهج السـداد
خان البـلاد ومادرى   أن الخيـانة شر زاد
مهلاً عليـه فسوف يـ   ـسف فى قيود الاضطهاد
ويرى نتيجـة ما جنت   كفاه من ضرر العباد(١)

٧ — نفر الناس فى السودان من التعليم على النظام الجديد أول الأمر نفورا شديدا ، وكان المشايخ أشدهم نفورا وانقباضا . فهذا التعليم فى صورته الجديدة لم يرد به فى نظرهم سوى اطفاء نار(٢) القرآن ، والقضاء النهائى على منابع الثقافة العربية الإسلامية ، وهى سلاح المقاومة البتار الذى حمله السودانيون طوال تاريخهم . وقد رفضوا الحضارة الجديدة جملة وتفصيلا . متأثرين بالذكريات السيئة التى خلفها فساد الأوربيين فى العهد التركى . وجددتها جراءة الإنجليز على قبر المهدى ، واستباحة أم درمان إبان الفتح . وفى رفض هذه الحضارة يقول الشاعر محمد سعيد العباسى منددا بها محتمياً من شرها بعهد الإسلام الزاهر :

جزى الله هاتيك الحضارة شر ما   جزى من تصاريف الزمان المعاند
فلم تك يوما والحوادث جمة   حمى لضعيف أو صلاحا لفاسد
شقينا بهـــا حتى لبتنا أذلة   وأغلالها منا مكان القلائد

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٤٠ ، ١٤١ .
(٢) كانوا يوقدون فى الليل نارا من الحطب يتحلقون حولها لحفظ القرآن الكريم .

رعى الله عهد الراشدين وتربة ... سمت بالعصاميين عمرو وخالد
أئمة خير ما استباحوا كرامة ... لجار ولا خانوا حقوق معاهد(١)

ولكنهم لما رأوا فضل التعليم الجديد ، وأحسوا بقدرته على تحريك حياتهم الراكدة ومجتمعهم المتخلف ، ورأوا المتعلمين على النهج الجديد أكثر فهما لما يجرى فى حياتهم ومايجرى فى العالم، ورأوهم يتطلعون إلى آفاق جديدة، ورأوا بعضهم ينادى بصون الدين وإعزازه، والحدب على اللغة العربية وتمجيد ماضى العروبة والإسلام . ورأوا حياة الموظف على ضآلة مرتبه ألين من حياة الراعى والزارع والصانع ومن يمارس التجارة فى صورتها اليسيرة . لما رأوا هذا كله رغبوا فى التعليم الجديد وسعوا إليه ، وزادهم تعلقا به أن الانجليز يضنون به ، ولا يعطون منه إلا القدر الذى يوائم خططهم ويواكب مصالحهم . ثم إنهم ارتابوا فى نوايا الانجليز حين رأوهم يقفون للتعلم فى مصر بالمرصاد ، ويعاقبون أهل من أفلت من رقابتهم ومن لهم صلة به . ويطاردون الطالب هناك ، ويوصدون أمامه أبواب المدارس ونوافذ الرزق .

إزاء هذا كله اتخذوا من طلب المزيد من التعليم والحث على الإقبال عليه قضية سياسية . ومن أنصع الأدلة على ذلك أن التنافس الجماعى والسباق فى إنشاء المدارس الأهلية قد فتر ووهن بعد خروج الانجليز من السودان. مع أن عدد الأطفال الذين يتوقون للدخول فى المدارس الأولية قد تضاعف، وكذلك عدد من تأهلوا للدخول فى المدارس الوسطى ، ومن استحقوا اللحاق بالمدارس الثانوية . وأصبحت المدارس الأهلية التى تقام عملا فرديا ولوناً من التجارة .

---

(١) ديوان العباسى ص ٤٢

لهذا أكثر الشعراء من الحديث عن العلم والدعوة إلى التعليم ، وذموا الجهل ونسبوا إليه ما أصابهم من التأخر والضعف،وهم فى معظم الأحوال يقرنون العلم بالدين والخلق . وهذه شذرات مما قالوا :

يقول الشاعر البنا :

ثم انشروا من شريف العلم أنفعه ... فإنما هو معنى كل تمدين
والعلم زين وبالأخلاق رفعته ... إن قارنته يد فى خير تزيين[١]

ويقول أيضا :

لنا بالطب جهل أى جهـــل ... وإن الجهل فى شعب ممات
وكيف يحوز قصب السبق قطر ... جفاه مع المحامين الأساة
شباب القطر فى لهف وشوق ... إلى سبب تزول به الأذاة

ويقول الشاعر عثمان حسن بدر :

أشياء لو نظرت عيناك أصغرها ... آثرت حب العمى عن رؤية المقل[٢]
جهل مقيم وأخلاق مقسمة ... بين النفاق وبين الغدر والختل
الجهل يفتك بالأخلاق ناشئة ... والجسم يهدم بالأدواء والعلل
إذا فشا بين قوم ضل سعيهم ... وقربوا شاسع الخذلان والزلل
وناهضوا كل أمر ينهضون به ... وناوأوا من برأب الصدع فى شغل[٣]

ومن هذا القبيل تلك القصائد التى استقبلوا بها الذين تخرجوا فى جامعة بيروت[٤] .

---

(١) نفثات اليراع ص ١٣١ .
(٢) ملامح من المجتمع السودانى ص ٦٦
(٣) شعراء السودان ص ١١٠
(٤) ملامح من المجتمع السودانى ص ١١٦ — ١٢١

وقد عرفنا أن وطأة الانجليز كانت شديدة على طلاب العلم الذين يهربوا إلى مصر فى طلب المزيد منه ، والشاعر توفيق أحمد البكرى كان من الذين هربتهم جمعية الاتحاد ولاحقهم الانجليز فى مصر وضيقوا عليهم الأرض بما رحبت ، فقال معبرا عن ضيقه الذى بلغ أقصاه :

بكى فى الدجى والناس لا يسمعونه ... وهل تنصت الأسماع للحسرات؟
شكا ما يلاقيه فنفس حزينة ... وجد رماه الدهر بالعثرات
تناوحه الآلام من كل جانب ... وتعتاده الأحزان مختلفات
فهوّم يسقيه الكرى من كؤوسه ... وطافت به الأحلام مشتجرات

وفى هذه التهويمة رأى أنه فى داره وبين أهله وصحابه . ولكنه رأى الدار غير الدار ، والصحاب قد لعبت بهم يد الموت ويد النوى :

تلمس أتراب الطفولة والهوى ... فلم يبق منهم نافخ الجمرات

أى قد فنوا عن آخرهم ولم يبق منهم من يوقد النار ، وهذا تعبير سودانى مألوف فى الكناية عن استئصال شأفة الناس .

وقد أفسد الحزن واليأس تصوراته فصار لا يرى حتى فى النوم إلاّ كل كريه بشع ، وهذا يذكرنا بحالة ابن الرومى التى وصفها بقوله :

ولقد حرمت من المناعم كلها ... حتى حرمت مناعم الأحلام
من ذاك أنى لا أرانى طاعما ... فى النوم أو متعرضا لطعام
إلاّ رأيت من الشقاء كأننى ... أتى وأكبح دونه بلجام

ولشدة نزوعه إلى الرجوع ، وإحجامه عنه خشية عاقبته ، بات فى حيرة من أمره . ولكن عقله الباطن أخرجه من هذه الحيرة ، فجعل سبب

رجوعه تلبية لسلطة واجبة الطاعة ، لاهروبا من الميدان ، فرأى والده وسمعه يأمره :

تعال . . أتوفيق أصبحت على النوى — أو انك عان تخفق الرغبات ؟
كفاك بعاداً تطلب العلم جاهداً — فكل نصيب فى الحياة موات

ويقول عن أحلامه وأمانيه :

ولا حت إليه فى السماء وهديه — دمى كدمى الإغريق منكسرات
أهذى أمانيه التى قد أجدها — صياغة عقل راجح الخطرات(١)

ولكن أصدقاءه من جمعية الاتحاد وغيرهم لم تعجبهم هذه النغمة الحزينة الواهنة . فنظموا الشعر يواسونه ويقوون من عزمه ، من ذلك قول الشاعر توفيق صالح جبريل :

أرى الأسد الباكى يقلب طرفه — وحيداً كئيب النفس فى الظلمات
وينصت كالمصغى لدقات قلبه — ويرعى نجوم الليل مضطربات
جيوش من الأحزان بدد شملها — بسيف من الصبر الجميل موات
بكى الشاعر الباكى بفرج كربه — وما أبلغ التعبير بالعبرات
ولم يبك من ضعف فإن بكاءه — حنين إلى مجد تمثر آتى(٢)

وأكثر الشعراء القول فى هذا المعنى(٣) ، فرد الشاعر عليهم شاكرا ممنا مطمئنا إياهم بأنه قد ثاب إلى رشده وأقلع من حزنه :

وجاوبه من كل خضراء شاعر — بلابل دوح جرسهن رنين
فأرهف سمعيه لهن وهاجه — دعاء طيور مثلج ورصين

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٠٦ — ١٠٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٨ .
(٣) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٠٨ .

وواسيته حتى أثاب لرشده   فيا لك طير بالوفاء يدين

وتجح الشاعر إبراهيم عبد العاطى فى المسابقة التى كانت تقيمها مدرسة دار العلوم العليا ، للطلبة الذين يرغبون فى الالتحاق بها ، ولكن ضغط الإنجليز حال بينه وبين هذه الرغبة ، فطلب إليه ناظر المدرسة أن يغير « جنسيته » ، فأبى الشاعر ذلك وبعث إليه بقصيدة جاء فيها :

أرقت ونام أترابى وصحبى   وكدت أذوب من مضض ورعبى
وما وقفت صروف الدهر عنى   وقد وقفت لها دقات قلبى
تواثبنى الحوادث كل يوم   فوا حزنى ووا رزئى وخطبى
إذا « دار العلوم » علىَّ ضاقت   وباعدنى المعلم والمربى
وأعرض أو نأى ابن الشرق عنى   أيسمح لى بهذا الحق غربى ؟!
لقد وسعت بنى الأقطار دهرا   وغص فناؤها من كل شعب
وأنى كنت أحسبنى جديرا   أتصبح نسبة السودان ذنبى ؟ !
وتمنعنى عن الزلفى عجيباً   فليتى كنت من ترك وصرب
فإن لم ألق منك غدا قبولا   فبعد غد أكون قضيت نحبى(١)

فقبله الناظر متحدياً الوقاحة الإنجليزية ، ولكن التضييق فى الرزق قضى عليه فمات مسلولا .

وقد لقيت اللغة العربية من الإنجليز اضطهادا شديدا ماتزال آثاره إلى اليوم ضارية ، وقاسى علماؤها ومعلموها الأمرين ، وقد صار بعض « المستغربين » من أبنائها يحتقرونها ويهونون من أمرها ، معتزين بالقشور التى تلقفوها من اللغة الإنجليزية ، فبكاها الشعراء ، وأبدوا سخطهم على هذا المجتمع الذى لا يجل لغته ولا يحتفى بعلمائها .

---

(١) الشعراء والقاوون — منير صالح .

والشاعر عبد الله البنا قصيدة طويلة فى هـذا الشأن سماها « دمعـة على اللغة العربية » وازن فيها بين ماضيها فى الجاهلية والإسلام وبين حاضرها فى السودان ، مثلما يصنعون فى القصائد الدينية السياسية ، فأشاد بمنـابرها فى الجاهلية ومنابرها فى الإسلام، فخر بنوابغها من الشعراء والخطباء والكتاب وخايل بدمشق وبغداد والبصرة والكوفة وقرطبة ... الخ ثم خلص إلى ما آل أمرها إليه من هوان وإهمال ، فقد أبعدها الإنجليز عن كل مجال حتى فلا هى لغة الدرس ولا هى لغة الرزق ، ثم أثنى على مصر وعلى الشام ، لرعايتهما إياها وعنايتهما بها .

وهذه أقباس منها :

منابت العز حيا الله ذكراك	ما كان أثراك من مجد وأسراك
ما كان أبهاك لما كنت بادية	وبالجدى والندى ما كان أغراك
أيام بالشيح والقيصوم عطركما	أحلاك إذ فاح بالعرفان نشراك
كم حاتم فيك إن البخل منقصة	وحاتم شاهد عـدل بذكراك
وكم حمى لك عربيا غطارفة	موفقون لإرهاب وإدراك
وعنتر وعلى وابن ذى يزن	فى الجاهلية والإسلام فخراك

. . .

أم اللغات عويلى فيك متصل	ومقلتى بسخين الدمع عبراك
أنعاك قبل عكاظ حيث أسفرنى	أرجاتها بشريف اللفظ معناك
أنعاك للبصرة العصماء حيث بها	جريت فى سنن العلياء مجراك
وكم بنى لك كوفى منـارا على	أو شاد فوق شريف القصد مبناك
دمشق كم ثوب عز تهت فيه وكم	قد ضاحك البدر وضاحا محياك

. . .

كم شاعر فيك باللفظ السديد رمى	حب القلوب وغناها بمغناك

وكم خطيب بأبواب الملوك حوى ... فصل الخطاب من المشكو والشاكى
وكم أديب بمختار الكلام رقى ... عرش الوزارة إذ آواه مأواك
إن الذى هد من أركان قرطبة ... هو الذى من ثياب الفضل عراك

. . .

أم اللغات عويلى غير منقطع ... حتى أرى الدهر عبدا من رعاياك
حتى أرى لك دارا لا تضام فلا ... تطل الا على عز ثرياك
حتى أرى لك حظا فى الحياة وإن ... طال الرقاد على أنقاض موتاك
حتى أرى الرزق يجرى طوع ما كتبت ... على الطروس من الآيات فصحاك
أطلت عتبى على الأيام حين جنت ... عليك فاستلبت أبهى مزاياك

. . .

أم اللغات رعاك الله يانعة ... فى مصر دائبة بالعلم سقياك
وباكر المزن قبر اليازجى ومن ... بالشام نضر بالسقيا محياك[1]

أما الشيخ عبد الله عبد الرحمن فى بكائه على اللغة العربية ، فإنه قد نبه الناس إلى أن تبذمهم لغتهم واستخفافهم بها ، لاينبىء عن حضارة كما يزعم المفتونون والمستغربون ، فإن الغربيين الذين يقلدونهم ويرون فيهم مثلهم الأعلى ، لايفرطون فى لغاتهم ، بل يتعهدونها بالعناية والرعاية ، والتشجيع للمشتغلين بها ، وهم حين يجددون لا يهجرون قديمهم ويزدرونه . وينبههم إلى خطر عظيم ، هو ضمور اللغة العربية فى السودان ونمو الإنجليزية فيه ، فهو أمر يدعو إلى الشك والريب ، وهنا يصيح فيهم قائلا إذا لم تتنبهوا لهذا الامر المريب وتحيطوا لغتكم بما يصونها ناضرة نامية ، فقدتم عروبتكم وأدمجتم فى أمة أخرى وفى ذلك هوانكم :

(1) شعراء السودان ص ١٦٥ — ١٦٩

أجل كل قوم فرطوا فى لغاتهم غدوا وصروف الدهر فيهم تحكم
أرى الغرب تعنى باللغات رجاله وتمشى إلى أعلامها تتعلم
وهم يكبرون من رجال توفروا عليها إلى أن أكبر الناس منهم
ولا يهجرون للجديد قديمهم وذلك خلق عن رقى يترجم

* * *

بنى وطنى إن قمت للضاد داعيا فإنى لأدعو للتى هى أقوم
أرى الضاد فى السودان أمست غريبة وأبناؤها أمست لها تتجهم
تولت ومادمع عليها بفائض وما أحد منهم لها يتألم
عزيز علينا أن نراها هزيلة وجارتها فينا تزيد وتعظم
كفانا هوانا أن ربا بحوطنا وأنا إذا رمنا الحديث نجمجم
أما والليالى العشر والفجر طالعاً وما الفجر فى الإسلام الا محرم
إذا لم تحسوا داءها وهو فاتك تهنوا وفى غير العروبة تدغموا[1]

ويقول الشاعر الطيب السراجى مبينا نظرة الناس للعلم — والعلم الذى يريده هو علم اللغة الذى عكف عليه ووهبه حياته — واستهانتهم به ، وإكبارهم الجاهل ، ويثور ثورة عارمة على هؤلاء الذين لايعرفون فضل علمائهم ، ويتمنى من الله أن يعجل بموته إن لم يبدل هذه الأحوال :

الناس أكفاء بعض فى شكولهم ولا يفرق إلا الفعل والخبر
لو قد يجل امرؤ من أجل حلته إن الكهام عليه التبر والدرر
أو كان فى شرف الآباء معتصم فنوح إذ حل لم ينج ابنه القدر
أو كان فى كثرة الأموال مفتخر فالمال يفنى ولايبقى له أثر
لكنما العلم باق لانفاد له أخرى الليالى ولا فى فوته حذر

---

(١) الفجر الصادق ص ٦ — ٧

برعاك إن نمتعوا الأموال تكاثرها ... وليس راع كرعى وإن عمر
لكنه اليوم منبوذ ومحتذر ... كأنه قذر أو حية ذكر
وصار للجاهل العريان من حسب ... جاه لدى الناس لا يرجوه مؤتزر
وأقرب الناس للأقطاب منزلة ... من قد يقال له أى فاسق غدر
لا در در بلاد ذل عالمها ... وعز فيها جهول ماله خطر
ويأمن الخائن الغشاش سطوتها ... ونال فيها نصيح الأمة الخطر
فلا سقى الله عصراً ذل فاضله ... وفاض فيه الخنى قبحت ياعصر
يارب قلل إذا لم تنجنى عمرى ... واختم بحسن فأهل الغى قد كثروا[1]

٨ — لبعض الشعراء فى هذه الفترة كما أشرت سابقاً أمداح ذات طابع سياسى ، فقد مدحوا زعماء الطوائف الصوفية فى مواقف معينة ، من ذلك ماقاله الشاعر عبد الله البنا فى مدح السيد على الميرغنى ، وكأنه يعرض بغيره من الزعماء :

من أتبع الهوى شرقا وغربا ... فإن هواى أصبح ميرغنيا
نزلت بنسبتى لهم مكانا ... وزرت فريع مجدهم ، عليا ،
عرفت الشمس منه فما أبالى ... إذا استخفى سهيل والثريا[2]

ويقول فيه الشاعر عبد الرحمن شوقى حين عودته من انجلترا ، وكان كما عرفنا على رأس الوفد الذى ذهب إلى تهنئة ملك الانجليز بالنصر فى الحرب العالمية الأولى ، مدحه بوراثة النبى (ص) وبأنه من أركان الإسلام الراسخة الجذور ، وبأنه صاحب مجد مؤثل يزينه الجمال والجلال ، وبأنه متفان فى خدمة البلاد وقد تعلقت به قلوب الناس :

(١) شعراء السودان ص٨٣ — ٨٤
(٢) ديوان البنا ص١٥٩

حلفت فلم أحنث بأنك سيد ... كريم السجايا والكتاب المنزل
وأنك للإسلام ركن مؤثل ... لتحفظه بالخير ركن مؤثل
ورثت كريم المجد من أكرم الورى ... ونور الهدى من وجهه المتهلل
فبوركت من شهم حسيب منسبا ... وبوركت من مجد تليد مؤثل

* * *

وقدمت نفع القطر من كل واجب ... عليك ولم تعجز ولم تتوكل
وسافرت من هذى البلاد فقائل ... متى راجع غوث الضعيف المؤمل
وكم واله يوم الوداع وناظر ... إليك بقلب بالمحبة ممتلى
وماغبت بل غابت قلوب كثيرة ... وغاب العلى والمجد عن كل محفل
وردك رب الناس للناس سالما ... فأعظم به من نعمة وتفضل
طلعت على الأقوام والنور ساطع ... بوجه وسيم بالجلال مكلل
فكم شاخص كم واله ومكبر ... وكم ساجد لله كم من مهلل
يودون تقبيل الركاب تبركا ... وأنت ورا ستر من النور مسبل
أمولاى هذا اليوم أشرق نوره ... كوجهك بين الناس فى كل محفل[1]

ويقول الشاعر أحمد محمد صالح مادحا السيد عبد الرحمن بمناسبة العودة من انجلترا أيضا . فوصفه بالسخاء وبسطة الكف، وبأنه من نسل النبى (ص) وبأنه ابن المهدى الذى أزال الفساد وأقام صرح الدين ، وبالجمال والجلال والنهوض بأمر الدين ، وهنأه بالنيشان الذى منحه إياه ملك الإنجليز ، وهنأ السودان برجوع السيف الذى قدمه السيد عبد الرحمن إلى ملك الإنجليز هدية ، فقبله ثم رده إليه :

---

(١) شعراء السودان ص ٢٠٣ .

إمام الهدى قرت بمرآك أعين | وطابت نفوس حين عدت وأعقل
وأصبح هذا القطر يزدان بهجة | ويختال فى برد السرور ويرفل
نمتك إلى الخيرات أعراق هاشم | فأنت لهذا الدين ركن وموئل
وأقسم ماقاسوك بالبدر ساطعا | وشمس الضحى إلا ووجهك أجمل
ولا قرنوا كفيك بالبحر نائلا | ولا بالحيا إلا وجودك أجزل
فكم فرجت كفاك فى المحل كربة | وكنت لكل النائبات تؤمل
تهش إذا جاء الفقير ميمما | وتبدؤه بالنيل من قبل يسأل
أبوك أقام الدين والفسق ضارب | بأطنابه والناس للحق تجهل
به عاد دين الله أبلج واضحا | مقيما فلا يبلى ولا يتحول

* * *

حباك مليك القوم نيشان رفعة | وأنت بنيشان الجلال مكلل
هنيئا لهذا القطر أن رد سيفه[1] | إليه ومتناه أحد واصقل[2]

٩ — مدحه الشاعر عبد الله البنا بهذه المناسبة ، ويمثل تلك المعانى التى وردت فى قصيدة أحمد محمد صالح ، ومدح ملك الانجليز ، وخرج رد السيف تخريجاً حسنا ، فالملك لم يرده لزراية أو استهانة ، ولكن رده لأنه أخلق بصاحبه ، فهذا السيف ينبغى أن يحمله رجل فى مضائه ، وماذلك الرجل إلا السيد عبد الرحمن ، وأراه بهذا قد مجد الملك الذى أسرف فى مدحه ، ونحله الصفات التى يمدح بها ملوك العرب من الكرم والسماحة وما إلى ذلك:

وعمت ملكا طال بالعدل ملكه | وكفاه يوم البذل والفضل أطول
وجردت عزما دونه السيف صارماً | إذا سل يوم الروع لا يتفلل

(١) سيف النصر الذى عرفناه ، ومن المحتمل أنه يعنى السيد عبد الرحمن نفسه .
(٢) شعراء السودان ص ٧٣ — ٧٤ .

وواصلت هذا السير ترجى وتتقى ... وتبذل ماتحوى وتعفو وتفضل
إلى أن وضعت الرحل فى ظل ماجد ... مليك مهيب للرغائب يبذل
جواد وكان الجود منه سجية ... وأيقن أن الشكر بالملك أجمل
وصاغ لك النيشان قربا وحلية ... وإن كان صاغته الفضائل أول
وطرز فى صدر يطرزه العلى ... ويعمره عرفانه والتفضل
ورتلت آى الشكر حفظا ولم تزل ... لذكرى أمرى ء يوليك خيرا ترتل
وقدمت سيفا حالف النصر وحده ... إذا سل قام الدين شكرا يهلل
فحاز لدى نفس المليك مكانة ... تخير أن الفضل عندك يقبل
ورد إليك السيف لا عن زراية
ولكن جمع السيف بالسيف أشكل[1]

يلاحظ أن القصائد الثلاث التى قيلت فى هذه المناسبة من بحر واحد وقافية واحدة ، وبعض معانيها وألفاظها متشابهة مما يدل على أنه كانت بين أصحابها مجاراة ، ولكننا لا ندرى من هو السابق ومن هو اللاحق .

وتورط بعض الشعراء فمدحوا الانجليز . ولولا أن الدراسة تقتضى أن أعرض مثالا لكل ماقيل لما أوردت منه حرفا واحدا ، وهو فى جملته وتفصيله شعر خال من الصدق الواقعى والصدق العاطفى .

وممن مدحهم الشاعر عبد المجيد وصفى ، فقد مدح الملك جورج الخامس حين مر بيور سودان فى ١٧ يناير عام ١٩١٢ م وكانت حكومة السودان قد انتدبته لهذا الغرض[2] .

مدحه بكرم الأصل وعراقة النسب وعظم الشأن ، وزعم أن له على السودان أفضالا تتبعها أفضال ، لأنه انتخب لحكمه الأخيار من قومه ، فأقاموا العدل وأصلحوا الفاسد ! !

---

(١) ديوان البنا ص ١٣٦
(٢) شعراء السودان ص ٢١٠

رب الجلالة جورج ، من تعنو له كل الملوك بذلة وصغار
هو شبل « ادورد » العلي وحفيد من بين الأنام لها عظيم فخار
« فكتوريا » ذات المآثر والتي شهد الوجود بفضلها المدرار
مدت إلى الآفاق وارف ظلها وكذا بنوها قادة الأخيار

* * *

وافيت للسودان سعداً طالعا فغــدا بزورتكم رفيع منار
أوليته نعما غزارا قبل أن تأتي وقد أردفتها بغزار
وله انتخبت من الرجال أخايرا بالعدل شادوا دارس الآثار
عرفوا الدواء لكل داء إذ هم حكماء فينا ثاقبو الأفكار[1]

والذى قرأ ماقدمت عن حال البلاد فى هذه الحقبة يعلم أن الشاعر يشهد بغير الذى يعلمه تقربا وزلفى ، وليغفر الله له .

ومثل ذلك فعل الشيخ عبد الله البنا حين قال فى مدح الانجليز أنهم رفعوا منار العلم فى ديارنا ، وتعهدونا بالتهذيب والتدريب :

رفعوا منار العلم فى أوطاننا وجروا على ماترتضيه ودربوا[2]

ولكنه لم يلبث أن نقض ماأبرم ، فقال متمنيا لوطنه الذى ارتفع فيه منار العلم ، وسار حكامه على مايهوى فى هذا الشأن ، ونال أبناؤه حظهم الأوفى من التهذيب والتدريب !!

ولعل هذا القطر بعد خموله يحيا ويذكر فى البلاد ويحسب[3]

---

(١) شعراء السودان ص ٢١٠ــ٢١١
(٢) ملامح من المجتمع السودانى ص ٧٣
(٣) ملامح من المجتمع السودانى ص ٧٣

وفى قصيدته التى مدح بها اللورد اللنبى ملك الإنجليز الذى زار السودان عام ١٩٢٢م قال عن هذه الديار التى رفع فيها الإنجليز منار العلم وفعلوا ما يرضى أهلها من التدريب !!

مررت على الديار وجزت فيها بوادى أرض ساكنها موات
فبعض من تكاتفهم عراة وبعض من ملابسهم عراة

* * *

لنا بالطب جهل أى جهل وإن الجهل فى شعب مماث
وكيف يجوز قصب السبق شعب جفاه مع المحامين الأساة ؟!
شباب القطر فى لهف وشوق إلى سبب تزال به الأذاة

وهذا هو الحق المبين .

وممن مدح الإنجليز الشاعر حمزة الملك طنبل ، مدح اللورد اللنبى بمناسبة هذه الزيارة ، احتفى بقدومه فوضعه فوق عين البلاد ورأسها ، وبعد أن ذكر حال السودان فى الماضى والحاضر طلب إلى اللورد أن يأخذ بيده ويسير به فى مراقى التقدم ، ثم جهر بما ينادى به أنصار بقاء الإنجليز فى السودان ، فطلب إلى اللورد ألا لا يلتفت إلى قول من يطالب بخروج الإنجليز ، فإن حاجة السودان إليهم أكثر من حاجة بلادهم ، فهم أقدر الشعوب على سياسة الأمم من غير شك ، فهو يسير على سياسة ، حضارة السودان ، حذوك النعل بالنعل :

لك عزم من القضاء وذكر مشرق فى الزمان إشراق شمس
يا أجل القواد فى الحرب شرف فوق عين من البلاد ورأس !

* * *

كان تاريخها القديم جليلا مثل مصر ومثل روم وفرس
ثم دار الزمان دورة نحس عكست نجم سعدها شر عكس

فدرجنا على الصعيد حفـاة بين غبر من الجياع وشعث(١)
أسعدونا فقد شقينا بجهل مطبق كالدجى وفقر وبؤس
وأقيموا فنحن أحوج منكم ليـد تعمر البـلاد ورأس
وادفعونا إلى الأمام فأنتم أقدر العالمين من غير لبس(٢)

فالشاعر على ماتورط فيه مما لايليق بأمثاله ، قد كشف عن حال البلاد، فليس ههنا منار علم مرفوع ، بل جهل ... مطبق كالدجى وفقر وبؤس .

وكانت زيادة اللورد اللنبي مريبة ، فقد جاءت فى وقت اشتد فيه النزاع بين المصريين والإنجليز ، فمصر تنادى بوحدة شق وادى النيل والإنجليز ينكرون عليهـا هذا النداء ، ويرون أن لهم فى السودان مصالح توجب بقاءهم فيه وانفرادهم بحكمه، والحركة السياسية فى السودان منقسمة تجرى فى سبيلين وقد أسلفت القول فى هذا كله . لهذا اعتقد المعادون للسياسة الإنجليزيه — وهم محقون — أن الغرض من هذه الزيارة التى حشدت لها الحكومة زعماء البلاد حشدا — التمكين لسياسة الإنجليز فى السودان ، وإبعاد مصر عن مسرح السياسة وإقصاؤها عن دست الحكم فيه . وعبر عنهم الشاعر توفيق صالح جبريل بقصيدة كشف فيها عن نوايا الإنجليز وحيلهم ، وسخر من دعواهم الإصلاح وتمدين البلاد .

أيها القوم لا تجروا الذيولا يأنف الحر أن يعيش ذليلا
سمتمونا العذاب ضيقتم الأر ض علينا حتى هوينا الرحيلا
إن أردتم صلاحنا قـد فعلتم فاعذرونا إذا مللنا الدخيلا
ايها الزعيم أودى بنا الفقر فعطفا فقـد صبرنا طويلا

---

(١) هنا خطأ فى القافية .
(٢) ديوان الطبيعة ص ٥٢ — ٥٣ .

فقبيح أن نرتضى الذل دهراً   ونرى مالنا لكم مبذولا
كل يوم تبدو بثوب جديد   من دهاء لحسبكم تبديلا
علمتنا الأيام ما قد جهلنا   ه فلسنا نطيق عيشا ثقيلا
تلك عشرون حجة بعد خمس   قد تقضت وما شفيتم غليلا
فادعيتم نشر الحضارة والعرفا   ن والشعب ما يزال جهولا
ويح قلبي ماذا يريد النبي   يوم وافى يجر سيفا صقيلا
جمع الجمع أرهب الناس حتى   أصبح السيد النبيل ذليلا
أتراه يريد يفصم حبلا   بين مصر وبيننا موصولا(١)

١٠ — ومدح الشعراء مصر والمصريين مدحا دافعه الحب والامتنان، والاعتراف بالجميل والتعبير عن الإخاء الصادق ، ودافعه تأييد مذهبهم السياسي والرد على سياسة الإنجليز في السودان ومن يناصرونها ويجرون وراء سرابها ، وقد كثر هذا اللون بعد الفترة التي تؤرخها واستفاض حتى أشترك فيه معظم الشعراء .

يقول الشاعر عبد الله حسن كردى يمدح المصريين ويشيد بحضارتهم وما بلغوا من العلم والعرفان ، وأراه يرد على الذين يقولون إن مصر لم تبلغ من المدنية ما يؤهلها للنهوض بعبء الحكم في السودان(٢) ، فأخذ يعدد صنوف العلوم والفنون التي حذقها المصريون :

أهرامهم فوق السماء مكانة   وهم ميامين الورى أخيار
في كل جامعة لهم نشء سما   بذكاء فكر طار منه شرار
وبكل حي للمعاهد ضجة   فالعلم بين ربوعهم أنهار

(١) ملامح من المجتمع السوداني ص ٦٨ — ٦٩ .
(٢) ملامح من المجتمع السوداني ص ٦٧ — ٦٩ .

ما فيهم الا خطيب مصقع ... أو شاعر لبنـــاته أخبـار
أو ناثر لحـل يهز بكفه ... قلما تكون بحـده الأعمار
وفتى نظامى ذكى نابه ... من طبه الغربى كم يحتار
ومشرع ركن القضاء بعدله ... صرح على الغبراء لا ينهار
ومهندس طول الحياة مفـكر ... غنت بذكر حديثه الأقطار
ومهندس بالليل يرصد أنجما ... فلك السماء بسيرها دوار
أنى يحيد الفضل عن أوطانهم ... والفضل ليس له سواهم دار
عرب لهم بالضاد نطق معرب ... مافيه من عوج اللسان عثار
إنى لأذكرهم بقلب واجد ... ماكر ليـل أو تلاه نهـار
وأحن مثل الثاكلات لقربهم ... وحنين ميلى فى البعاد مزار(١)

والشاعر محمد سعيد العباسى مفتون بمصر، وديوانه وثيقة ناطقة بحبها، يتغنى بذكرى أيامه فيها وذكرى أترابه من أبنائها، ويصف المصريين بأنهم قومه الذين أصاب منهم كل خير، والذين يلبونه إذا دعاهم، وهم الذين اجتمعت فيهم صنوف الفضل التى تفرقت فى أمم الأرض :

سأصرف وجهى عنهم وعزيمتى ... إلى نفر غر رضيتهم قوما
قرابة آداب وأخوة حرفة ... أصبت بهم من كل عارفة سهما
كرام إذا ماجئت قلت محاسن الـ ... ورى نظمت فى سلك أخلاقهم نظما
هم القوم إن أدعو استجابوا وإن أرد
معينا أعانوا إن زمانى به هما(٢)

وفى قصيدة أخرى يحن إلى مصر ويذكر فى شغف مواطن منها، النيل والهرم والجيزة والمقطم مثلما يعددون الأماكن المقدسة، فهو يحب مصر

(١) شعراء السودان ص ١٧٢ — ١٧٨ .
(٢) ديوان العباسى ص ١١١ .

ويحب العودة إليها كحبه العودة إلى أيام الشباب الغض ، ولا يقيم بقرى السودان إلا مكرهاً ، وذلك لأنه يكره أن يرى وجوه أعدائه والانخراط فى سلكهم ، ويكره أن يقيم فى بلد لا يرضى طموحه ولا يصون كرامته :

صبّرت عن كره قرى السـ ـودان لى مخيمـا
ولى بمصر شجن أجرى دموعى عندما
فارقت مصر ذاكرا أرجاءها والهرما
والنيل والجزيرة الفيـ ـحاء والمقطما
ربوع خير طالما أسدت إلىّ نعما
مصر وأيام الشبا ب الغض من لى بهما
وفتية سامرتهم فاقوا الزمان همما
زين الشباب حملوا مع السيوف القلما[1]

وفى قصيدة ثالثة يعلن مذهبه السياسى بلا مواربة ، فهو يعول على مصر فى النهوض بالسودان ، الذى أذاقه الإنجليز صنوفاً من البلوى وألواناً من الذل ، فالمصريون أخلق الناس بإنارة هذا البلد وفك قيوده ، لأنهم أقرب الناس إلى أهله ، يربطهم بهم الدم والدين واللغة والنيل .

بنى مصر الكرام ولا برحتم مثالا للشعوب العاملينا
سعيتم نحو غايتكم كراما وذدتم دونها مستبسلينا
وقد نزلت بنا محن شداد أذاقتنا من البلوى فنونا
أذلت أنفس الأحرار منا فباتوا بعد عزتهم قطينا
خذوا بيد البلاد فثقفوها وكونوا فى حوادثها المعينا
أعينونا فنحن بنو أبيكم لنا حق ونحن الأقربونا
لنا بالدين والفصحى ائتلاف وثيق ضم شعبينا قرونا

---

(١) ديوان العباسى ص ٩١ — ٩٢ .

ونيل فاض كوثره فأجرى ... بواديه الحياة لنا معينا[1]

ويقول الشيخ عبد الله عبد الرحمن محييا علماء مصر :

يا نسيماً يختال بين رياض ... راويا عن أريجهن اعتلاله
قف رويدا وجمع الزهر واحمل ... لرجال العلوم منى رساله
لرجال العلوم فى أرض مصر ... واهبى الضاد حسنها والجزاله
قل لهذى الكرام يجمعها النا ... دى بدورا وتحتويهن هاله .
لكم الود فى البلاد مقيما ... ما أظن الزمان يطوى ظلاله
إنما مصر والعروبة والسو ... دان شعب أبى الإله انفصاله[2]

١١ — الشعر الفصيح الذى وصل إلينا مما نظم فى غمار الثورة قليل ، والسبب شدة الرقابة ونشاط « المخابرات » فى مطاردة الأحرار ، وسيقف القارىء بعد قليل على قصة تكشف عن هذا النشاط العجيب .

ومن هذا القليل قصيدة للشاعر خليل فرح ، مهداة إلى البطل عبيد حاج الأمين سكرتير جمعية اللواء الأبيض ، بدأها بالغناء لبلاده والتغزل فى محاسنها ، ثم دعا إلى وحدة الصف فى الجهاد ، ووصف المجاهدين بالشجاعة والكرم ، لأنهم عرب ، ينتمون إلى البلاد العربية والقبائل العربية ، والعرب شيمتهم الثبات والبذل :

يا دار عاتكتى ومهد صبابتى ... ومثار أهوائى وأصل رشادى
كم فى سمائك للنبوغ وفى ثرى ... واديك كم للعبقرية وادى
لك كالطبيعة فى الخمائل روعة ... وعليك من سحب الجلال هوادى
إيه فديتك يا بلادى ألتقى ... من حاضر بين القلوب وبادى
فعلى كلا الحالين نحن ودائع ... كودائع لك فى السحاب الغادى
وافى الربيع وفى ربوعك فتية ... كانوا بطلعتهم ربيع النادى
أبناء يعرب حيث مجد ربيعة ... وبنو الجزيرة حيث بيت إياد

(١) ديوان العباسى ص ١٢٠ . (٢) الفجر الصادق ص ١٠٣ .

متشابهون لدى العراك كأنما   نبتت رماحهم من الأجساد
ماذا يقول المرجفون وكلنا   فى الله والأوطان أهل جهاد
أصحاب مائدة وأسرة منزل   وتناج بادية وفتية وادى[1]

وقد كان حداء الثورة بالشعر الشعبي ينظم ويلحن ويغنى ، فيشيع فى الناس ويعمل فى نفوسهم عمل السحر ، ويهتف به المتظاهرون ، وقد ارتفعت لغته فى هذه الحقبة ودنت من اللغة الفصيحة ، لأن معظم ناظميه كانوا من المتعلمين :

وهذه نماذج منه :

نِحن[2] ونِحن   الشرف الباذخ
دوابِى[3] الكَرّة[4]   شباب النيل

والمعنى نحن أصحاب الشرف الباذخ ، ونحن الأسود التى تكر ولا تفر ، نحن شباب النيل العظيم .

نِحْنَ الصّولة   ونِحنَ الدّولة
نُحْنَ بَرانا[5]   نحمى حِمانا
نحن نمُوت   ويحيا النيل

نحن لا نرى للإنجليز صولة هنا ولا دولة ، فنحن الصولة ونحن الدولة كما سيرون .

ونحن وحدنا الذين نحمى هذا الحمى ، ونبذل أنفسنا رخيصة فى الذود عنه وشعارنا ، نحن نموت ويحيا النيل ، حراً كريماً .

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٤٥ .
(٢) نحن : نحن .
(٣) دوابى جمع داب ، والدابى فى لهجة أهل السودان الحية والتمساح والأسد .
(٤) والكرة : الكر ضد الفر .
(٥) برانا : وحدنا .

يا نزلانا أمرقوا[1] الذمة
كيف إنطاق[2] هوان الأمة
زردوا حلوقنا[3] وشالوا حقوقنا
ديل عاوزين[4] دمانا تسيل
مافيش تانى[5] مصرى سودانى
نحن الكل أولاد النيل

أيها النزلاء قولوا كلمة الحق التى يوجبها الضمير الحى — وأنتم بين ظهرانينا ترون وتسمعون — هل ما وصلت إليه أمتنا من الهوان أمر يطيقه الأحرار ؟ .

أنتم ترون أن هؤلاء الغاصبين خنقونا وحرموا علينا الشكوى والأنين ، واستولوا على حقوقنا فى الحياة والحرية ، ولم يبق إلا أن يذبحونا كما يذبح الحيوان فتسيل دماؤنا .

ولكن خاب فألهم وتعس تدبيرهم الرامى إلى إبعاد مصر ووأد الكفاح فى السودان ، فسنضربهم الضربة القاضية ، ونهدم هذه الحواجز التى اصطنعوها ، فليس بعد اليوم تفرقة ، ليس بعد اليوم من يقال له هذا مصرى وهذا سودانى ، بل الجميع أبناء هذا النهر العظيم النيل . أما الإنجليز فهم الأجانب المعتدون .

ومن أفخم هذه القصائد وأسيرها ذكرا تلك القصيدة التى نظمها الأستاذ عبيد عبد النور رحمه الله . فقد لهج بها الثوار ، وغناها طلبة المدرسة

(١) أمرقوا الزمة : أمرقوا : أخرجوا ، الزمة هى الزمة : الضمير وقول الحق .
(٢) كيف انطاق : كيف يطاق .
(٣) زردوا حلوقنا : خنقونا .
(٤) ديل عاوزين : هؤلاء يريدون .
(٥) مافيش تانى : ليس هنا بعد ذلك .

الحربية فى تظاهرهم وغنوها فى مجنهم ، ومايزال بعض الناس يحفظونها إلى يومنا هذا .

وهذه شذرات منها :

أصل(١) موتاً فوق الرقاب(٢)   كان رصاصاً وكان(٣) حراب
البدور(٤) من اللّى الثواب   الشيضحى(٥) ويأخذ(٦) عقاب

الموت مقدر محتوم يدرك الناس ولو كانوا فى بروج مشيدة ، تتنوع أسبابه ، وهو واقع عندما يحين الأجل،فالخوف منه عجزوجبن ولا مبرر له ، فالذى يريد أن يحظى بثواب الله للمجاهدين فليجد بنفسه ويضح فى سبيل وطنه .

يا كبار البلد الأمين   السكات(٧)دا يصح(٨) لى متين(٩)
بيّنو(١٠) لنا الراى المبين   التكلم هسّع(١١) مشين

يا رؤوس البلد الأمين وزعماءه ، قولوا لنا رأيكم الواضح الجلى ، فى هذه الأمور الخطيرة التى تجرى فى بلادكم ، أعلنوا رأيكم أيها السادة فإن الصمت فى مثل هذه الساعة الحرجة أمر مشين لايليق بأمثالكم .

---

(١) أصل موتاً : أصله موت ، حقيقته موت .
(٢) فوق الرقاب : فوق الرقاب ، موت محتوم .
(٣) وكان : وإذا كان .
(٤) البدور من اللى : الذى يريد من الله .
(٥) البضحى : ليضحى .
(٦) ويأخذ : يأخذ .
(٧) السكات دا : الصمت هذا .
(٨) يصح : يصح .
(٩) لى متين : الى متى .
(١٠) بيّنو لنا : بينوا لنا .
(١١) هسع : هذه الساعة .

وبعد أن خاطب الزعماء وبصرهم بما يجب عليهم من رفع أصواتهم ، والجهر بما ينبغى أن يجهروا به ، أخذ يفصل المآسى التى حلت بالبلد من جراء ظلم الانجليز « وتعجرفتهم » ، التى لا يصح حيالها أن يظل الزعماء صامتين كأنهم لا يرون ولا يسمعون :

مَا بْتَشُوفُوا (١) الفقرْ اللعين   والعرايا المُتْشَبْهِدلِينْ (٢)
والبِيكوا (٣) والصابرينْ   والرزايا تِرَوَّحْ (٤) امْتِينْ ؟

ألا ترون أيها السادة الزعماء هذا الفقر اللعين الذى أطبق علينا وأفسد حياتنا إفسادا ، ألا تنظرون إلى هؤلاء العراة ، الذين اختلت أمورهم وتشعثت حياتهم من وطأة المتربة ووقع الاضطهاد .

ألا ترق قلوبكم لهؤلاء الذين يبكون من سوء الحال ، ولهؤلاء الصابرين على مضض ؟ !

قولوا لنا أيها السادة متى تذهب هذه الرزايا والمحن ؟ !

مابتْشوفُوا الذلْ والهوانْ   (٥)مصرْ دمانا وُعقب امتهان(٦)
غتمونا وْحفظُوا الأمان   بالشَّبابيتْ (٧) والخيزران (٨)

أما عجبتم من هذه الأحوال ؟ !

أخذوا مالنا غنيمة باردة ومصوا دماءنا ، ولم يكفهم هذا فامتهنوا كرامتنا وداسوا على عزتنا ، فلما قلنا لا ، لا نقبل الذل والهوان ، وتظاهرنا

---

(١) ما بتشوفوا : ألا ترون .
(٢) المتبهدلين : الذين شعثت الخطوب أمورهم « المهزئين » .
(٣) البيكوا : الذين يبكون .
(٤) تروح متين : متى تذهب .
(٥) مص دمانا : مصوا دماءنا .
(٦) عقب : مرة ثانية ، عقب ذلك امتهان .
(٧) الشبابيت : العصى الغليظة « العصاليخ » .
(٨) الخيزران : العصى المتخذة من الخيزران وهو معروف .

احتجاجا ، قمعونا بالقوة الغاشمة ، وضربونا بالعصى كأننا سائمة بدعوى حفظ الأمن ! ! وهذا أعظم دليل على اخفاق سياستهم ، وهذا أبلغ رد على من تتوهم بالمقدرة الفائقة فى سياسة الشعوب .

استيدوا وسوُّوا القدرْ (١) وقالوا نحن (٢) السما والقمر
إنْتـُوا (٣) مشْ منْ نوع البشرْ (٤) والـّيقولْ (٥) يم يبلع حجرْ

استبد الانجليز وأعجبوا بأنفسهم إعجابا مفرطا، فهم يرون أنفسهم لفرط غرورهم مثل السماء والقمر فى الرفعة والإشراق ، أما نحن فلسنا فى رأيهم البشر الذين يحق لهم أن يرفضوا الذل والهوان ، الذين من حقهم أن يعبروا عن ذوات أنفسهم ، لهذا فإن من فرطت منه كلمة أو ادنى نغمة ساخطة ألقموه حجرا .

والقصيدة طويلة وما رويته منها ليس أجودها ، ولصاحبها قصة تكشف كشفا رائعا عما كانت عليه الحالة السياسية فى ذلك الحين ، وتدلنا دلالة واضحة على السبب فى قلة الشعر السياسى الفصيح فى معترك الثورة ، وذلك أن أصحابه من المؤمنين بالثورة تحت السمع والبصر من رجال المخابرات.

حدثنا كالعادة الأستاذ حسن نجيلة أنه « فى أواخر أكتوبر عام ١٩٢٤ والثورة ما تزال مندلعة ، سافر الأستاذ عبيد — صاحب الأغنية — ... فى أول بعثة تلتحق بالجامعة الأمريكية فى بيروت ، وحتى سفره كانت الأغنية مجهولة المولد . . وأخذت المخابرات تبحث وتتحرى ، فعلمت أن واضعها عبيد ... ويشاء القدر أن تقيم الجامعة فى بيروت مسابقة للخطابة بين طلابها فى حفل عام وكان من بين حضوره الدكتور محجوب ثابت ، ويخطب عبيد

---

(١) القدر : البدع ، التكبر العجيب .
(٢) نحن : نحن .
(٣) انتو : أنتم .
(٤) واليقول : الذى يقول
(٥) يم . أدنى نغمه .

وينال إحدى جوائز الخطابة ، ويهب الدكتور محجوب ثابت فيعانق عبيد إعجابا . ويروح بيننا هنا أن عبيداً تغنى بقصيدته ، وأن محجوب ثابت عانقه وقبله إعجابا ، ولا يحتمل الإنجليز كل هذا ، فيخف إلى بيروت المستر « بودال » عميد الكلية — كلية غوردون — وصموئيل عطية عميد مكتب المخابرات للتحقيق مع عبيد فى الأغنية وعناق محجوب ثابت له إعجابا وتقديرا . . . ومحجوب ثابت من كبار الساسة المصريين الثائرين على الإنجليز . ويجد الأستاذ نفسه فى تحقيق عنيف ، فينكر نسبة الأغنية إليه ، ويرد بأن الدكتور ثابت إنما أعجب بخطابته لا بالأغنية مستشهداً بمن حضر ... ولا ينقذه إلا تدخل عميد الجامعة الذى تحدث محتجا للمستر بودال لتدخله بالتحقيق فى حادث وقع فى حرم الجامعة ، وهو حادث لا ترى فيه الجامعة وجها للتحقيق ، ويعود الرجلان بعد أن محضا النصح والتوجيه للفتى[1] » .

١٢ — بعد إخفاق الثورة فلا غرابة أن يكون الشعر الفصيح قليلا نادراً ، ويمكن أن نضيف هنا إلى كلب الرقابة وسعار « المخابرات » وشدة البطش ، خيبة الأمل ومرارة الهزيمة التى ألجمت الأفواه وشلت الأقلام . ومن القليل الذى وصل إلينا شعر ينوح فى المأساة المروعة :

من ذلك قصيدة للشاعر المجاهد توفيق صالح جبريل ، فى وصف ماحل بأبطال الثورة من الضباط والزعماء المدنيين ، والقصيدة مرثاة لبشير عبد الرحمن وهو أحد الطلبة الذين ساعدتهم جمعية الاتحاد على الهروب إلى مصر للمزيد من المعرفة . يقول فيها مخاطبا توفيق أحمد البكرى :

توفيق : أين بشير ؟ قد ضحيتما ومنحتما السودان خير كفاح
هاجرتما والأمن غير ميسر بربوعنا والعلم غير متاح

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٧٧ .

لا تبتئس إن المآتم إن تقس   متأملا لشبيهة الأفراح
أفنم أخى تذكر مما ماقدمت   أيديكما للشعب من إصلاح
«هدلستن» إن زال أو «روبستن»   ولى ملينا بالحقود وقاح
ولئن هوى «هاو»[1] أيأتى بعده   ياليت شعرى خاتم الأتراح ؟ !
أعلمتما ماكان بعدكما وما   فعلت بأهلينا يد السفاح ؟
أودى بأربعة[2] صدور فى الوغى   يا ويحهم ألقوا صدور رماح
ومضوا بسر الختم بعد صفيه   رب[3] اللواء الأبيض الوضاح
للسجن للتشريد لا لجريرة   ما الذود عن أوطانهم بجناح
إن خلد التاريخ ذكر بطولة   للعاملين فما لهم من ماحى[4]

والشاعر محمد سر الختم يلوم مصر على قبولها الجلاء عن السودان ، والأحرار فيه يقارعون الإنجليز ، ويحصدونهم برصاصهم حصدا ، وتغص بهم السجون ويذوقون ألوانا من العذاب ، ويشبه ما حدث من مصر بحال والد ترك طفله مرهقا بأعباء الحياة التى لا يقوى عليها ساعده ، ويعلن فى إصرار أنهم لا يحيدون عن مذهبهم ، ولا يقلعون عن تعلقهم بمصر ، وتشبثهم بأهداب الحرية مهما يكن الأمر ، فالعيش فى الذل هو الموت بعينه ، والأخلق بالحر الكريم أن يلاقى حتفه شهيداً .

إن فى السودان عدلا ضائعاً   أخذ السجن عليه موثقا
وتجلى فيه ظلم مطبق   فاستحال الجو ليلا مطبقا
فارقتنا مصر أيتاما كما   فارق الوالد طفلا مرهقا
غادرتنا والنوى ترمى بنا   مغربا طورا وطورا مشرقا

---

(١) كل من هؤلاء الثلاثة كان حاكما عاما على السودان .

(٢) الأربعة هم الضباط الذين قتلوا فى ملحمة ١٩٢٤ وقد مر ذكرهم .

(٣) رب اللواء الأبيض : البطل على عبد اللطيف .

(٤) الشعراء والناوون للشاعر منير صالح .

غادرتنا والظبا آكلـــة   فيلق «الأسكتش» يتلو فيلقا
غادرتنا ولوانا خافـــق   فى بناء السجن بدرا مشرقا
نحن لا نرضخ للذل ولا   نرتضى الهون علينا محدقا
نحن لانرضى بمصر بدلا   ولئن نصلى لهيبا محرقا

* * *

إنما المرء فؤاد وحجى   وضمـــير وحياء وتقى
أفترضى الأرض من بعد السما   انتكاسا بعد بعد المرتقى ؟!

* * *

وأعاف الجبن منى خلقـــا   وأرى موتى منه أخلقـــا(١)

١٣ — بعد القصيدة التى نظمها الشيخ يحيى السلاوى إبان العهد التركى مناصراً بها ثورة عرابى ، وقد رأينا كيف دوّت فى أرجاء مصر ، وكتبت بماء الذهب إعجابا بها وتكريما لها ، بعد تلك القصيدة انقطع الشعراء السودانيون عن مشاركة العالم العربى ، لأن المهدية حصرتهم داخل حدود السودان ، وأحاطتهم بسور منيع ، وفى عهد الخليفة عبد الله كادوا يكفون عن نظم الشعر الفصيح كما رأينا ، ثم جاءت فترة التيه التى ظلوا فيها صامتين ، لا ينظمون إلا فى مدح النبى (ص) أو فى أمور ليس لها خطر(٢).

أما فى هذه الفترة فقد بدأ الشعراء يصلون ما انقطع فى مشاركة إخوانهم العرب والمسلمين ، وقد رأينا شيئاً مما قيل فى مصر والمصريين ، وبين يدى الآن قصيدة طويلة للشاعر محمد سعيد العباسى سماها «الطرابلسية» أشاد فيها بانتصار الليبين على الطليان مع قلة عددهم وعددهم ، وسخر فيها بالطليان وأشبعهم تهكما وزراية . جاء فيها :

---

(١) الشعراء والناقدون — للشاعر منير صالح عبد القادر .
(٢) شعراء السودان ص ٥١ ، ٥٢ ، ٦١ .

خذوها بنى الطليان بكرا فإنها   لعمركم فى بابها الفتكة البكر
ألا أن حزب الله قد قدم القرى   لديكم فإن شئتم فمن مثله فاقروا
كأنكم عن حالهم فى جهالة   تموج بكم أو مد آذانكم وقر
فقد فلقوا بالمشرفية هامكم   وحلى بعقد الموت نحركم النحر
وأجلوكم عن ساحة الحرب غدوة   بطعن دراك ضاق من هوله الصدر
وكم قبلكم سادوا الورى بوقائع   أبيد بها من قبل عسكركم مجر
وقائع قد زانت صحائف ذكرهم   كما زان جيد الكاعب العاطل الشذر
وقد حقق الله المنى فأبادكم   فهاجت بكم ريح وماج بكم بحر
وإن تجهلوا ما كان من سوء حالكم   تعالوا فعندى عن مصابكم خبر
هو المركب الصعب الذى تركبونه   وإن شئتم فهو التعسف والجور
وكم ساقكم نحو المهاوى اغتراركم   وكم قبلكم ذاق الندامة مغتر
خطبتم لعمر الحق من لستم لها   بكفء ، ولم يوجد لها عندكم مهر

إلى أن قال مهنئاً الليبيين بانتصارهم :

هنيئاً لكم إذ كنتم ذادة الحمى   ودام لكم فى كل صالحة ذكر
ولا برحت فى العود جذوة ناره   ولازال يغدو فى صفوفكم النصر(١)

واهتمامهم بأمر المسلمين من غير العرب يمثله تعلقهم بتركيا أيام كانت الخلافة فيها . فالسودانيون على وجه العموم كانوا ينظرون إلى الأتراك نظرة إكبار ، وقد رأينا حين كنت أتحدث عن الحالة الفكرية فى عهد الفونج أن الشيخ إدريس ود الأرباب أفتى فى مسألة فقهية استناداً على أمر من أوامر سلطان تركيا ، وقد رفض فريق من السودانيين الدخول فى أمر المهدية محتجين بأنها خروج على السلطان وطاعة السلطان مما يوجبه

---

(١) ديوان البناسى ص ١٠٧ — ١٠٩ .

الدين ، وكانت الرسائل التى ألفها العلماء فى محاربة المهدى تجعل من أدلتها أو أعلى أدلتها وجوب طاعة السلطان ، وأن الخروج عليه خروج من الدين ، ولا ينقض هذا ما جاء فى سفر الولاء الذى رأينا نموذجا منه ، من سب الأتراك وإعلان البراءة منهم ، فقد كان الزعماء محولين على ذلك حلا ليهدأ الشعب ، ولا تحمله العاطفة الدينية فيهب مساندا تركيا فى محاربة الإنجليز .

وهنا شعر قليل يدل على أن هذه العلاقة ما تزال حية نابضة فى ذلك الحين ، من هذا الشعر لون لا نستسيغه اليوم ، ولكنه كان عندهم مقبولا ، وربما اعتبروه ضربا من البراعة وإظهار المقدرة فى مجاراة الفحول من الشعراء ، أعنى بهذا الشعر الذى قوامه التشطير والتخميس ، فقد تباروا فى تشطير بيتين لشوقى احتفاء بالطائرة « أدرميد » التى زارت مصر عام ١٩١٤ م يقودها للمرة الأولى فى تاريخ المسلمين شابان من الترك . فقد كان لهذا الحدث دوى فى مصر انتقل أثره إلى السودان[١] .

وبيتا شوقى هما :

يا أدرميد ألا طيرى مبلغة   رسائل الشوق من عمرو إلى عمر
إلى الذى خفقت فى الأرض رايته   واليوم تخفق فوق الشمس والقمر

يقول الشيخ محمد عمر البنا صاحب :

الحرب صبر واللقاء ثبات   والموت فى شأن الإله حياة

فى تشطيرهما :

« يا أدرميد ألا طيرى مبلغة »   خليفة الله عنا أصدق الخبر
وبلغيه عن الإسلام قاطبة   « رسائل الشوق من عمرو إلى عمر »

---

(١) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٣ .

« إلى الذي خفقت فى الأرض رايته » وعززتها سيوف الله بالظفر
مدت على الأرض ظلا لا نفاد له « واليوم تخفق فوق الشمس والقمر(١)

ويقول الشاعر أحمد محمد صالح :

« يا أدرميد ألا طيرى مبلغة » خليفة الله عنّا أصدق الخبر
حييت سابحة فى الجو حاملة « رسائل الشوق من عمرو إلى عمر »
« إلى الذي خفقت فى الأرض رايته » وهابها الخلق من بدو ومن حضر
أعلامه خفقت فى المشرقين معاً « واليوم تخفق فوق الشمس والقمر(٢) »

ويقول الشيخ حسن عثمان بدرى :

« يا أدرميد ألا طيرى مبلغة » روح ابن فرناس ماأوتيت من ظفر
ورفرفى فوق نجم السعد حاملة « رسائل الشوق من عمرو إلى عمر »
« إلى الذي خفقت فى الأرض رايته » يحفها النصر من بدو ومن حضر
تاقت إلى القبة الزرقاء فارتفعت « واليوم تخفق فوق الشمس والقمر (٣)

وللشاعر عثمان هاشم قصيدة مدح بها القائد التركى مصطفى كمال أتاتورك قبل عزل الخليفة ، أشاد فيها بجهاده ، وجعل منه منافحا عن الدين مدافعا عن حوزته ، وتمنى أنه كان جنديا فى جيش هذا القائد المظفر :

ضربت بسيف الحق فاندك باطل وجئت بما لم تستطعه الأوائل
ودافعت عن دين النبيّ محمد ولم تثن منك العزم تلك القنابل
غضبت لدين الله لما رأيته تمدّ له من كل حدب غوائل
ولما رأيت الملك لانت قناته بغمز عدو راح يغويه جاهل
جزعت وغادرت البلاد تألما إلى حيث يحمى الدين سيف وصاهل

• • •

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها
(٢) ملامح من المجتمع السودانى ص ١٥ .
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

ولما استتب الأمن عندك داخلا | تقدمت نحو الأجنبي تنازل
أحاط بك الأعداء حتى كأنهم | خضم عظيم لم يبن منه ساحل
فجيش من الأروام قد هب ناقما | وآخر في «أزمير» للفتح داخل
فما هي الا جولة بعد جولة | هنالك حتى أبدتك المناصل
لقد عرف الغرب المدل بنفسه | بأن ركوب الصعب للترك ساهل

. . .

فيا بطل الإسلام منى تحية | إذا لم تشرفنى بلثم أنامل
هنيئا لك النصر المبين وليقنى | بجيشك جندى تطوع باسل[1]

وقد اتسع احساس هذا الشاعر ورق ، فتألم لما أصاب العالم من كوارث الحرب العالمية الأولى وويلاتها ، فوصف ماخلفت وراءها من دمار وثكل وتأيم ، وصفا حارا يقطر أسى وألما ، وسخط على العلم الذى صيرته المطامع والضغائن سلاحا للفتك والتخريب ، فهو ليس علما ينفع ويشفع ، ولكنه جهل منظم ، وهو شر من الجهل الذى تسوده الفوضى .

قال مخاطبا هلال المحرم .

ونحسن فيك الفأل فاصدق ولا تكن | كتلك السنين اللات طل بها الدم
سنين مضت والشر يحصد أهلها | فبادوا كما بادت ثمود وجرهم
سنين مضت لم تبق غير تنهد | وحزن به الأكباد تكوى وتكلم
فكم هتكت فيها ستور وهدمت | قصور وهيضت بين ذلك أيم
ولم يبق إلا عاجز عن معيشة | وطفل صغير السن ماكاد يفطم
جرى الدم فيها ما جرى متحدراً | وحلل فى أيامهن المحرم
وقد قام للأرواح سوق خسارة | لأمر فدقت عطرها فيه منشم

---

(١) شعراء السودان ص ٢٢٩

فراحوا إلى الموت الزؤام يقودهم … إلى الشرغيظ فى القلوب مكتم
سلام على عهد السلام فقد مضى … وخاف حربا نارها تتضرم
وأصبح علم القوم جهلا منظما … وآفة هذا الكون جهل منظم
فوا رحمتا للناس أصبح بعضهم … لبعض عدوا يستعد ويهجم
مشوا تحت ظل العلم فى الجهل مشية … يشيب لمرآها الوليد ويهرم
أهذا مآل العلم يقتاد أهله … إلى مثل هذا ، ليتهم ماتعلموا
فرحماك ربى إن فى الأرض معشرا … طغوا وبغوا ظلما وأنت المحكم
فإن شئت عذبهم وإن شئت غيره … فأنت بما فى أنفس القوم أعلم[1]



(١) شعراء السودان ٢٢٩

تعرض لدراسة الشعر السودانى طائفة من الباحثين، وهم وإن كانوا قد تناولوا أغراضه كلها ولم يقفوا عند غرض واحد كما صنعت، فإن الخصائص الفنية أو معظمها مشتركة بين موضوعاته المختلفة. فمن الخير أن أنظر إلى ماضلوا أولا، وأبين ما أوافقهم عليه وما أخالفهم فيه، لتبرز خصائص هذا الشعر فى وضوح، ولأنبه إلى بعض أحكام أراها مجانبة للصواب.

ولا أحب هنا ان أتعرض لما كتبه الأمين على مدنى، ولما كتبه حمزة الملك طمبل، لأن ما كتباه غال فى مذهبيته، ويمكن رفضه كله لأنه لم يعط ظروف الشعراء فى زمانهم ومكانهم أدنى اهتمام، ولأن الدكتور محمد ابراهيم الشوش قد تناول هذا النقد بما فيه الكفاية(١)، وتمنيت أن لو كان كتابه كله على هذا النمط.

وأبدأ بالدكتور عبد المجيد عابدين وهو كما أسلفت رائد فى دراسة الأدب السودانى، مهد الطريق للدارسين فنهج نهجه كثير منهم، وقد تميزت دراسته بالاتزان وتحرى الصواب والاحتياط عندما يصدر حكما، وما استهل به حديثه عن هذه الفترة يدلك على ذلك، وهذا طرف منه.

« أما الشعر فى هذا العصر الحديث فكثير فى السودان كثرة ملحوظة؛ وشعراء هذا الاتجاه قد يخطئهم العد لكثرتهم، ولكن أكثرهم لم يطبعوا دواوينهم ... وإذا أراد الباحث أن يدرس شعرهم دراسة منهجية، فليس من الصواب أن يحكم على الشاعر بقصيدتين أو ثلاث مما نشره على صفحات

---

(١) الشعر الحديث فى السودان ص١٣٩—١٦٢

الصحف، أو في مجاميع المختارات... ولذلك سيكون أغلب حكمنا واستشهادنا في البحث مستمداً من دواوين الشعر السوداني التقليدي، وأهمها في نظرنا ثلاثة: ديوان العباسي للشاعر محمـد سعيد العباسي، وديوان البنـا للشاعر عبد الله محمد عمر البنا، وديوان الفجر الصـادق للشاعر عبد الله عبد الرحمن[1]».

واضح جداً من هذا الكلام المنصف أن الأستاذ يتورع من إطلاق أحكام ليس لها سند قوي من النصوص وليست لها دعامة من وفرتهـا، وواضح أيضاً أن الباحث يسلك الشعراء الثلاثة في سلك المدرسة التقليدية، وعندي أن هـــذا المصطلح يحتاج إلى تحديد دقيق، لأن بعض الكتاب لا يتفقون به عند معنى محدد واضح المعالم. فهم تارة عندما يقولون هـذا الشاعر تقليدي يقصدون بذلك أنه ينهج نهج القدماء ويسير على سنتهم، يلزم عمود الشعر فلا يحيد عنه يمنة أو يسرة، ومع ذلك له أسلوبه الخاص الذي يميزه عن المعاصرين له والغابرين، وله موضوعاته التي يؤثرها، مثلاً الفرزدق وجرير والأخطل والراعي وذو الرمة كلهم لزموا عمود الشعر الجاهلي ومع ذلك لكل واحد منهم أسلوبه الخاص وموضوعاته التي تستهويه[2]. وتراهم تارة أخرى يستعملون هذا المصطلح في معنى آخر، هو أن الشاعر مقلد[3] وليس له لون ولا طعم خاص، فهو عالة على غيره من الشعراء في أخيلته وصوره وأفكاره الشعرية، هو تكرار لأسلافه أو معاصريه وليس لديه إضافة، وبهذا المعنى جاءت أحكام الدكتور النويهي والدكتور الشوش على بعض شعراء هذه

---

(١) تاريخ الثقافة العربية في السودان ص٢٠٧

(٢) انظر مثلا كتاب الدكتور شوقي ضيف — التطور والتجديد في الشعر الأموي طبعة دار المعارف بمصر ص ٢٠٣ — ٢١٨

(٣) الثقافة العربية في السودان ص ٢٠٧ ص١٩

الفترة كما سنرى ، وكما رأينا حين ناقشت رأى الدكتور محمد النويهى فى أبيات من قصيدة العباسى « سنار بين القديم والحديث » . وقد استعمل الدكتور عبد المجيد عابدين هذا المصطلح فيما يقابل الشعر الصوفى والشعر الشعبى والشعر التجديدى[1] .

وعندى أن هذا الخلط لا يصح ، ولا يعين على المضى فى دراسة علمية من همها أن توضح المعالم وتقيم الحدود وترسم السمات ، ولهذا ينبغى أن نقصر المصطلح « تقليدى » على المعنى الأول ، ونخص الناظم الذى لا يمتح من نفسه بالكلمة « مقـــلد » فتقليدى تعنى الشاعر الذى يسير على النهج المألوف وله سماته التى تميزه ، والمقلد هو الذى ليست له شارة تفرده وعلامة تخصصه ، هو الشاعر العروضى الذى لا يعطينا سوى الوزن والقافية ، وكل ما بقى من عناصر الشعر فلغيره .

وهنالك مسألة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، هى مسألة التأثر ، فالتأثر شىء آخر غير التقليد ، والشعراء منذ كانوا يؤثر بعضهم فى بعض ، ومعظم الدارسين — إن لم يكونوا جميعا — يعترف بهذه الحقيقة ، وإلا فما معنى البحث عن الأدباء الذى تأثر بهم الأديب ، والكشف عن الينابيع التى استقى منها أدبه ؟ ! . وما معنى تقسيم الأدباء إلى مدارس لكل مدرسة خصائصها وميزاتها وأستاذها ، لو كان كل أديب قائما بذاته منفردا بسماته؟! لذلك فالنقد على طريقة القدماء التى تعتمد فى كثير من جوانبها على بيان السرقات عمل لا قيمة له ، وقد كان الدكتور محمد النويهى عام ١٩٥٤ م ينفى أصالة شعراء المدرسة التقليدية فى السودان وسنده ما فى شعرهم من السرقات ، ومازال فى كتابه « الاتجاهات الشعرية فى السودان » عام ١٩٥٧

---

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٢ س ٤ .

يسلب أصالتهم ولا سند له إلا مايخيل إليه فى شعرهم من السرقات ، وقد كان ردى عليه ، أن هذه الطريقة ليست بجديدة، وليس من شأنها أن تفضى بنا إلى حق وهذا نموذج مما كتبت :

« . . . وقد ورد فى حديث الدكتور النويهى ذكر أبى تمام والبحترى والمتنبى ، باعتبارهم قبلة يؤمها فريق من الشعراء السودانيين ويأخذون معانيهم . . . ويرى أن هذا دليل على خلو أنفسهم عن الأصالة وتجرد أدبهم من آثار قوميتهم . . . » .

« . . . وأحب أن يذكر القارئ المعارك الأدبية التى قامت حول هؤلاء الشعراء الفحول ، فقد اتهم أبو تمام بأنه يسرق معانى القدماء، واتهم البحترى بأنه يسرق معانى القدماء ومعانى أبى تمام ، وقد امتد سيل الجدل واللجاجة بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى ، حتى أصبح شغل الأدباء الشاغل . وكان نقدهم كله إذا استثنينا الحديث عن براعة الاستهلال وحسن التخلص وجمال المقاطع وإصابة التشبيه والاستعارة ، والتزام عمود الشعر أو كسره ، وتعمد البديع وارتكاب متن الشطط فى استعماله ، والتفلسف فى الشعر وتوليد المعانى ، إذا استثنينا هذا كله كان حديثهم كله منصبا على السرقات وأنواعها ، ومايحسن منها ومالا يحسن ، وقد وصل الاهتمام بها حدا جعـــل الآمدى يرى البحث عن السرقات ركنا ركينا فى الموازنة فشغلت قصة السرقات جزءا كبيرا من كتابه الموازنة . وخصوم المتنبى لايكادون يتركون له بيتا ولا معنى ، بل ردوا معظم شعره إلى القدماء وإلى أبى تمام على وجه الخصوص ، وحتى أصدقاؤه وأمثال ابن جنى قد شحنت شروحهم على ديوانه ، بمثل هذا مأخوذ من قول فلان ، وهذا قد نظر فيه إلى قول فلان . . . »

ومع ذلك كله فنحن نؤمن بأصالة أبي تمام والبحترى والمتنبي ونعترف بوضوح شخصياتهم في شعرهم ، والدكتور النويهي يؤمن بذلك ، بدليل أنه أورد أسماءهم في كلامه باعتبارهم أصحاب طرائق متميزة ، ومناهج واضحة ، يقتدى بهم فيها فريق من شعراء السودان[1] . . .

بعد هذا التمهيد الذي لا بد منه ننظر لنرى ماذا فعل الباحثون بهذا الشعر :

أما الدكتور عبد المجيد عابدين فقد أثبت للشعراء الذين عمد إلى دراستهم طابعهم الخاص وأسلوبهم الدال عليهم .

فالعباسي في نظره أجملهم أسلوبا ، فأسلوبه هو أسلوب الطبع والبداوة ، لا تصدم القارئ فيه كلمة نابية ، ولا يحس بشيء من عناء الصياغة ، بل يحس أنه يستمع إلى أسلوب مطبوع يقتدر على القوافي وتريك في أوائل الأبيات أواخرها وفي فواتحها قوافيها ، ومن خصائصه الولوع بالتثنية حتى الندميين سمت بالمصاميين ، لقيته أمس في طمرين ، وهي عادة بدوية . والعباسي لا يحفل بالجناس لأن أسلوبه مطبوع ، وهو يؤثر البحور المنبسطة ، وهو كالشاعر القديم مولع بترديد أسماء الأعلام والأماكن ، ومن خصائصه تصوير الهيئة والحالة تصويرا مستوعباً للمعاني التي يتركب منها الموصوف[2] .

وأسلوب البنا يلي أسلوب العباسي في الجودة وقوة الأسر ، فهو أسلوب حضري مصنوع ، وقد تسربت فيه آثار الحضارة والكتابة والتعليم ، ففتت من تماسك العبارة ، وآثرت الألفاظ المألوفة والعبارات الجارية المعروفة ، وهو يستعيض عن الفخامة البدوية بمحسنات أخرى أهمها التكرار الذي شغف به

---

(١) محاولات في النقد ص ١٣٢ — ١٣٣ .
(٢) تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٢١٨ — ٢٢٢ .

وأكثر منه ، والتكرار بمظاهره المختلفة مع محاولة الوصل بين شطرى البيت قدر المستطاع قد جعل أسلوب البنا يتدفق فى تتابع وسرعة فيكسبه ذلك حيوية ونشاطا ، وتظهر فى أسلوب هذا الشاعر محاولة فى صوغ بعض العلوم والمصطلحات والدراسات التاريخية ، ومادة الخيال عنده حضرية غالبا أو مزيج من الحضرية والبدوية ، وتشبيهاته مرسلة ، والبلاغيون يفضلون عادة التشبيه المؤكد على التشبيه المرسل(١) وفى شعره تجارب ذاتية ولكن ليست لها وحدة . (٢) .

وأسلوب عبد الله عبد الرحمن دون أسلوب البنا ، فهو لم يبلغ من الحماسة والتدفق الدرجة العظيمة التى بلغها أسلوب العباسى أو الدرجة التى دونها فى أسلوب البنا ، فقلما يمزج عبد الله عبد الرحمن معانيه بعواطف قوية صارخة ، فالتجارب الشخصية المفصلة قليلة بل قليلة جدا فى شعره ، وهو أكثر تأثرا بأسلوب القرآن من العباسى والبنا(٣) ، وهو شاعر وعظ وإرشاد ، ولا يصور الجوانب غير المشرقة من مجتمعه ، ومثل ذلك نجده عند العباسى ، غير أن العباسى أكثر عناية بالجانب الفنى فى الشعر ، ولذلك قلت فى شعره آثار الوعظ والإرشاد ، وإذا وعظ وأرشد مزج ذلك بتجاربه النفسية ، فالشاعر عبد الله عبد الرحمن يخبر والعباسى يصور (٤) .

والعباسى والبنا جريا على عادة الشعراء فى معارضة القصائد وتشطيرها، وفى المقدمة للقصيدة ، ونجد البنا أقل من العباسى حرصا على هذه الطريقة

---

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٢٢٢ — ٢٢٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٥) يعنى الشعراء المتأخرين .

البدوية القديمة ، وعبد الله عبد الرحمن يعلن أنه غير راض عن هذه الطريقة، ولكن البنا وعبد الله عبد الرحمن ليسا مجددين بهذا ، وذلك لأن كثيرا من الشعر القديم جاء خلوا من هذه المقدمات[١] .

والقصة كلها قصة أسلوبين حضرى وبدوى، وقد اختار العباسى البدوى وهو لا يعيبه لأنه يعبر عن واقع حياته وطبيعة بيئته(٢) .

فأنت تستطيع أن توافق الكاتب أو تخالفه ، وتسخط مما كتب أو ترضى ، ولكنك فى كلا حاليك تحس إحساسا قويا بأنه لا يرسل القول إرسالا ، ولم يقبل على دراسة وفى نفسه نية مبيتة ، وفكرة سابقة تفسد عليه أحكامه ، بل استنطق شعر الشعراء ثم رسم أساليبهم على هدى ما تجلى له من سمات شعرهم .

ولا أحب أن أغادره قبل أن أسجل رأيه فى مسألة كثر فيها خلاف النقاد ، هى مسألة الوحدة فى شعر هؤلاء الشعراء ، وهذا هو رأيه :

« . . . أضف إلى ذلك أن شعر هؤلاء على تفاوت فيما بينهم ، يجعل وحدة القصيدة الشطر أو البيت أو عددا قليلا من الأبيات ، ولكن قلما نجد قصيدة لها فى ذاتها وحدة قوية متماسكة تربط بين أجزائها وتطبعها بطابع واحد[١] ولعل العباسى مع ترتيب أغراضه على الطريقة البدوية أكثر شعورا بهذه الوحدة .. أما البنا فلديه بعض أراجيز يقص فيها قصصا كل أرجوزة منها وحدة قائمة بذاتها ، ولكن هذه الأقاصيص وأمثالها قليلة فى شعره وأكثر قصائده تقوم الوحدة فى كل منها على البيت الواحد أو البيتين . . فإذا انتقلنا إلى ديوان الفجر الصادق نرى الوحدة فى القصيدة تزداد ضيقا

---

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٢٩٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٤

(٣) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٢١٤

حتى تصل أحيانا إلى الشطر الواحد (١) » .

ولى هنا ملاحظتان :

أولاهما هي أن الدكتور عبد المجيد لم يحدد الفارق بين الشعر التقليدى والشعر التجديدى تحديدا دقيقاً ، فهو تارة يجعل مناط الفرق هو وحدة القصيدة (٢) . وتارة أخرى يجعله موضوعها ، وذلك حين يقول « . . . لم يكن الشاعر المجدد مجددا فى كل ما أنتجه من أدب ، فقد تجده كذلك حين يعبر عن عاطفة أو يصف مشهدا من مشاهد الطبيعة ، ثم ينقلب مقلدا حين يرثى أو يمدح أو ينظم شعرا من شعر المناسبات (٣) » والرأى عندى أن الموضوع لا يبلى ، فتكون هنالك موضوعات معينة للشعر التقليدى وأخرى للشعر التجديدى ولكن الفارق يتجلى فى طريقة التناول والتصوير ، وإن كان أصحاب الشعر الحديث لا يميلون إلى النظم فى المديح والرثاء .

ثانيتهما هي أن التكرار لم يكن ميزة لأسلوب البنا وحده ، ولا أستطيع أن أقول إنه ميزة للشعر السودانى وحده ، فهو كثير شائع فى الشعر العربى القديم والحديث ، وأورد هنا مايدل دلالة واضحة على أن أسلوب البنا لم ينفرد بالتكرار .

يقول توفيق أحمد :

أم أرى فينا كريما مؤثرا فى سبيل الخير يولى الذهبا
أم أرى فينا شجاعا مقدما لايبالى فى المعالى العطبا

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٤ — ٢١٧

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٤

(٣) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٢٤٠

أم أرى كتابنا في ضجة يفسجون القول وشيا قشبا
أم أرى للعلم نورا زاهيا تجمل العليا عليه السببا[1]

ويقول الشاعر عبدالله حسن الكردى :

لهفى على دور هوى بنيانها بالأمس فيه لساكنيه حلول
لهفى على تلك العروش فإنها طاحت وأقوى ربعها المحلول
لهفى على مال غريق ربه متجلد وفؤاده متبول[2]

ويقول الشاعر محمود أنيس :

حي الشبيبة وابدأ منهم الهمما حي المكارم حي المجد والشمما
حي الفضيلة فيهم والمروءة وال نفس الأبية حي الطرس والقلما
حي الأناة وحي عزمة طفقت تريك أن المعالى طوع من عزما
حي العلوم فهم أبناء بجدتها حي المعارف من آبائهم قدما[3]

ويقول الشاعر مدثر البوشى :

حييت يا ليلة الميلاد مشرقة على الربوع بوجه ساطع الزين
حييت يا ليلة الميلاد جالبة للبشر مذهبة للهم والحزن
حييت يا ليلة الميلاد خافقة ال بنود فيك سرور العين والأذن
حييت يا ليلة الميلاد إن لنا فخراً بتجديد ذكرى خير مؤتمن[4]

ويقول الشاعر عبد الرحمن شوقى :

أعيذ الفتى ينسى من الهم نفسه وأن يركب الذل الوخيم المذمما

---

(١) شعراء السودان ص ١٠٣ — ١٠٤ .
(٢) شعراء السودان ص ١٨٢ وانظر الى الشاعر نفسه في ص ١٨٣ و ١٨٨ منه .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٢٨ وانظر الى الشاعر نفسه في ص ٣٣٠ منه .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٣٦ وانظر الى الشاعر نفسه في ص ٣٤٠ منه .

أعيذ الفتى يرضى الهوان لنفسه ... وكيف يسيغ الحر صابا وعلقما ؟!
أعيذ الفتى أن يشترى المجد بالأذى ... وأن يرتقى بالذل للعز سلما
أعيذ الفتى أن يستبد برأيه ... إذا الليل أدجى بالخطوب وأظلما
أعيذ الفتى الا يوقر غـــيره ... وإن كان مسكينا فقيرا ومعدما
أعيذ الفتى إن جار دهر على أمرئ ... يكن غارة حربا عليه ولهذما
أعيذ الفتى إن فرق الدهر بينه ... وبين أخيه أن يعيش منعما

ولقائل أن يقول ليس فى هذا الشعر رد على الدكتور عبد المجيد عابدين ، وذلك لأنه أعلن خطته من أول الأمر ، وحصر دراسته فى شعر البنا والعباسى وعبد الله عبد الرحمن ، وهو يرى أن البنا أشدهم ولوعا بهذا اللون من التعبير .

وردى على هذا الاعتراض المتوقع أنى أردت أن أضع المسألة فى إطار أوسع وأنى أوافق الدكتور عبد المجيد على أن البنا أكثر ميلا إلى التكرار من العباسى ، أما عبد الله عبد الرحمن فهو مغرم بالتكرار ، وليس إلحاحه عليه أقل من إلحاح البنا ، وله غير القصائد والمقطوعات التى أشار[1] إليها الدكتور عبد المجيد مقطوعة أخرى كرر فيها « رب[2] » تسع مرات ، وفى أثناء قصائده يكثر من التكرار .

وهذه أمثلة :

هل من حيا يهمى فوق ربوعه ... أم برقه كالأمس برق خلب
هل من هدى علم بريش جناحه ... ويرد ساعده قويا يضرب
هل من أديب شاعر بهمومه ... حر بغير الحق لا يتمذهب[3]

---

(١) الثقافة العربية فى السودان ص ٢١٦ — ٢١٧ .
(٢) الفجر الصادق ص ٩٨ .
(٣) الفجر الصادق ص ١١ .

وقولـــه :

لا ألفينكم تقول كبـاركم أزرى بنا هذا الزمان المتعب
لا ألفينكم تقـول سراتكم تأبى مكانتنا ويأبى المنصب
لا ألفينكم يرد شبابكم : هى صبية بالنار قامت تلعب[1]

وقولـــه :

أنبخل بالحطام ونحن عرب نمتنا للمكـــارم أولونا؟
أنبخل بالحطـام ورب مـال قصـــاراه يؤول لآخرينا؟
أنبخل بالحطـــام ورب قوم بصفو حيـــاتهم يتبرعونا؟
أنبخل بالحطـــام على بلاد بحبل ودادهـــا متمسكونا؟
أنبخل بالحـــطام ومن بنيها رجال إن عثرنا ينعشونا(٢)؟

وهكذا يكثر من التكرار (٣) .

ويلى الدكتور عبد المجيد عابدين فى الترتيب الزمنى الأستاذ عبده بدوى فقد أخرج كتابه « الشعر الحديث فى السودان » عام ١٩٥٣ م .

والناظر فى هذا الكتاب يرى أن المؤلف يوافق الدكتور عبد المجيد عابدين فى معظم أحكامه وقد قسا على الشعراء ، قسا عليهم قسوة شديدة فى أحكامه التى انفرد بها ، فهؤلاء الشعراء فى نظره لم يأتوا بجديد فى المعانى فهم يضمنون أشعارهم شطرات من شعراء آخرين بل يستوحون جو القصيدة كلها ، وأتى للبرهان على دعواه بثلاثة أمثلة ، هى كل ما حوته مختارات سعد ميخائيل « شعراء السودان » وليست — فيما أعلم — أمثلة أخرى للتضمين . ومما لا شك فيه أن هذه الأمثلة القليلة — لو سلمنا أن التضمين

(١) المصدر نفسه ص ١٣
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣
(٣) أرجو أن ينظر القارىء إلى الصفحات ٢٧ ، ٣٢ ، ٦٦ ، ٩٧ من الفجر الصادق :

معيب — لا تصلح مصدرا لهذا الحكم العريض ، وهؤلاء الشعراء فى رأيه ليست لهم تجربة ذاتيه ولا فلسفة تحرك عواطفهم « فليست هناك تجربة تهز أعماق الشعراء ولا فلسفة واضحة تجعل لمواطفهم كيانا ذكيا ، وإنما هو التقليد للتراث القديم من الشعر فى إطار الدين (١) » .

فى هذا القول غموض وفيه ظلم شديد ، أما الغموض ففى قوله « ولا فلسفة واضحة تجعل لعواطفهم كيانا ذكيا » ماذا يريد أن يقول ؟ ! وماذا يعنى بهذا الكيان الذكى الذى يكون للعواطف ؟ . لقد درج الناس على أن يصفوا الأفكار ، أما العواطف فإنهم يصفونها بالحرارة والعمق وما شاكل ذلك(٢) ، أما الظلم ففى هذا الحكم المسرف ، فشعر هؤلاء الشعراء ليس محصورا فى إطار الدين وحده ، فقد رأى القارئ فيما أوردت من أمثلة أنهم يدعون إلى التعليم ، وإلى وحدة الصف ، وإلى شدة الارتباط بمصر ، وإلى الاهتمام بشأن بلادهم وإلى مناهضة الانجليز ... الخ . والإطار الدينى ـ على غموضه ـ لقد كان هدفه سياسيا كما رأينا وكما سنرى ، أما أنهم ليست لهم تجربة تهز أعماقهم فتلك مسألة يختلف فيها الناس ، وقد رأى القارئ رأى الدكتور عبد المجيد عابدين فى هذا الأمر .

والتكرار الذى رأى الدكتور عبد المجيد عابدين أنه أكسب أسلوب الشاعر البنا حيوية ونشاطا وجعله يتدفق ، يرى فيه الأستاذ عبده بدوى رأيا آخر ، « وقد يعمدون إلى تكرار الألفاظ فتصبح القصيدة شيئا مهملا (٣) » ! وأنا لا أدرى كيف يصير التكرار القصيدة شيئا مهملا . والتكرار نفسه مغالطة من

---

(١) الشعر الحديث فى السودان — عبده بدوى ص٤٠٢ — ٤٠٣ .

(٢) انظر أى كتاب من كتب علم النفس تجد أن العواطف دوافع وأن الذكاء من قسم الإدراك .

(٣) الشعر الحديث فى السودان ـ عبده بدوى ـ ص ٤٠٦ .

الشاعر الذى لا يتوفر لديه الخصب والتدفق(١) ، وهذا أيضا لا أفهمه ولا أدرى كيف يكون فى التكرار مغالطة، ولو قال حيلة من الشاعر . . الخ لـكان أدنى إلى أن يفهم ، وسأقول رأيى فى التكرار بعد حين .

وقبل أن أغادر الأستاذ عبده بدوى أحب أن أنظر فى هذا العمل الذى سماه أشهر شعراء الفترة ، وكان أشهر شعراء هذه الفترة فى رأيه الشعراء محمد سعيد العباسى وعبد الله محمد عمر البنا وعثمان هاشم(٢) .

وعندى أن هذا عمل لا جدوى فيه ، ولا سبيل إليه ، ولا أظن الزميل عبده بدوى يملك مقياسا لشهرة الشعراء فى السودان ، فقد انحصرت مدة إقامته فى السودان فى العاصمة ، وحتى لو فرضنا أنه طاف بالأقاليم فإنه لم يجر استفتاء عن أشهر الشعراء يوقفه على مدى شهرتهم ، فالمسألة ضرب من التحكم ، والدليل على ذلك أن الشاعر عثمان هاشم مع احترامى له من أجل فنه — لا للشهرة المدعاة — ليس أشهر من الشيخ عبد الله عبد الرحمن رحمه الله ، وليس أشهر من الشاعر أحمد محمد صالح مد الله فى عمره ، بل هو ليس مشهورا إطلاقا ، والذى لم يقـــرأ « شعراء السودان » لا يكاد يعرف عنه شيئا .

وبجانب ذلك فإن فكرة أشهر الشعراء لا تدل على شيء، فأشهر الشعراء لا تدل على أشعر شاعر ، فللشهرة وسائل كثيرة غير جودة الفن ، وقد لا تكون كلها مما يقبله جميع الأدباء ، وقد لا تكون كلها مما يتيسر لجميع الأدباء ، ومما يدلك على ذلك أن شاعرنا العظيم ابن الرومى لم يشتهر فى زمانه كما اشتهر البحترى ، وظل مغمورا أو شبه مغمور طوال الحقب التى تفصلنا عنه ، ولم يشتهر أمره وتتجلى خصائصه الرائعة ، إلا على أيدى نفر صالح من أساتذتنا المعاصرين العقاد والمازنى وكامل كيلانى .

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٦٢ — ٤٦٥ .

ويأتى بعد عبده بدوى الدكتور محمد النويهى الذى أخرج كتابه «الاتجاهات الشعرية فى السودان» عام ١٩٥٧ م وإن كانت بعض أصوله قديمة . والدكتور النويهى أشد قسوة على شعراء هذه الفترة من الاستاذ عبده بدوى ، وقد رأى القارئ موقفه من قصيدة العباسى « سنار بين القديم والحديث » وإلى القارئ نموذجا آخر من نقـــــده وسأعرضه فى صورتين صورته القديمة وصورته الحديثة[1] .

كان قد نقد[2] قصيدة للشاعر عبدالله محمد عمر البنا تصف بادية البطانة[3] ، فعرض منها أبياتا وحكم عليها ، ثم خرج بنتيجة هى :

« . . . والنتيجة أن هذه الأبيات ليست لها قيمة أدبية ، لأنها لا تقدم أى جديد إلى ثروة الآداب العربية ، ومن المستطاع أن نحذفها جميعا بيتاً بيتاً دون أن تخسر هذه الآداب شيئا . فجميع مافيها نستطيع أن نجده فى فى صوره الأصيلة الصادقة الحية[4] » .

وكان من ردى عليه « . . . وأعجب ما فى كلام الدكتور قوله إن الشاعر عجز أن يعطينا صورة متميزة لركن واحد معين من هذه البوادى يوجد فى السودان لا فى غيره ، إنه كلام عجيب ، لا لأنه دعوى لا دليل عليها ، ولا لأن الدكتور يحكم على البطانة قبل أن يراها ويعرف معيشة أهلها ، بل لأنه يطالب الشاعر بما يطالب به الباحث فى الجغرافيا ، فالشاعر ليس مكلفا بتصوير كل مايراه ، فقد يعجبه منظر واحد من مناظر البطانة . . . فيندفع

---

(١) وذلك أنه قد نشر أولا فى جريدة الصراحة السودانية ثم ضمنه كتابه « الاتجاهات الشعرية فى السودان » .

(٢) كان ذلك عام ١٩٥٥ .

(٣) من بوادى السودان .

(٤) جريدة الصراحة السودانية ١٥/٥/١٩٥٥ .

فى وصفه ، ويهمل المناظر الأخرى إهمالا تاما ، وقد يعجبه منظر الظباء ترائع سوائم الإنس وتأنس بها ، حتى تنعقد وشائج الألفة بين أطلاء الظباء وبهام السائمة :

تناثرت الظباء علـى ثراها   وراتعها من الإنس السوام

إذا ضبح البهام بهـا عشاء   أجاب من الطلا فيها بغام

وهو كما يرى القارىء صورة رائعة جديرة باستيعاب اهتمام الشاعر ، وصرفه عن مناظر أخرى . . . ومن غير أن نطيل نسأل الدكتور هذا السؤال : هل نستطيع أن نحذف هذا البيت الرائع — وهو ليس بفريد فى القصيدة — دون أن تخسر الآداب العربية شيئا ؟ !

رفاق الضيف أنى حل هبوا   نشاوى الجرد فهو لهم مدام

« ثم انظر إلى هذا البيت الجميل الذى يفصح عن عادة سودانية صميمة ، أخذ سلطانها يضعف فى المدن ، هى استقبال الضيف بالضم والالتزام :

يكاد البشر يقطر من وجوه   لهـا للضيف ضم والتزام

« . . . . إنما صور المرائى التى أعجبته ، والسمات التى راقته من حياة البطانة ، أما أن يقال إن هذا الوصف يمكن أن يصدق على كل بادية أخرى ، فأمر المسئول عنه الطبيعة التى وحدت بين مناظر البوادى(١) » .

ذلك نموذج من نقـده القـديم الذى نشره فى جريدة الصراحة وردى عليه ، أما نقده الحديث الذى تضمنه كتابه « الاتجاهات الشعرية فى السودان » فهذا مثال له :

« هذه أبيات رقيقة حلوة النغم . . . والصور التى تعطيها والأفكار التى تعبر عنها لا شك فى انطباقها على البيئة البدوية التى يصفها الشاعر(٢) »

(١) محاولات فى النقد ص ١٦٢ — ١٦٤ .
(٢) الاتجاهات الشعرية فى السودان ص ١٠ .

إذن فالأبيات جيدة وصادقة ولا نستطيع أن نحذفها بيتا بيتا دون أن تخسر الآداب العربية شيئا . ولكن ينبغي ألا نتعجل فالدكتور مازال مصرا على النتيجة التي وصل إليها من قبل وهي « ... لجميع حيوانه وطيره ونباته، وسائر عناصر مسرحه الطبيعي ، وما يحدث في هذا المسرح من تجارب للإنسان والحيوان ليست واحدة منها مستمدة من طبيعة سودانية خاصة ، ولانستثني إلا قوله ـ لها للضيف ضم والتزام ـ فهذه عادة سودانية صميمة في استقبال الضيوف . . فالشاعر عجز أن يعطينا صورة متميزة لركن واحد معين من البادية يوجد في السودان لافي غيره من البوادي [1] » .

ولكن هل من الحق أن هذا الركن يوجد في السودان ولا يوجد في غيره ؟ ! ، يجيبنا الدكتور النويهي نفسه بأن بوادي السودان شبيهة ببادية جزيرة العرب :

« وما يجب أن نذكره في هذا الصدد هو أن الأدب العربي القديم لا يصور بيئة تامة الاختلاف عن بيئة الشاعر السوداني المعاصر ، بل هو على العكس يصور بيئة قريبة الشبه ببيئته التي نشأ فيها ، ... من حيث الطبغرافيا وأحواله الجغرافية ، ويقترب في عناصر كثيرة من شبه جزيرة العرب ، فهذه الصحاري الفسيحة والسهول المبسوطة ، وما فيها من وهاد ونجاد ، وما يتخللها من وديان وعيون وآبار وسيول وغدران، ومناخها وتقلبات طقسها ، وتراوح فصول الجفاف والأمطار عليها ، وكثير من نباتها وحيوانها ، وبالتالي حياة الرعي والارتحال التي يحياها السكان ، وقيام نظام حياتهم على القبائل والاعتزاز بالأنساب .. [2] » .

إذن ما المطلوب من الشاعر أن يصنع مادام الأمر على ما وصف الدكتور

---

(١) الاتجاهات الشعرية في السودان ص ١٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥ — ١٦ .

النويهي ؟ ! ، أيكون المطلوب منه أن يغير البيئة السودانية لتكون ركنا خاصا يوجد فى السودان ولا يوجد فى غيره ، ليجىء شعره سودانيا خالصا لايشبه الشعر القديم ؟ ! .

ومادام الأمر كما وصف الدكتور النويهى فكيف عرفنا « أن الشاعر اقتصر على المناظر التى لها نظائر فى الشعر القديم [1] » ؟ ! .

ولكن مثل هذه الأسئلة لاتهم فى هذا الجو الذى لاترتبط فيه المقدمات بنتائجها .

وهذا نموذج آخر :

لما كنت أجادله فى الأصالة والتقليد قلت « فلنفرض أن شعرنا السودانى أو معظمه يشبه شعر القدماء من العرب والمحدثين منهم ، فإن هذا لاينقص رأيى ولا يخدش حكمى ، ولا يؤيد ماذهب إليه الدكتور النويهى من نفى الأصالة النفسية عن شعرائنا ، فأنا عندما قلت إن تأثير البيئة حتمى ، وإن الأدب الصادق لايمكن أن ينجو منه مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه ، لم تغب عن بالى آثار ثقافة الأدباء ونزوعهم إلى قومية كبيرة لاتحدها تخوم السودان ، بل نحس بأن العرب جميعا أمة واحدة تجمعها وشائج متماسكة ، تجمعها وشائج العقيدة الدينية . . وتجمعها هذه اللغة الفصحى وما تحمله من مثل ، وما تفتحه من طرائق فى التعبير والتصوير وأخيرا يجمعها الألم والأمل » .

« فنحن نعتقد أننا سلالة عربية ، وأن شعر امرئ القيس وتأبط شرا والشنفرى والمهلهل . . . من تراثنا العاطفى ومن نماذجنا العالية فى التصوير وبراعة القول ، ونحن نعتز بأدب الجاحظ والخوارزمى وابن العميد . . .

---

(١) الاتجاهات الشعرية فى السودان ص ١٠

نحبهم جميعا ونقرؤهم بشغف ، حتى تجرى معانيهم وإحساساتهم وصورهم فى دمائنا وتصبح جزءا من كياننا ، وقد كنا إلى زمن قريب نعتقد أن معنى النهضة هو الرجوع إلى ماضينا العظيم . . . . وكانت خطبنا وقصائدنا فى عيد الهجرة والميلاد كلها تدور حول هذه المعانى . . . . وحتى نشيد المؤتمر كان اعتزازا بنسبتنا إلى العرب وإلى الدين الإسلامى :

أمة أصلها للعرب   دينها خير دين يحب

فهل بعد هذا كله ينتظر من أدبنا ألا يتأثر بالتراث العربى الإسلامى ؟! وهل فى تصوير هذا الشعور زيف أو تعمل وهو تعبير ينبعث من صميم كياننا [1] » .

فلما وجهت إليه هذا الحديث ذكرنى بأن الناس اليوم لا تخجلهم نسبتهم إلى العناصر الأخرى التى اندغمت فى دمائهم ، وأن أوجه التباين بين السودانيين وغيرهم من الأمم العربيه كثيرة ، ثم تكرم فوصفنى بالتأخر ، وما كنت أحب له أن يفعل لا لأنى أرهب الهجاء وأخشاه بل لأن البحث لا يرضى ذلك [2] » .

أما فى كتابه « الاتجاهات الشعرية فى السودان » فقد عطف على هذه الأفكار المتأخرة فصاغها كما يأتى :

« وثانى ماينبغى أن نذكره هو أنه إذا كان السودانيون ناتجا من امتزاج العنصرين العربى والإفريقى [3] ، فلا ننسى أن العنصر العربى كان هو الظافر

(١) محاولات فى النقد ص ١٢٩ — ١٣١ .

(٢) محاولات فى النقد ص ١٤٣ .

(٣) السودانيون لم يكونوا وحدهم نتاج عناصر مختلفة أباؤهم عرب ، فالمصريون والعراقيون ، المغربيون وبعض سكان الجزيرة العربية نفسها كذلك ، ولكن الاستعمار هو الذى يصر على هذه التفاصيل ويؤكدها ليمزق الأمة العربية ويفتت شملها وقد تورط بعض كتابنا فى هذا المزلق مع الأسف .

المنتصر ، منه الفاتحون ومنه السادة الذين أسروا العبيد واقتنوا الرقيق وملكوا الأرض واستولوا على مقاليد الحكم . فلاعجب أن يحاول أحفادهم تغليب العنصر السيد على العنصر المسود فى تكوينهم . ومن الطبيعى أن يكون شعورهم الأول هو التقليل من أهمية العنصر المغلوب أو إنكاره بتاتا ... ويزداد هذا العامل قوة إذا تذكرنا أن العنصر العربى المنتصر لم يكن أعلى شأنا من الناحية العسكرية وحدها، بل كان أرقى ثقافة وأنضج فكرا فله ميراث حضارة راقية ، لايعرفون لها نظيراً لدى العنصر الأفريقى الذى لم يعرفوا له الا همجيته وبدائيته ، بل له لغة هى أعلى كعبا فى مراقى اللغات البشرية من جميع اللهجات واللغات الأفريقية التى لاتعرف مجرد الكتابة . . . وأهم من ذلك أن له ديانة سماوية رفيعة ، قبلها السودانيون قبولا صادقا ، وآمنوا بها إيمانا شديد الحرارة والعمق ، فأثرت فيهم تأثيرا بليغا ، وكانت من أهم مكوناتهم القومية ، لاجرم يحاول هؤلاء المسلمون تفخيم العنصر الذى جاءهم بهذا الدين القوى الرفيع ، على عنصر لم يكن لديه الا العقائد الوثنية والخرافات البدائية ..هذا العامل الدينى ليس من السهل أن نبالغ فى أثره فهو منبع الأدب الفصيح فى بدايته التى تمثلت فى المدائح النبوية والأشعار التعبدية والأناشيد الصوفية[1] ... »[2]

وإذا كانت هذه الأفكار التى صيغت صياغة جديدة متخلفة، وصاحبها متخلف عام ١٩٥٤ م فاصبحت متقدمة عام ١٩٥٧ حين قبلها الدكتور النويهى وأقبل عليها، وإذا كان هذا شأن السودانيين فى شعورهم العربى والدينى، كانت طبيعة أرضهم كما وصفها الدكتور النويهى وأبرز مشابهتها لجزيرة العرب

---

(١) متابعة للدكتور عبد المجيد عابدين فى تقسيمه مراحل الشعر السودانى بطريقة ملتوية

(٢) ارجو أن يقرأ القارىء بامعان من ص ١٦ الى ص ٢٠ من كتاب الدكتور «الاتجاهات»

التي نبع منها الشعر القديم أول ما نبع ، إذا كان الأمر هكذا أليس من الإنصاف أن نقول إن شعراء المدرسة القديمة من السودانيين صادقون معبرون عن كيانهم ، مفصحون عما اختلج في نفوسهم وجاش في صدورهم ، وإن جاءت في شعرهم مشابهة للشعر العربي القديم أو للشعر الأموي والعباسي المتأثر بالشعر القديم ؟! وإنهم يكونون كاذبين مزيفين إذا انحرفوا عن هذا الطريق ، لأنهم حينئذ يعبرون عن كيان غير كيانهم

ولكن المقدمات عند الدكتور النويهي شيء والنتيجة شيء آخر مخالف تمام المخالفة لما كان يوجبه المنطق . وفهم السبب يسير ، هو أن النتيجة ولدت عام ١٩٥٤ والمقدمات قبلت عام ١٩٥٧ م ! ، وهذه هي النتيجة :

« . . . هذه هي الصفة العامة لصنعتهم تطالعنا منذ القراءة الأولى لأشعارهم . فإذا زدناها تأملا استكشفنا تعدد النماذج العربية التي يقلدونها ، ما بين جاهلي صميم وأموي وعباسي مولد ، فإن تجاوزوا هذه الأصول فلكي يقلدوا الشعراء المقلدين المحدثين من شعوب عربية أخرى ، وخصوصا شوقي الذي يغرمون به غراما شديدا[1] . . . . »

ومع هذه النتيجة العجيبة نتيجة أخرى لا أدري كيف تلائمها وتواكبها ، هي « . . . ومهما يكن اعتقادنا في جواز التأثر في الحكم الفني بالاعتبارات السياسية أو عدم جوازه ، فإنه يجب أن نسلم لهم بأنهم في فترتهم المعينة ، قد نجحوا فعلا في بلوغ هدفهم إلى درجة كبيرة ، فأثاروا الشعور الوطني ، وملأوا قلوب مواطنيهم بالأمل المتحفز ، وأعادوا لهم إحساس العزة والكرامة وساهموا في إذكاء الحمية الوطنية وإيقاظ الوعي السياسي[2] » ! ! كيف استطاع هذا الشاعر الفاقد الأصالة أن يصنع هذا الصنيع ؟ !

(١) الاتجاهات الشعرية في السودان ص ٣ .
(٢) الاتجاهات الشعرية في السودان ص ٣٩ .

أما الدكتور الشوش الذي أخرج كتابه «الشعر الحديث في السودان» عام ١٩٦٢ م ، فقد جال جولات سريعة وضرب أشعارهم ضربات متلاحقة فرقها شر ممزق ، يأتي بالمبررات ولا يحفل بنتائجها مثلما فعل الدكتور النويهي وإن كنت أوافقه على أن معظم الغزل الذي يبدأون به قصائدهم غزل مصنوع لا يعبر عن عاطفة صادقة ، والتشبيهات فيه قد ابتذلتها كثرة الاستعمال .

وهو يعيب على الشاعر البنا التكرار في شعره . . . . إلا أنه اضطر اضطرارا لاستعمال فعل الأمر - سل - في تكرار ممل ، إن الارتباط منعدم تماما بين الأبيات[1] . . . . فهو يرى مثلما رأى الاستاذ عبده بدوى أن التكرار معيب ، وسببه ضعف الروابط في شعر الشاعر بل هو يرى أن الروابط لا وجود لها إطلاقا .

وأنا أوافق الدكتور عبد المجيد على أنه وسيلة فنية جيدة ، فالتكرار عند الشاعر المقتدر على النظم من أمثال عبد الله البنا ضرب من الموسيقى يكسب الشعر تدفقا ويشيع فيه حيوية ونشاطاً ، وقد احتفل به شعراء لا يسع أحداً أن يشك في جودة فنهم في الجاهلية والإسلام ، إلا إذا كان ينكر الشعر العربي كله .

من هؤلاء عمرو بن كلثوم في معلقته التي سار بذكرها الركبان :

بأى مشيئة عمرو بن هند   تكون لقيلكم فيها قطينا
بأى مشيئة عمرو بن هند   ترى أنا تكون الأرذلينـــا
بأى مشيئة عمرو بن هنـــد   تطيع بنـا الوشاة وتزدرينـــا

فهو يكرر الشطر كاملا ، وفي القصيدة نفسها يكرر «أنا» إحدى عشرة مرة وكرر «إذا» ست مرات :

وقد علم القبائل من معـــد   إذا قبب بأبطحها بنينـــا
بأنا العاصمون إذا أطعنـــا   وأنا العازمون إذا عصينـا

---

(١) الشعر الحديث في السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٥٢ .

وأنا المنعمون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكون بما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون لما سخطنا ... وأنا الآخذون لما هوينا
وأنا النازلون بكل ثغر ... يخاف النازلون به المتونا[١]

وزهير بن أبي سلمى كرر « من » عشر مرات في معلقته الشهيرة . ومالك ابن الريب في قصيدته التي مطلعها :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بجنب الغضا أزجى القلوص النواجيا

كرر « درّى » ست مرات :

فلله درّى يوم أترك طائعا ... بنىّ بأعلى الرقتين وماليا
ودرُّ الظباء السانحات عشية ... يخبرن أنى هالك من ورائيا
ودرُّ كبيرى اللذين كلاهما ... علىّ شفيق ناصح قد نهانيا
ودرُّ الهوى من حيث يدعو صحابه ... ودرُّ لجاجاتى وردّ انتهائيا

ويقول في القصيدة نفسها مكررا « كنت » :

فقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت ... سريعا إلى الهيجا ، إلى من دعانيا
وقد كنت محموداً لدى الزاد والقرى ... وعن شتمى ابن العم والجار وانيا
وقد كنت صبارا على القرن في الوغى ... ثقيلا على الأعداء عضبا لسانيا[١]

وغير ذلك كثير ، فالتكرار سنة عربية قديمة ، وهم يرون فيه زيادة على مايعطيه من موسيقى صاخبة ضربا من التوكيد .

والدكتور الشوش هو الكاتب الوحيد بعد الدكتور عبد المجيد عابدين الذى أنصف الشاعر محمد سعيد العباسى ، فقد شرح ظروف حياته شرحا مكنه من إثبات أصالته وجزالة أسلوبه ، فهو شاعر أصيل قد عبر عن نفسه فأحسن التعبير ، ترجم عن حبه وبغضه ، عن رضاه وسخطه ، عن تعلقه بوطنه

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد أبي الخطاب القرشى .
(١) المصدر نفسه ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

وشغفه بمصر ، وفي حديث الدكتور الشوش رد غير مباشر على الدكتور النويهي الذي جرد الشاعر من كل شيء وجعله مقلداً للمتقدمين والمتأخرين من الشعراء ، ولكن الدكتور الشوش في نشوة الإعجاب بالشاعر ، حمل على الشاعرين عبد الله البنا وعبد الله عبد الرحمن حملة لا هوادة فيها ولا رفق . وهذا مثال لها :

روى أبياتا من قصيدته « سنار بين القديم والحديث » للتدليل على وطنيته ثم قال « . . . وهنا يتضح الفارق الكبير بينه وبين شعراء التقليد ، كعبد الله محمد عمر البنا وعبد الله عبد الرحمن ، فقد انصرف هؤلاء إلى ذكر مجد الإسلام في الزمان الغابر ، وانحطاط حال المسلمين وضياع العروبة ، سائرين في ذلك مع ركب شعراء التقليد في العالم العربي ، كأحمد شوقي وحافظ [1] ... » .

وعندي أن التفات الشاعرين إلى الماضي ونقدهم الحاضر على ضوئه لا يعيبهما بل من حقه أن يوضع في كفة حسناتهما . ولا أرى العباسي نفسه يكره هذا الصنيع ، والوقوف على أطلال سنار رجوع إلى الماضي وإن كان ماضياً أخص ، وقد اتبع الشاعر العباسي في قصيدته طريقة المقارنة بين الماضي والحاضر كما يصنعون في قصيدة الهجرة والمولد للعبرة وإثارة الشعور ، فقال بعد أن فرغ من تمجيد ملوك سنار :

قد شقينا من بعدكم فوردنا باكرام الحمى من الهول وردا
واستعضنا من ذلك العز هوناً ونعيم الحياة بطشا وكدا
وركبنا عشواء لا يأمن الركـ ـب عثاراً ولا يؤمل رشدا[2]

ومثل هذه الوقفة وقفها الشاعر عبد الله عبد الرحمن أيضاً ولم يشغله عنها التغني بماضي الإسلام والعروبة ، فقد أشاد بماضي السودان منذ عهد الفراعين إلى عهد سنار فقال :

(١) الشعر الحديث في السودان ، الدكتور الشوش ص ٩٧ — ٩٨ .
(٢) ديوان العباسي ص ٣٩ .

قفا بى على أطلال « نبتة » وقفة الـ سموءل فى تيماء بالأبلق الفرد
وعن « مروى » ذات العماد تحدثا وقولا لها هل فى طلولك من رد
أباحت حماها الحادثات وأيبست ثراها وبانت من رداها على وعد
ولا تنسيا « سوبا » وطيب حديثها وما أصفت الإسكندرية من ود
جرى مثلاً فيها الخراب وأصبحت سبا وبها ذل الأخيدة فى القد
وأيام شدناها بسنار دولة تبحبح فى ظل على النيل ممتد
تبوأها الفتح العظام يمدهم بنو الشيخ جماع أولو البأس والأيد
يمتون للعرب الكرام بنسبة ويسقون من دين الهدى سائغ الورد[1]

وله قصيدته التى قال فيها الدكتور محمد إبراهيم الشوش نفسه ، ولعل « أروع قصائد الديوان هى القصيدة التى يصف فيها الشاعر الطبيعة فى السودان[2] » .

وقد جعل الدكتور الشوش من دلائل وطنية الشاعر محمد سعيد العباسى إدمانه الحديث عن النيل واطراد ذكره فى شعره ، وهذا حق ، ولكن للشاعرين فضلهما أيضاً ، فالبنا وإن لم يكثر القول فى النيل ، فإنه استعاض عن ذلك بتعلقه ببادية البطانة ، وقد روى الدكتور الشوش طرفاً من هذا الشعر وأبدى شيئاً من الرضا عنه[3]. أما الشاعر عبدالله عبدالرحمن فقد شغف بالنيل وتعلقت به عيناه ، وقد أحصيت المواطن التى ذكر فيها النيل من ديوانه الفجر الصادق وحده ، فكانت عدتها أربعة عشر موطناً ، وله قصيدتان لم تدخلا فى هذا الإحصاء ، عنوان الأولى « النيل يمدنى » وعنوان الثانية « مناظر عند شط النيل أغشاها فتبهجنى[4] » ، ولم تجد واحداً

(١) الفجر الصادق ص ٦٢ .
(٢) الشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش ص ٧٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ٧٢ — ٨٠ .
(٤) الفجر الصادق ص ٦ و ٤٠ و ٦٢ و ٧٠ و ٧١ و ٧٥ و ٧٧ و ٨٤ و ٩٣ و ١٢٢ و ١٢٥ و ١٢٧ و ١٢٨ .

من مدرسته ذكر النيل مثل ذكره ، وقد روى الدكتور الشوش شيئاً من هذا الشعر وعلله بقوله « ولعل إيمانه بوحدة وادى النيل هو الذى جعله يلتفت فى قصائده الأخيرة إلى النيل ويتغنى به ، ويعتبره كما اعتبره الشاعر محمد سعيد العباسى روحاً تربط بين شطرى الوادى وتكون وحدة معنوية ومادية بين مصر والسودان(١) » .

وإذا كانت المسألة كلها مسألة ظروف وملابسات تلم بحياة الشاعر وتؤثر فيها ، فتطبعه بطابع معين وتلونه بلون خاص ، فيجيء شعره صدى لهذا الطابع واللون ونبعاً من هذا الكيان ، كما كان الحال بالنسبة إلى الشاعر محمد سعيد العباسى ، إذا كان الأمر هكذا وهو كذلك ، ألا نجد فى ظروف حياة البنا وعبد الله عبد الرحمن وملابساتها ما يبرر تعلقهما بماضى العروبة والإسلام ، ويخرجهما عن دائرة التقليد ؟ ! .

ألا يستطيع الدكتور الشوش أن يقف عند البنا وعبد الله عبد الرحمن وقفة تطول أو تقصر ، فيشرح ظروف حياتهما الخاصة ، وظروف مجتمعهما ، وما تميز به هذا المجتمع فى ماضيه وحاضره من صفات ، فيجد فى هذا كله العوامل والمؤثرات التى دفعت بهما إلى هذا الاتجاه ؟ ! فلو فعل لربما أعطاهما ما يستحقان من الإنصاف ، ورأى فيهما شاعرين أصيلين صادقين فيما تغنيا به من شعر يمجد العروبة والإسلام وينعم الحاضر .

فى الواقع أنه فعل ولكنه قد نسى ما فعل ، فجاءت النتيجة على غير ما تريده المقدمات ، نسى أنه قال : « وسيطرت هذه الفكرة ـ فكرة الرجوع إلى الماضى ـ على الشعر السياسى منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى أوائل هذا القرن ، وتحددت معالمها فى شعر الزهاوى والرصافى وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم ... وإذا كان شعراؤنا فى بداية النهضة الأدبية قد استهوتهم هذه الفكرة فعضوا عليها بالنواجذ ، وأصبحت موضوع شعرهم الأساسى ، فلم يكن ذلك لخفوت

(١) الشعر الحديث فى السودان ، الدكتور الشوش ص ٦٨ .

صوت القومية فى أنفسهم ولا لمسايرتهم للتقليد الأعمى ، بل كان انفعالهم يمثل استجابة طبيعية لظروف بيئتهم . فالشعب السودانى بطبيعته شعب متدين ، رسخت فى أعماقه رواسب دينية عميقة . وإثارة هذه العواطف الدينية الكامنة فى نفس الشعب أقرب طريق إلى إثارة لون من الانفعال والتجاوب الذى يمكن الشاعر من توصيل حقائقه وأخيلته . وفى السودان كما رأينا تقليد طويل من الشعر الدينى الصوفى ، والعامل الدينى هو الذى أدى إلى نجاح الثورة المهدية فى السودان . هذا وقد كان الشعر نفسه وليد مواسم دينية . أضف إلى ذلك أن كبار الشعراء التقليديين فى السودان كعبد الله محمد عمر البنا ومحمد سعيد العباسى وعبد الله عبد الرحمن قام تعليمهم على أساس دينى متين إلى جانب انتمائهم إلى بيوت دينية عريقة[1] » .

وقد تعرض الدكتور عبد المجيد عابدين والأستاذ عبده بدوى والدكتور الشوش إلى مسألة الوحدة فى شعر هؤلاء الشعراء وعابوا على البنا وعبد الله عبد الرحمن فقدان الوحدة فى شعرهما ، ويكادون يجمعون على أن أسلوب عبد الله عبد الرحمن أقل جودة من أسلوب العباسى والبنا وأكثر إهمالا للوحدة فى قصائده ، وأرى أن نقد هؤلاء الشعراء ومحاسبتهم على أساس الوحدة بمعناها الذى نعرفه اليوم ظلم مبين ، لأننا فى هذه الحالة نتقدم على هدى مذهب غير مذهبهم ، فهم لا يعرفون ما نسميه الوحدة الفنية أو الوحدة العضوية ولعلهم إذا عرفوها أنكروها ، لأنهم سائرون على المذهب الغالب عند الشعراء العرب والنقاد العرب الذى يرى أن البلاغة وتمام البراعة فى استقلال كل بيت من القصيدة ، بل كل شطر منها أو جزء من الشطر ، ويمثلون لذلك بقول النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب

فلو تمثل الإنسان ببعضه لكفاه إن قال « أى الرجال المهذب » كفاه ،

---

(١) الشعر الحديث للدكتور الشوش ص ٤٥ — ٤٦ .

وإن قال ، ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث ، لكفاه(١) .

فنقدهم على أساس الوحدة على النحو الذى نعرفه اليوم إنما هو نقد للمذهب، وهو يلائم وضعهم فى مدرسة خاصة وتسمية مدرستهم « تقليدية » .

وأنا أعلم أن بعض النقاد القدماء عندنا نادى بما يقرب مما نسميه الوحدة العضوية ، ولكن معظم الشعراء لم يستجب لهذا النداء ، من هؤلاء صاحب « عيار الشعر » حيث قال « أحسن الشعر ما انتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره على ما ينسقه به قائله ، فإن قدمت بيتا على بيت دخله الخلل كما يدخل الخلل الرسائل والخطب إذا نقص تأليفها ، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها ؛ وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها ، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها ، لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها(٢) .

ومنهم ابن رشيق حيث يقول « . . . من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به غير منفصول عنه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر أو باينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ...(٣) » .

فإذا كان المذهب الذى سار عليه معظم الشعراء ومعظم النقاد العرب غير هذا ، كان من حسن التأنى وتحرى الإنصاف أن ننقد شعر هؤلاء الشعراء فى حدود مذهبهم ، وننظر إليهم داخل هذه الدائرة .

على أنى أرى أن الشاعر عبد الله عبد الرحمن قد ظلم ظلما أشد ، حتى على الوجه الذى تناول به الكاتبون شعر شعراء هذه المدرسة ، فهو ليس

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .

(٢) عيار الشعر لمحمد بن طباطبا العلوى طبعة عام ١٩٠٦ ص ١٢٦ .

(٣) العمدة لابن رشيق القيروانى ج٢ ص ٩٤ .

أقل من زميليه العباسي والبنا في رعاية الوحدة في شعره ، بل أستطيع أن أزعم أنها قد تحققت في شعره بصورة قل أن نجدها في شعر المدرسة التقليدية ، وهذه أمثلة :

يقول في قصيدة عنوانها « بني الإسلام إن الذكر أبقى » .

بطالعنا المحرم كل عام   فنشكوه القطيعة والبعادا
ونزرع فيه آمالاً كبارا   وما زالت تمانعنا الحصادا
قطعناها شهوراً داميات   وما رجب بأفضل من جمادا
وماذا بالمحرم لو عقلنا   سوى أمس انطوى واليوم عادا
فلو كان المحرم ذا لسان   لأوسعنا ملاما وانتقادا
تفرقنا فأصبحنا عبيدا   ولبس العبد من لبس السودا
ولكن من غدا عبداً لغير   وفي مرضاته صافي وعادى[1]

وفي قصيدة أخرى عنوانها « محرم »

نحييك بالريحان وهو قصائد   ونفديك بالأرواح وهي خوالد
محرم ذكرت الزمان وأهله   بما لك من فضل له الدهر شاهد
وعدت فعادتنا شجون كثيرة   وأكبر ظني أن مجداً يعاود
ولم أر فجراً كالمحرم صادقا   تهل له الدنيا وتجلى المشاهد
لقد فجر الرحمن في الأرض دينه   به واستقرت للسلام قواعد
حفلنا وأكبرنا هلال محرم   فلله شهر للهداية والد
كما تلد الشمس النجوم وإنه   لأكمل منها ضوؤه المتزايد[2]

فهو يقبل التضمين في سبيل الوحدة مع أنه عيب عند القدماء[3] .

وفي قصيدته « ملجأ القرش » يقول :

فتاة دهتها النائبات فمن لها   بذي همة في الناس يدفع عارا

---

(١) الفجر الصادق ص ١٥ .
(٢) الفجر الصادق ص ١٩ .
(٣) الموشح للمرزباني ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .

رمتنى بطرف خاشع متكسر فكان لأحزان الفؤاد مثارا
وقالت أما منكم لذى البث منجد يجير إذا ريب الزمان أغارا
وأنتم من العرب الطويل نجادهم لزام عليهم يمنعون ذمارا
تقوسهم أيان حلوا تكفلت بأن يلجوا باب الحياة غمارا
فكفكفت من دمعى وقلت من الذى تريدين أو من تحمدين جوارا
فقالت وهل فى القوم من يبذل القرى ويرفع فى عصر الحضارة نارا
أتسأل عن حالى وأمرى واضح ونوىَ دهراً عن جفونىَ طارا
وخلق أطفال صغار بمنزل خلاء ، فمن لىَ أن أعول صغارا
إلى الله أشكو ما ألاقيه إننى أموت وأحيا بالهموم مرارا(١)

من هذه الأمثلة وغيرها كثير يتضح أن الوحدة فى شعر هذا الشاعر ليست فى الغالب البيت الواحد أو الشطر(٢) .

والذين عالجوا شعر هـــذه الفترة لم يربطوه بماضيه حتى تتبين لهم الخطوات التى خطاها والمراحل التى قطعها ، بل نظروا إليه وكأنه حلقة منفصلة ، وأخذوا يقيسونه بمقاييس لم تشتق منه ، ولا من المذهب الذى يسير عليه ، فلو ربطوه بماضيه لتجلى لهم مدى التقدم الذى أحرزه ، ولعطفوا عليه عطفا حانياً ، ولرأوا فيه ثمرة ناضجة لذلك الغرس الذى أخذ ينمو منذ عهد سنار أو قبل عهد سنار ، ويتعرض أحيانا للذبول والتقلص كما رأينا فى الفترة الأخيرة من عهد المهدية ، حيث لم يبق فى الميدان إلاّ الشيخ عبد الغنى السلاوى وبعض شعراء تميز شعرهم بركاكة الأسلوب وتفاهة المعنى . فهذا الشعر فى معظمه ناضج فى معناه وفى مبناه ، وقد التصق بمجتمعه التصاقا شديداً ، فتناول شئونه بالنقد والدعوة إلى الإصلاح . ولم يلتزم جانباً واحداً هو جانب الحاكم كما رأينا فى العهد

(١) الفجر الصادق ص ٢٩ .

(٢) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ـ الدكتور عبد المجيد عابدين ـ ص ٢١٧ .

التركي ومدة حكم الخليفة عبد الله ، تاركا الجانب الآخر للشعر الشعبي إلا حين انفجار الثورة للأسباب التي وضحتها . وقد تجرأ الشعراء للمرة الأولى على نقد زعماء الطوائف الدينية وهجائهم ، ولم يكن البنا وحده فارس هذه الحلبة وإن كانت أبياته أسير ، فإنك واجد مثل ذلك عند العباسي ، من ذلك ما قال في واحد منهم لم يصرح باسمه :

وجاء بأموال التعاويذ والرقى ... وأشياء أخرى لا أرى ذكرها حزما
يعد بها فخـــرا على وما درى ... بأنى أرى أمثال أمـــواله عدما
ومالاه قوم عن الحق في عمى ... قلوبهم غلف وآذانهم صما
زعانف كم راموا التي لو قبلتهـا ... لما وتروا قوسا ولا فوقوا سهما
فصكوا بأمثال الأضاليل سمعـــه ... وقالوا له أنت المنـــار لمن أما

وواجد مثل ذلك عند توفيق أحمد ، الذي يرى في هذه الطوائف مثار فرقة وشتات :

أنا من يعز عليه رؤيةُ قومه ... متحزبين لسيد وحبيب
أخلاصة الأفراد إن بلادكم ... تشكو من التفريق والتخريب[1]

وقد اتسعت موضوعات هذا الشعر فشملت الدعوة إلى التمسك بأهداب الدين والخلق الكريم ، والتعليم وإباء الضيم وعدم الركون إلى الهوان إلى آخر ما رأينا .

أما معجم الفاظه فقد أثرى ثراء عريضا ، ويندر أن تجد فيه خطأ لغويا وبخاصة عند المجودين من أمثال العباسي وأحمد محمد صالح وعبد الله عبد الرحمن والبنا ، واختفت كلمات اللهجة الدارجة التي رأيناها عند شعراء العهد التركي والمهدية .

ومن جهة النظم فجلهم قد ملك ناصية القصيد وسلس له قياد الأوزان

(١) شعراء السودان ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

وليس فى قوافيه قلق أو اضطراب . والحلية اللفظية تطالعنا أحيانا ، ولكنها لم تصبح قوام شعرهم وليس منهم من يجتلبها عامدا ، وظاهرة التكرار التى رأيناها فى الشعر القديم ، اتسعت دائرتها وهى ليست سمة ضعف فى الأسلوب كما قدمت القول فى ذلك . وظاهرة التشطير فى الشعر السياسى لا وجود لها إلا فى الأبيات التى رويتها .

وفيما عدا ذلك اللون الرخيص الذى مدح به بعض الشعراء الإنجليز ، فإن شعر هذه الفترة يمتاز بعاطفة حارة ، وخاصة ما يتعلق منه بالدين والعروبة — وأنجح هذا الشعر وأدناه إلى النضج القصائد التى تقال فى المناسبات الدينية . وهذه القصائد التى تجمع بين الدين والسياسة مختلفة عن القصائد التى رأيناها فى شعر المهدية ، وذلك لأن القصيدة فى ذلك العهد لا ترجع إلى الماضى فقد اكتفت بالحاضر لأنه كان حيا متحركا ، ألهب حماسة الشعراء أيام جلاد المهدى وشغلهم بنفسه ، والقصيدة فى ذلك العهد كانت تذكر فيها المغيبات مثل الملائكة والأولياء والنار التى قالوا إنها تشتعل فى أجساد من قتلهم الأنصار . أما قصيدة المناسبة الدينية فى هذه الفترة فلا تحفل بالمغيبات .

وقصائد المناسبات الدينية وإن كانت فى الأصل مشتقة من المدحة النبوية التقليدية ، فإنها تختلف عنها فى وجوه كثيرة ، والتى تقال فى عيد الهجرة صارت أشد بعداً عن الأصل . وإلى القارئ موازنة بين المدحة النبوية الخالصة وبين القصيدة التى تنشد فى عيد الهجرة :

(١) المدحة تبدأ فى الغالب بالغزل ، أو بالصلاة على النبى :

كقول الشيخ إبراهيم أحمد هاشم :

مالى إذا ما الليل طا ... ل أصاب جفنى السهاد
وهوى الكواعب ضلنى ... وأزال عن قلبى الرشاد [١]

---

(١) شعراء السودان ص ٥٨ .

وقول الشيخ الأمين محمد الضرير :

يـارب صل على من كان فاتحة ... بكر الوجود به عمرانا اتصلا(١)

أما قصيدة الهجرة فتبدأ فى الغالب بذكر الهلال هلال محرم ، وهلالهم ليس كهلال ابن المعتز :

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة مـن عنبر

بل هو رمز لهجرة النبي (ص) من مكة إلى المدينة ، وما نجم عنها من انتشار الدين وذيوعه فى أنحاء الأرض ، وقد عبر عن ذلك الشاعر الشهير خليل مطران بقوله :

هل الهلال فحيوا طالع العيد ... حيوا البشير بتحقيق المواعيد

يا أيها الرمز تستجلى العقول به ... لحكمة الله معنى غير محدود(٢)

وهم يصرون على تشبيه الهلال بشىء ، ومعظم تشبيهاتهم قد أبلاها الاستعمال أو اتسمت بالغرابة فالبنا يشبهه بالنون ، وصالح بطرس يشبهه بملك تسنم منبرا وأخذ يخطب وعثمان هاشم يشبهه بفم الحسناء (٣) .

(٢) المدحة النبوية تعنى بتفصيل الحديث فى الإسراء والمعراج كقول الشيخ إبراهيم أحمد هاشم :

وأتى خليلك بالبراق فايقظ الـ ... ـجسم الشريف لنيل كل نجاح

فطفقت تقطع للفدافد قاصدا ... رحبا لرسل مكون الأرواح

فاقام جبريل الصلاة وأنت كنـ ... ـت إمامهم ومنيلهم لرباح

ولقد خرقت سماء بدر دجنة ... فلقيت آدم والد الأشباح (٤)

(١) المصدر نفسه ص ٢٢

(٢) شعراء الوطنية لعبد الرحمن الرافعي مكتبة النهضة المصرية ص ١٧٥ .

(٣) شعراء السودان ص ١٣٩ و١٧٠ و ٢٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥٦

وقصيدة الهجرة لاتتعرض لذكر الإسراء والمعراج

(٣) المدحة النبوية تذكر المعجزات ، ومن ذلك قول الشيخ عمر الازهرى :

نطق الذراع له وحن الجذع واذ　　سكب السحاب إذا أشار بنانه
والظبية اشتكت الوثاق لخلها　　وأتى البعير له يجر جرانه (١)

وليس هذا من دأب قصيدة الهجرة

(٤) المدحة النبوية تفضل النبي محمد (ص) على جميع الرسل كقول الشيخ عمر الازهرى :

لولاه ما كان الوجود ولم يكن　　ملك ولا ملك ولا أعوانه
حتى ولم يك آدم كلا ولا　　شيث ولا نوح ولا طوفانه (٢)

وقصيدة الهجرة لاتتعرض لمثل هذا الأمر .

(٥) وفى القصيدة النبوية يصرح الشاعر باسمه ويطلب من النبى (ص) الرضا عنه وعن من أحب ، كقول الشيخ أبى القاسم هاشم :

وأنا الذى مالى سواك ذخيرة　　يوم المعاد وحين يخشى المذنب
قل : قاسم يا نجل أحمد هاشم　　لاتخش أنت مكرم ومقرب
وكذاك إخوانى كيوسف الذى　　يدعى باسمك فى الملا والطيب (٣)

والشعراء فى قصيدة الهجرة لايصنعون هذا الصنيع .

(٦) وفى قصيدة الهجرة يفخر الشعراء بماضى العرب والإسلام لاستنهاض الهمم ، وقد مر بنا من ذلك الشيء الكثير ، والمدحة النبوية لاتلم بمثل هذه المعانى .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٠٤ .
(٢) شعراء السودان ص ٣٥٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤ .

(٧) قصيدة الهجرة تذكر أسماء المدن العربية القديمة التى ازدهرت فيها الحضارة العربية الإسلامية ، مثل دمشق وبغداد وقرطبة كما رأينا والمدحة النبوية لاتتعرض لهذه المدن ، ولكنها تذكر مواطن مقدسة ، ويكثر الشعراء من ذكر « المدينة » ويسمونها « طيبة » من ذلك قول الشيخ الأمين محمد الضرير :

فكان فى طيبة الغراء شمس هدى من بعد ليل ضحاها أوضح السبلا[1]

وقول الشيخ الطيب أحمد هاشم فى تشطيره لقصيدة لسان الدين ابن الخطيب :

بطيبة الغراء عندى بغية «الأمن فيها والأمان لروحى»[2]

(٨) قصيدة الهجرة تدعو إلى الإصلاح والأخذ بأسباب القوة لنيل الحرية ، وقد أفصح عن ذلك قول الشاعر عبد الله عبد الرحمن :

وهجرى حفل كل عام نقيمه ونجعل منه للأخوة عيدا
أقمناه نستحى النفوس ونرهف الشعور وأبعد بالشعور بليدا
ونصلح عادات سمجن وأنفسا أطلن على غير المفيد قعودا

* * *

شباب الحى أنتم مراق صعوده ودستوره الوافى الطويل بنودا
ألم تر للشبان تحيا بلادهم عليهم ومنهم تستمد وجودا
إذا كنتم حقا تريدون عزة فضموا صفوفا منكم وجهودا
وشقوا إلى العلم الصحيح طريقكم تضموا إلى المجد القديم جديدا
و « فرق تسد » لاتجهلون حديثها فإن لها فى المشرقين عهودا[3]

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٩ .
(٣) الفجر الصادق ص ١٨ — ١٩

والمدحة النبوية لاتدعو إلى البناء والتشييد ، فالشاعر فيها فردى منعزل وخواطره أخرويه ، فهى نجوى وابتهال صوفى .

وأرانى بهذه الملاحظات قد كشفت عن طبيعة القصيدة التى تلقى فى عيد الهجرة ؛ فهى وإن كانت فى الأصل مشتقة من المدحة النبوية التقليدية فقد بعدت عن الأصل واكتسبت خصائص جديدة جعلتها أقرب إلى السياسة منها إلى الدين ، ولم يكن نظمها وقفا على الشعراء المسلمين وحدهم فقد ساهم فى قرضها شعراؤنا المسيحيون كالشاعر صالح بطرس [١]

ولعل القارئ الذى وقف على النماذج التى قدمتها من هذا اللون من الشعر والذى وقف على هذه الأبيات الأخيرة ، التى أفصح فيها الشاعر عبد الله عبد الرحمن عن أغراضهم من إقامة الاحتفال فى مطلع كل عام هجرى ، وحث فيها الشبان على الأخذ بأسباب القوة الواعية ، كى تلحق بلادهم بركب الأمم الحية المتقدمة ، وتعود إليها حريتها وكرامتها ، الذى وقف على هذا كله يدرك أن لهؤلاء الشعراء فلسفة معينة وخطة واضحة ، وليسوا كما وصفهم الأستاذ عبده بدوى بقوله « . . . ولا فلسفة واضحة تجمل لعواطفهم كيانا ذكيا ، وإنما هو التقليد للتراث القديم من الشعر فى إطار الدين [٢] » .

---

(١) شعراء السودان ١٣٩ .
(٢) الشعر الحديث فى السودان ، عبده بدوى ، ص ١٥٣ .

﴿ خاتمـــة ﴾

١ — خلاصة ما أسلفت هي أن هذا الشعر بدأ في السودان من زمن لانستطيع تحديده ، فوجود العرب في السودان قديم جداً ، ولكني رجحت أنه لم يكن تاليا للشعر الشعبي والشعر الصوفي في الوجود، بل كان سابقا، حن فيه العرب إلى مواطنهم الأولى ، وبثوا فيه حبهم وبغضهم ، وصحبهم في حروبهم وسلمهم ، قبل أن تقوم الدويلات العربية الإسلامية ويقضي الإسلام على النصرانية في ربوع السودان ، شأنهم في هذا شأن العرب في كل مكان.

وقد رأينا في عهد « سنار » منه شيئا ، ووجدنا إشارة تدل على أن بعض الشعراء كان يتكسب به ، ورأينا في نماذجه التي ظفرنا بها أنه أدنى إلى النضوج من الشعر الصوفي ، فهو أقوم منه معنى ولفظا وقافية ووزنا .

وفي العهد التركي رأيناه يلتزم جانب الحكام ويصور شيئا من الجانب المشرق من ذلك العهد ، ماعدا أبياتا قليلة جدا تعرضت إلى ذكر المظالم والقسوة في جبي الضرائب ، والشعر الشعبي هو الذي صور الجانب القاتم، وتلك حالة تكاد تكون قاعدة في الشعر السوداني حتى عام ١٩٢٤م على الأقل وذلك أنه كلما قصر الشعر الفصيح تصدى الشعر الشعبي فنهض بالعبء .

وتبعت ثورة المهدي ثورة في الشعر، فخصب في مادته وفنه، ووصف الجيوش وحثها على القتال وأثار الحمية في صدور المقاتلين ، ونعى الفساد ودعا إلى الرشاد والسداد، ووصف المهدي في واقعه وفي غيبياته، وتناول خلفاءه وبعض قواده بالمدح . ثم رثاه لما توفاه الله . وظهرت ملامح بعض شعراء ولو من بعيد ، من أمثال الحسين بن الزهراء ، ومحمد عمر البنا ومحمد الطاهر المجذوب وإن كان ماحصلنا عليه من الشعر أقل مما كنا نتوقع .

ولما ولي محمد احمد المهدي لم يجد الشعراء الفحول مايملأ عيونهم ويحرك

وجدانهم فآثروا الصمت ، ولم يبق فى الحلبة مع استثناء طفيف إلا الشيخ عبد الغنى السلاوى ، ينسج الثياب الفضفاضة من خيوط العنكبوت ويسبغها على الخليفة عبد الله التعايشى ، وعلى بعض أصفيائه من القواد والقضاة . ونهض الشعر الشعبى فعرى هذه الفترة من المهدية وأشبع البدو الذين هم مادتها وسندها سخرا وتقريعا .

وبعد هزيمة المهدية وتسلط الإنجليز صمت الشعراء واكتفوا يمدحون النبى (ص) ويسألون حسن الخاتمة . وظلوا هكذا إلى أن ظهر جيل جديد اتصل بثقافة العصر بعض الاتصال ، فأخذ هذا الجيل يعالج القريض فى موضوعات شتى بعضها سياسية صريحة ، فعبروا بشعر سياسى صريح عن تعلقهم ببلادهم وشقيقتها مصر ، وشاركوا العالم العربى والعالم الإسلامى بعض الشىء فى قضاياه . وانحرف نفر قليل من هؤلاء الشعراء عن الصراط المستقيم فمدحوا الإنجليز ، وبعض الموضوعات التى عالجوها مظهرها اجتماعى أو دينى ومخبرها سياسى : كالدعوة إلى التعليم والتمسك بالأخلاق القويمة ، والاحتفال بعيد الهجرة وعيد الميلاد . وكان لهم هدف محدد وغاية مرسومة ، فقد أرادوا أن يستنهضوا همم الناس ويثيروا حميتهم ليكسروا القيد ويحطموا الأغلال فنجحوا فى دفع الناس إلى الثورة ، بشهادة من يهجون شعرهم وينكرون أصالتهم .

ولكن هذا الشعر لم يخض غمار الثورة مع الخائضين ، وترك المجال للشعر الشعبى ، فكان نشيد الثورة وحاديها المثير . وتميزت هذه الحقبة بظهور شعراء كبار ، لهم أساليبهم الخاصة وطرائقهم المتميزة فى البيان من أمثال العباسى وعبد الله عبد الرحمن وأحمد محمد صالح ، وعبد الله محمد عمر البنا .

٢ — وإذا كان لزاما على أن أذكر الجديد فى هذا البحث خضوعا للتقاليد الجامعية ، فإنى أقول إنه بهذه الصورة التى رسمتها له جديد كله ، فلم يكتب أحد من قبل بحثا مستفيضا فى هذا الموضوع ، والذين درسوا الأدب السودانى ألموا به إلمامة قصيرة ضمن موضوعات أخرى ، ولم يتعمقوا فى البحث عن

الأسباب والعلل التي جعلت هذا الشعر يأتي على تلك الصورة التي شخصت معالمها وجليت سماتها .

ومن مظاهر التجديد في هذا البحث أنني استطعت أن أكشف بوضوح الحجاب عن مقومات الشعب العربي المسلم في السودان ، مما أعانني على فهم قيام عهد وسقوط آخر حيث يختلف المؤرخون أو تضطرب أقوالهم .

ومن مظاهر التجديد في هذا البحث أنني استطعت أن أبرهن على أن الشعر الشعبي والشعر الصوفي لم يظهرا قبل ظهور الشعر التقليدي في ربوع السودان ، وقد كان القول بأسبقيتهما قضية مسلمة عند الدارسين ، منذ أن أخرج الدكتور عبد المجيد عابدين كتابه القيم « الثقافة العربية في السودان» .

ومن مظاهر التجديد في هذا البحث أنني في دراسة المهدية اعتمدت في كثير من الحالات على منشورات المهدي نفسه مباشرة، ولم ألتمسها في كتب المؤرخين ، وبتعمق في دراستها استطعت أن أفسر أحداثا غمضت أسبابها وأسرارا انبهم مدلولها عند من لم يقف على مناخ المهدية من خلال تعاليم المهدي واتجاهاته .

ومن مظاهر التجديد في هذا البحث أنني حصلت على مخطوطة حوت شعرا يتعلق بالمهدية ، فعكفت عليها زمنا حتى استطعت أن أقرأها ، وأراني قد ذللت طرقها ومهدت مسالكها لمن يريد أن ينتفع بها .

مصادر البحث

(١) أبو حيان التوحيدى ـ الدكتور أحمد محمد الحوفى ـ مكتبة نهضة مصر .

(٢) الاتجاهات الشعرية فى السودان ـ الدكتور محمد النويهى ـ مطبعة نهضة مصر .

(٣) الأحكام السلطانية — الماوردى — المطبعة الحسينية بمصر .

(٤) الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة — الدكتور أحمد هيكل — المطبعة العالمية بمصر .

(٥) أدب السياسة فى العصر الأموى — الدكتور أحمد محمد الحوفى — دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

(٦) الأدب الشعبى فى السودان — عز الدين أحمد حسن — ١٩٦٣ م .

(٧) إرشاد البدوى للدين النبوى — الزبير عبد المحمود — الطبعة الثانية بمصر .

(٨) أسرار ووثائق تاريخية — سليمان كشة — المطبعة والتاريخ غير مذكورين .

(٩) الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا — عبد الرحمن زكى — مطبعة يوسف بالقاهرة .

(١٠) أعيان الشيعة — محمد الأمين الحسينى — مطبعة ابن زيدون بدمشق .

(١١) الإمبراطورية السودانية — الدكتور محمد صبرى — ١٩٤٨ م .

(١٢) البدو والبداوة — الدكتور محي الدين صابر — بالاشتراك . مركز تنمية المجتمع بسرس الليان .

(١٣) بريطانيا فى السودان - اللورد كرومر - تعريب عبد العزيز أحمد عرابى - الشركة العربية للطباعة بمصر .

(١٤) البيان والإعراب عما بمصر من الأعراب - المقريزى - تحقيق الدكتور عبد المجيد عابدين ، عالم الكتب بمصر ١٩٦١ م .

(١٥) بين الحبشة والعرب - الدكتور عبد المجيد عابدين - ١٩٤٧ م .

(١٦) التربية فى السودان — الدكتور عبد العزيز عبد المجيد — المطبعة الأميرية بمصر .

(١٧) تاريخ الثقافة العربية فى السودان — الدكتور عبد المجيد عابدين — مطبعة الشبكشى بمصر .

(١٨) تاريخ السودان الحديث - ضرار صالح ضرار - دار مكتبة الحياة ببيروت .

(١٩) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته — نعوم شقير — مطبعة المعارف مصر ١٩٣٠ م ودار الثقافة بيروت ١٩٦٧ م تحت عنوان « جغرافية وتاريخ السودان » .

(٢٠) تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية — سليمان كشة — المطبعة والتاريخ غير مذكورين .

(٢١) تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى — أحمد الشايب — مطبعة السعادة بمصر .

(٢٢) تاريخ شعوب وادى النيل مصر السودان — الدكتور مكى شبيكة — مطبعة سميا بيروت .

(٢٣) تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها إلى ضياعها — الأمير عمر طوسون — مطبعة العدل ١٩٣٧ م .

(٢٤) تاريخ ملوك السودان — احمد بن الحاج أبو على كاتب الشونة — بالاشتراك — تحقيق الدكتور مكى شبيكة ١٩٤٧ م .

(٢٥) تحرير التحبير — أبن أبى الأصبع المصرى — تحقيق الدكتور حفنى ١٩٦٣ م

(٢٦) تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان — محمد بن عمر التونسى — تحقيق الدكتور خليل عساكر بالاشتراك . الدار المصرية للتأليف والترجمة عام ١٩٦٥ م .

(٢٧) التطور والتجديد فى الشعر الأموى — الدكتور شوقى ضيف — دار المعارف .

(٢٨) التغير الحضارى وتنمية المجتمع — الدكتور محى الدين صابر — مطابع دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م.

(٢٩) التفكير الفلسفى الإسلامى — الدكتور سليمان دنيا — مكتبة الخانجى بمصر .

(٣٠) تلبيس ابليس — جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى — إدارة الطباعة المنيرية .

(٣١) تلخيص البيان فى مجازات القرآن — الشريف الرضى — تحقيق محمد عبد الغنى حسن ، مطبعة عيسى البابى الحلبى .

(٣٢) ثورة ١٩١٩ م — عبد الرحمن الرافعى — النهضة المصرية .

(٣٣) الثورة وأصول السياسة البريطانية فى السودان — الدكتور جلال يحى — مكتبة النهضة المصرية .

(٣٤) الجانب الإلهى من التفكير الاسلامى — الدكتور محمد البهى — مكتبة وهبة .

(٣٥) الجغرافيا التاريخية الإسلامية — محمد حسونه — لجنة البيان بمصر.

(٣٦) جمهرة أشعار العرب — أبو زيد محمد بن الخطاب القرشى — دار صادر بيروت .

(٣٧) جهاد فى سبيل الله ، أشرف على إعداده — محمد أحمد حسن — المطبعة الحكومية بالخرطوم .

(٣٨) جهاد فى سبيل الاستقلال، أشرف على إعداده — الصادق المهدى — المطبعة الحكومية بالخرطوم .

(٣٩) الحركة الفكرية فى السودان — محمد أحمد محجوب — ١٩٤١ م .

(٤٠) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ـ فون كريمر ـ ترجمة الدكتور مصطفى بدر ، دار الفكر العربى ١٩٤٧ م .

(٤١) الحكم المصرى فى السودان ـ الدكتور محمد مصطفى حلمى ـ ١٩٤٥م.

(٤٢) حروب الإمام المهدى — عبد الرحمن الفكى — مكتبة الكاملانى بمصر .

(٤٣) دراسات سودانية — الدكتور عبد المجيد عابدين — مطبعة مصر بالخرطوم .

(٤٤) دراسات فى الأدب السودانى — الدكتور جمال الدين الرمادى — الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

(٤٥) ديوان البنا — عبد الله محمد عمر البنا — ١٩٢١ م .

(٤٦) ديوان الحاردلو ـ الحاردلو ـ جمع وشرح واخراج الدكتو عبد المجيد عابدين والمبارك إبراهيم ، مطبعة مصر بالخرطوم.

(٤٧) ديوان العباسي — محمد سعيد العباسي — دار الفكر العربي بمصر .
(٤٨) ديوان الطبيعة — حمزه الملك طمبل — المطبعة الرحمانية بمصر .
(٤٩) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان - لويس بوركهارت - ترجمة فؤاد اندراوس بالإشتراك . مطبعة المعرفة بمصر .
(٥٠) رسائل إخوان الصفا — إخوان الصفا — طبعة مصر .
(٥١) الزعيم علي عبد اللطيف - عبد الحميد إبراهيم عبد الرحمن - مطبعة الفجالة بمصر .
(٥٢) السودان بين عهدين — سعد ميخائيل — المطبعة الخيرية ١٩٤٠م .
(٥٣) السودان بين يدي غوردون وكتشنر — إبراهيم فوزي — مطبعة الآداب بمصر .
(٥٤) السودان ، رئاسة مجلس الوزراء ١٨٤١ — ١٩٥٣ م ، المطبعة الأميرية القاهرة .
(٥٥) السودان للسودانيين - عبد الرحمن علي طه - ١٩٥٥ م .
(٥٦) السودان الشمالي سكانه وقبائله - الدكتور محمد عوض محمد - ١٩٥١م .
(٥٧) السودان عبر القرون - الدكتور مكي شبيكة - دار الثقافة بيروت .
(٥٨) السودان في قرن - الدكتور مكي شبيكة الترجمة والنشر ١٩٤٧ م .
(٥٩) السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية - عبد الله حسين المحامي - ١٩٣٥ م .
(٦٠) السودان كتاب سنوي يصدره الطلبة السودانيون في لبنان . دار النشر للجامعيين ١٩٦٣ م .
(٦١) سوق الذكريات - سليمان كشة - المطبعة والتاريخ غير مذكورين .
(٦٢) السيف والنار في السودان - سلاطين باشا - تعريب جريدة البلاغ مطبعة البلاغ .

(٦٣) شخصيات أفريقية ـ عبده بدوى ـ مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومى بمصر .
(٦٤) الشعر الحديث فى السودان ـ عبده بدوى ـ نشر الرسائل الجامعية، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمصر .
(٦٥) الشعر الحديث فى السودان ـ الدكتور محمد إبراهيم الشوش ـ مطابع النشر للجامعات المصرية .
(٦٦) الشاطىء الصخرى ـ حسين منصور ـ مطبعة البيت الأخضر بمصر .
(٦٧) الشايقية ـ و . نيكولز ـ ترجمة الدكتور عبد المجيد عابدين ، مطبعة مصر بالخرطوم .
(٦٨) شعراء السودان ـ سعد ميخائيل ـ مطبعة رعمسيس بالفجالة .
(٦٩) الشعر والشعراء فى السودان ـ أحمد أبو سعد ـ دار المعارف بلبنان .
(٧٠) الشعر والغاوون ـ مخطوطة ـ منير صالح عبد القادر .
(٧١) شعراء الوطنية ـ عبد الرحمن الرافعى ـ ١٩٥٤ م .
(٧٢) الشعوب والسلالات الافريقية ـ الدكتور محمد عوض محمد ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة .
(٧٣) الصارم المنكى فى الرد على السبكى ـ محمد بن أحمد الحنبلى المقدسى ـ مطبعة الإمام ٣ شارع قرقول بالقلعة بمصر .
(٧٤) صور من البطولة ـ محمد سليمان ـ مطبعة التمدن بالخرطوم ١٩٥٩م .
(٧٥) ضحى الإسلام ـ الدكتور أحمد أمين ـ الطبعة السابعة مكتبة النهضة المصرية .
(٧٦) العربية فى السودان ـ عبد الله عبد الرحمن ـ دار الكتاب بيروت .
(٧٧) العروبة فى السودان ـ محمد عبد الرحيم ـ ١٩٣٥ .

(٧٨) عيار الشعر ـ محمد بن أحمد طباطبا العلوى ـ شركة فن الطباعة بمصر .
(٧٩) الفجر الصادق « ديوان شعر » ـ عبد الله عبد الرحمن ـ المطبعة والتاريخ غير مذكورين .
(٨٠) فتوح البلدان ـ البلاذرى ـ طبعة بيروت .
(٨١) فى اللهجات العربية ـ الدكتور إبراهيم أنيس ـ المطبعة الفنية الحديثة بمصر .
(٨٢) فتوح مصر وأخبارها ـ ابن عبد الحكيم ـ مطبعة ليدن ١٩٢٠ م .
(٨٣) قصة بريطانيا فى السودان ـ عبد الحميد الأسكندرى ـ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .
(٨٤) قصة كفاح البطل على عبد اللطيف ـ محمد حسن عوض ـ دار النشر السودانية بالقاهرة .
(٨٥) قضية وادى النيل مصر والسودان رئاسة مجلس الوزراء ـ الدكتور عبد الرازق السنهورى ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٩ م .
(٨٦) كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء ـ محمد ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى ـ المطبعة المحمودية التجارية بالقاهرة .
(٨٧) كفاح جيل ـ أحمد خير المحامى ـ دار النشر ١٩٤٨ م .
(٨٨) اللواء الأبيض أمام القضاء ـ سليمان كشة ـ المطبعة والتاريخ غير مذكورين .
(٨٩) ليالى سطيح مع دراسة تاريخية تحليلية ـ عبد الرحمن صدقى ـ الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .
(٩٠) الامبراطورية السودانية الدكتور محمد صبرى ـ ١٩٤٨ م .
(٩١) محاولات فى النقد ـ محمد محمد على ـ مطبعة التمدن بالخرطوم .

(٩٢) محمد أحمد المهدى - محمد بن أحمد الملقب بالداه الشنقيطى - المطبعة والتاريخ غير مذكورين .
(٩٣) مختصر تاريخ السودان-الدكتور مكى شبيكة-مطبعة الجبلاوى بمصر.
(٩٤) مخطوطة أشعار المهدية-تصوير إدارة المحفوظات المركزية بالخرطوم.
(٩٥) مخطوطة كاتب الشونة-أحمد بن الحاج كاتب الشونة - تحقيق الشاطر بصيلى عبد الجليل - سلسلة تراثنا .
(٩٦) المدائح النبوية فى الأدب العربى-الدكتور زكى مبارك -دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .
(٩٧) المديح النبوى فى القرن الأول - على صافى حسنين - مطابع شركة الاعلانات الشرقية بالقاهرة .
(٩٨) المرأة فى الشعر الجاهلى-الدكتور أحمد محمد الحوفى-مطبعة المدنى بمصر.
(٩٩) مصر والسودان ١٨٢٠ - ١٨٩٩ - الدكتور محمد فؤاد شكرى - دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
(١٠٠) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال - عبد الرحمن الرافعى - مطبعة الفكرة بمصر .
(١٠١) معالم تاريخ السودان ووادى النيل - الشاطر بصيلى عبد الجليل-مطبعة أبى فاضل بمصر .
(١٠٢) مقـــدمة ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - مطبعة الحاج عبد السلام بن شقرون بمصر .
(١٠٣) مقدمة على ألحان واشجان-محمد المهدى مجذوب-مطبعة الاعتماد بمصر
(١٠٤) مكانة السودان من العالم العربى - الدكتور إبراهيم أحمد العدوى - مطبعة مصر بالخرطوم .
(١٠٥) ملامح من المجتمع السودانى - حسن نجيـــلة - المطبعة العالمية بالقاهرة ١٩٦٠ م .

(١٠٦) الملل والنحل ـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ـ مطبعة حجازى بالقاهرة .

(١٠٧) من جيل إلى جيل ـ محمد محمد على ـ شركة الأيام ليمتد بالخرطوم .

(١٠٨) منشورات الإمام المهدى تصوير دار الوثائق المركزية بالخرطوم .

(١٠٩) مهر الدم ـ صلاح الدين محمد ـ شركة الطبع والنشر بالخرطوم .

(١١٠) موت دنيا ـ محمد أحمد محجوب وعبد الحليم محمد ـ مطبعة أخبار اليوم بمصر .

(١١١) موجز تاريخ أفريقيا ـ ى . سافيليف و ج . فاسييف ـ تعريب أمين الشريف ، دار الطباعة الحديثة بمصر .

(١١٢) الموشح ـ أبو عبيد الله محمد بن موسى المرزبانى ـ دار نهضة مصر القاهرة .

(١١٣) نحو سودان جديد ـ طه محمد حسين ـ المطبعة والتاريخ غير مذكورين .

(١١٤) نفثات اليراع فى الأدب والتاريخ والاجتماع ـ محمد عبد الرحيم ـ شركة الطبع والنشر بالخرطوم .

(١١٥) النداء فى دفع الافتراء ـ محمد عبد الرحيم ـ مطبعة البرلمان بمصر .

(١١٦) النوبة بين القديم والجديد ـ صدقى ربيع ـ الدار القومية للطباعة والنشر بمصر .

(١١٧) يقظة السودان ـ الدكتور إبراهيم أحمد العدوى ـ ١٩٥٦ م .

« دوريات سودانية »

صحف :

(١) أخبار الأسبوع
(٢) آخر لحظة
(٣) أنباء السودان
(٤) التلغراف
(٥) الثورة
(٦) الجماهير
(٧) الحضارى الأولى
(٨) الحضارة الثانية
(٩) الرأى العام
(١٠) الزمان
(١١) السودان
(١٢) السودان الجديد
(١٣) الصباح الجديد
(١٤) الصراحة
(١٥) الصراحة الجديده
(١٦) صوت السودان
(١٧) العلم
(١٨) الميدان
(١٩) الناس
(٢٠) النداء
(٢١) النيل
(٢٢) الوحدة

مجلات :

(٢٣) أم درمان
(٢٤) الخرطوم
(٢٥) السودان الجديد
(٢٦) صوت المرأة
(٢٧) الفجر
(٢٨) القافلة
(٢٩) القلم
(٣٠) المعرفة
(٣١) النهضة
(٣٢) هنا أم درمان



المحتـــوى

بيان إيداع الكتاب
بدار الكتب والوثائق القومية
رقم الإيداع ٢٩٦٨
تاريخ الإيداع ١٩٦٩

مطبعة النهضة الجديدة
١٩ — شارع أرض الحرمين بالظاهر : بالقاهرة
تليفون : ٩٣٣٥٤٢